دكتور علي الحديدي
أستاذ الأدب العربي المساعد
جامعة عين شمس

محمود سامي البارودي

شاعر النهضة

مكتبة الأنجلو المصرية



دكتور علي الحديدي

أستاذ الأدب العربي المساعد

جامعة عين شمس

محمود سامي البارودي

شاعر النهضة

يضم الكتاب ٥٤٠ بيتاً مما لم ينشر من شعر البارودى

مكتبة الأنجلو المصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

فانظُرْ لقَولِي تَجدْ نفْسِي مصوَّرةً   في صَفْحَتَيْهِ ، فَقَوْلِي خَطُّ تمثَالِي

البارودي

الطبعة الثانية . . وقد زيد فيها : تفصيلات من حياة البارودى وأحداث عصره ، وكثير مما لم ينشر من شعره ، وبيان بمؤلفاته ، ثم دراسة أدبية للشاعر ومنابع شاعريته ، ومنهجه فى الشعر ، وأثره فى حركة التطور لشعرنا الحديث .

مُقَدِّمَة

كان البارودى يشدنى إليه دائماً وأنا أدرس أدبنا فى مطلع النهضة ، وأبحث عن البيئة الأدبية فى تاريخنا الحديث ، فقد كنت أجد الرجل — وهو بالاتفاق إمام حركة التطور والبعث فى الشعر العربى الحديث — وكأن سوء الطالع الذى لازمه فى حياته لاحقه بعد وفاته ، فقد فارق الدنيا منذ أكثر من ستين عاماً ولما تستكمل عناصر البحث والدراسة لأدبه . فالمصادر الأصلية ، من ديوانه ، وكتبه ، ومذكراته مازال جزء منها غير ميسور للباحثين ، فما طبع من ديوانه لم يتعد قافية اللام ، وجاءت قصائده خالية من مناسباتها وتواريخها ، فتعرض تفسيرها وتحديد بيئتها ومناسباتها لمظان التخمين والاجتهاد ، أو لمواطن الخطأ ، حين اعتمد الدارسون على تاريخ « الثورة العرابية » الذى تدخلت فيه الأهواء والافتراءات ، وكتبت أصول أحداثه — فى غفلة من الزمن ومن ضمائر العلماء والمحققين — « أقلام التشهير » و « أقلام التبرير » !!

كتبته أقلام التشهير المأجورة من القصر أو المحترفة من مؤرخى الاستعمار ، وقد استهدفت عقب هزيمة « الثورة العرابية » تشويه زعمائها فى أشخاصهم وفى مواقفهم منها ، لتصاب الأمة بخيبة أمل فى الزعامة المصرية ، فتخبو روحها المعنوية ، وتيئس من الكفاح ، وتستكين للاستعمار ، ولتحجب عن الأجيال المقبلة حقيقة النضال الوطنى ، ومواقف البطولة التى وقفها الزعماء ، وما قدموه من تضحيات فى سبيل تحرير وطنهم ، خشية أن تستهدى الأجيال الخطا ، وترسم الطريق ، ويظهر بينها زعماء آخرون يحملون الشعلة ويواصلون الجهاد

دفاعا عن شرف الوطن المغلوب ، وحتى تضمن الرجعية والاستعمار بقاء التكسة لصالحهما ، ومواصلة القهر والاستغلال ضد شعب مصر .

وكتبته أقلام التبرير التى انبرى بها بعد وفاة الزعماء أصدقاؤهم وتلاميذهم ، وقد أصيبوا باليأس ، واستكانوا للاستعمار ، يبررون اشتراك الزعماء فى الثورة ، ويدفعون عنهم ، أمام المستعمر وأعوانه فى البلاد ، جريرة وقوفهم ضدهم ، ويعتذرون عنهم بأن انضمامهم للثورة لم يكن عن يقين أو طواعية ، بل حملهم عليه كرهاً « رجال العسكرية » . وقد برر واعتذر محمد رشيد رضا عن الشيخ محمد عبده فى كتابه « تاريخ الأستاذ الإمام » ، وأحمد سمير عن عبد الله النديم فى مقدمة كتاب « سلافة النديم » ، وياقوت المرسى عن محمود سامى البارودى فى مقدمة كتاب « مراثى الشعراء »[1] . والذى يدعو إلى الدهشة حقاً أن تاريخ الثورة العرابية مازال يكتب إلى اليوم معتمداً فى مصادره على ما نفثته أقلام التشهير من سموم ، وما تجنت به ولفقته أقلام التبرير !!

ووجدت الذين سبقوا بالكتابة عن البارودى قد اكتفوا بما ظهر من الديوان ، واعتمد أكثرهم فى تحديد بيئة النص ومناسبات القصائد على التاريخ المغلوط . والقدر الذى ظهر من الديوان ناقص ومبتور ، وتناولته يد الاعتداء بالحذف والتشويه ، فقد اكتشفت من مراجعة الأصل المخطوط على الجزء المطبوع ، أن هناك من القوافى التى طبعت قصائد برمتها حذفها الناشر وأسقطها من نشرته ، ومن ثم كان الجزء المطبوع ناقصاً ؛ وكان مبتوراً لأنه حذف أيضاً أجزاء من قصائد طبعت ، فبدت مشوهة لاتعطى الدلالة التى أرادها الشاعر لشعره ، وحذف كذلك من عناوين بعض القصائد أجزاء توضح مناسباتها وتحدد تواريخها ؛

---

(١) جمع فيه خليل مطران مراثى الشعراء على قبر البارودى فى ذكرى الأربعين لوفاته ، وقد برر واعتذر لمحمود سامى — أيضا خليل مطران ، أنظر : الجوائب المصرية عدد ٥٧٢ فى ١٥/١٢/١٩٠٤ ، وكذلك محمد رشيد رضا ، أنظر : المنار مجلد ٧ جزء ٢٠ فى ٢٣/١٢/١٩٠٤ .

مع أن ذلك المحذوف من القصائد ، وأجزاء القصائد ، ومن عناوين القصائد ، يمثل جزءاً مهما من حياة البارودى ، ووطنيته ، وعقيدته الثورية ضد الاستبداد والفساد والاستغلال ، ويدفع عنه كثيراً من تبعات التجنى التى ألقاها عليه المؤرخون والأدباء !

ومن أجل ذلك كنت أجدنى مشدوداً إلى الرجل ، لا أستطيع صرف نفسى عن التفكير فى استكمال جوانب البحث فيه شاعراً وسياسياً ، خاصة وقد درست تاريخ الثورة العرابية دراسة مستوفاة ، وواتتنى الفرصة للاطلاع على ما كتبه المؤلفون الأجانب عن هذه الفترة من تاريخ مصر — وما أكثرهم — وعلى الوثائق السرية لوزارة الخارجية البريطانية ، وعلى الصحف الأجنبية التى عاصرت الثورة العرابية وتابعت أحداثها .

والحق أن الذين سبقوا بالكتابة عن البارودى الشاعر لهم ، فوق فضل السبق ، يد على هذا البحث ، فقد مهدوا له الطريق ، وذللوا كثيراً من صعابه ، وكانت الفائدة التى جنيتها من كتاباتهم كبيرة بحيث أجد هذا البحث مدينا لهم بالكثير . وكان بحث الدكتور محمد صبرى أول الدراسات الأدبية عن البارودى ، وهو من الأصالة بحيث ألقى الضوء ، فى إيجاز مفيد ، على مدى عصرية البارودى فى شعره ، أو بمعنى آخر على مدى صدق الشعور فى شعر البارودى . وبحث تال للدكتور محمد حسين هيكل جعله تقدمة للنشرة الثانية من الديوان ، شرح فيه بعض جوانب حياة البارودى وشاعريته ، فأصاب فى بعضها ، ونظر إلى بعضها الآخر بعين سياسى الثلاثينيات من القرن العشرين ، فجانبه الصواب . ثم كتب الأستاذ عمر الدسوقى عجالة عن البارودى فى سلسلة « نوابغ العرب » ، والتزم فيها ما فرضته طريقة السلسلة من استغراق أكثر الكتيب فى سرد منتخبات من شعر الشاعر ، وتوضيح حياة العصر الاجتماعية والسياسية والعقلية ،

ومن ثم أوجز فى دراسة الشاعر ، ولكنه إيجاز البلاغة المفيد . وبحث تقدمت به الدكتورة نفوسة زكريا سعيد ، لنيل درجة الماجستير[١] ، تناولت فيه حياة البارودى وشعره معتمدة على المصدرين السابقين . ثم كتب عنه الدكتور شوقى ضيف كتابه القيم « البارودى رائد الشعر الحديث » ، وقد تدارك فيه كثيراً من نقص البحوث السابقة ، وكان ذا فائدة كبرى لهذا البحث .

وظهرت بحوث أخرى عن البارودى ، جاءت فى ثنايا كتب تبحث فى الأدب أو تاريخه ، أو فى تطوره وتطور اللغة العربية ، ومن أهمها البحث الأدبى الرائد الذى كتبه عباس العقاد فى كتابه « شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى » . وبحث على آخر تناول الجانب الأدبى والثقافى من شخصية البارودى ، ووضعه موضعه من حركة التطور فى أدبنا الحديث لأستاذنا محمد خلف الله أحمد فى كتابه « معالم التطور الحديث فى اللغة العربية وآدابها ». وهذه الدراسات جميعاً وغيرها مما كتب فى الدوريات ، كانت خير معوان لى على إتمام هذا البحث ، وإزجاء صورة صادقة للبارودى الشاعر ، بين الأدب والسياسة .

وحتى أضيف جديداً إلى البحوث السابقة ، وجدت لزاماً أن استكمل النقص فى المصادر الأصلية والفرعية عن البارودى ، وأن أحصل على الديوان فى صورته الكاملة قبل الحذف والتشويه ، وخاصة الجزء الذى ظل حتى اليوم مخطوطاً منه ، وعلى مذكرات أسرة البارودى ومعلوماتها ، وأن استدرك ما فات الباحثين قبلى ، من تحقيق الصورة السياسية والتاريخية الحقيقية للرجل ، من آثاره ومن التاريخ الصحيح ، حتى تتوفر البيئة السليمة لشعره ، فيمكن الوقوف على ما قصد الشاعر من دلالة له .

وقد تمكنت من الاطلاع على نسختين مخطوطتين للديوان : إحداهما كاملة ،

---

(١) تقدمت به لكلية آداب الاسكندرية عام ١٩٥٣ ومازال مخطوطا .

والأخرى قريبة من الكمال. ووجدت بعد الدراسة والبحث فيهما أن البارودى لا يمكن استكمال صورته الأدبية والتاريخية ، دون الساقط أو المبتور من قصائد الجزء المطبوع ، ودون العناوين التى حذفت ، أو دون الجزء المخطوط من الديوان ، خاصة وقد تبينت أن أكثر ما حذف من القصائد أو أجزاء القصائد ، يهاجم الأسرة الحاكمة الدخلية وعملاءها ركائز القهر والاستبداد وعوامل الفساد فى البلاد[1]. والعنوانات المحذوفة تحدد مناسبات بعض ما طبع من القصائد ، وقد قالها « يُعرِّض بذكر المظالم على عهد الحكومة الاستبدادية[2] » ، أو قالها « يذم رجال الحكومة الاستبدادية على عهـــد إسماعيل خديو مصر[3] ». وظهرت النشرة الأولى[4] للديوان حتى قافية اللام خالية من هذه المحذوفات ، وظهرت النشرة الثانية[5] حتى قافية الكاف مقتفية سابقتها فى الحذف والإسقاط[6].

أما الجزء المخطوط من الديوان ، فقد وجدت فيه أكثر غزليات البارودى وخمرياته ، بحيث وضحت وتجلت نوازع الحب الحقيقية عند الشاعر ، وظهرت صبوات قلبه وتجارب غرامه وأحداثه ، ومعاناة الصد ولذات الوصال ، وكانت من الصدق بحيث لم تخف عنا حتى نزغ الشيطان حين راوده مرة إلى الحب الأباحى فنهل منه وارتوى . وكذلك بدت لذته من الشراب تظهر بوضوح فى معاقرته الراح وحيداً ليصرف بها همومه ، أو فى مجالس الأنس بين الرفاق

---

(١) كما فى المخطوطة (ج) ص ٣٦ – ٣٧ ، ٣٨ ، ٧١ – ٧٢ ، ١٢٥ – ١٢٦ ؛ ومن أجل المحذوفات فى أغراض أخرى أنظر : نفس المخطوطة ص ٤٢ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٩٦ ، ١٠٨ – ١٠٩ ، ١١١ – ١١٢ .

(٢) القصيدة بالديوان (الإمام) ج ١ ص ٧٠ ، (الجارم) ج ١ ص ١٣٩ .

(٣) القصيدة بالديوان (الإمام) ج ١ ص ١١٦ ، (الجارم) ج١ ص ١٨٥ .

(٤) عام ١٩١٥ وقد تولى شرحها والأشراف على طبعها محمود الإمام .

(٥) ١٩٤٠ – ١٩٤٢ وقد أخرجها وشرحها الاستاذ على الجارم والاستاذ محمد شفيق معروف .

(٦) عدا قصيدة واحدة التى يعرض فيها برؤساء الجند الذين تخاذلوا فى الثورة العرابية ، فقد كتب عليها الإمام فى المخطوطة (ج) « لا تطبع » ، ولم تظهر فى نشرة الإمام ، ولكنها ظهرت فى نشرة الجارم ج ٢ ص ٣٣٤ .

والساقيات والمغنيات ، ينتهب اللذة فى فورة شبابه وبين دعوات الحروب انتهابا .
وما جاء فى الجزء المخطوط من صبوات البارودى وخمرياته ، يدفع الادعاء الذى ذهب إليه محمد حسين هيكل — وتبعه الكثيرون ممن جاءوا بعده — من أن البارودى فى غزله وخمرياته ، لم يكن إلا مقلداً ينسج على غرار الأقدمين .

وفى الجزء المخطوط من الديوان ، بعض القصائد التى قالها فى شبابه يروض القول ويفخر على طريقة شعراء العربية القدامى ، أو يسلك فيها مسالكهم فى المدح والحرب وركوب الخيل ، تؤكد أن شعر البارودى فى شبابه يتجه جزء منه إلى « الكلاسيكية القديمة » ، يجارى فيها القدماء لفظاً ومعنى دون أن تنير جانباً من جوانب شخصيته أو عصره .

وفى الجزء المخطوط كذلك دليل « المعاودة والتنقيح » التى تناول بها البارودى شعره بعد أن تقدمت به الحياة ، فالقصائد التى جاءت فى الوسيلة الأدبية (١٨٧٥ — ١٨٧٩) ، أو التى قالها فى مناسبات عامة قبل النفى وحفظها الناس[١] ، تناولها بيد التغيير والتبديل ، فجاءت فى الجزء المخطوط من الديوان منقحة بعض التنقيح ، فكانت قريبة من الأصل[٢] ، أو معديا عليها بالمعاودة فكادت تصبح قصيدة مستقلة عن أصلها السابق[٣] .

---

(١) انظر المخطوطة (س) ص ٢٢٤ — ٢٢٥ ؛ و(ج) ص ٢٢٩ — ٢٣٠ ؛ والمنار مجلد ٧ جزء ٢١ فى ١/٧/١٩٠٥ .

(٢) انظر قصيدة « أخذ الكرى بمعاقد الأجفان » ، وقصيدة « ياناعس الطرف إلى كم تنام » فى الوسيلة الأدبية وفى الديوان المخطوط .

(٣) انظر قصيدة « محا البين ما أبقت عيون المها منى » فى المنار مجلد ٧ عدد ٢١ فى ١/٧/١٩٠٥ ، وفى الديوان المخطوط ؛ وقصيدة « ذهب الصبا وتولت الأيام » فى الوسيلة الأدبية ، وقد جاءت فى الديوان المخطوط بمطلع مختلف وتغيير كثير . ومطلعها فى الديوان المخطوط :

أسل الديار عن الحبيب وفى الحشا ... دار له مأهولة ومقام

وانظر قصيدة « سبقت بالفضل فاسمع ما وحاه فمى » فى الهلال السنة ٣٨ جزء ٤ أول فبراير ١٩٣٠ ، وفى الجزء المخطوط من الديوان ؛ وانظر قصيدة :

يا ذكرة أبصرت فى ... مرآتها صور التمنى

فى المقتطف المجلد ٣٠ جزء ٣ مارس ١٩٠٥ ، وفى الجزء المخطوط من الديوان .

وفى الجزء المخطوط هجاء شائن « لتوفيق » وحاشيته ، وقد وقفوا ضد رغبة الشعب وأمانيه فى الحكم الدستورى ، وربطوا مصيرهم بقوى النفوذ الأجنبى وهجا فيه « رياضا » واستبداده هجاء فاحشاً بعد استقالته من وزارة الحربية (١٨٨١). وهجا فيه إسماعيل ـ وهو يعمل ياورا له ـ بعد أن ساق البلاد إلى هاوية الخراب والإفلاس ، وأوقعها فى براثن الديون والنفوذ الأجنبى .

وقارن البارودى نفسه ، وقد سمت به همته حتى ارتبأ ذروة المحامد والعلا ، بإسماعيل وقد تعطل من كل فضيلة إلا وراثته الملك ، وقارن موقفه من الفساد وموقف رجال الحاشية منه ، وقد نصح وغشوا ، واستقام وفسدوا ، ونعى على الدهر أنه سواه بهم ، فجعله زميلا لهم فى حاشية إسماعيل . وحدد البارودى موقفه من معاقل الرجعية والاستبداد وصنائع الاستعمار ، وثار عليهم ، ووقف مع الشعب فى وجه الظلم والجور .

وفى الجزء المخطوط بقية مراسلات البارودى مع شكيب أرسلان فى المنفى وبعده ، وفيه يحدد البارودى مذهبه فى الشعر واتباعه طريقة الشعراء القدامى ، كابن هانىء والمتنبى ، وأبى تمام ، والبحترى ، وسبْقه لهم فى بعض الوجوه كما يقول بعد أن ذكر لكل ميزته :

وَسِرتُ على آثارهم ولربَّما ... سَبقْتُ إلى أشْياء والله أعلمُ

وكذلك يحدد البارودى بنفسه فى الجزء المخطوط مكانه فى أدب النهضة ، فقد بعث الشعر وأحيى القريض ، وكان عبقرى القول الذى يبعث به فى كل عصر . وفى الجزء المخطوط نلمس تيار الزهد قوياً يطغى على حياة البارودى أواخر عمره ، فيستغيث بالله وبآل البيت ويمدحهم ، ويتزهد ويبالغ فى التزهد حتى يقرب من حد التصوف. وقد استعنت بذلك الجزء المخطوط فى استكمال الصورة الأدبية والتاريخية

للبارودى ، واستشهدت بكثير مما لم ينشر من شعر الشاعر ، لتوضيح جوانب شخصية البارودى وشاعريته وتاريخه .

وديوان البارودى جاءت قصائده — إلا ما ندر — غفلا من المناسبات والتواريخ ، وكان من الضرورى تتمة للبحث ، الوقوف على هذه المناسبات والتواريخ ، وقد سلكت فى ذلك سبيلين :

أولاهما الاستعانة بالصحف والدوريات التى عاصرت البارودى قبل النفى وبعده[١]، وقد وجدتها مصدراً مهما من مصادر الدراسة للبارودى ، وقد كانت توليه وهو الوزير ورئيس الوزراء وسياسى الثورة العرابية اهتمامها البالغ . وعقب الهزيمة شهرت عليه الصحف الرجعية والاستعمارية أقلام التشهير . وبعد العودة كانت الصحف الأدبية تتسابق إلى نشر شعره ، وقد بلغ به الزعامة والإمارة بين الشعراء فى البلاد العربية . وكانت الصحيفة التى يخصها البارودى بمقطوعات من شعره تدل على زميلاتها وتفخر ، وتضفى العناوين الضخمة على القصائد التى تنشرها[٢].

وكانت السبيل الثانية ، هى الاستعانة بكريمتى الشاعر ، « فاطمة ومشيرة » ، وقد أمدتانى مشكورتين بمعلوماتهما — وما أغزرها مادة ونفعاً — لمعرفة مناسبات القصائد وتواريخها ، وتوضيح بعض الجوانب التاريخية من حياة أبيهما ، وأطلعانى على مذكرات الأسرة الخاصة ، وعلى شجرة النسب ، وأفادتنى معلوماتهما أيضاً فى تفسير كثير من المعانى التى قصد إليها أبوهما رمزا وكناية[٣] .

(١) انظر المفيد والطائف ١٩٨١ — ١٩٨٢ ؛ والأهرام والمقطم سنوات مابعد الهزيمة إلى العودة ؛ والجوائب المصرية ، المنار ، اللواء ، الهلال ، المقتطف والمؤيد ، الوقائع المصرية ، المجلة المصرية ، مجلة المجلات العربية من ١٨٩٩ — ١٩٠٥ ؛ مجلة سركيس ١٩٠٦ ؛ المجلة المصرية ١٩٠٩ ؛ مجلة الزهور ١٩١١ — ١٩١٣ .

(٢) من ذلك : « إن هذا الشعر فى الشعر ملك » الجوائب المصرية ١٥/٨/١٩٠٠ ؛ « الجليل من القليل » المصدر السابق فى ٣٠/١١/١٩٠٠ ؛ « من سر الإعجاز » المصدر السابق فى ١٥/١٢/١٩٠٤ .

(٣) كان اتصالى بهما ومقابلاتى معهما خلال شهر مارس ١٩٦٦ ، وقد ساعدنى مشكورا على عقد هذه الصلة معهما حفيد الشاعر الاستاذ حسن عصمت المستشار بوزارة الخارجية .

وهدتنى الدراسة والبحث إلى كشف اللبس الذى وقع فيه جميع الذين سبقوا بالكتابة عن البارودى ، بعد أن انساقوا وراء « حسين المرصفى » فيما زعم : من أن « محمود سامى البارودى لم يقرأ كتابا فى فن من فنون العربية ، غير أنه لما بلغ سن التعقل ، وجد من طبعه ميلا إلى قراءة الشعر وعمله ، فكان يستمع لبعض من له دراية وهو يقرأ بعض الدواوين ، أو يقرأ بحضرته ، حتى تصور فى برهة يسيرة هيئــات التراكيب العربية ، ومواقع المرفوعات منها والمنصوبات والمخفوضات حسب ما تقتضيه المعانى والتعقلات المختلفة ، فصار يقرأ ولا يكاد يلحن »(١) ، وسلموا دون مناقشة أو دراسة بالنتيجة التى تقود إليها مقدمات هذا القول ، وهى أن البارودى فى تكوينه اللغوى قد اكتسب المعرفة بقواعد اللغة سليقة لا تعلماً .

والواقع ينقض هذا الزعم من أساسه ، فالبارودى قد اكتسب قواعد اللغة تعلما لا سليقة ، ذلك أنه قرأ من كتب اللغة : الأجرومية وشرحها ، ومتن البناء والمقصود فى الصرف ، والكفراوى وشرحه ، وذلك فى المرحلة الابتدائية التى درسها دراسة خاصة فى منزله ، مسايرة لمنهج هذه المرحلة فى « مكاتب المبتديان »(٢) وقتئذ ، واستعداداً للنجاح فى هذه الكتب وغيرها من كتب المواد الأخرى فى امتحان القبول للمدرسة الحربية التجهيزية . ونجح البارورى فى امتحان القبول ودخل « المدرسة الحربية المفروزة » ، وقضى بها أربع سنوات قرأ فيها كتابى جملة الصرف وشرح الكفراوى(٣) . فالبارودى إذن تعلم النحـــو والصرف فى المدرسة تعلما مدرسيا ، وزادت قراءة شعر الأقدمين وكتب الأدب دربته على استعمال هذه القواعد وتمكنه منها حتى تأصلت عنده . والمرصفى إنما ذكر هــذه العبارة فى

---

(١) حسين المرصفى : الوسيلة الأدبية للعلوم العربية ، ج٢ ص ٤٧٤ ، القاهرة ١٢٩٢ـ١٢٩٦هـ

(٢) انظر منهج الدراسة فى تاريخ التعليم فى عصر محمد على : احمد عزت عبد الكريم ١٩٣٨ ص ١٧٤ ، ١٨٠ ـ ١٨١ ؛ والمبتديان معناها المبتدئون .

(٣) انظر الجدول الدراسى كاملا فى تاريخ التعليم فى مصر : احمد عزت عبد الكريم ج١ ص ٧٥ ، ٢٠٢ ، ٢١٨ .

معرض الثناء على ما كان للبارودى من أصالة الفطرة والطبع ، ولم يرد بها ما أراده الذين كتبوا عن البارودى بعده .

ومن العسير أن نصدق أن البارودى كان يجهل ما لا يجوز جهله من أصول النحو والصرف والعروض . وزيادة على الدليل السابق ، فهناك قرينة أخرى تدل على أن البارودى كان على علم بعلوم اللغة ، ففى الرسالة المصورة بالزنكوغراف ، التى ساقها على الجارم ومحمد شفيق معروف فى مطلع نشرتهما للديوان نموذجاً لخط البارودى وفنه الكتابى ، نجد ثلاثة أخطاء نحوية[1] التفت إليها البارودى أو ألفت إليها ، فضرب على الخطأ وأثبت الصواب بخطه ، وكذلك غيَّر من كلمات ثلاث ليحرص على الازدواج والجناس والطباق[2]، وذلك يدل على أن البارودى كان على بينة من علوم اللغة . وفى مقدمة الكتاب يحدثنا عن « ذكر الشىء باسم غيره لمجاورته إياه » ، وفى قصائده يذكر « لزوم مالا يلزم.» ، وفى وصف شعره يقول :

لم تُبن قافيةٌ فيه على خَلَل ... كلاَّ ، ولم تختلف فى رَصْفِها الجملُ
فلاَ سِنَادٌ ولا حَشْو ولا قَلَق ... ولا سُقُوط ولا سَهْو ولا عِلَلُ

وذلك يدل على أن البارودى كان على دراية بعلوم اللغة العربية وإن لم يصل فيها إلى حد التفوق ، فقد كان يعتمد أكثر ما يعتمد على فيض الفطرة والطبع وهما أفضل أدوات الشعر .

وتبينت من الدراسة أن الذين كتبوا عن حياة البارودى مستدلين بشعره ، قد انساقوا وراء ما افتراه « كاتب يد الناظم » فى سنيه الأخيرة من شعر ونسبه إلى البارودى فى « حملة التبرير » . وكان « ياقوت المرسى » شاعراً كذلك ، ومن كثرة

---

(١) أنظر : مقدمة الديوان (الجارم) جـ١ ص ٤٣ ، ٤٦ ، ٤٩ .

(٢) أنظر : المصدر السابق ص ٤٩ ، ٥٠ .

مخالطته البارودى ، وقراءة شعره ، وكتابته ، استطاع أن ينظم شعراً فيه عناصر شعر البارودى ، من فخره بنفسه ومن حسن الصياغة ورنين الموسيقى ، وينسبه إلى البارودى دون أن يلحظ أحد افتئاته على البارودى وعلى التاريخ. وقد افترى خمسة أبيات وزعم أن البارودى قالها حين دُعى لحرب الانجليز ، وليعتذر بها عن البارودى فى حربه المستعمرين ويثبت أنه لم يدخل هذه الحرب عن يقين ولا عن طواعية ، وقدم لها بقوله : بعد أن استعفى البارودى (من نظارة الوزارة مايو ١٨٨٢) لزم داره ، وتباعد عن الحكومة ورجالها ، وصار يتفقد مزارعه ومصالحه الخصوصية حتى شبت الحرب بين مصر وانجلترا ، ودعى من رجالها لمساعدتهم ، فأجاب على كره منه بعد أن نصحهم بالبعد عن الدخول فى غمرتها ، وإلى ذلك يشير بقوله :

نَصحتُ قومى وقلتُ الحربُ مفجعةٌ ... وربَّمَا تاحَ أمرٌ غـيرُ مظنونِ
فخالفُونى ، وشبوها مكابرةً ... وكان أوْلى بقومى لو أطاعُونِى
تَاتى الأمورُ على ماليس فى خَلَد ... ويخطىء الظنُّ فى بعض الأحايينِ
حَتى إذا لم يَعُد فى الأمر مَنْزَعة ... وأصبَح الشرُّ أمراً غيرَ مكنونِ
أجبتُ إذْ هتفُوا باسمى، ومِنْ شِيَمى ... صدقُ الولاَءِ وتحقيقُ الأظانينِ[1]

ولم أجد لهذه الأبيات الخمسة أصلا فى الديوان المخطوط ، ولا تعرف كريمتا الشاعر من أين أتى الكاتب بهذه الأبيات ولم يسمعا بها فى شعر أبيهما[2].

---

(١) أنظر : مقدمة كتاب مراثى الشعراء جمع خليل مطران (١٩٠٥) ص ١٨ – ١٩ .

(٢) نسب الدكتور شوقى ضيف فى كتابه عن البارودى بيتين للشاعر لم أجد لهما أصلا فى الديوان أو مذكرات الأسرة ومعلوماتها وهما :

أنا إن عشت لست أعدم قوتا ... وإذا مت لست أعدم قبرا
همتى همة الملوك ونفسى ... نفس حر يرى المذلة كفرا

انظر « البارودى رائد الشعر الحديث » ١٩٦٤ ، ص ٨٣ .

وحقيقة أخرى تبينتها من تتبع تاريخ أسرة الشاعر ، ذلك أن موهبته الشعرية تحدر إليه جزء منها عن طريق الوراثة . فقد كان خاله ابراهيم شاعراً مجيداً ، يعقد ندوته الأدبية للشعراء فى قصره بباب الخلق ، وينظم بالعربية والتركية ، ولعله لو لم تتخطفه المنية فى شبابه لاحتل مكانة البارودى فى حركة بعث الشعر العربى .

والبارودى أول من حول تيار الكراهية عن « القدماء المصريين » وآثارهم فى عصرنا الحديث ، بعد أن استعبدنا وهم التفسير الخاطىء للدين ، فصببنا جام الكراهية على أجدادنا الفراعنة ، ولم نحترم آثارهم قروناً طويلة ، وأخذناهم جميعاً بجريرة فرعون واحد طرد موسى وبنى إسرائيل من مصره . وجاء البارودى فهتف بأمجادهم ، وأشاد بعلومهم على الدنيا ، وغنى للأهرام وأبى الهول ولآثارهم الخالدة ، وجعلهم مناط الفخر الذى لا فخر بعده للمصريين ، ودعا قومه أن يسيروا على نهجهم فى العلم والمعرفة ، حتى يصلوا مجدهم بأمجاد جدودهم الفراعين .

والبارودى أول شاعر فى العصر الحديث تغنى بصبوات القلوب على ضفاف النيل ، وصدح بأوطار القلوب فى معاهد الجزيرة والروضة وشبرا وحلوان ، وافتتن بهذه المعاهد والمغانى ، وقد أذكى جمالها فى قلبه قبس الحب وجذوة الغرام ، فكانت مسرح هواه ومغنى لهوه ، وهى معاهد ندر من يعرف وجوهها الصباح .

والبارودى أعاد لنا بشعره صورة الشعراء الفتيان من أغوار التاريخ ، وأقامها ماثلة فى عصرنا الحديث ، ملأت الأريحية المصرية عطفيه فمجد الفتوة المصرية بفتوته وشمائله وشيمه وفخره وفروسيته ، حتى غدا محسود الجلال وكأنه على كل نفس فى الزمان أمير . وكانت فتوته تأخذ وقودها من القلب والروح

فهي التي أشقته بالمجد ، وأشقته بالتضحية والفداء في سبيل وطنه .

والبارودي أول من طرق الشعر السياسي في العصر الحديث ، فنادى بالثورة المسلحة على الفساد والظلم (١٨٦٨) في عهد إسماعيل ، والاستبداد في عنفوانه ، والظلم قابض على صولجانه ، ويد الظالم من حديد ، والناس كلهم له عبيد وأي عبيد. وهاجم إسماعيل وحاشيته ، والفساد والإفلاس في عهده ، وتوفيقاً وخذلانه ووقوفه في سبيل آمال الأمة . ودعا إلى النظام الدستوري ، ووقف مع الثورة يدافع عن دينه ووطنه وحريته ضد الاستغلال والتحكم والاستعمار .

والبارودي أول الشعراء المثقفين في العصر الحديث ، نال حظاً من الدراسة المعهدية والحربية ، وتعلم اللغتين التركية والفارسية ، واطلع على آدابهما ونظم بهما . وقضى ثمانية أعوام بالآستانه ينهل من معين الثقافة التركية ، ويتزود بالتجربة ، ويبحث عن دواوين الفحول من الشعراء العرب في مكتبات الآستانة ، وينسخ ما يستطيع من مخطوطاتها ، ويعود بها إلى مصر ليستكمل تكوينه الفني على النمط الطبيعي السليم ، فيقرأ دواوين الفحول من الشعراء ، ويحفظ مئات القصائد ، ويستثبت معانيها ، ويدرسها دراسة أدبية — كما يقول أستاذه حسين المرصفي — ناقداً شريفها من خسيسها ، واقفاً على صوابها وخطئها ، مدركا ما كان ينبغي وفق مقام الكلام وما لا ينبغي ، وبذلك غذيت قريحته منذ نضارتها على روائع الشعر العربي الكلاسيكي ، وعاش في صحبة الشوامخ من الشعراء ، وغنيت ذخيرة خياله الفني بكل رائق معجب من الصور والأساليب ، حتى أصبح كل ذلك جزءاً من ثروته اللغوية والأدبية ، وحتى أصبحت القدرة على التعبير الأصيل طبيعة فيه . وطبيعي أن يسلك البارودي ـ وهذا تكوينه الفني ـ مسلك القدامى في الشعر ، فيحافظ على النسق الموروث في القصيدة الشعرية ، وتسرى في شعره العناصر القديمة في اللفظ والمعنى ، وبذلك يكون إماماً « لمدرسة المحافظين » في الشعر الحديث .

والبارودى بالاتفاق رائد حركة التطور فى الشعر العربى الحديث ، فقد طلع فى سماء الشعر طلوع الفجر الجديد ، وكأنما بعثته السماء ليخرجه من ظلمات الهاوية التى تردى فيها أكثر من خمسة قرون ، تلفه أكفان الصنعة ، وجدب القرائح ، وفساد الذوق ، إلى نور الفطرة السليمة ، وبهجة الديباجة ، وصحة التركيب ، بموهبة عاتية ، واستعداد فنى وأدبى متين . وقد اتجهت بالبارودى موهبته وثقافته وتكوينه الفنى والأدبى إلى رحاب الكلاسيكية ، فبدأ بها فى شعرنا الحديث طوراً جديداً ، من جلال الصياغة ، ورنين الموسيقى ، ومجاراة القدماء فى صورهم ، ومحاكاتهم فى الأغراض والمعانى .

وقد تمثلت « الكلاسيكية » فى شعر البارودى بنوعيها أصدق تمثيل : قديمها ، أو مايعبر عنها « بالكلاسيكية الضيقة » ، وهى التى تجارى القدماء فى اللفظ والمعنى ، دون أن تتصل من قريب أو من بعيد بالشاعر وتجاربه ، أو تنير جانباً من جوانب عصره . وذلك يظهر أكثر ما يظهر فى شعر المرحلة الأولى من حياته ، وهو يعارض القدماء ، ويروض القول على نمطهم استثباتا وامتحانا لشاعريته ؛ وجديدها ، وهى التى تعتمد على جلال الصياغة والأطار الأسلوبى القديم ، لتعبر عن عواطف الشاعر وتجاربه ، أو تتصل بأحداث عصره صراحة أو رمزاً . والبارودى فى أكثر شعره تمثل القديم ورمز به لعواطفه ، واحتفظ فيه بشخصيته ، وأنار به جوانب عصره فرد إلى الشعر العربى أساليبه الناصعة التى كادت تندثر ، يعبر بها عن الحاضر فى مجالاته المختلفة فيسحر بشعره الألباب ، ويأخذ به مجامع القلوب . سحرنا لأن شعره متصل بماضينا ، وبالروح الموروثة المستكنة فى أعماقنا ، وهى « الروح العربية الخالدة » ، فبعثها فى واقعنا ؛ وأخذ بمجامع قلوبنا لأنه لم يتحرر به ذلك التحرر الذى يقطع الصلة بين الماضى والحاضر ، بل أخرجه فى إطاره القديم من واقع العصر وعواطف الشاعر ، وذلك جمال التجديد فى شعر البارودى .

وفى يقينى أن البارودى بموهبته العاتية ، وبتكوينه الأدبى القوى ، ومحافظته

على النسق الموروث فى الشعر العربى القديم ، وكلاسيكيته التى تعتمد على جلال الصياغة ورنين الموسيقى ، قد أخَّر حركة التطور فى الشعر الحديث أكثر من نصف قرن . ذلك أن العصر فى مطالع النهضة كان يهفو إلى التغيير ، أى تغيير ، ينقذه من الظلمة التى تحيط بكل نواحى حياته ، وكانت ظلمة الذوق الفنى والأدبى فى مقدمة قائمة التغيير . وصادف أن طلع البارودى على ذلك العصر بثقافته العربية الخالصة ، وبتكوينه الأدبى القديم ، فبدأ التغيير بداءة محافظة ، ورد الشعر أكثر من خمسة قرون إلى الوراء ؛ ولكن التغيير صادف هوى من عواطف الجماهير التى كانت ترزح تحت وطأة اليأس والضياع ، وتنظر إلى كل ماهو آت من عصور المجد العظيمة نظرة التقديس ، لظروف من رواسب عقلهم الباطن ، وأحلام عودة المجد العربى القديم . وسجد رجال العصر لشعر البارودى سجدة الإجلال ، فقد جعل الأمل حقيقة وواقعاً ، ورد إليهم يقين الثقة بأنفسهم وبلغتهم — لغة القرآن — ووصلهم بالمجد الذى كادت تختفى ذكراه من خيالهم ، فاستمسكوا به ، وطربوا لجلال الصياغة الشعرية ورنينها الموسيقى فيه ، ورضوا بحظهم من التغيير أو التجديد ، ورفضوا بعده كل تغيير .

ولو أن البارودى بموهبته العاتية ، وثقافته اللغوية والأدبية ، قد اطلع على الآداب العالمية ، واهتدى فيها إلى أغوار النفس البشرية ، وأسرار الطبيعة ومواضع الجمال ، ومثيرات الشجون والآلام ، وأسرار الصياغة الشعرية ، ووسائل التصوير والإيحاء ، لاستخرج من حياتنا ومن بلادنا أسراراً مماثلة ، ولكان من الممكن أن يستعين بالصيغ والقوالب التى استعان بها الغربيون ، وأن يبدأ التغيير بشكل آخر يختلف فى قليل أو كثير عما بدأه به ، ولوفَّر من عمر حركة التطور فى الشعر العربى نصف قرن قطعته مشدودة إلى مدرسته المحافظة لا تستطيع الفكاك من سحرها ، ولايجرؤ أحد من الشعراء بعده على مواجهة الجماهير بالتغيير .

ومن الناحية التاريخية ، أثبت البحث أن البارودى ـ تبعاً لقواعد النسب

المعروفة ـ كان أولى أن يسمى « محمود سامى حسن حسنى الجركسى الألفى » ؛ ذلك أن أباه حسن حسنى لم يكن بارودياً ، وإنما انتسب ـ على عادة المماليك فى ذلك الوقت ـ إلى زوجته « فاطمة البارودية » ، التى كانت تفوقه حسبا وجاها ومالا . ويرق البارودى فى نسبه لأمه ـ استناداً إلى شجرة النسب التى اشترك فى إعدادها الشيخ محمد عبده ـ إلى أسرة صلاح الدين الأيوبى ، ومن ثم كان الرجل ـ وحق له ـ تياها على الدنيا ، يفخر عليها بأجداده الذين ارتبأوا الذوة من العلا والمجد .

والبارودى كان أول من نادى قومه « بالثورة المسلحة » ضد إسماعيل ، وكان عمره إذ ذاك تسعا وعشرين سنة[1] ، وذلك فى قصيدته التى يقول فيها :

فَيَاقومِ هبُّوا إنمـا العُمر فرصةٌ وفى الدَّهر طرقٌ جمة ومنافعُ
أرى أرْؤُساً قد أينَعَت لحصادها فأينَ ـ ولا أين ـ السُّيوفُ القواطعُ

ومع أن نداءه ضاع بين شدِّ الأمانى وعجز الوسيلة إلا أن الشعر السياسى بدأ عهده فى مصر العصر الحديث بهذه القصيدة ، فهى صيحة فى وجه الظلم الصارخ ، واستنهاض للهمم ، وحث على العمل من أجل الحرية .

وكان تطلع البارودى إلى مكان المجد من الإمارة فى هذه الفترة ، بعد أن وجد الدولة قد اضطربت فيها قواعد الملك من خلل ، وتولت زمام أمورها « الوزارة المختلطة » ، أو بالأحرى القوى الأجنبية ، ورأى فى مكان الإمارة والوزارة كل وغد يكاد الدست يدفعه بغضاً ، ويلفظه الديوان من ملل ، وتمكنت طلائع الاستعمار من مرافق البـــلاد ، نتيجة للديون التى أغرقها فيها إسماعيل ، وساقها بها إلى الخراب والإفلاس . وكانت القوى الوطنية تغلى كالمرجل ، والتفكير فى خلع إسماعيل يدور على كل لسان ، ولم يكن توفيق إلا صورة مهزوزة من أبيه ينوء بضعفه وجبنه تحت أمانيه فى الدكتاتورية ،

(١) انظر الديوان (الجازم) جـ٢ ص ٢٠٢ ،وقد حدد سنه فى القصيدة .

وكانت القوى الوطنية ـ الحركة الدستورية ، والحزب الحر الوطنى ، وحركة تنظيم الضباط ـ تتحرك فى اتجاه متشابه ، غير أنهـــا كانت يعوزها الربط والتجمع لأنها فقدت الزعيم ، ورأى البارودى فى نفسه ، وكان متصلا بهذه القوى جميعها ، هذا الزعيم الذى يستطيع أن يقود الوطن إلى حياة أفضل . ولـكنه كان تفـكيراً مرحلياً لم يلازم البارودى طويلا ، فسريعاً ما انضم إلى التنظيم السرى للضباط وألقى بالزعامة إلى أحمد عرابى[١] .

وذهب المؤرخون بالبارودى إلى مواطن الظن فى قبول الوزارة ، مرة تحت لواء توفيق (أغسطس ١٨٧٩) بعد أن رفض مطالب الأمة الدستورية ، ومرة أخرى قبلها تحت رئاسة رياض بالرغم مما عرف عنه من استبداده وخنقه للحريات ، ومعارضته للدستور . ولـكن ولاء البارودى لحركة الضباط ، وكانت ماتزال سرية ، دعاه بتكليف من التنظيم إلى قبول الوزارة ليـكون عيناً لها فى الحـكومة . وأدى البارودى مهمته كاملة ، فقد كان ، وهو وزير ، الدرع الذى تحطمت عليه مؤامرات القصر وحاشيته ، ورياض وعملائه ضد حركة الضباط .

وكانت المصادر الأجنبية أكثر إنصافاً للبارودى[٢] من مصادر التاريخ العربية ، فقد انبرت « أقلام التشهير » فى هذه الأخيرة ، تشوه كفاح الرجل وجهاده ، وتتهمه بأنه انضم إلى الثورة لمطامع شخصية ومآرب ذاتية . أما الـكتاب الأجانب من ذوى الأقلام الحرة ، الذين عاصروا الثورة ، وخالطوا زعماءها فى

---

(١) حين فكر مجلس النواب فى خلع توفيق ذهب البارودى إلى عرابى وأبدى استعداده لمبايعة عرابى بالخديوية لأنه أحق بها منه . أنظر: كشف الستار عن سر الأسرار لأحمد عرابى جـ١ ص ٢٧١ ـ ٢٧٢ .

(٢) أنظر: بلنت : التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر ؛ برودلى : كيف دافعنا عن عرابى وصحبه ؛ جون نينه : عرابى باشا ؛ أدوارد ديسى : انجلترا فى مصر ؛ نيودور روتشتين : تاريخ المسألة المصرية ؛ ماكنزى والاس : مصر والمسألة المصرية ؛ الـكتب الزرقاء لوزارة الخارجية البريطانية (١٨٨١ — ١٨٨٢)؛ وصحف التيمس والاستاندرد والبالمال غازيت ومجلة القرن التاسع عشر البريطانية (١٨٨١ — ١٨٨٢) .

ذروة مجدهم وفى أعماق سجونهم ، فقد أشادوا بوطنية البارودى ، وجعلوه مثلا فذا للسياسى الحر الذى يضحى بمصالح طبقته ، ويخرج على بنى جنسه — وقد قامت الثورة ضدهم — ليقف فى جانب العدل والمساواة والحكم بالشورى . ونوهوا بمساندته للحركة الدستورية منذ نشأتها ، « وبأنه من مدبرى الحركة الوطنية من عهد إسماعيل ، وقد كابد كثيراً من المشاق من أجل آرائه ، ولكنه لم يتزعزع . والحزب الوطنى مدين له بمساعدته ، وتأييده ، وهو ينفق عليه جميع إيراده الضخم ، وهو فى قناعته ووطنيته فيلسوف الحزب الوطنى[1] » .

ودفعت معرفة مناسبات القصائد وتواريخها غائلة الاتهام بموقف التناقض الذى بدا فيه البارودى ، بين تأييده للثورة ودفاعه بها عن دينه ووطنه ، وبين هجائه فى المراحل الأخيرة للثورة بعض زعمائها من زملاء الجهاد . فقصيدته « لعمرى لقد أيقظت من كان راقداً[2] » قالها بمناسبة رفض عرابى سد قناة السويس فى بدء الحرب مع انجلترا ، وكان البارودى ومجلس الحرب قد أشاروا بسدها ، ولكن عرابياً خدعته وعود « دلسبس » فلم يستمع لنصح البارودى . وقصيدته « صبرت على ريب هذا الزمان »[3] قالها وهو فى السجن إثر الهزيمة بعد أن سار أذناب الخديو بين الزعماء بالوقيعة — ولم تكن بينهم وسيلة اتصال — وجعلوا كلا منهم يعتقد أن زملاءه يأتمرون به ليكون كبش الفداء ، حتى يتهم بعضهم بعضاً ، ونال البارودى نصيب من الأغراء والتهديد والوقيعة ؛ ولكن « فتوته » أبت عليه أن يتهم زملاءه بالرغم من اعتقاده وقتذاك أنهم يأتمرون به ليقدموه قرباناً لنجاتهم ، فهتف بموقفه وموقفهم عند الشدائد . والقصيدة الثالثة « لأى خليل فى الزمان أرافق[4] » قالها البارودى عقب معركة « القصاصين الثانية » ، وقد ظهرت آثار الخيانة فى صفوف القيادة

---

(١) بلنت : التاريخ السرى لاحتلال إنجلترا مصر ص ٢٤٣ مترجم .
(٢) الديوان (الجارم) ج ٢ ص ١٠٠ .
(٣) المصدر السابق ص ١٠٠ — ١٠١ .
(٤) المصدر السابق ص ٣٣٤ — ٣٤٠ .

المصرية ، حين فاجأ الجيش الانجليزى الجيش المصرى بمدافعه ، وكان المتوقع أن تكون المبادرة من الجيش المصرى ، ولـكن الجيش الانجليزى كان قد عرف الخطط والأسرار ، وفر الجيش المصرى من حول البارودى ، وبقى وحده يحارب حتى أصبح الصبر تهوراً فانسحب . وكان قد اجتمع مع القواد المصريين فى الليلة السابقة فى مركز القيادة العليا ، ونوقش موضوع تسرب الأسرار العسكرية ، فتحدث فيهم البارودى عن بوائق الخيانة وشرورها بالنسبة للشرف العسكرى ، وللوطن ، والآخرة[1]. وتحركت عواطف البارودى للشرف العسكرى والوطنى المضيع ، فهجا الذين خانوا ، والذين فروا وباعو دينهم بدنياً سواهم .

هذه بعض نقاط البحث البارزة ، وقد كان النبراس الذى استهديته والخطة التى اتبعتها قول البارودى نفسه :

فَانظر لقولى تجدْ نفسى مصورةً ... فى صَفْحتيه فقولى خطُّ تمثَالِى

ومن ثم جعلت شعره المفتاح الذى أصل عن طريقه إلى مغاليق شخصيته ، والدليل الذى أهتدى به إلى شاعريته ، والإطار الذى أنفذ منه إلى حياته . فحياة البارودى وشعره يجمع بينهما نسب صادق ، ولا يمكن أن يستمتع أحد بشعره العذب حتى يرجع إلى الأصل الذى أنبته ، وهو الحياة التى عاشها الشاعر . وأحطت ذلك كله بأحداث العصر من التاريخ الصحيح حتى أوفر للنص بيئته السليمة .

وبعد ، فهذا جهد المقل لا أدعى أننى أحطت فيه بكل شىء خبرا عن البارودى ، فطاقة ثورية لها كل هذه الحياة العريضة المضطربة كالموج ، من شاطىء إلى شاطىء ، ومن الذروة إلى القاع ، والتى نسجتها يد الزمن من الأحداث والعبر ، ونظمتها يد المقادير صفحة فى تاريخ مصر الحديث ، وموهبة فنية عاتية جاءتها

---

(١) مذكرات الأسرة .

ريادة شعرنا العربى الحديث منقادة ، لا يمكن أن يحيط بكل مجالاتها كتاب واحد ؛ ولكنى قدر الطاقة البشرية ، وحسبما سمحت به مصادر البحث حاولت جاهدا أن ألقى أضواء جديدة على الفنان الرائد والثائر الوطنى .

ولست أدعى أن البحث مثالى خال من العيوب والمآخذ ، ولكن حسبى أننى بذلت الجهد ، وتوخيت الصدق والإنصاف ما وسعنى ذلك ، مبتغيا وجه الحقيقة ، وأرجو أن أكون قريباً منها .. والله المستعان .

على الحديدى

أستاذ الأدب العربى المساعد
جامعة عين شمس — كلية البنات

[شكر وتقدير]

أود أن أذكر بالشكر والتقدير كريمتى الشاعر الفاضلتين ، فاطمة ومشيرة ، وحفيده الأستاذ حسن عصمت ، فقد كان للمعلومات ، والمذكرات ، وشجرة النسب التى أمدونى بها وأطلعونى عليها فضل كبير فى إنارة الطريق لمعرفة الكثير عن الأب الشاعر والزعيم الثائر .

وأشكر كذلك الأستاذ محمد شفيق معروف حائز إحدى مخطوطات الديوان ، فقد أطلعنى عليها وقضيت معها الأيام العديدة فى الدراسة والمقارنة والبحث . وقد رمزت لمخطوطته بالحرف (ج) أول اسم الأستاذ « الجارم » صاحب المخطوطة .

وأذكر بالفضل المرحوم الأستاذ طاهر الطناحى ، فقد استعار لى مخطوطة أخرى للديوان من صديق له عزيز عليه ، ولم يشأ أن يكشف عن اسمه ، إشفاقاً وخوفاً من الإثقال عليه ، وهو رهين المحبسين : الظلمة والشلل ، فوق الكبر والشيخوخة . وقد استأذن لى من صاحب المخطوطة فى نقل ما أريد ، فنقلت منها ما لم ينشر من شعر البارودى ، طيب الله ذكراه جزاء وساطته النافعة . وقد أشار علىّ بأن أرمز لهذه المخطوطة بالحرف (س) أول اسم صاحبها ، رد الله إليه العافية وأضاء بالإيمان قلبه .

الفصل الأول

المولد والنسب والنشأة

أنا من مَعشر كرام على الدّهـ ـر أفادوه عزةً وصلاحاَ
قَرعوا بالقَنَا قِنَان المعَالى وأعدُّوا لبابهـا مفتاحاَ
عَمروا الأرضَ مدةً ثم زالوا مثلما زَالت القرونُ اجتياحاَ
فَسقاهم منزِّلُ الغيث سَجْلاَ يجعل النبتَ للعراء وشاحاَ

البارودى

أصل البارودى

المولد والنسبة :

شهد يوم الأحد السابع والعشرون من شهر رجب عام ١٢٥٥ هـ[١] (٦ أكتوبر ١٨٣٩ م) مولد إمام الشعراء المحدثين ، ورائد النهضة فى الشعر العربى الحديث « محمود سامى البارودى » .

وسعدت « سراى البارودى» ، قرب « باب الخلق » بالقاهرة ، باستقبال الوليد[٢] الذى أعدته نفسه ليكون زعيما من زعماء الحركة الوطنية فى مراحلها الأولى ، والذى صنعته الأيام ليقدم على مذبح الوطنية فداء من عمره واغترابه ، وتضحية من ماله وأهله ونور عينيه .

« وسراى البارودى[٣] » التى ولد فيها الأمير الجركسى الصغير ، وصفها على مبارك فى « الخطط التوفيقية»[٤] ، بأنها معروفة « بدار الست البارودية » ، وهى كبيرة جداً ، وبداخلها حديقة متسعة ، وقد استولى عليها الفرنساوية أيام احتلالهم مصر ، واتخذوها ديوانا « للفردة » — الضرائب — وتقع بين حمام الست البارودية وجامع السلطان شاه ، فى نهاية شارع « باب الخرق » من ناحية شارع « غيط العدة »[٥] .

---

(١) ياقوت المرسى وعطيه حسنين : مقدمة « مراثى الشعراء لمحمود سامى البارودى » جمع خليل مطران ؛ مطبعة الجوائب المصرية سنة ١٩٠٥ ؛ والمنار مجلد ٧ جزء ٢٠ فى ١٩٠٤/١٢/٢٣ نقلا عن مخطوطة تحقق نسب البارودى اشترك الشيخ محمد عبده فى كتابتها سنة ١٨٨١ م .

(٢) جورجى زيدان : مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر جـ ٢ ص ٢٩٩ الطبعة الثالثة سنة ١٩٢٢ القاهرة .

(٣) اشتهرت بهذا الاسم بعد أن آلت إلى محمود سامى بالميراث من أمه .

(٤) جـ ٣ ص ٥١، ٥٣، الطبعة الأولى سنة ١٣٠٦ هـ القاهرة.

(٥) ما زال حمام الست البارودية وجامع سلطان شاه قائمين ، أما الدار فقد هدمت وأقيم على أرضها عمارات سكنية ومدرسة أبى بكر الصديق الابتدائية بشارع غيط العدة .

وتسميتها بدار الست البارودية تسمية قديمة ، شهرت بها — كما يقول الجبرتى — منذ شيدتها « فاطمة خاتون » ، بنت البارودى وإحدى جدات الشاعر ، بعد أن تزوجت بالأمير المملوكى الكبير أمير الحج وشيخ البلد « إبراهيم كتخدا مستحفظان القازدوغلى[١] » ، ثم تسلسلت ملكيتها إلى أن ورثتها « فاطمة هانم البارودية» والدة محمود سامى البارودى .

والبارودى من أسرة جركسية ، تجرى فى عروقها دماء الأمراء من دولة المماليك الجراكسة ، الذين حكموا مصر قرابة قرن ونصف قرن (١٣٨٢ — ١٥١٨ م) . والجراكسة المماليك ، طبقة من المولدين الذين وفدوا إلى مصر بعد أن غزا التتار بلادهم[٢] ودمروها ، وساقوا أهلها جماعات إلى أسواق الرقيق المعروفة فى آسيا فملئت بهم ، وباعهم التتار بأثمان بخسة ، واشترى سلطان مصر الملك العادل (١٢٣٠ م) اثنى عشر ألفا من شبابهم ، جعلهم حرسه وخاصة جنوده ، وأظلهم بحمايته ، فقويت شوكتهم ، وعلت كلمتهم ، حتى صار لهم الأمر والنهى فى المملكة ، وتصرفوا فى جميع أمور السلطنة والسلطان .

وأصبح الاستكثار من شراء المماليك سنة السلاطين وذوى النفوذ فى مصر ، يكونون بهم العصبيات والأحزاب ، ويتخذونهم أداة إلى تولى السلطة . وبزغ نجم المماليك فى الشرق العربى ، ووجدوا مستقبلهم فى مصر ، فاتخذوها مهجرا

---

(١) توفى عام ١٧٥٤ م. أنظر ترجمته فى « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » لعبد الرحمن الجبرتى ج٢ ص ٩٠ — ٩٣ طبعة لجنة البيان العربى سنة ١٩٦٠ .

(٢) كانت تعرف باسم جركس Cercetea أو Circassia أو Tcherkesses وتمتد على الشاطىء الشرقى للبحر الأسود وهى الآن تمثل جزءاً من بلاد الكرج وجورجيا بين بحر قزوين والبحر الأسود من أقاليم الاتحاد السوفييتى .

يفدون إليها فرادى وجماعات ، يبيعون أنفسهم ، أو يبيعهم أهلوهم ، أو تجيء بهم « الجلابة » من تجار الرقيق ، فيضمهم السلاطين والأمراء وذوو النفوذ إليهم . واستطاعوا أن يزحفوا على مراكز النفوذ فى مصر ، ويسيطروا على مصادر السلطة فيها ، ومن ثم أصبحوا يمثلون القوة الفعلية فى البلاد . وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن استولوا على العرش نفسه ، واستطاع « برقوق » المملوك الجركسى ، أن ينصب نفسه سلطانا على مصر عام ١٣٨٢م ، وبدأت به « دولة المماليك الجراكسة » التى ظلت فى دست الحكم حتى الاحتلال العثمانى عام ١٥١٧م .

وفى ظل الاحتلال العثمانى ، تحول المماليك إلى واحدة من القوى التى جعلها العثمانيون ركيزة وأساساً لنظامهم السياسى فى مصر . ولكن المماليك لم يلبثوا حتى استردوا نفوذهم وانفردوا بالحكم ، بعد أن شغل الوالى التركى ورؤساء الجند بالتنازع والصراع على السلطة ، واستأثروا بالمناصب الكبرى ، فكان منهم « السناجق » يحكمون المديريات ، و « الكخيا » و «الدفتردار » و « الرزنامجى » و « أمير الحج » و « الخازندار » و « قبودانات الثغور » و « الكشاف » . وصار رئيسهم « شيخ البلد » يمثل النفوذ الذى لا يعارض ، والكلمة التى لا ترد ، ولم يترك للوالى الحقيقى إلا الإسم وقباء الولاية .

وحين جاء الاحتلال الفرنسى أواخر القرن الثامن عشر ، شن حملة تشتيت وإبادة على أمراء المماليك ، ثم جاء « محمد على » فاستكمل هذه الحملة ، وقضى عليهم كقوة عسكرية لها وزنها المستقل على صعيد الدولة ، وإن احتفظ هو وخلفاؤه من بعده ، لبقاياهم ولأبنائهم الذين انضموا تحت لوائه ، بامتيازات السادة الحاكمين ، وأصبحوا هم والأتراك يمثلون الطبقة الأرستقراطية المسيطرة على مقدارات البلاد والعباد .

وبالرغم مما تشهد به الحقائق التاريخية من سياسة القهر والقسوة ، وأسلوب

العسف والطغيان الذى عامل به المماليك شعب مصر ، فمن الإنصاف أن يظهر الجانب المضيء فى حكمهم ، وقد حملوا مسئوليتهم كاملة بشجاعة نادرة ، وبطولة يشرق لها وجه التاريخ ، فى دفاعهم عن مصر بعد أن أصبحت ملاذ الإسلام وحماه . فقادوا الجيوش المصرية ليقضوا على الزحف الصليبي الذى جثم على صدر الدولة الإسلامية سنين عددا ، واستطاعوا أن يلقوا بفلوله إلى البحر ، وأوقفوا موجة الدمار والهلاك التى شنها التتار والمغول على الشرق العربى ، وصمدوا لجيوشهم التى لم تقهر ، وأذاقوهم معنى الهزيمة بعد أن كانوا لا يستطعمون إلا النصر ، وثأروا لحلب ودمشق وبغداد .

ومع كثرة الوافدين على مصر من المولدين فى عصورها المختلفة ، إلا أن المماليك كانوا أكثرهم بها التصاقاً . فقد امتزجت دماؤهم بثراها ، وأحسوا بانتمائهم إليها ، وارتباطهم بها ارتباط مصير ، ونما فى قلوبهم حبها ، وقد بدأ أول أمره خافتا ضئيلا تحجبه مظاهر السيطرة وعنجهية السيادة ، ثم أسفر عن ذاته حين دهم الفرنسيون البلاد بالغارة ، وظهر كأقوى ما يكون فى دفاعهم عنها ، ومناجاتهم لها ، وحنينهم إليها بعد أن لحقت بهم الهزيمة .

وكشف حب المماليك لمصر عن نفسه فى أروع صورة على لسان الأمير « محمد الألفى » وهو يهتف باسم أمه مصر ويناجيها ، ويشهدها على ما فعل الزمن بأبنائها المماليك وقد حضرته الوفاة ، وسقط عنه قناع الجمود المصطنع ، فيقول ـ كما يروى الجبرتى ـ : « يا مصر . . انظرى إلى أولادك وهم حولك مشتتون متباعدون مشردون ، واستوطنك أجلاف الأتراك واليهود ، وأراذل الأردناؤود ، وصاروا يقبضون خراجك ، ويحاربون أولادك ويقاتلون أبطالك ويقاومون فرسانك ، ويهدمون دورك ، ويسكنون قصورك ، ويفسقون بولدانك وحورك ، ويطمسون بهجتك ونورك » . مناجاة لا يهتف بها غير ابن من أبناء مصر ، يخلص لها الحب ، ويرثى لما تردت فيه من هوان . وكأن حجب الغيب قد انكشفت للألفى وهوفى

النزع الأخير ، فرأى ما يوشك أن يحدث بالبلاد ، فيمضى فى مناجاته يقول : « قضى الأمر وخلصت مصر لمحمد على ، وما ثم من ينازعه ويغالبه ، وجرى حكمه على المماليك المصرية فما أظن أن تقوم لهم راية بعد اليوم » .

والحق أن المماليك لم يعرفوا لهم وطنا غير مصر منذ هاجروا إليها واستبدلوها بوطنهم الأصيل ، فقد وجدوا فيها الحياة الرغدة والمستقبل المرموق . وكانوا من أول يوم ينضمون فيه إلى رجالات الدولة وذوى السلطان ، يصبحون لهم أهلا وأتباعا ، ينسبون إليهم ، ويحملون أسماءهم ، ويرثون عنهم بالولاء مناصبهم وأموالهم ودورهم ونساءهم . وكانت رابطة الولاء للسيـــد والوطن الجديد أقوى من رباط الأسرة والوطن الأم . ويصبح المملوك ـ وقد جاء فتى يافعاً ـ لا يعرف له أهلا غير أهله الجدد ، ولا موطنا غير مصر التى قدمت له المـأوى والجاه والسلطان .

ومن ثم لم تكن لنسبتهم وألقابهم قاعدة يلتزمونها ؛ بل ينتسبون إلى السيد تارة وإلى الرئيس تارة أخرى ، وكثيراً ما ينسبون إلى الوظيفة أو الإلتزام ، وقد يأخذ الواحد منهم لقب زوجته إذا كانت تفوقه شرفا وغنى وجاها ؛ ولذلك غمض منشؤهم ، واختلطت أنسابهم ، وضاع التسلسل الأسرى بينهم ، ولاقى الباحثون العنت والمشقة فى سبيل ردهم إلى أصولهم ، ومعرفة آبائهم وأجدادهم الحقيقيين .

وشاعرنا « البارودى » نفسه ، ذلك الذى تاه على الدنيا بنسبته إلى المماليك الجراكسة ، وملأ سمع الزمن فخراً بهم ، واجه هذه الصعوبات عندما أراد تحقيق نسبه ، وكان شديد الحرص على معرفته وتتبعه إلى أصله ، فبذل الجهد وبحث ونقب فى أنحاء القطر ، وراجع النصوص وحجج الوقف ، وسأل

أهل العلم والسن والمعرفة ، وأنفق فى سبيل ذلك ما يقدر بنحو ثلاثة آلاف جنيه[1] . وبعد سنوات قضاها هو وفريق من العلماء[2] فى الدراسة والتحقيق خرج لنا عام ١٨٨١ بصحيفة النسبه ، « ينتهى فيها ـ من جهة أمه ـ كما فى حجة الوقف الشرعية المسطرة فى محكمة مصر ، المؤرخة ١٨ من ذى القعدة عام ١٠٩٧ ، وكما فى حجة التغيير المؤرخة ١٨ من صفر عام ١١٩٥ هـ إلى المقام المولوى الأميرى الكبيرى السيدى المالكى المخدومى العضدى الذخرى المجاهدى السيفى نوروز الأتابكى الملكى الأشرفى أخى برسباى قرا المحمدى[3] » . ويتصل نسبه أيضاً ـ كما تدل شجرة النسب المخطوطة[4] ـ إلى السلطان نور الدين شاهنشاه أخى السلطان يوسف صلاح الدين .

وحين يستعرض الباحث ما جاء بشجرة النسب ، وما ذكره ياقوت المرسى وعطية حسنين كاتبا « البارودى » بعد أن كف بصره ، وملازماه فى أيامه الأخيرة[5] ، وما أثبته محمود الإمام راوية الشاعر وصديقه بعد النفى ، ومحقق جزأين من ديوانه وشارحهما[6] ، وما لدى كريمتى البارودى وأحفاده من معلومات ومذكرات وأوراق خاصة ، ويطبق ذلك كله على الحقائق التاريخية يجد نفسه مضطرا إلى أن يأخذ الأمر بالحذر والحيطة . ذلك لأن الشجرة تحتاج إلى كثير من الإيضاح والتصحيح ، كى يوافق ما جاء فيها مبادىء التسلسل فى النسب بقواعده

---

(١) جورجى زيدان : مشاهير الشرق جـ ٢ ص ٢٩٨ .

(٢) اشترك معهم صديقه الشيخ محمد عبده وكتب صحيفة النسب بخطه . أنظر : المنار مجلد ٧ جزء ٢٠ فى ٢٣/١٢/١٩٠٤ .

(٣) مقدمة ديوان البارودى شرح الإمام .

(٤) شجرة النسب المخطوطة فى حوزة كريمتى محمود سامى البارودى فاطمة ومشيرة وهى تفريغ لما جاء فى صحيفة النسب التى حققها البارودى فى حياته .

(٥) كتبا ترجمة حياة البارودى مقدمة لكتاب « مراثى الشعراء » جمع خليل مطران (١٩٠٥) .

(٦) مقدمة الديوان شرح الإمام مطبعة الجريدة

المعروفة . فكثيراً ما جعلت الشجرة الإبن بالتبنى والولاء وهو المملوك أو التابع إبنا فى النسب ، وأكثر من مرة تعطى لقب البارودى لمن ليس من أسرة البارودى نسبا بل ولاء ، وفى بعض الأحيان نجد انقطاعا كاملا بين من زعمت اتصال النسب بينهما . ومع ذلك فهى عمل كبير يساعد الدارسين ويجنبهم كثيراً من المشقة والجهد ، ويلقى الضوء على نسب شاعرنا العظيم .

نسب البارودى :

يبدأ نسب البارودى من جهة أمه « بفاطمة هانم البارودية » . وكانت هى وأخوها إبراهيم البقية الباقية من أسرة « البارودى » ذات الجاه والفخار ، وكانا الوريثين الوحيدين لضياع الأسرة الواسعة وقصورها العديدة الموقوفة[١] ، بعد أن قتل أبوهما « على أغا البارودى » فى مذبحة المماليك بالقلعة عام ١٨١١ .

وعلى أغا البارودى جد الشاعر لأمه ، لم يكن من أسرة البارودى ؛ بل كان مملوكا وخازندارا « لمحمد أغا البارودى[٢] » ، وحين زوجه سيده « بفاطمة قادن البارودية » بنت زوجته « زليخا خاتون البارودية » من زوجها الأول « أحمد أغا البارودى» انتسب على أغا إلى أسرة زوجته فاطمة قادن البارودية ، ولقب بلقبها[٣] .

والأمير أحمد أغا البارودى[٤] والد فاطمة قادن البارودية — جدة الشاعر

---

(١) ضيعة بقرقيرة مركز أجا دقهلية ، وقصر بباب الخلق وبجواره حمام الست البارودية وأرض واسعه ورثاها عن جدهما الأعلى رضوان أبى الشوارب ، وقصر بالروضة وآخر بمصر القديمة. أنظر :الخطط التوفيقية ج ٣ ص ٥١ — ٥٣ ؛ ومذكرات أسرة البارودى.

(٢) محمد أغا البارودى لم يكن من أسرة البارودى وإنما انتسب إلى سيده أحمد أغا البارودى وتوفى عام ١٧٩٠ . أنظر :الجبرتى ج ٤ ص ١٩٢ — ١٩٣ ، وج ٣ ص ١١١ .

(٣) أنظر : الجبرتى ج ٤ ص ١٩٣ — ١٩٤ ؛ وشجرة النسب المخطوطة .

(٤) توفى عام ١٧٧٤ ؛ أنظر: الجبرتى ج ٣ ص ١١١ .

لأمه — لم يكن « بارودیا » كذلك ، بل كان مملوكا لإبراهيم كتخدا مستحفظان القازدوغلی ، وبعد أن تزوج بابنة سيده « زليخا خاتون البارودية »[١] انتسب إليها وأصبح « بارودیا » بالولاء .

والأمير إبراهيم كتخداوالد «زليخا خاتون » ، كان تابعا « لسليمان كتخدا القازوغلى » فانتسب إليه ، ثم تزوج بفاطمة خاتون المعروفة « بالست البارودية » ، ولـكنه لم ينتسب إليها ، وكان له من نفسه ومركزه وسلطانه وأتباعه مايجعله أعلى مجداً وفخاراً من زوجته ، وما يغنيه عن الانتساب إلى أسرتها ، فقد تولى إمارة الحج ومشيخة البلد أرقى منصبين فى الولاية ، وعمر الدار التى « بباب الخرق[٢] » وهى دار زوجته بنت البارودى ، والقصر المنسوب إليها أيضا بمصر القديمة[٣] .

« وفاطمة خاتون »[٤] زوجة إبراهيم كتخدا مستحفظان القازدوغلى بنت « مصطفى جلبى »[٥] بن الأمير « قاسم إيواظ الجركسى » ، الذى تولى الإمارة عوضا عن سيده « مراد بك الدفتردار » عام ١٦٩٦م ، وترقى فى المناصب إلى أن أصبح أميراً للحج، وشيخا للبلد ، ورئيسا المماليك القاسمية . ويقول عنه الجبرتى : « إن بيته كان بيت العز والإمارة والسيادة ، وكان أميراً شهما حزن عليه يوم قتل كثير من الناس ، وتسابق الشعراء إلى رثائه وتعديد مناقبه »[٦] .

وتقول شجرة نسب البارودى إن الأمير « إيواظ» إبن للأمير« خوشقدم » بن الأمير « رضوان أبى الشوارب » ، ابن الأمير « مراد جلبى البارودى » . والواقع أن

(١) سمتها شجرة النسب زليخا خاتون ، وسماها الجبرتى « هانم » ج ٤ ص ١٩٢ — ١٩٣ .

(٢) التسمية القديمة لباب الخلق .

(٣) الجبرتى ج ٢ ص ٩٠ — ٩٢ .

(٤) جعلتها شجرة النسب بنت مصطفى جلبى ، وجعلها جورجى زيدان بنت محمد البارودى أحد التجار الأغنياء . أنظر : تاريخ مصر الحديث ج ٢ ص ٥٠ ، مطبعة الهلال عام ١٩٢٥ .

(٥) ترجمته بالتفصيل فى الجبرتى ج ١ ص ١٥٨ — ١٥٩ ، ١٦٣ .

(٦) ترجمته بالتفصيل فى : الجبرتى ج ١ ص ٢٤٨ — ٢٥٣ ؛ وأنظر جورجى زيدان : تاريخ مصر الحديث ج ٢ ص ٤٥ .

الأمير « إيواظ » كان فى الأصل مملوكا « لرضوان أبى الشوارب » ، ثم صار بعد ذلك تابعا « لمراد الدفتردار »، ومراد هذا تابع للأمير «أزبك » بن رضوان أبى الشوارب[١].

والأمير « مراد جلبى البارودى » هو الذى بدأت به نسبة « البارودى » إلى الأسرة، فقد كان ملتزماً[٢] « لإيتاى البارود » بمحافظة البحيرة ، فنسب إليها كما هى عادة المماليك فى ذلك الوقت[٣].

وأهم ما جاء فى شجرة النسب أنها جعلت « مراداً البارودى » يتصل بتسلسل النسب عن طريق يوسف جاويش إلى الأمير « برسباى قرا المحمدى » وزوجته « أصيل خاتون » التى ينتهى نسبها إلى السلطان « نور الدولة شاهنشاه » أخى السلطان « يوسف صلاح الدين الأيوبى » . ومن ناحية أخرى جعلت شجرة النسب شاعرنا البارودى يتصل نسبه بالأمير « نوروز الأتابكى » أخى برسباى ، وذلك عن طريق جدة الشاعر خديجة خاتون زوجة الأمير « إيواظ » ،ثم إلى الأميرة «سعد الملوك خاتون » بنت «الأمير نوروز الأتابكى » . ولكن هذا الاتجاه فى النسب لا يمر بالأمير « مراد جلبى البارودى » أصل أسرة البارودى وحامل لقبها الأول .

وإذا كانت الشجرة التى تحوزها أسرة البارودى دقيقة وصحيحة ، فلا ندرى السبب فى عدول الشاعر نفسه عن التسلسل الأقوى من جهة العصب ، والأكثر فخراً ،وهو الذى يصله بجده الأعلى الأمير «مراد البارودى» ثم بالأمير « برسباى قرا المحمدى » وبأسرة «صلاح الدين الأيوبى» ،إلى تسلسل يصله من جهة الرحم بالأمير نوروز الأتابكى[٤].

---

(١) توفى رضوان أبو الشوارب عام ١٦٦٢م. أنظر: الجبرتى جـ١ ص٢٣٧، ٢٤٨.

(٢) الإلتزام هو تضمين الضرائب لأناس يتولون جمعها للحكومة ، ويشاركونها فيما يغلونه من الأهالى . تفصيل نظام الإلتزام فى تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعى : جـ ١ ص ٣٢ — ٣٥ ، القاهرة ١٩٥٥ .

(٣) مقدمة مراثى الشعراء ؛ ومقدمة الديوان شرح الإمام ؛ والمنار مجلد ٧ جزء ٢٠ فى ٢٣/١٢/١٩٠٤ .

(٤) وذلك فى الصحيفة التى كتبها فى حياته ونشرتها المنار فى مجلد ٧ جزء ٢٠ فى ٢٣/١٢/١٩٠٤

وفرق كبير بين « نوروز الأتابكى » وبين شقيقه الأمير « برسباى المحمدى » !

أما نسب الشاعر لأبيه فالمصادر التاريخية وشجرة النسب وصحيفته ، ومذكرات الأسرة ومعلوماتها تقف بنا عند جده الأول « عبد الله الجركسى » . فقد استقدمه ، وهو شاب حدث من بلاد الجركس ، إلى مصر ، الأمير الكبير « محمد الألفى » ، وكانا من بلد واحد ، وضمه الألفى إلى أتباعه وجعله كاشفا من كشافه[1] فانتسب إليه ، وصار يدعى « عبد الله الجركسى الألفى »[2]

وبعد أن توفى الأمير « محمد الألفى » أول عام ١٨٠٧ ، وكان يقود المماليك فى معارضة عودة الحكم التركى بعد جلاء الفرنسيين عن مصر ، تألف « محمد على » الوالى التركى الجديد قلوب من بقى من مماليك الألفى وأتباعه ، فأمنهم وخادعهم كى يستعد ثم لينقض عليهم . وعقد صلحاً مع زعيمهم الجديد شاهين الألفى[3] ، وأسكنهم الدور ، وأجرى لهم الأرزاق ، واستبقى الكشاف منهم فى وظائفهم ، فعمل « عبد الله الجركسى الألفى » كاشفاً لمحمد على أول حكمه. وفى عام ١٨١٠ ولد لعبد الله الجركسى ولد سماه « حسن حسنى الجركسى الألفى » هو والد شاعرنا « محمود سامى البارودى »[4] .

ولم ينعم الطفل « حسن حسنى » برعاية والده غير عام واحد ، فقد قتل مع كبار المماليك فى المذبحة التى دبرهـا محمد على للقضاء عليهم عام ١٨١١ ، وقد بدأت بمكيدة القلعة فقتل فيها نحو ٤٠٠ من زعمائهم ، ثم تلتها حمامات الدم التى أعدها لمن يظفر به جنوده فى البلاد من المماليك ، « فكانوا يأتون بهم أفواجاً ويسوقونهم كالغنم إلى الذبح »[5] .

---

(١) الكاشف يماثل مأمور المركز أو محافظ المحافظة تبعا لحجم البلاد التى يكون كاشفاً عليها ويحصل منها الأموال لسيده الصنجق المقيم فى القاهرة .

(٢) معلومات أسرة البارودى (٣) الجبرتى ج٤ ص ٤١ طبعة ١٣٢٢ هـ .

(٤) جورجى زيدان مشاهير الشرق ج٢ ص ٢٩٨ .

(٥) جورجى زيدان تاريخ مصر الحديث ج ٢ ص ١٦٢ ؛ بلغ عدد القتلى من المماليك فى القاهرة والمديريات نحو ألف من الأمراء والكشاف والجنود. أنظر: عبد الرحمن الرافعى: عصر محمد على ص ١١١–١٥٢.

مصر بين الاطماع والنكسة

آثار مذبحة القلعة :

ونكبة البارودى الشاعر فى مذبحة القلعة نكبة مضاعفة ، فقد قتل فيها جده لأمه « على أغا البارودى » ، وجده لأبيه « عبد الله الجركسى الألفى » ؛ ولكن نكبة الوطن من آثارها النفسية كانت أثقل وطأ وأشد خطراً ، فقد فوجىء الشعب بأسلوب الغدر والخيانة والقهر ممن كان بالأمس القريب مناط الأمل فى حكم أكثر عدلا ، وحياة يسودها الاطمئنان . وهزتهم الخيانة إلى الأعماق ، وفتحت عيونهم على أسلوب المهادنة والخداع للاستعداد والانقضاض ، وتمكنت الرهبة من القلوب ، واستولى الرعب على النفوس ، والأمة لم تزل بعد على أول مراحل الطريق نحو الانطلاق ، للتعبير عما يعتمل فى نفسها من الإحساس الوليد بالحرية ، وما تشعر به من الحاجة إلى أن تمزق أستار الجمود والسلبية التى كانت تحجب عنها الحياة الكريمة فى ظل الاستقلال ، فتصنع حياتها ومستقبلها بنفسها ، وتكون لها الكلمة فى فرض التغيير باسمها ولمصلحتها .

قتلت « مذبحة القلعة » الأمل الوليد فى النفوس ، وأخمدت الروح الوطنية التى امتلأت بها قلوب الأمة فى مقاومتها خلال الاحتلال الفرنسى ، ورأى الشعب فيها صورة المخادع التركى على حقيقته ، وقد كشف عن نيابه وأسلحته ليقضى على من يتصدى لأطماعه ، أو يقف فى طريق دكتاتوريته ، واختفت إلى الأبد صورته بالأمس وهو يلبس مسوح النفاق ، يخطب ود الشعب ويستجدى عطفه ، ويطمع فى ثقة زعمائه ، ويختلط بالعامة ، ويتحبب إليهم ، ويتعهد بألا يبرم

أمراً دون مشورة علمائهم وذوى الرأى فيهم .

واسترد محمد على أنفاسه اللاهثة وراء أطماعه عقب مذبحة المماليك ، فقد كانت المنطلق الأخير الذى وثب منه إلى تحقيق مآربه فى بناء إمبراطورية له ولأسرته من بعده ، ومن قبلها قضى على المعوقات التى تقف فى طريق آماله ، فتخلص من تحكم سلطان تركيا فى مصير مصر ، وأمن نفسه ضده بتحالفه مع القوى الشعبية المصرية التى استغلها بدهائه وخداعه ، وظل يمالئهـا حتى أزاحت من طريقه كل العقبات ، ثم دفعت به إلى قمة المجد وأجلسته على العرش . ولم يكن الدكتاتور الداهية يؤمن بهـا كحركة شعبية ترسى قواعد الاستقلال والديمقراطية ؛ بل بوصفها نقطة وثوب إلى مطامعه ، وقوة مساعدة تستهلك بعد أن تستنفد أغراضها عنده . ومن ثم ، وبعد أن استقر فى الحكم استدار إليها وانقض عليها وشتت زعماءها .

وما إن تسنم غارب الحكم ودانت له الأمور ، وأصبح الحاكم الفرد فى البلاد ، حتى أخذ يدفع بالمصريين دفعاً لا رأى لهم فيه ، إلى مغامرات عقيمة تستهدف مصالح الفرد فى تأسيس ملك عريض ، وساقهم إلى معسكرات التجنيد ليبنى بهم جيشاً حديثاً ، يكون قاعدة حصينة تحمى حكمه ، وأداة قوية يصل بها إلى طموحه فى بناء إمبراطورية على نمط حديث ، يفاخر بها أو يفاضل ملك سيده فى تركيا . واستقدم الخبراء العسكريين من أوروبا ، وأنشأ المدارس الحربية ، وسخر موارد الدولة المادية وإمكانياتهـا البشرية ، وعبأ قواهـا العقلية ، لتكون جميعها فى خدمة الجيش وسيلته فى تحقيق أطماعه .

وغلبت المغامر الدكتاتور سجيته التركية ، فبـــذرت بذور التمييز

العنصرى فى الجيش من أول يوم فى تـكوينه ، فالمدارس الحربية التى أنشئت لتخرج قادة للجيش ، بالرغم من تعددها ، كانت محرمة على المواطنين[(١)] ، وأمر الحاكم المستورد أن يختار لها طلبتها من أبناء الطبقة التى منحها امتيازات السيادة : من الأتراك ، والأرناؤود ، والأرمن ، واليونان ، وبقايا الجراكسة. ولا ندرى أكبر على المغامر التركى أن يرفع المصريين إلى القيادة ، أم أنه وهو الحذر الداهية ، قد استكشف حجب الغيب ، واستطلع الأفق البعيد ، فوجـــد أبه بيده ، إن جعل منهم قادة ، يصنع المعول الذى يهدم به عرشه وأسرته فيهزهما فى عنف عام ١٨٨٢ ، ثم يلفظهما يوم الثورة الـكبرى عام ١٩٥٢ ؟

وفى هذه المدارس الحربية تلقى « حسن حسنى الجركسى الألفى » فنون الحرب ، وخرج ليعمل ضابطا فى المدفعية المصرية الحديثة ، التى حملت العبء الأكبر من معارك الجيش المصرى فى منطقة الشرق الأوســط قرابة ثلاثين عاماً ، وقفزت به استعداداته الحربية وشجاعته النادرة درجات الترقى حتى صار من أمراء المدفعية ، وتقلد رتبة اللواء[(٢)] .

فرمان النـكسة :

أشترك الضابط « حسن حسنى » ، مع جيش مصر الفاتح ، فى المعارك التى دارت على أرض سوريا ضد الجيش العثمانى ، وقاد فرقته ضمن المدفعية المصرية فمهدت للنصر على الأتراك فى فتح عكا التى استعصت على نابليون عام ١٧٩٩ ، وساعدت فى تحرير سوريا من الاستعمار التركى ، واشتركت فى رفع البنود والأعلام

---

(١) جورجى زيدان : تاريخ مصر الحديث ، ج ٢ ص ١٨٢ .
(٢) مقدمة الديوان شرح الإمام ؛ ومذكرات الأسرة .

المصرية خفاقة على ربا الأناضول ، واحتلت « قونية وكوتاهية » على مسافة خمسين فرسخا من أسوار القسطنطينية ، وأفزعت طلقات مدافعها سلطان تركيا فى « قصر يلدز » فاستنجد بالدول الأوربية الكبرى لتوقف الزحف المصرى قبل أن يدك العاصمة التركية . وسارعت الدول الأوربية بالتدخل ، ولم يكن السلام العالمى أو المحافظة على كيان تركيا هو الدافع لتدخلها ، وإنمـــا حركتها أطماعها المختلفة .

كانت الروسيا تعتبر نفسها الوصية على « الرجل المريض » — تركيا — وتطمع فى السيطرة على « البواغيز » لتنفذ إلى البحر الأبيض المتوسط . وتنبهت إنجلترا إلى خطر مصر الذى يتهدد مصالحها فى الشرق ، بعد أن كشفت الحملة الفرنسية أهمية موقعها الجغرافى بالنسبة للقارات الثلاث ، وتحكم هـذا الموقع فى سياسة التوسع الاستعمارى الأوربى فى الشرق ، ومن ثم رأت ضرورة احتلالها؛ وقد جربت لذلك الحرب السافرة عام ١٨٠٧ ولكن المصريين رموا بجنودها إلى البحر ، وانتظرت ترقب بفزع نمو الدولة الناشئة ، وامتداد نفوذها على سواحل أفريقيا وآسيا ، وانطلاقها من الزاوية التى تتحكم فى مستقبل التوسع الانجليزى فى هاتين القارتين . وواتتها فرصة احتدام النزاع بين محمد على وسلطان تركيا ، فألبت عليه الدول ، وتزعمت المؤامرة الدولية ضده ، وكانت تستهدف فى المقام الأول إضعاف مصر حتى لا تزاحمها فى السيادة على البحر المتوسط أو تكون عقبة فى طريقها إلى الهند ، وتستهدف أخيراً احتلالها حين تواتيها الفرصة

وأجبرت الدول الكبرى « محمد على » على الخضوع لشروط التسوية التى أملاها مؤتمرهم فى لندن عام ١٨٤٠[١] ، وصدر بذلك فرمان الباب العالى فى ١٣ فبراير

(١) اشترك فى المؤتمر إنجلترا والروسيا والنمسا وبروسيا وتركيا .

١٨٤١ . وكان فى هذا الفرمان القضاء على آمال الوالى التركى وأطماعه ، فقد تقلص طموحه من بناء إمبراطورية كبرى إلى ولاية وراثية فى أكبر رجال أسرته . ولأن جهوده ومغامراته لم تكن تستهدف إلا مصالح الفرد ، لم يجد ما يبرر المضى فى مشروع بناء « دولة حديثه » ؛ ذلك لأن العائد إليه من هذا المشروع لا يحقق ما تصبو إليه أطماعه .

وخشى الدكتاتور المهزوم على نفسه وأسرته من بذور العلم التى غرسها بين فريق من المصريين ، لتحقق له حلمه الكبير ، وقد اتخذت طريقها الطبيعى فاحتضنتها التربة الثورية الخصبة لمصر ، لتخرج منها بشائر نبت ثقافى وصناعى وعسكرى وسياسى على ضفاف النيل تسهم فى بناء مصر الحديثة . وأصابه الخوف بالجنون ، فأخذ ينقض عليها يهدمها، ليعيد مصر إلى تخلفها الأول ، حتى يسلس قيادها ويسهل حكمها . فقفل المدارس ، ووقف إرسال البعوث إلى الخارج ، وألغى المشروعات العمرانيه والصناعية . ثم برزت طبيعة التاجر المختفية فيه تحت قباء الولاية فأخذ يحول مشروعات الدولة ومصانعها إلى عملية استثمار تحقق له ولأسرته الكسب المادى . وأصبحت مصر — وقد جعلها فرمان ١٨٤١ حكراً له ولأسرته — مزرعة يستثمرها لحسابه ، وللزارعين والعمال من المصريين فوق الجهد والتعب الفقر والمسغبة .

وكان فرمان ١٨٤١ فرمان نكسة لمصر ، فقد فرض عليها الجمود والتخلف، وارتدت البلاد بعده إلى نوع من الخمود الذى عاق ما يمكن أن تستفيده مصر من الحركة الصناعية والتعليمية والعمرانية التى قامت فى ذلك العصر ، وتجعل من كل ذلك أساساً لنهضة كبرى . ولكن الوالى التركى ، حين أقام صروحاً للحضارة المادية والعمرانية ، لم يلق بالاً إلى تدعيم عمله ببناء الأذهان والعقول

عن طريق التربية الفكرية والاجتماعية ، ولم يلتفت إلى إعداد المصريين ليدركوا التغيير الذى يقوم به ويتحملوا معه مسئوليته. ولو فعل محمد على ذلك لضمن لإصلاحه قوة وثباتاً من روح الشعب وقوته ، ولو جدت بذوره تربية طيبة تنبتها نباتاً زكياً ، ولكان إصلاحه مس الأساس دون السطح ، أما وقد أبعد أهل البلاد ، فقد جعل عمله سطحياً زائلا ، يقوم بقيامه ويموت بموته ، ولو كان المصريون شركاء له فى العمل لما انهدم عمله عن آخره بعد وفاته.[1]

لم يفعل الطاغية التركى ، وكبر عليه ، أو لعل الخوف تملكه من أن تقوم بسبب إشراك المصريين فى تحمل المسئولية معه فى مشروعاته ، نهضة فكرية واجتماعية يعرف الشعب بها حقه ويكتشف ذاته ، فتكون القاضية عليه وعلى أسرته الدخيلة . ومن ثم آثر لسلامته أن ترتد البلاد إلى الجمود والتخلف وظلام الذل الذى عانت منه مصر فى العصر العثمانى ، فكرهه الناس ، وأطاعوه بأجسام لا روح فيها تحت ضغط القهر والاستبداد. والواقع أنه كان يحذر المصريين ويخشاهم ، ويحس بينهم إحساس الغريب المنبوذ ، ويشعر بأن الثقة قد فقدت بينه وبينهم منذ نقض عهده مع زعماء الحركة الشعبية التى أتت به إلى الحكم ، وقد صرح هو نفسه بذلك للقنصل الروسى فى مصر على عهده[2] .

بين التجنى والحقيقة :

اشترط البند التاسع من « فرمان الفكسة » أن يخفض الجيش المصرى إلى ١٨ ألف جندى ، بعد أن وصل تعداده عام ١٨٣٩ إلى ٢٧٦,٦١٦[3]

(١) حسين مؤنس : الشرق الإسلامى فى العصر الحديث ص ١٤٥ ، القاهرة ١٩٣٨ .

(٢) حسين فوزى النجار : رفاعة الطهطاوى . أعلام العرب عدد ٥٣ ص٣٨، القاهرة ١٩٦٦ .

(٣) تفصيلات إحصاء الجيش المصرى فى عهد محمد على؛ أنظر : الرافعى « عصر محمد على » ص ٤١٣ — ٤٦٣

جندياً . وكانت قوة الجيش المصرى الضـــاربة ، والروح الحربية الـكامنة فى جنوده ، ومهاراتهم العسكرية التى أثبتوها فى مجال الحركة وميدان القتال ، تمثل أكبر الخطر على سلطان تركيا ، وعلى مصالح الدول الـكبرى فى الشرق كله ؛ ومن ثم كان إضعاف هذا الجيش هدفاً من أهداف التسوية الدولية التى فرضت على « محمد على » . وفى خوف تركيا من الجيش المصرى ، وفزع الدول الـكبرى من الجنود الفلاحين ، أبلغ رد على الادعاءات التى ادعاها الحـكام الدخلاء وبعض المؤرخين من الأجانب والعرب ، حين زعموا أن المصرى ينفر بطبعه من الانتظام فى الجندية ، ويفضل عليها أن يكون عبداً للأرض والزراعة ![1] ولعلهم قد اتخذوا من نفور المصريين من الانتظام فى جيش الدكتاتور التركى دليلا على دعواهم ، غير ناظرين إلى الأسباب الحقيقية لهذا النفور ، ودون أن يتلمسوا من أحداث التاريخ القديم والعربى والحديث الشواهد والأدلة التى تقوض ادعاءهم من أساسه

والحقيقة أن شعب مصر ، قبل أن ينزل به ظلام الغزو العثمانى ، تحمل ببسالة منقطعة النظير مسئوليات حاسمة لصالح المنطقة كلها ، فأخـــذ على عاتقه المسئولية المادية والعسكرية فى صد أول موجات الاستعمار الأوربى ، التى جاءت إلى الشرق العربى مستترة وراء صليب المسيح . وتحمل المسئولية الأدبية والعسكرية فى رد غزوات « التتار » ، الذين اجتاحوا سهول الشرق حاملين الخراب معهم والدمار . وفى مواجهة الاحتلال الفرنسى ، بعد أن رأوا هزيمة المماليك وعجز الأتراك عن الدفاع عن الوطن ، دافع أهـــل الإسكندرية عن ثغرهم بقيادة « السيد عمر مكرم » ، وقاوموا الفرنسيين فى شجاعة نادرة ، وخرج كل قادر

---

(١) أنظر : المصدر السابق ص ٣٨١ — ٣٨٦ .

على حمل السلاح من المصريين ليدافع عن القاهرة ، ونظموا « ثورة القاهرة » المشهورة ، ودارت بين رجال المقاومة الوطنية وبين الفرنسيين أكثر من ٣٠ معركة ، وظلوا فى مقاومتهم حتى حمل المستعمر عصاه على كتفه ورحل ، ثم رموا بالإنجليز إلى البحر حين جاءوا يجربون حظهم فى الاحتلال عام ١٨٠٧ .

فى كل هذه المعارك كان المصريون يتسابقون إلى حمل السلاح ، ويتدافعون إلى الانتظام فى الجيوش المحاربة ، وكأنهم جميعاً جنود تحت السلاح ، فما إن يدوى نفير الحرب حتى يصبح كل مصرى جنديا محاربا يهرع إلى الميدان . ذلك لأن العلماء والوعاظ وذوى الرأى كانوا يعتلون منابر المساجد ، ويتصدرون المجالس ، ويجتمعون بالناس يشرحون لهم الهدف من القتال ، والفكرة التى من أجلها يحملون السلاح . يعبئونهم روحيا وعاطفيا وعقائديا ، فتمتلىء قلوبهم بنبل الهدف ، ويؤمنون بالدفاع عن شرف الفكرة ، وينفرون للقتال ليجاهدوا فى سبيل الدين مرة ، وللدفاع عن الوطن أخرى ، يحدوهم الأمل فى النصر أو الاستشهاد فى سبيل الله والوطن وهو خير وأعظم أجرا .

وتكشف المعارك ونبل مقاصدها فى هذا الشعب الأصيل عن حيوية لاتفنى ، ولم تستطع المحن والرزايا والمظالم التى عصفت به أن تقضى عليها ، ولم يذهب بها ماناءت به البلاد من طغيان وفقر وانحطاط ذهنى ، ولكنها كانت تتوارى حتى تكشف عنها الأحداث ، فتبعث أبناء مصر فى يقظة يحسبها من لا يعرفهم أنهم بعثوا من جديد .

ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة للتجنيد الذى فرضه « محمدعلى » على المصريين ، فقد أخذ الفلاحين قسرا إلى المعسكرات وقلوبهم فارغة من فكرة سامية يحاربون من أجلها ، وعواطفهم خاوية من هدف كبير يدعوهم إلى حمل

السلاح ، وأرواحهم خالية من وازع دينى يدفعهم إلى الاستشهاد فى سبيل الله . لم يعبىء الوالى التركى قلوب الناس وعواطفهم قبل أن يصدر أمره بالتجنيد ، ولم يشركهم فى تفكيره واتجاهاته وبقى بمعزل عنهم ؛ ومن ثم أخفق أول الأمر فى أن يحمل المصريين على الإيمان بفكرة تجييش جيوش لا تحقق إلا أطماعاً شخصية .

والمصرى بفطرته السليمة التى تهديه إلى أسلوب العمل ، لم يجد للحروب التى يخوضها الحاكم التركى ويدفعهم إليها مبرراً من دين أو وطنية ، فليس هناك إسلام جريح يستنفر أتباعه للذود عنه ، ولا وطن مستعمر يناجى أبناءه لطرد الغزاة منه ، ولا جهاد أو غزو فى سبيل الله يطلب من المصريين أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ؛ وإنما هو لقاء المسلم للمسلم بالسيف ، فالقاتل والمقتول فى النار ؛ ومن ثم فلا يذهب ليقاتل أخاه المسلم إلا مضطرا . وحين أخرجوا كرها إلى ميادين الحروب ارتفع عنهم الأصر وزال عنهم الذنب ، فاندفعوا إلى القتال مطمئنين ، ورأوا بفطرتهم أنهم إن فاتهم فى هذه الحروب الثواب والأجر فلا يفوتهم النصر . وأخذ بعض المؤرخين بظواهر الأمور ، فظنوا امتناع المصريين عن التجنيد نقصاً فى الروح العسكرية . ولو أنهم بحثوا عن الأسباب الحقيقية ، ونقبوا عن الدوافع ، لوجدوا أن المصريين فعلوا ذلك فى كل مشروعات « محمد على » ولم يقبلوا عليها ، لأنه لم يشرك الشعب فى مسئولية بناء الدولة الحديثة ، فشاد فى الهواء وأقام بناءه فى فراغ .

وبين النهضة والتعبئة :

والشائع المتداول أن « نهضة تعليمية » قامت على عهد « محمد على » ، ولكننا لو تعمقنا فى مظاهر الحركة التعليمية فى ذلك العهد ، وتعرفنا أسبابها ، وتتبعنا أهدافها ومراميها بالدراسة والتحليل ، لما وجدناها تقوم على الأساس الذى تبنى عليه

النهضات؛ذلك لأنها ارتبطت بتحقيق هدف معين حدده طموح شخصى ، وساقت لها القوة كل الإمكانيات البشرية والمادية ، لتعد الفنيين لشتى المشروعات التى تخدم الحركة العسكرية ، وسيلته فى بناء إمبراطورية أحلامه . ومن ثم كانت المدرسة الخصوصية (العالية) أول ما أنشأ من المدارس ، ثم اضطر إلى خلق المدارس التجهيزية لتمدها بالطلاب ، ثم فتح مكاتب المبتديان لتغذى المدارس التجهيزية بالتلاميذ . وكذلك كان نظام تعليمه معكوسا أو على شكل الهرم المقلوب ، يبدأ بالقمة دون بناء القاعده ، ومثل هذا البناء لا يمكن أن يكون نظاما قوميا للتعليم ، بل نشاطا مرتبطا بهدف وطموح فردى ، فإذا ما أجبر على التخلى عن هذا الطموح توقف النشاط وأصيبت الحركة بالجمود والشلل .

لم تكن « نهضة تعليمية » بالمعنى الأصيل ، لأن مرد الأمر فيها كان إلى إرادة رجل واحد احتكرها كما احتكر مرافق البلاد جميعاً ، وطبعها بطابع الفرد ، ووجه مصير البلاد فى السياسة والاقتصاد والزراعة والثقافة وجهة تحقق الهدف الذى ينشده ، وترضى غول الأطماع الذى استولى على حواسه ، فكان يتدخل فى أخص شئون الأهالى ، ويحتكر زراعتهم وصناعتهم وتجارتهم وتعليمهم احتكارا لا يهدف لمصلحة الأمة بل لمصلحته هو وأسرته ، فتولدت لذلك أزمة عدم الثقة بين المصريين وبين مشروعاته ، ومنها تعليمه الحديث الذى يعد له الأعوان من شباب البلاد على النحو الذى يشاء ليبث فيهم مبادىء الطاعة والإخلاص لنظام حكمه .

وبينما كان المصريون يتسابقون فى إرسال أولادهم إلى الكتاتيب ، ثم إلى الأزهر الشريف والمدارس الملحقة به[1] ، لم يجد محمد على من يقبل على مدارسه راغبا لعدم الثقة به ، « فكان ينتزع التلاميذ من أهليهم انتزاعا ويحجزهم فى مكاتبه ، ويختار لهم

---

(١) بلغ تعدادهم ٢٠ ألفاً، بينما بلغ تلاميذ مدارس محمد على فى أوج نشاطها ١٠ آلاف طالب .

لون التعليم الذى تتطلبه الوظائف فى الجيش والمصانع والشفالك والمصالح والدواوين »[1].
كان لا يعنى بهم كأفراد، أو يأخذهم بما يرهف حسهم وينمى قدراتهم ، بل كتروس فى عجلة أهدافه ، فإذا ما ما اضطرت العجلة إلى التوقف أصبحت التروس ولا جدوى لها .
والواقع أن الالتحاق بمدارس الحكومة كان يعنى الالتحاق بخدمة الباشا ، يستغل التلاميذ بما أنفق عليهم ما وسعه الاستغلال [2] .

ولم تكن « نهضة تعليمية » لأنها لم يقصد منها تعليم أبناء الأهالى وكسب المعارف لأبناء العباد ، كما يقول « رفاعه الطهطاوى » ، ولم تكن التربية الشعبية من أهدافها ، بل كانت مترفعة عن أن تمد يدها إلى نظام التعليم الشعبى الممثل فى الكتاتيب والأزهر والذى قام بمصر من أجيال بعيدة . ومن ثم لم تمتد جذور التعليم فى عهد محمد على إلى باطن التربة المصرية ، وبقى معلقا فى الهواء يترنح وينقبض أو ينبسط حسب مراج الحاكم ، وقد اقتضت مشيئته أن يقصره على فئة قليلة يختار أفرادها ، ويرسم لهم طريق الحياة . وحتى هذه الفئة المختارة من أبناء الشعب ، لم يكن العلم نفسه هو القصد من تعليمهم ، أو حقهم فى الثقافة هو الدافع لتثقيفهم ، بل بوصفهم وسيلة لتحقيق أهداف الوالى . وأشار إلى ذلك معلم النهضة « رفاعة الطهطاوى » فى قوله « وأما تربية الأهلية وإدخال المعارف فى أفراد مراتب الرعية على اختلاف درجاتهم ، والتسوية بين الأعيان والرعاع فى مادة التعليم الأهلى ، فلم تساعده [محمد على] المقادير على كمال الالتفات إليه » . وكتب سر العسكر إبراهيم بن محمد على إلى أبيه مرة مستحسنا ما سمعه من سليمان الفرنساوى عن التعليم الشعبى فى فرنسا ، فرد عليه أبوه يلفت نظره إلى ما تعانيه أوروبا من نتائج تعميم التعليم بين أبناء العامة ، وإلى أنهم كانوا قد تورطوا فى تعليم الناس حتى أضحوا وليس فى طاقتهم تلافى ما فات. « فإذا كان هذا المثال أمام الأنظار ،

---

(١) أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على ص ١٦٠ .

(٢) المصدر السابق .

فمن الواجب أن تتفضلوا فتكتفوا بتعليم القراءة والكتابة لعدد منهم يكفى لأعمال الرياسة غير مولعين بتعميم ذلك التعليم[1] » .

والحقيقة أنها كانت « تعبئة تعليمية » وجزءا من مخطط يهدف إلى تحويل مصر إلى دولة عسكرية تحقق للوالى التركى أطماعه وأحلامه ، وتحولت المدارس المدنية ـ تبعا لهذا المخطط ـ إلى مدارس تسير بالنظم الحربية ، فأصبحت أشبه بثكنات عسكرية تدوى فيها أبواق النفير تدعو إلى النوبات والطوابير ، وتعلم ، إلى جانب مواد الدراسة ، إطلاق الرصاص والخطوات العسكرية ، وهو نظام يعود الطاعة واحترام السلطة والرئاسة دون تفكير .

أما التعليم فى المدارس الحربية ، فقد كان لأولاد الجراكسة والأتراك ومماليك الوالى وحدهم ، وهو التعليم الذى لا يحترمون سواه ، ويرونه طريقهم الطبيعى إلى المناصب الكبرى فى الدولة ، يهبهم مظاهر السيادة ، ويتحكمون به فى مراكز القوة فى البلاد ؛ ولذلك لم يصبه ما أصاب التعليم المدنى من جمود واضمحلال ، وبقيت المدارس الحربية فى عهد محمد على تستقبل أولاد الطبقة الحاكمة من الترك والجركس . وكان التعليم الحربى مرحلتين : التجهيزية الحربية ، والخصوصية (العالية) الحربية . أما المرحلة التجهيزية — وهى فى مستوى المرحلة الثانوية — فقد كانت تعد الطلاب للمدارس العليا (الخصوصية) ، وكانت تستمد تلاميذها من خريجى « مدرسة المبتديان » « بالقاهرة » « ومكاتب المبتديان » بالأقاليم أو ممن أتموا الدراسة الإبتدائية ، ويختار العدد المطلوب ممن يجتازون امتحان القبول الذى يعقد للمتقدمين إليها .

---

(١) الوثائق التاريخية لعصر محمد على دفتر ٢١٢ (معية ١ رقم ٢٧٧) إلى الباشا السر عسكر فى ٢٩ ذى الحجة ١٢٥١ هـ .

النشأة ، والتعليم ، والتكوين النفسى

اليتيم الصغير فى مرحلة الطفولة :

تزوج أمير المدفعية اللواء « حسن حسنى الجركسى الألفى » ، وقد بلغ من العمر ٢٦ عاماً (١٨٣٧) ، بفاطمة هانم البارودية ، وكانت تكبره بثمانية عشر عاماً[١] . ولم تكن أسرته تضارع أسرة « البارودى » العريقة فى المجد الموغلة فى الجاه والواسعة الثراء ، ومن ثم انتسب إلى أسرة زوجته على عادة المماليك وتقاليدهم . وأصبح منذ زواجه يعرف « بحسن حسنى البارودى » بدلا من « حسن حسنى الجركس الألفى » ، فهو بارودى ولاء لا نسباً . وفى ٦ من أكتوبر عام ١٨٣٩ ولد لهما ولد سمى « محمود سامى » ومن بعده بنت سميت « فاطمة البارودية » .

ولو أننا أردنا أن نطبق قواعد النسب حسب المبادىء المعروفة ، لوجدنا أن شاعرنا « محمود سامى » قد اكتسب لقبه « البارودى » من أمه وليس من أبيه .

وفى عام ١٨٤٦ عين اللواء « حسن حسنى البارودى » مديراً لبربر ودنقلة بالسودان[٢] . ولم يسعد حسن حسنى « بالمنصب الجديد ، فقد أحس فيه عدم الرضى من « ولى النعم » ، والرغبة فى التخلص منه[٣] ؛ غير أنه لم يكن يملك إلا الطاعة وشكر الباشا على مِنّته وفضله !

---

(١) توفيت عام ١٨٨٢ ، وقال البارودى فى قصيدة رثائها ، إنها بلغت ٩٠ عاما ، فيكون مولدها عام ١٧٩٢ ، ومولد حسن حسنى عام ١٨١٠ .

(٢) مقدمة الديوان شرح الإمام . (٣) معلومات الأسرة .

وسافر « حسن حسنى » وحده على كره منه ، وترك ولده « محمود سامى » ولما يبلغ السابعة من عمره ، وودع أهله ونفسه تحدثه بأنه الوداع الأخير . وما إن وصل إلى السودان حتى صدق إحساسه وتحقق ما كان يخشاه ، فقد أصيب بالحمى بعد أربعين يوما من تسلمه عمله الجديد[1] . وتمثل المريض نفسه وهو يعانى أوصاب الحمى وحيداً بعيداً عن الأهل والوطن ، واسترجع ماضيه حين قتل أبوه فى « مذبحة القلعة » وهو وليد فتعثر فى ظلمات اليتم وقست عليه الأحداث ، وتكشفت له الحجب عن المستقبل حتى صارت واقعاً مريراً فوجد التاريخ يعيد نفسه ، ويكرر المأساة مع ولديه وما زالا غريرين ليس لهما من راع ولا نصير . ولم تجد قوته ولا شبابه فى مقاومة المرض القاتل نفعاً فقضى نحبه ، ودفن فى دنقلة[2] غريب الأهل والدار !

قضى « حسن حسنى البارودى » وخلف طفله « محمود سامى » فى السابعة من عمره ، تتفتح مداركه على حسرة اليتم وألم الحرمان من عطف الأبوة . ويحفر الحادث فى قلب الصبى الصغير ذكراه بحروف من الأسى والحزن ، فقد مضى أبوه عنه وتركه أعزل دون حماية من أطماع البشرية ونوب الأيام ، وعرضه موت أبيه لتجربة مبكرة بالحياة والناس وما فيهما من شرور ، وما تمتلىء به النفوس من ظلم وغدر ومكيدة وعدم وفاء . وهى تجربة ظلت آثارها السيئة تعيش فى نفس الصبى حتى كبر ، ثم انفعل بها فرددها فى شعره ، ولم تزدها الأيام وأحداثها إلا تأكيداً ، ففقد الثقة فى الأصدقاء ، وظل يبحث عن الخل الوفى مع العنقاء . ويذكر « البارودى » موت أبيه ويستعيد الصورة الحزينة التى

---

(١) مذكرات الأسرة .

(٢) توفى وسنه ٣٦ عاما ، وكان قوياً ضخم الجسم ممتلئا كما تقول حفيدتاه فاطمة ومشيرة ؛ وانظر : مقدمة مراثى الشعراء ، جمع خليل مطران .

طبعها الحادث فى قلبه بعد ثلاث عشرة سنة فيجدها حية مكللة بالأسى فى ذكراه فيقول :

مَاتَ الذى ترهبُ الأقرانُ صولتَه ويتّقى بأسَه الضِرغامةُ العَادى
مَضى وخلّفنى فى سنٍّ سابعةٍ لا يرهبُ الخَصْم إبراقى وإرعَادِى
إذَا تلفتُّ لم ألمح أخَا ثقــةٍ يأوى إلىّ ولا يسعى لإنْجادِى
فالعينُ ليس لها من دمعها وَزَرٌ والقلبُ ليس له من حُزنه فَادِى

وقدرت الأم بعد وفاة زوجها بالسودان المسئولية التى ألقاها القدر على عاتقها ، وتحملت أمانة تنشئة وليدها وتعليمه بشجاعة دون إشفاق أو تردد . ومن الطبيعى أن تختار « فاطمة هانم البارودية » لابنها طريق التعليم الحربى شأن أقرانه من أبناء الجراكسة ، وهو التعليم الذى يرونه طريقهم الطبيعى إلى المناصب الكبرى ومراكز القوة فى البلاد . وكانت وهى توجهه إلى هــذا الطريق ، وكأنها ملهمة بإحساس الأم المشفوع بروح التعقل وتقدم السن ، أن الصبى الذى فى كفالتها تنتظره الأيام لتصنع منه قائداً عظيما يخوض المعارك والحروب ، وزعيماً وطنياً يقوم بدور كبير على مسرح أمته السياسى ، وشاعرا رائداً يبعث النهضة فى شعرها الحديث . فنذرت نفسها لرعايته ، ولم تشغل شأن النساء بصدمة الترمل ؛ بل عكفت على إعداد ولدها لمستقبل ينتظره ، فخططت لتربيته وتعليمه وتنشئته ، فما إن بلغ الثامنة من عمره حتى استقدمت إلى دارها معلمين خصوصيين يقومون على تأديبه فى سنواته الأولى وتعليمه دروس المرحلة الابتدائية[١] .

---

(١) مقدمة مراثى الشعراء جمع خليل مطران ص٧؛ ومقدمة ديوان البارودى شرح الإمام

والتعليم الخاص على أيدى معلمين فى المنازل كان سبيل الأسر الكبيرة من ذوى اليسار والنعمة لتعليم أبنائهم فى المرحلة الأولى . ذلك أنه لم يكن بالقاهرة وقتذاك (١٨٤٧) من مدارس هذه المرحلة غير مدرسة واحدة هى « مدرسة المبتديان »[١] . وكان القبول فيها شبه محصور على مماليك الوالى ، وأيتام الروزنامة[٢] ، ومن يختارون من أبناء الفقراء الذين يعتبرهم ديوان المدارس من يوم دخولهم المدرسة غلماناً لولى النعم[٣] .

وكان لزاماً على « محمود سامى » أن يدرس على يد معلميه الخصوصيين مواد الدراسة الإبتدائية حتى يجتاز امتحان القبول المدرسة « التجهيزية الحربية » . ومنهج الدراسة فى « مدارس المبتديان » وقتذاك موزع (بقانون نامه) المرتب من طرف شورى المدارس على فرقها الثلاث كما يلى :

الفرقة الثالثة (فرقة المبتدئين) : الهجاء ، وحفظ ربع القرآن الكريم ، وقصص الأطفال .

الفرقة الثانية (الفرقة المتوسطة) : القرآن الكريم ختم وإعادة ، والأجرومية (النحو والصرف) وشرحها ، والسنوسية (فى التوحيد) وشرحها ، والجغرافيا (قراءة) ، والأطالس ، وكتاب الأخلاق ، وكتاب التوحيد (علم الحال) ، والحساب ، والهندسة ، والتمرين على خط الرقعة .

الفرقة الأولى (النهائية) : الكفراوى وشرحه ، والترجمة للمواطنين (كذا) والصرف والنحو للأتراك والغلمان الترك ، والخط الثلث والرقعة ،

---

(١) أحمد عزت عبد الكريم . تاريخ التعليم فى عصر محمد على ص ١٣٢ ، ٣١٥ . والمبتديان معناها المبتدئون .

(٢) الروزنامة : إدارة أموال الميرى ، والمراد بأيتام الروزنامة أطفال الملاجىء اليتامى الذين ينفق عليهم من أموال الميرى.

(٣) تاريخ التعليم فى عصر محمد على ص ٢١٦ .

وكتاب علم الحساب (المطبوع حديثاً) وقراءة كتاب علم الأخلاق ، وتضاف اللغة التركية فى جميع السنوات للأتراك والجركس[1] .

درس البارودى هذا المنهج فى سنوات أربعة ١٢٦٣ — ١٢٦٧[2] هـ (١٨٤٧ — ١٨٥١) عالج فيها كتب النحو ، والصرف ، والتوحيد ، والأخلاق ، وحفظ القرآن الكريم . وكانت دراسته على نمط الدراسة فى مكاتب المبتديان ، وهى دراسة مستمدة من الأزهر ومقلدة له مادة ، وطريقة ، ومعلمين ؛ لأن الحكومة حين أنشأت مكاتبها لم تجد أمامها من كتب غير الكتب الأزهرية ، ولم تجد معلمين غير المتعلمين فى الأزهر ، فكان طبيعياً أن تعتمد عليهما فى مدارسها . ولقد تأثر البارودى كما تأثر تلاميذ عصره بهذه المحاكاة ، ومن ثم فقد كان تأثر الأزهر فى رواد النهضة قوياً وواضحا .

البارودى فى المدرسة الحربية :

بعد أن أتم محمود سامى دراسته الإبتدائية عام ١٢٦٧ هـ (١٨٥١م) ، وقد بلغ الثانية عشرة عن عمره ، وأصبح مؤهلا لدخول المدارس الحربية ، كان « عباس الأول »[3] قد أمضى فى حكم مصر قرابة عامين ، قضى فيهما بحمقة وضيق أفقه وتعصبه الأعمى لتركيته على الذبالة المضيئة الباقية من معاهد التعليم ، وهدم المقومات الإقتصادية للبلاد ، وبلغ المد الرجعى فى عهده غايته ومنتهاه . وقد كان « عباس » قبل توليته الحكم وبعد أن تولاه خلواً من المزايا والصفات

---

(١) أنظر : تاريخ التعليم فى عصر محمد على ص ١٧٤ ، ١٨٠ — ١٨١ ؛ وجورجى زيدان : تاريخ مصر الحديث جـ ٢ ص ١٨٢ .

(٢) مقدمة مراثى الشعراء ؛ ومقدمة الديوان شرح الإمام .

(٣) ابن طوسون بن محمد على حكم من سنة ١٨٤٨ الى ١٨٥٤ .

التى تجعل منه ملكا يستطيع أن يقوم بأعباء الحكم ويسلك بالبلاد سبيل التقدم والنهضة[١] ، وكان يضيق بالإصلاح ، ويرى فى الهدم أقرب وسيلة وأيسرها إيثاراً للعافية[٢] . وقد أجمع المؤرخون العرب والأجانب على أن عباساً هذا ولد رجعياً بطبعه ، وأن عهده كان الذروة فى التخلف والرجوع بالبلاد القهقرى ، وابتلى بالمرض الذى أصيب به ملوك أسرته جميعاً وهو جنون العدواة لكل عمل قام به أسلافه ، دون نظر إلى مصلحة الوطن أو قيمة العمل نفسه ، فوقف موقف العداء لكل ماقام فى عهد جده محمد على وعمه إبراهيم من مظاهر العمران . أهمل ما بقى من الجيش والبحرية حتى دبت فيهما الفوضى وسوء النظام ، وأغلق — بحجة الاقتصاد — المصانع والمعامل والمدارس ، واستدعى معظم البعثات من الخارج ومنع سفر الجديد منها « مع أنه لم يعرف الاقتصاد فى سلب الفلاح أمواله بالعنف والقسوة[٣] » .

ومثل « عباس » النعرة التركية والتعصب لجنسه أصدق تمثيل ، ومع أن جده محمد على كان قد سبقه فى هذا السبيل ، إلا أنه لم يصل فى تعنته إلى درجة الحفيد ، فقد كان عباس يتعصب للأستقراطية التركية تعصباً أعمى ، « فطرابيش مستخدمى الحكومة وأزياؤهم يجب أن تكون على مثال ما يلبسه الموظفون فى الباب العالى ، وعليهم أن يرسلوا لحاهم كما يفعل الموظفون فى دار السعادة أيضاً[٤] » . ولم يكتف عباس بالمظهر الخارجى وحده ، بل أراد أن يقضى على الروح القومية المصرية التى أخذ يسرى شعاع منها فى قلوب متعلمى الرعيل الأول من أبناء البلاد ، فقصر الوظائف على الأتراك والأرناؤود ومن يعرف

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل (القاهرة ١٩٤٨) جـ١ ص ٩ — ١٠ .
(٢) أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر عهد عباس وسعيد ص ١١ .
(٣) جورج ينج : تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل، مترجم ص ١٧٩ .
(٤) أمين سامى : تقويم النيل جـ٣ ص ٢١ — ٢٤ . ودار السعادة هى دار الخلافة بالآستانة .

التركية ويشبه الأتراك من المصريين ، وجعل التركية لغة التدريس والحديث بين تلاميذ المدارس .

وكان عصره امتداداً « للنكسة » الفكرية والثقافية ، وسار بها إلى آخر طريق الظلام ، فأعلن الحرب على معاهد التعليم ، وألغى مالم يتعطل منها فى عهد جده[1] ليحرم الشعب من نور المعرفة ، ولم يُبق منها إلا ما يكفى لتخريج العدد الكافى من المهندسين لبناء قصوره ، ومن الأطباء لرعايته وكلابه وجياده وفرقة حرسه من الأرناؤود . ولم يكن ذلك غريبا من عباس « فقد كان يكره العلم والمتعلمين ، ولم يكتف بغلق المدارس بل أنفذ إلى السودان طائفة من كبار علماء مصر فى عهده[2] » .

وبعد أن أغلق « عباس » المدارس الحربية من تجهيزية وخصوصية (عالية) أقام على أنقاضها مدرسة جديدة سماها « المدرسة الحربية المفروزة »[3] ، وآثرها الوالى بالاهتمام والرعاية ، فقد كان يحس أنها وحدها من صنعته ومن خلقه وإنشائه ، ومن ثم طلب أن يختار لها التلاميذ من أفضل العناصر التى احتوتها المدارس الملغاة والباقية من عسكرية ومدنية على السواء . وطاف رجال الحكومة « يفرزون لها الصفوة المختارة من التلاميذ »[4] . والتحق بها

---

(١) ألغيت مدارس المشاة ، والفرسان ، والمدفعية عام ١٨٤٩ ، والطب البيطرى عام ١٨٤٨ ، والمدارس البحرية ومكاتب المبتديان جميعا و لألسن والمكتب العالى بالخانقاه عام ١٨٤٩ ، والتجهيزية عام ١٨٥٠ والمحاسبة عام ١٨٥١ .

(٢) من بينهم رفاعة الطهطاوى ، ومحمد بيومى، ودقلة أفندى ؛ أنظر : عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل جـ ١ ص ١٦ .

(٣) أنشئت عام ١٨٤٩ بالخانقاه ثم نقلت إلى العباسية ؛ محمد مختار : كتاب التوفيقات الإلهامية (القاهرة ١٣١١ هـ) ص ٦٢٣ .

(٤) إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (القاهرة ١٣١٢ هـ) جـ٢ ص ٢٦٢ ؛ وعلى مبارك : الخطط التوفيقية جـ ٩ ص ٤٣ .

المتازون من الطلاب ، ولـكن تقدمهم العلمى وامتيازهم الدراسى لم يغنهم شيئا عند عباس ، فقد كان يعنيه شكل الطالب ومظهره لا عقله وقدراته واستعداده كان يريدهم أتراكا أو شكل الأتراك « جمال الخلق ، وطول القامة ، وقوة الجسم وتناسق الأعضاء »[١] . وبعد افتتاح الدراسة ذهب ليزور المدرسة، واصطف تلاميذها لتحية « ولى النعم الآصفى » ، فإذا به يطرد أكثر المصريين منها لأن شكلهم لم يطابق المواصفات التركية التى يريدها ، ويغضب على المعلمين « لأن معظم التلاميذ الذين انتقوهم ليسوا إلا أولاداً للفلاحين ، جمعوا وأدخلوا المدرسة بدون نظر لما تقدم[٢] » من أوامره ، ثم أصبحت الأولية فى الالتحاق بالمدرسة لغلمان المماليك وأبناء الأتراك والجراكسة . وكان يستورد لها الطلاب من « قوله » وغيرها من البلاد التركية على منح خاصة من الوالى[٣]

وعهد عباس أول إنشاء « المدرسة المفروزة » إلى « على مبارك » بتعيين معلميها وترتيب دروسها ، واختيار ما يلزم لها من الكتب ، لأجل الحصول على المقصود واكتساب رضا ولى النعم الآصفى[٤] . ونجد أثر « على مبارك » واضحاً قوياً فى منهج الدراسة الذى تقرر على طلاب هذه المدرسة ، بالرغم من الصبغة الحربية التى تميزت بها ، والنظام الحربى الذى خضعت له فى حياتها الدراسية والمعيشية ، « فقد كان طلبتها - إلى جانب الفنون الحربية — يقرأون الكتب التى يقرؤها طلبة المدارس المدنية كجملة الصرف ، والكفراوى ، وإنشاء العطار ، وكتب الهندسة ، والحساب ، والرسم ، واللغتين التركية والفارسية[٥] .

---

(١) أمر ولى النعم الآصفى إلى مديرية الجهادية فى ١٢ ذى القعدة ١٢٦٥ هـ (محافظة ٤ جهادية) أنظر : تاريخ التعليم فى مصر : عهد عباس وسعيد ص ٧١ .

(٢) المصدر السابق . (٣) تاريخ التعليم فى مصر جـ ١ ص ٧٢ .

(٤) دفتر ١٥٣ (مدارس عربى) ص ٢٧٩٦ رقم ٢٠٢٥ إلى أميرالاى عساكر مفروزة فى ٣ شعبان ١٢٦٦ ؛ والخطط التوفيقية جـ ٩ ص ٤٣ .

(٥) تاريخ التعليم فى مصر جـ١ ص ٧٥ ؛ أنظر الجدول الدراسى كاملا كما هو منقول من جداول الامتحانات بدفاتر ديوان الجهادية فى تاريخ التعليم فى مصر جـ ١ ص ٢٠٢ ، ٢١٨ .

التحق البارودى بالمرحلة التجهيزية من « المدرسة الحربية المفروزة » عام ١٢٦٧هـ[1] (١٨٥١) ، وانتظم فى سلك طلابها يتعلم فنون الحرب ، ويقرأ معهم القرآن الكريم ، وكتاب جملة الصرف ، وشرح الكفراوى ، وإنشاء العطار ، وكتب الهندسة ، والحساب ، والجبر ، ويتعلم الرسم ، واللغة التركية والفارسية . ولم يجد البارودى صعوبة فى قراءة الكتب المقررة ، ولم تمثل مناهج الدراسة العربية أو التركية مشكلة لديه ، فقد قرأ أكثرها من قبل فى دراسته الخاصة لمنهج المرحلة الابتدائية على عهد « محمد على » استعداداً لامتحان القبول بالمدارس الحربية[2] ، فلما تغيرت نظم التعليم فى عهد عباس كان المنهج الذى وضعه « على مبارك » للمرحلة التجهيزية من المدرسة المفروزة فى اللغة العربية والمواد العلمية ، أقل فى المستوى من المنهج الذى وضعه « رفاعة الطهطاوى » للمرحلة الابتدائية فى عهد محمد على . ولعل « على مبارك » أراد وهو يضع هذا المنهج لطلاب المدارس الحربية التخفيف فى المواد الثقافية حتى يتفرغوا للعلوم العسكرية ، أو لعله راعى روح العصر الذى تدهور فيه المستوى العلمى للمدارس والطلاب ، أو أنه رجا بذلك « اكتساب رضا ولى النعم الآصفى » المتعصب لتركيته على حساب اللغة العربية .

أياً ما كان السبب فقد نعم البارودى بالدراسة فى « المدرسة المفروزة » ، وسعد بالالتحاق بها ، وقد حققت له آماله فى أن يسير على نهج أبيه ليخرج منها ضابطاً فارساً مثله ، وأرضت رغبة ملحة فى نفس الفارس

---

(١) مقدمة مراثى الشعراء ص ٧ ؛ ومقدمة الديوان شرح الإمام .

(٢) كان الامتحان فى القرآن الكريم وفى قراءة كتب شرح الكفراوى ومتن الاجرومية (نحو) ومتن البناء والمقصود (صرف) وعلم الأخلاق والسنوسية وعلم الحال (توحيد) وعلم الحساب والخط الثلث واللغة التركية للأتراك وغلمان الأتراك .

الصغير ، ذلك أن سهولة أكثر المواد الدراسية بالنسبة له زودته بفراغ من الوقت يقضيه فى صحبة دواوين الشعراء ، يقرأ شعرهم ويسعد بقراءته ويردده فيطرب لترديده ، ثم يحقق ذاته حين يستجيب لربة الشعر وقد أخذ إلهامها يضغط على عواطفه ووجدانه ، ويسمع لقيثارتها نغماً دائماً فى آذانه ، فيجرب موهبته فيه ، ويحاول الإنشاد ولكنه لا يجد من يستمع إليه ، فلداته وأقرانه من حوله فى المدرسة عجم أو أشبه بالأعاجم ، لا يفهمون مايلهج به لسانه ، يتعالون بتركيتهم أو أرستقراطيتهم الجركسية ، وينظرون إلى من يتكلم العربية من الأتراك والجركس نظرة استنكار وسخرية « لأنه يتعاطى لغة الفلاحين العرب » . ويعيش البارودى معهم وحيداً ويحس بين زملائه إحساس الغريب وكأنه من غير جنسهم ، يقضى معهم أوقات الدراسة تلميذ حرب ومشروع قائد ، ثم لا يلبث أن يروغ منهم وينأى عنهم ، يحاول التعبير عن أحاسيسه ، ويستجيب لانفعالاته ، وينفرد بشعره يجرب إنشاده لنفسه اتقاء السخرية وخوف العقاب[١] .

وتدفع سنوات الدراسة الأربعة بالتلميذ « محمود سامى » إلى السنة النهائية من المرحلة التجهيزية الحربية ، وقد وصل فيها إلى رتبة « باشجاويش[٢] » ، وتسلمه الأيام إلى أحضان الشباب ، وقد بلغ ستة عشر ربيعاً ، ونفسه مفعمة بالطموح والأمل ، وهو على الطريق إلى القسم العالى من المدرسة الحربية ليخرج ضابطاً وقائداً . ولكن رياحاً تهب فتغير من اتجاه الطريق الذى رسمته الآمال ، فما إن يتخرج محمود سامى أواخر عام ١٢٧١[٣] (يوليو ١٨٥٥) من المدرسة

---

(١) كان العقاب شديداً لمن يتكلم العربية فى وقت الفراغ بين المحاضرات وبعد الدروس ؛ أنظر : البارودى رائد الشعر الحديث : شوقى ضيف (القاهرة ١٩٦٤) ص ٤٨ .

(٢) مقدمة مراثى الشعراء ص ٧ ؛ ومقدمة الديوان شرح الإمام .

(٣) المصدر السابق .

المفروزة ، حتى يصدر « سعيد » ، وكان قد بدأ عهده ، أمراً بإلغائها [١]. وأطفأ جمود سعيد كل ضوء ينبعث منه شعاع من علم ، «فقد كان يعتقد أن تعليم الناس يجعل حكمهم عسيراً ، ويمكنهم من نقد تصرفاته ، ويطالبونه بحقوقهم [٢]» ؛ ولذلك فقد حل « ديوان المدارس » وألغى ما بقى من معاهد التعليم ، « وباع أثاثها وأبنيتها وأدواتها ومعاملها ومكاتبها ومطابعها بأبخس الأثمان حتى يقضى على كل أمل فى عودتها [٣]» . والواقع أن سعيداً كان غير سوى فى تفكيره ، وأكثر جموداً ورجعية ممن سبقه من حكام أسرته ؛ فقد جعل التعليم ، والجيش ، وأمور الدولة ملهاة يتسلى بها ، « وما كان على رأى ثابت فى بقاء الجيش ولا فى المدارس العسكرية ومحلات التعليم ؛ بل كان كل يوم فى تغيير وتبديل وإنشاء ، ونقض وإبرام وإلغاء ، وكان على الدوام مشتغلا بلغو الجيش وإنشائه [٤]» .

وخرج محمود سامى من المدرسة المفروزة ليجد سبيل إتمام الدراسة الحربية أو الالتحاق بخدمة الجيش قد سدت منافذها دونه ، ويختم البارودى حياته المعهدية بشهادة التجهيزية الحربية ، وبلقب (باشجاويش) فى الجيش السلطانى . أما رصيده من الثقافة المدرسية فهو القرآن الكريم ختم وإعادة ، وقراءة متن الأجرومية وشرحها ، وشرح الكفراوى ، وجملة الصرف ، وإنشاء العطار ، وكتاب علم الأخلاق ، وكتاب السنوسية وعلم الحال فى التوحيد ، إلى جانب الجغرافيا والأطالس والحساب والجبر والهندسة واللغتين التركية والفارسية [٥] .

---

(١) كتاب التوفيقات الإلهامية ص ٦٣١ ؛ وتاريخ التعليم فى مصر ج ١ ص ١٨٦ .

(٢) مصطفى بدران : تاريخ التعليم ونظامه فى مصر الحديثة (القاهرة ١٩٦٤) ص ٣٤

(٣) محمود فهمى : البحر الزاخر فى تاريخ الأوائل والأواخر (١٣١٢ هـ) ج ١ ص ١٩٨

(٤) المصدر السابق

(٥) حصيلة الدراسة فى المرحلة الابتدائية فى عهد محمد على والمرحلة التجهيزية الحربية فى المدرسة المفروزة .

ومن هنا نتبين أن ماذهب إليه حسين المرصفى فى كتابه « الوسيلة الأدبية » لا يمثل الحقيقة فى قوله : « هذا الأمير الجليل ذو الشرف الأصيل ، والطبع البالغ نقاؤه ، والذهن المتناهى ذكاؤه ، محمود سامى باشا البارودى ، لم يقرأ كتاباً فى فن من فنون العربية ؛ غير أنه لما بلغ سن التعقل ، وجد من طبعه ميلا إلى قراءة الشعر وعمله ، فكان يستمع بعض من له دراية وهو يقرأ بعض الدواوين ، أو يقرأ بحضرته ، حتى تصور فى برهة يسيرة هيئات التراكيب العربية ، ومواقع المرفوعات منها والمنصوبات والمخفوضات حسب ما تقتضيه المعانى والتعلقات المختلفة ، فصار يقرأ ولا يكاد يلحن[1] » . وقد تبع المرصفى فى هذه الدعوى جميع الذين كتبوا من بعده عن البارودى .

التعبئة النفسية :

تلقى « محمود سامى » تعليمه المهدى على يد معلمين خصوصيين فترة وفى المدرسة الحربية المفروزة فترة أخرى ، وكان يتلقى فى نفس الوقت دروساً من نوع آخر على يد معلمته الأولى ، أمه ، تلك التى وهبت حياتها له ، ووقفتها عليه . فمنذ بدأت آفاق التفكير عنده تتفتح ، وتتسع مداركه وتسفر عن تقبله للمعرفة ، شرعت تعده إعداداً نفسياً وروحياً ، ليحتل المكانة التى تؤهله لميراثه من السيادة والعزة والمجد التليد ، فأخذت تشحن عواطفه ، وتعبىء روحه بالقيم والمعايير التى تؤهله فى نظرها لمستقبل يصل به إلى طريق المجد ، طريق آبائه من قبله .

فتحت له أمه صفحات من تاريخ قومه الذين تسنموا ذرة الفخار ، وحدثته

---

(١) حسين المرصفى: الوسيلة الأدبية للعلوم العربية (القاهرة ١٢٩٢ — ١٢٩٦ هـ) ج ٢ ص ٤٧٤ .

عن أجداده الذين بلغوا الغاية من العلا والسيادة . وما يكاد يفرغ التلميذ الصغير « محمود سامى » من دروسه حتى يهرع إليها ، يطلب المزيد من قصص الذين ساروا على دروب المجد من أهله ، فتضرب له على أوتار عواطفه أنغاماً من عزة آبائه ، وتقص عليه طرفا من بطولاتهم ، فتملأ عطفيه طموحاً ، وتهز قلبه إعجاباً ، وتذكى فى نفسه التطلع إلى السؤدد ، وتربط مجده بمجدهم . وتسجل مصورة ذاكرته اللاقطة أحاديث الأم ، وتختزن نفسه انفعالاتها ، لتكون رصيداً ضخماً له فى مستقبل حياته حين تخرج على أسلة لسانه شعراً يضعه فى فم الدنيا يتيه على الناس فخاراً بآبائه .

مِن النَّفر الغُرِّ الذين سيوفهم	لها فى حَواشى كلِّ داجية فَجرُ
إذا استلَّ منهم سيدٌ غَرب سيفِه	تفزَّعت الأفلاكُ ، والتفتَ الدَّهرُ
لَهم عُمدٌ مرفوعةٌ ومعاقلٌ	وألويةٌ حمر وأفنية خُضرُ
وَخيلٌ يرجُّ الخافِقَين صهيلُها	نزَائعُ معقودٌ بأعرافها النَّصرُ
أَقاموا زماناً ، ثم بدَّد شملَهم	أَخو فتَكاتٍ فى الكرام اسْمه الدَّهرُ
فَلم يبقَ منهم غيرُ آثار نعمةٍ	تضُوعُ بريَّاها الأحاديثُ والذكرُ(١)

ويسأل الفتى « محمود » ولا يمل السؤال ، وتأخذ أمه بيده وتطوف به الدار التى شاركت أسرة البارودى أكثر تاريخها ، وشهدت إقبال الدنيا على أهلها حتى وصلت بهم إلى قمَّة العلا وجمعوا المجد من أطرافه ، منذ بناها جدهم الأمير الكبير شيخ البلد « ابراهيم كتخدا مستحتظان القاذدوغلى » لزوجته « فاطمة خاتون » بنت البارودى . فأدار منها دفة الحكم فى البلاد ، وسير

(١) حسين المرصفى: الوسيلة الأدبية للعلوم العربية (القاهرة ١٢٩٢ — ١٢٩٦هـ) جـ ٢ ص ٤٩١؛ ذكرت هذه القصيدة فى الديوان (شرح الجارم) جـ ٢ ص ٤٣ — ٤٥ مختلفة فى بعض الألفاظ عن رواية الوسيلة .

فيها شئون الدولة بعد أن « انتهت إليه رئاسة مصر وسيادتها . . ونفذت كلمته وعلت سطوته على بقية المماليك . . وأدرك من العز والعظمة ونفاذ الكلمة وحسن السياسة واستقرار الأمور ما لم يدركه غيره بمصر »[١] . وتصب الأم فى أذن ابنها صفحات من هذا التاريخ ، وتحكى له ما شاهدته الدار من أحداث ، وتحدثه عمن سكنها قبله من آبائه ، ولكل منهم فيها أثر ، وفى كل ركن عليهم دليل ، وفى كل غرفة من ذكرياتهم قصة . حتى فناؤها ، كم استقبل من رجالات الدولة وكم ودع ، وبين الاستقبال والتوديع كانت تصنع السياسة فى مصر وتتحدد مصائر الأمور

قصت عليه يوم تجمعت أمراء مصر ، وسادتها ، وكبراؤها ، وعلماؤها فى فناء هذه الدار احتفاء بزواج جدته فاطمة قادن البارودية بجده الأمير على أغا البارودى ، وقد أقام لهما الأمير محمد أغا البارودى ولى أمرهما حفلا عظيما « حضره شيخ البلد ، والأمراء ، والأعيان ، والعلماء وأرسلوا إليه الهدايا العظيمة ، وكذلك جميع التجار ، والنصارى ، والكتاب القبط ، ومشايخ البلدان . وبعد تمام أيام العرس ولياليه بالسماعات ، والآلات والملاعيب ، والنقوط ، عملوا للعروس زفة بهيئة لم يسبق نظيرها ، ومشى جميع أرباب الحرف وأرباب الصنائع مع كل طائفة عربة ، وفيها هيئة صناعتهم ومن يشتغل فيها مثل القهوجى بآلته وكانونه ، والحلوانى ، والفطاطرى ، والحباك ، والقزاز بنوله ، حتى مبيض النحاس والحيطان ، والمعاجينى ، وبياعى البز ، والنساء المغانى ، وأرباب الملاهى وغيرهم . كل طائفة فى عربة ، وكان مجموعها نيفا وسبعين حرفة ، وذلك خلاف الملاعيب والبهلوانات والرقاصين والجنك ، ثم الموكب ، وبعده الأغوات والحريم والملازمون والسعاة والجاويشية ، وبعد ذلك

---

(١) الجبرتى ج ٢ ص ٩١ — ٩٢ .

عربه العروس من صناعة الإفرنج بديعة الشكل ، وبعدها مماليك الخزنة . . . وبعدهم النوبة التركية والنفيرات . وكانت زفة غريبة الشكل والوضع لم يتفق مثلها بعدها[١] » .

ومع الأيام حدثته أمه عما رأته رأى العين من تدافع أهل الحى كل حين إلى فناء هذه الدار يحتمون بها من إيذاء « العساكر الفرنساوية » . وبعد أن تكررت شكوى الناس ، أمرت جدته « فاطمة قادن » مماليكها وأغواتها أن يترصدوا « سر عسكر الفرنساوية » ، فإذا مر فى موكبه بشارع باب الخلق اعترضوا طريقه وأنبأوه بأن سيدتهم تريد الحديث إليه ، ويدخل نابليون دار الست البارودية ، فتحدثه من وراء ستائر المشربية ، عن طريق ترجمانه ، عما يفعله بالأهالى الآمنين جنوده حين يخرجون من الحانات سكارى تدور برؤوسهم الخمر ، فيهجمون على الأسواق والناس ، ويلحقون الإيذاء والضرر بهم وبأموالهم ، وتريه الجموع الفزعة التى هرعت إلى دارها لاجئة مستنجدة وقد رأت موكبه قادما . ولا يبرح نابليون الدار حتى يكتب منشورا يعلق على بوابة شارع « باب الخرق[٢] » يمنع مرور الجنود الفرنسيين فيه إلا لعمل رسمى[٣] .

ولا يمر وقت طويل حتى تكتشف (الاستخبارات) المخابرات الفرنسية أن المقاومة الشعبية فى جهة « باب الخرق » تتخذ من دار البارودية مركزا لقيادتها ووكرا لاجتماعاتها ، آمنة من عيون الفرنسيين الذين حرم عليهم دخول الشارع إلا لعمل رسمى . واهتدت الاستخبارات كذلك إلى أن « على أغا

---

(١) الجبرتى ج ٤ ص ١٩٤ .

(٢) التسمية القديمة لباب الخلق .

(٣) ظل هذا المنشور فى حوزة أسرة البارودى وقد علق نابليون صورة منه على باب دار البارودية ، ثم سرق مع ما سرق من أوراق البارودى بعد القبض عليه إثر هزيمة التل الكبير كما ذكر فى مذكرات الأسرة .

البارودى » رب الدار يقاتل فى جيش المماليك بالصعيد ويصنع لهم البارود ، فأصدر نابليون أمره بالاستيلاء على الدار « واتخذت مقراً لديوان الفردة[١] » ـ الضرائب ـ ، واضطرت الأسرة إلى الانتقال إلى دار أخرى لها بجزيرة الروضة[٢] .

وقصت أم البارودى عليه قصة مقتل جده « على أغا البارودى » ، وقد غدر به محمد على مع من غدر بهم من أمراء المماليك فى مذبحة القلعة المشهورة بعد أن تعهد لهم بالسلام والأمان : ولم يكن جدك مع الأمراء الأربعمائة الذين استأصلهم الطاغية فى حمامات الدم بالقلعة ، فقد كان متغيبا فى الريف يصرف أمور ضيعته ، ثم مرض هناك فلم يستطع تلبية دعوة محمد على للاحتفال بوداع ابنه طوسون قبل سفره على رأس حملة تحارب فى الحجاز . ولم يصل إلى علم جدك على أغا فى ضيعته ما خبأه القدر لبنى جنسه على يد جزار المماليك ، وعاد إلى القاهرة ، وكان الجنود الألبان يحرسون أبوابها ومنافذها ، ويترصدون المماليك فى كل مكان للقضاء عليهم . وما إن أشرف جدك على باب النصر حتى تلقاه الجنود بالسيوف وتناولوه بالرماح ، وكان قوى البنية طويل القامة ضخم الجسم ، فتحمل الطعنات القاتلة ، واستطاع الفرار من قاتليه ، وأطلق لجواده العنان فأسرع به والدم ينزف من جراحه حتى وصل إلى هذه الدار ، ووقف فى هذا الفناء ثم نادى على أمى فخرجنا إليه فزعين ورأيناه يسقط من على الجواد قتيلا لاحراك فيه[٣] .

وتنفعل نفس الصبى بما حدثته أمه عن جده علىّ ، يوم زواجه ، وفى حربه الفرنسين ، ويوم مقتله ، وتظل عواطفه تموج بهذه القوة الوجدانية نحوه حتى يرتفع به خياله فيصله بالثريا ، وحين استطاع التعبير فيما بعد ، قال فيه من قصيدة يفخر فيها بأهله :

---

(١) الخطط التوفيقية جـ٣ ص ٥١ .

(٢) مذكرات الأسرة .

(٣) مذكرات الأسرة على لسان فاطمة هانم البارودية .

وَمِمّا جَدِّى عَــلِىٌّ يطلبُ النجم فَنَــالَهْ[1]
فَهْوَ لِى إِرثٌ كَــريم سوف يَبــقى فى السُّلالَهْ

ويقف « محمود سامى » طويلا أمام اللوحات الرخامية التى زينت بها حجرات الطابق العلوى من الدار ، وقد نقشت عليها بالحفر المطلى بالذهب قصائد نظمها خاله « ابراهيم »[2] ، فيقرأها ولا يمل قراءتها . ويطلب من أمه المزيد من أخبار خاله الشاعر ، فتحدثه عن النابغة الذى ذهب فى ريعان الشباب ، وعن حياته القصيرة التى قضى أكثرها وهو عاكف يقرأ دواوين الشعراء من العرب والأتراك ، وعن القصيد الذى كان ينساب على لسانه ، والندوات الأدبية التى كان يعقدها فى الدار مع الشعراء والأدباء . ولكن القدر لم يمهله حتى يشتد عوده وتثبت قدمه فى دولة الشعر فيخلد مع الشعراء ، بل تخطفه الموت فجأة ، ولم يترك من ذكراه إلا دواوين الشعراء التى كان يعيش معها وفى صحبتها ، وقصائد من نظمه قامت أمه الثكلى بنقشها على اللوحات الرخامية المذهبة ، وزينت بها حجرات طابقه العلوى من الدار أثرا له وذكرى[3] .

---

(١) ذكر محمود الإمام أن المراد بعلى هو أمير المؤمنين وابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، «فإن نسب البارودى ينتهى إليه» ؛ الديوان جـ٢ ص٥٥٣ . وقد جانب الإمام الصواب فى ذلك ، فالبارودى لم يدع ذلك ولم تثبته شجرة نسبه . والمعروف أن البارودى من المماليك الجراكسة ، وقد كان شديد الاعتزاز بنسبه ، ولو كانت له صلة بالرسول لأشار إليها وتاه بها على الدنيا . والدليل القاطع على أن البارودى لا يعتبر نفسه عربى الأصل ، تشبيه نفسه وهو يستنجد بالرسول فى قصيدة « كشف الغمة » بسلمان الفارسى فيقول :

ياسيد الكون عفواً إن أثمت فلى بحبكم صلة تغنى عن الرحم
كنى بسلمان لى فخراً إذا انتسبت نفسى لكم مثله فى زمرة الحشم

(٢) كانت اثنتين وثلاثين لوحة ضاعت كلها عقب محاولة الاستيلاء على الدار بعد نفى البارودى ، ولم يبق منها غير لوحتين أهدتهما الأسرة إلى متحف الآثار العربية ثم اكتشف ضياعهما بعد مدة ؛ مذكرات الأسرة الخاصة .

(٣) مذكرات الأسرة ومعلوماتها ؛ ومات إبراهيم وسنه ٢٥ عاماً .

ويشعر « محمود سامى » بقوة خفية تشده إلى ذكرى خاله « إبرهيم البارودى » وبصلة قوية تربطه به ، ويحس بأن بينهما شبها كبيرا ، وكأن قول القدامى « تـكاد المرأة أن تلد أخاها » قد تحقق فيه ، فهو نفسه يحب قراءة الشعر ولا يمل قراءته ، ويحفظ ولا يرهقه حفظه ، بل يجد لذلك فى نفسه طلاوة ، ويحس للشعر فى فمه حلاوة ، وهو يحاول أن يقلد قصائد خاله إبراهيم فيفلح مرة ويخفق مرات.
ويعرف البارودى فيما بعد ، سر القوة الخفية والرباط المتين الذى شده إلى خاله بعد أن أكتشف نفسه وشاعريته ، فاعترف له بفضل السبق وبالأصالة فى الشعر والشهرة فى القصيد ، وجعل الشعر نسبا متصلا بينهما وميراثا امتد إليه منه فقال من قصيدة يفخر فيها بنفسه وبأهله :

أَنا فى الشِّعر عــريقٌ   لم أَرِثْه عن كَلاَلَهْ[1]
كَان إبراهيمُ خــــالى   فيه مَشْهورَ المقَالَـــــهْ

ومن الطبيعى أن يسأل الفتى عن مكان أبيه بين هؤلاء ، وقد كان له خير الآباء وأعظمهم ، يملأ عليه دنياه ويشغل حياته ووجدانه ، وينشر عليه الحماية والرعاية ، ويحس وهو إلى جواره بالاطمئنان ، فإذا به يذهب ولا يعود ويتركه وحيدا لأحداث الزمن ونوب الأيام . وتقص عليه أمه قصة أبيه « حسن حسنى » وقد نشأ يتيما بعد أن قتل أبوه عبد الله الجركسى الألفى فى مذبحة القلعة ، فقد اختير مع خمسمائة من أترابه ليدخلوا المدرسة الحربية التجهيزية بقصر العينى أول إنشائها (١٨٢٥) ، وعندما تخرج تخصص فى مدرسة المدفعية بطره مع ثلثمائة من زملائه ليكونوا « ضباطا للطوبجية النظامية فى الجيش الحديث » . وأخبرته عن أبيه القائد وشجاعته التى كانت ترهبها الأقران وعن بأسه

---

(١) الـكلالة : النسب البعيد .

الذى كان يتقيه الأبطـال ، وعن المعارك التى خاضها فى سوريا والأناضول .
وينفذ الحديث إلى شغاف القلب من الفتى الجركسى الناشىء ، ويختزن فى نفسه
الميراث المتصل إليه من الفروسية وحب الحروب حتى يجد ، فيما بعد ، متنفسا
له فى شعره ، فيغنى على قيثارة الفخر بأبيه وأجداده فى مثل قوله :

إذا نَامت الأضغانُ عن وِتراتها　　فقومىَ قوم لا ينام لها ذَحْلُ[1]
رجالٌ أولو بأس شَديد ونَجْدَةٍ　　فقولُهم قولٌ وفعلهمُ فصـلُ
إذا غَضبوا ردُّوا إلى الأفْق شمسَه　　وسَالَ بدُفَّاع القَنَا الحَزْن والسهلُ[2]
مَساعيرُ حرب لا يخَافون ذِلَّة　　ألا إن تَهْياب الحروب هو الذلُّ
فزرهم ، تَجِدْ معروفَهم دانىَ الجَنَى　　عليك ، وبابُ الخير ليس له قُفلُ

وتـكشف الأم لابنها عن جانب آخر من جوانب العظمة فى أبيه يختلف
به عما عرفه الناس من طباع جنسه الجراكسة ، فقد كان لين الجانب ، تغلب
عليه الأناة والصبر ، لا تطير به الأحداث أو يركب الحمق والعناد رأسه ، مهذب
النفس كريم السجايا ، عطوفا على جنوده المصريين عادلا فى معاملتهم ،
نفورا من قسوة زملائه الضباط الجراكسة عليهم . وكان يجالس أهل العلم
ويستقبلهم فى دراه بباب الخلق ، ويفضل محضرهم على السعى وراء أرباب السلطان[3] .
ويستمع الفتى « محمود سامى » إلى الحديث عن أبيه بإعجاب وشغف ، فقد وجد فيه
مثله الأعلى فارسا وإنسانا ، ويهتف فخرا به حين يبلغ العشرين من عمره فيقول :

أبى ، ومَنْ كأبى فى الحىِّ نعلمُه ؟　　أرْقَى وأكرمُ فى وَعْدٍ وإيعاد
مهذبُ النفس غراء شمائـله　　بعيدُ شأوِ العُلا طلاّعُ أنْجادِ
لا يستبدُّ برأى قبل تَبصرةٍ　　ولا يَهُمُّ بأمر قبل إعـدَادِ

---

(١) الذحل : الثأر .　(٢) الدفاع : دفعة الموج والسيل .
(٣) مذكرات الأسرة .

وترقب الأم بعين يقظة ساهرة تأثير تعبئتها النفسية فى فتاها ومحور حياتها، وقد خشيت أن يسلك طريق خاله ابراهيم، فيشغله حبه لدواوين الشعر عن المستقبل الذى ينتظره، أو تلهيه القصائد المنظومة عن الجندية سبيله وأقرانه من أبناء الجراكسة « لينهضوا بالمناصب الرئيسية فى الدولة » ؛ غير أنها وجدت فى وحيدها وهى تحدثه عن أبيه، الفارس الصغير الذى يتعجل الزمن ويتلهف على اليوم الذى يبلغ فيه السن، ليلحق بشأو البطل الذى ذهب، ويصبح امتداداً لبطولته، ويسير على نفس طريقه، فينتظم فى الجيش ضابطاً وقائداً مثله، يخوض المعارك ويحرز الانتصارات، وحينئذ يحق له أن يقول :

تَبِعتُ نَهجَ أبى فضلاً وتَكْرِمةً حتى بَرعتُ وكان الفضلُ للبادى

وحين تحدثه عن خاله تجد فيه القارىء النهم الذى يود لو استظهر شعر العرب والترك جميعاً، ويتمنى لو أنه شدا كخاله فعلم الحمام الأغانى . وهدأت الأم نفساً، واطمأنت بالا، وعرفت أنها أدت الرسالة كاملة، وخامرها إحساس غريب حبيب كان لها فيه بعض العوض والعزاء، وانتابها شعور غامض بالرضى والسعادة أزاح عن قلبها أكثر الحزن الذى يعتصرها، والألم الذى تعانيه، منذ فقدت أخاها الوحيد ومن بعده زوجها الحبيب . وكأن الغائبين عادا إليها وبعثا من جديد، فقد وجدتهما معاً فى ولدها محمود، فى جانب منه ترى صورة أبيه الفارس، وفى الجانب الآخر ترى صورة خاله الفنان الشاعر .

الفصل الثانى

البارودى ومرحلة الشباب

ولمّـا تداعَى القومُ ، واشتبكَ القَنَا ... ودارتْ كما تَهوَى على قُطبِها الحربُ
وَزُيِّنَ للنَّاس الفرارُ من الرَّدَى ... وماجَتْ صدورُ الخيلِ والتَهبَ الضربُ
صَبَرتُ لها حتى تجلَّت سماؤُها ... وإنى صبورٌ إنْ ألمَّ بِىَ الخَطْبُ

* * *

يلُومون أَشوَاقى كأَنى ابتَدعتُها ... ولو علموا لاَمُوا الظِّباءَ الجوَاريا
وَمالِىَ ذنبٌ عندهم غيرَ أنَّنى ... شدَوْتُ فعلَّمتُ الحمامَ الأغانيا
وهَلْ يكتُمُ المرءُ الهوَى وهْوَ شَاعرٌ؟ ... ويُثنى على أعقَابِهِن القَوافيـا

* * *

صَبَوْتُ إلى المُدامَة والغَوانى ... وحكَّمت الغَــواية فى عِنَانى
وقلتُ لعفَّتى بعدَ امتنــاعٍ ... إليكِ فقــد عَنانى ما عَنَانى
أعاذلُ خلِّنى وشئُونَ قلـبى ... وخــذ ما شئتَه فى أىِّ شَانِ
فقد شبَّ الهوَى من رام نُصحى ... وأَغْرى بالمحبـــة مَن نَهانى

البارودى

التكوين الأدبى والثقافى

مولد الشاعر :

ويخرج البارودى من المدرسة الحربية المفروزة إلى الحياة العامة ، فيجد الآمال العريضة قد أصبحت فراغا ، وميادين القتال قد أقفرت من الأبطال ، وألوية النصر وبنوده قد طويت ، ويرى زملاءه قد استكانوا إلى الواقع ، وسكنوا إلى دعة العيش ورخاء الحياة ، واطمأنوا إلى الخمول ، وأقبلوا على اللهو ومتع الشباب . ويجد البارودى نفسه ، وفيها أعراق الإمارة والمجد ، تنأى عن هذا السبيل ، وتمور بما فيها من آلام الأمل المحطم ، وتثور لما أصابها فى عزتها الجريحة وقد أرغمت على حياة التعطل والفراغ ، وهى ترى طريقها غير هذا الطريق . فغيره باللذات قد يلهو ويعجب ، وسواه يتحنان الأغاريد قد يجد متعته ويطرب ، أما هو فمتعته وطربه فى شىء آخر يصوره بعد ذلك فى قوله :

سِواىَ بِتَحْنان الأغاريد يطرْبُ ... وغَيرِىَ باللَّذات يلهُو ويلْعبُ
وَمَا أنا ممن تأسُرُ الخمــرُ لبَّه ... ويملكُ سَمْعيــة اليراعُ المثقَّبُ
ولكنْ أخو همٍّ ، إذا ماترجَّحَت ... به سَورةٌ نحو العُلا راحَ يدأبُ
نَفَى النومَ عن عينيه نفسٌ أبيةٌ ... لها بين أَطرافِ الأسنَّة مطلبُ
ومن تكُنِ العَلياء همةَ نفسه ... فكلُّ الذى يلقــاه فيها محبَّبُ
إذَا أنا لم أعطِ المكارمَ حقَّها ... فلا عزَّنى خالٌ ولا ضمَّنى أبُ

ولكن الأسباب وإن قصرت عن تحقيق أمانى البارودى العراض ، فإنها

قد مدت له فى شىء آخر تستمتع به روحه وترضى به نفسه ، وجده فى مكتبة خاله إبراهيم وهو يقرأ كتب التاريخ ودواوين الشعراء . وكانت المطابع قد أخذت تعنى بنشر التراث العربى من موسوعات ودواوين الفحول من الشعراء وكتب التاريخ والأدب ، واقتنى البارودى منها نفائس الثقافة العربية التى ما تزال مخطوطة فكانت الفرصة للثقافة الذاتية والاطلاع الخاص .

شغف البارودى بقراءة التاريخ والشعر ، فقد وجد فى كتب التاريخ سيرة آبائه وأجداده ، وقرأ بقية القصة التى لم تتمها له أمه وتركتها ليستكملها بنفسه . وتظهر له فى الأفق القريب صور آبائه الأقربين وقد انتهت إليهم رئاسة مصر ومشيختها ، ثم تتراءى له فى الأفق البعيد صور السابقين من أجداده ، وقد حازوا المجد فرساناً تحت ألوية النصر الحمراء ، يرمون بالصليبيين إلى البحر ، ويحمون بشجاعتهم الشرق العربى من زحف التتار والمغول المدمر ، ويهزمونهم فى « عين جالوت » ، ويرفعون أعلام مصر على ربوع الشام وجزر البحر المتوسط ؛ فيقول فيهم بعد أن تفجرت ينابيع الموهبة عنده :

وفتيةٍ كأسود الغابِ ليسَ لهمْ ... إلاّ الرماحُ إذا احمرّ الوغى أَجَمُ (١)

إنْ حاربُوا معشراً فى جَحفلٍ غلبُوا ... أو خاصموا فئةً فى مَحفلٍ خَصَمُوا (٢)

مرفَّهون حسانٌ فى مجالسهم ... وفى الحُروب إذا لاقيتهم بُهَمُ (٣)

من كل أزهرَ كالدِّينار غرَّتُه ... يجلُو الكريهةَ منه كوكبٌ ضَرِمُ (٤)

---

(١) الأجم : مأوى الأسود ؛ والأجم بالضم : الحصن.
(٢) خصمه : غلبه فى الخصومة .
(٣) البهم : جمع بهمة ، الشجاع الذى لا يهتدى من أين يؤتى أو الصخرة .
(٤) كوكب ضرم : مشتعل متوهج .

مَاتُوا كراماً وأبقَوْا للعلا أثراً نالت به شرفَ الحريّةِ الأُمَمُ[1]

ويتيه الشاب فخراً وتتثنى أعطافه زهواً بأجداده ، ويحن إليهم ويود لو أنه نعم بمشاركتهم حياتهم تلك التى لا يرى غيرها حياة . ويطير إليهم على جناح التمنى ، والمنى حلم مسعد ما اتصل بمستقبل يرجو الإنسان فيه مجداً وعزا ، لكنه غصة وألم حين تقصر عنه السبل ، ويكون الطريق إليه مظلماً عبوسا .

ووجد الفارس المعطل العوض والعزاء حين اهتدى بفطرة الشاعر فيه إلى شعر الفرسان يقرؤه ويعيش معهم فيما يقرأ ، فيطوون الزمن ويحملونه بخيالهم وتصويرهم ، على بعد ما بينه وبينهم ، إلى معاركهم ، فيسمع قعقعة السلاح ووقع الأسل ، ويشترك بوجدانه معهم فى مواقعهم ، ويحتفل معهم بالنصر ويذوق ألم الهزيمة . وتهز حماسياتهم روحه وتلهب عواطفه وتتملك عليه قلبه ، وتسير بخياله على دروب المجد والبطولة التى سار عليها آباؤه بما صورت من معارك وبما حققت من بطولات .

استهوى البارودى هذا اللون من الشعر ، ووجد فيه نفسه الحائرة ، وألفى معانيه تفصل من ذاته ، وتصدر من بين جنباته ، وتعبر عن الحياة التى يهواها ويريد أن يحياها ، فتوة تعيش مع الحب والجمال والطرد والشراب ، وحكمة تتسرب إلى حنايا قلبه وعقله . واندفع الشاب ينهل من هذا المعين محولا إلى قلبه ووجدانه هذا السيل الغزير من العواطف والصور ، فتختزن مخيلته المصورة وذاكرته اللاقطة كل ما استهواه من أشعار البطولة والحماسة ، ويتأثر مزاجه وقلبه وخياله بذلك كله وينفعل له ، ويحفظ من شعرهم ما يوافق ذوقه وميوله

---

(١) هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهى من الجزء المخطوط من الديوان من قصيدة تحت عنوان «وقال يفتخر» وعدد أبياتها ١٨ بيتاً؛المخطوطة (س) ص٢٥٨-٢٥٩؛ والمخطوطة (ج)ص٢٦٤-٢٦٥.

فيلهج لسانه بما يقرأ وبما يحفظ ، ويحاكى بعد ما يختزن ، ويغنى بعد ما يتأثر ، ويوفق تارة فيزهو بنفسه إعجابا ، وتهجره ربة الشعر أخرى فيتعثر لسانه ومن كل ذلك يتعلم . ولكن زهو البارودى بنفسه وكبرياءه يمنعانه من أن يتحدث عن الفشل أو عن التجربة فى أول مراحلها ، فيستبقيها لنفسه حتى تنضج القريحة وترشد ، ويسلس له قياد الشعر وتنقاد له القوافى ، وحتى يجد نفسه فى مستوى هؤلاء الذين يقرأ لهم .

ويقبل البارودى على القراءة والحفظ ، فتزداد ملكة الشعر منه قربا ، وتظل به حتى تتملك عليه نفسه ، وتملأ عليه وجدانه ، وتحف به ربة الشعر وتأخذ عليه كل طريق ، فيستجيب لها ، وينشد ما توحى به إليه ، ويتغنى بما تلهمه ، ويفيض النبع من وجدانه ويسيل النور على لسانه ، ويتجاوب الشاعر الناشىء ، ويدرك من غير وعى أن هذا بابه وفنه ، وأن فى طبعه رصيداً ضخماً من هذا الفن ، وموهبة شعرية أصيلة ، وملكة شاعرة دفاقة . وتعزف ربة الشعر على قيثارتها لحن البعث والخلود ، وتعلن ميلاد شاعر عظيم .

النهج والطريقة :

ومن حسن حظ الأدب والشعر أن البارودى قد استهواه شعر الأقدمين ، واتخذ منه المثل الذى يسير على نهجه ، ولم يلتفت ، فى فترة تكوينه ، إلى شعر المحدثين ، ذلك الذى يمثل فترة الانحطاط والتدهور فى تاريخ الأدب العربى كله ، سواء فى الأغراض أو المعانى والأساليب . أما الأغراض فقد كانت ضيقة تافهة لا تخرج فى جملتها عن المدح أو القول فى المناسبات ، والمعانى معادة مطروقة أو مبتذلة ساقطة ، وأما الأساليب فكانت ثالثة الأثافى متكلفة مثقلة بأغلال من البديع ، فيها جناس وطباق وازدواج ، وفيها إشارات ورمز وتورية ومطابقة

وحساب الجمل ، وما إلى ذلك من محسنات النظم التى كانت أشبه بالزينة الفاضحة والملابس المزركشة لعروس قل حظها من الجمال .

كانت دواوين المحدثين من الشعراء المتداولة فى ذلك العصر من أمثال إسماعيل الخشاب ، والشيخ العطار ، والشيخ محمد شهاب الدين ، والسيد على الدرويش ، نظما اقتضته معرفة العروض ودراسته ، وصـــوراً لفظية تدثرت بمحسنات البديع ، وخلت من العاطفة والشعور . ومن أين لهم بالشعور وقد قتله تعسف العثمانيين واستبداد الأتراك ، وأحاطوا العقول بظلمة الجهل ، وجمدوا العواطف برهبة الخوف فانتهى كل شىء إلى الخمود والجمود حتى تبلدت الحياة ! ولم تعد للشعراء قدرة على خلق المعانى وابتكار الصور فجنحوا إلى التقليد ، واجتروا معانى السابقين بالتشطير والتخميس والتضمين ، وهو تقليد يشهد بالعجز والقصور عن استيعاب المحسوسات والمعانى أو قدرة التعبير عنها فى قالب جميل .

لـكن البارودى الناشىء كان من طراز غير هؤلاء جميعاً . كان غيرهم بنظرته إلى الشعر نفسه ، فهو يقوله سموا بأغراضه عن أن تصاغ إلا فى أجمل لفظ وأروع عبارة ، كان غيرهم بتفكيره وبمثله الأعلى فى الشعر وفى الحياة . لم يقله إلتماساً لعطف حاكم أو عطاء أمير ، وإنما تغنى به كما تغنى من سبقه من الأمراء الشعراء ، الذين خلد الدهر شعرهم ، وأثبت التاريخ فى أمجد صفحاته أسماءهم ، وقد كان ابن المعتز ، والشريف الرضى ، وأبو فراس ، وامرؤ القيس من قبله شعراء . قرأ شعرهم جميعاً فطرب واهتز ، وتمثل ثم احتذى ، وغنى كما غنوا ليخلق من خيال الشعر ميادين لمجد يعوضه ما فات سيفه فى ميادين القتال ، بعد أن ردت الأقدار سيوف مصر إلى أغمادها . لم يتعلم البارودى العروض والقوافى ليقول الشعر شأن معاصريه ، وإنما تغنى لأن موهبته

الشعرية فرضت عليه التعبير عن العواطف والأحاسيس التى تموج فى نفسه، ولأن الشعر فى سليقته ولا بد لابن الأيك أن يترنم ، فجاء بأنغام فى الشعر لم يألفهما أهل زمانه ، وسما به إلى مكان الفحول من الشعراء الأولين فى الجاهلية والعصور الأولى من الإسلام . وكان النبى الذى بعثته العناية الإلهية لينفخ فى الشعر العربى روحاً تنشره من الضعف الذى انطوى عليه القرون الطوال ، وتبعثه من جديد .

وفيض آخر يغمره من قراءاته فتتسرب ينابيع « العروبة » إلى خلايا روحه ووجدانه ، وتتعمق المصرية فى حنايا ضلوعه وجنانه ، ويتأمل فلا يجد له بلداً سوى مصر ، ويفكر فلا يرى موطناً يستأهله غيرها ، استقبلت أجداده حين جاءوها مهاجرين ورفعتهم إلى مكان السيادة ، فمنحوها حياتهم وقدموها فداء فى الدفاع عنها ، ولف جدثهم ثراها . ومن بعدهم جاء هو فرأى نور الحياة بين أهلها ، وعرف الدنيا فى جنباتها ، وهو اليوم يرفل فى الثراء والغنى الذى تقدمه إليه ، ويجد نفسه لصيقا بها يرتبط بأرضها وبأهلها ارتباط مصير ، ويختلط حبها بلحمه ودمه ، وعواطفه وشعوره ، ويلهج بهذا الحب ما عاش فى شعره ويهتف به طوال حياته من مثل قوله :

سَلْ مصرَ عنى إنْ جهلتَ مكانَتِي	تُخبرك عن شَرَفٍ وعز أَقدمِ
بلد[1] نشأتُ مع النَّبات بأَرضهَا	ولثمتُ ثغرَ غَـديرِها المُتَبَسِّمِ
فنسيمُها روحى ، وممدنُ تربهـا	جِسمى ، وكوثـرُ نيلها مَحياَ دَمِى
فإذا نطقتُ فبالثناء على الَّذى	أولته من فضـــل علىَّ وأنعُمِ
أَهلى بهَا وأَحبَّتى ، وكَفَى بهم	فخراً ملـكتُ به عِنَانَ الأَنجُمِ
وأَحقُّ دار بالكرامة منزلٌ	للقلب فيه علاقةٌ لم تُصْرَمِ

(١) فى المخطوطة (ج) بله .

هِيَ جنَّةُ الحُسنِ الَّتى زهراتُها　　حورُ المهَا ، وَهزَارُ أيكتِهَا فَمى[1]

آفاق ثقافية فى الآستانة ١٨٥٧ — ١٨٦٣ :

رأى البارودى حكم « سعيد » وقد أسلم مصر الحبيبة إلى نكسة أخرى هى نكسة الجمود والتخاف ، ولم يعد فى جوها الآسن المظلم شعاع من أمل يصل به إلى ما تطمح إليه نفسه من خدمة وطنه ، فقد ألغى الجيش ، وتغلغلت طلائع الاستعمار من الأجانب فى اقتصاديات البلاد ، وتملكوا الأراضى ، وتحكموا فى مستقبل الفلاح والأمة بأسرها ، واستولوا على مقاليد الأمور فى البلاد بعد أن كبلها الوالى بالديون ، ولم يعد لابن الوطن منفذ لمستقبل كريم . ومن سوء الحظ أنْ النكسة وقعت فى مرحلة هامة من مراحل تطور الاستعمار، فإن الاستعمار كان قد تطور فى ذلك الوقت من مجرد احتلال مستعمرات واستنزاف مواردها إلى مرحلة الاحتكارات المالية لاستثمار رؤوس الأموال المنهوبة من المستعمرات . وكانت النكسة فى مصر باباً مفتوحاً لقوى السيطرة العالمية . وبدأت الاحتكارات المالية الدولية دورها الخطير فى مصر ، وكان من أهم الاتجاهات التى ركزت فيه نشاطها حفر قناة السويس ، ومن ثم عاشت مصر فى هذه الفترة تجربة مروعة استنزفت فيها كل إمكانيات الثروة الوطنية لصالح القوى الأجنبية ، ولمصلحة عدد من المغامرين الأجانب الذين تمكنوا من السيطرة على أفراد أسرة محمد على . وضاق البارودى بكل ذلك وهو صاحب النفس المتأججة الثائرة ، والهمة التى لا تعيش فى الركود ولاتطيق التخلف ، ومن ثم فكر فى أمر نفسه وهداه تفكيره إلى أن يرحل عن مصر

---

(١) الهزار : طائر غرد ؛ هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهى من الجزء المخطوط من الديوان ومن قصيدة عدد أبياتها ٥٤ بيتاً : المخطوطة (س) ص ٢٥١ — ٢٥٣ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٢٥٧ — ٢٥٩ .

إلى حين ، حتى تنكشف الغمة التى يعيش فيها الوطن ، ويزول كابوس التخلف الذى يجثم عليه . وشد الرحال إلى الآستانة عام ١٨٥٧[1] . وأعانته إجادته للتركية ومعرفته للفارسية على الالتحاق « بقلم كتابة السر بنظارة الخارجيه التركية[2] » .

كان بين عمل البارودى بالخارجية فى الباب العالى وبين اللغات علاقة وثيقة ، منحته الفرصة ليدعم صلته باللغة التركية ، وهى يومئذ فى إبان نهضتها ، فتبحر فيها[3] ، وكان من الطبيعى وهو الشاعر المبتدىء والأديب الناشىء أن تستهويه آدابها ، وتجتذبه أندية أدبائها ، فتقوم وشائج الملاقات بينه وبين شعرائها ، يسمع منهم ويختزن ، ثم تغلب عليه طبيعة الشاعر فيحاكى ، وينطلق لسانه بشعرهم ونثرهم[4] ، ويجد فى معرفة اللغات متعة لنفسه ، ودفعة فى عمله ، ويرى آفاق ثقافاتها ثروة لفكره وغنى لخياله ، ويحس فى إجادتها انطلاقا من الإقليمية العربية إلى عالم أوسع يزيد من خبراته وثقافته ، فيمد آفاقه إلى اللغة الفارسية ، وكان قد تعلم مبادئها فى المدرسة التجهيزية ، فيأخذ فى إتقانها والاطلاع على آدابها وقراءة شعرها ، « وينظم بها من القصائد ما يستدل شعراء الفرس بأمثاله[5] » .

وأغلب الظن أن ما صنعه البارودى من شعر ونثر باللغتين التركية والفارسية لم يكن صادرا عن طبيعته الشاعرة ، بل كان محاكاة دعاه إليها التقليد وإثبات المقدرة فى النظم بين الشعراء ، أو لعله تجارب لم ترق إلى المستوى

---

(١) مذكرات الأسرة.
(٢) مقدمة مراثى الشعراء ص ٨.
(٣) مقدمة الديوان شرح الإمام ؛ وجورجى زيدان : تاريخ مشاهير الشرق ج ٢ ص ٢٩٩.
(٤) مقدمة مراثى الشعراء ص ٨ . (٥) المصدر السابق .

الذى ينشده لنفسه ، فأغفلها من حسابه مع ما أغفل من تجارب الشعر العربى أول عهد الصبا ولم يسجلها ، ومن ثم سقطت من يد الزمن .

على أن نفس البارودى النزاعة إلى اكتشاف الحياة الجديدة فى تركيا ، وإلى معرفة دولاب العمل فى وظيفته « بقلم كتابة السر » وما فيه من أسرار تتعلق بسياسة الدولة ، وإلى التزود من الآداب التركية والفارسية — كانت تنزع به إلى كل ذلك بقدر ، لكنها كانت تدفع به دفعاً إلى مكتبات الآستانة وقد حوت كنوز الثقافة العربية التى أغتصبها الأتراك من مصر والبلاد العربية فى إبان الفتح العثمانى ثم نقلوها من خزائن المدارس والمساجد ، ونقلوا معها كثيراً من العلماء والأدباء ، والمهندسين ، والوراقين ، وأرباب الحرف ليجعلوا من عاصمتهم حاضرة الإسلام الثقافية والسياسية معاً(١) . وعاد البارودى إلى مصاحبة الفحول من الشعراء العرب ، يقرأ دواوينهم الجاهلية والأموية والعباسية ، ويستظهر ما يطيب له من روائعها ، ويحاكى ما يوافق ذوقه من قصائدها .

والملاحظة الجديدة بالاهتمام أن البارودى يقيم على ضفاف البسفور نحو سبع سنوات (١٨٥٧ — ١٨٦٣)(٢) ولا تترك هذه الإقامة بصماتها واضحة على فنه ، أو تخط فى شعره مدينة أثراً نلمسه . بل لا نجد فى ديوانه انطباعة واحدة خلفتها فى عواطفه وشعوره الآستانة بمباهجها ومفاتنها ، وحياة السلاطين الأتراك وما فيها من أسرار ، أو سحر الشرق فى العاصمة القابعة على ضفاف البسفور ، الشامخة بجمال قصورها وروعة مآذنها ، لتمثل حضارة فريدة وسط حضارات أوروبا ، أو المجتمع التركى بتقاليده وعاداته ، أو أسلوب العمل فى قلم « كتابة السر » ذلك الذى توجهه الخديعة والدهاء والمؤامرات من قصر « يلدز » ،

---

(١) عمر الدسوقى . فى الأدب الحديث (١٩٤٨) جـ ١ ص ١١ .

(٢) مذكرات الأسرة ؛ ومقدمة مراثى الشعراء ص٨ .

لتخضع به ولاياتها بعد أن ضعفت وأعوزتها القوة لتسيطر عليها . وعلى الطرف الآخر البعيد أمه وأخته وأهله وصحبه ووطنه الحبيب لا نجد لهم فى هذه السفرة ذكراً بين أشعاره .

وكأن البارودى لم يعان الاغتراب والنوى عن الأهل والوطن ، وذلك غير مألوف من طبعه أو شاعريته الحسية المصورة ، فهو لم ينأ عن وطنه بعد هذه السفرة إلا هتف وتأوه فى شعره ، وشكا وتوجع ، وحن واستعبر لفراق الأهل والصحب والوطن ، وسالت عبراته شعراً ينفث به عن قلبه ألم البعد وجوى الفرقة لم يشغل عنهم بحرب ، ولم يوقف عبراته وأنينه يأس من العودة إليهم . والبارودى المصور البارع الذى رسم لنا بشعره لوحات من كل مكان حل به من كريد ، وروسيا ، وكولومبو ، وكاندى بسرنديب ، وإنجلترا ، ومواطن الصبا فى مصر ، لم تسجل عدسة إلهامه صورة من « عروس الشرق » فى أوروبا تلك التى يضرب لها الناس أكباد الإبل ، ويقطعون القارات ويركبون البحار ليستمتعوا بسحرها المزدوج ، سحر المدينة وسحر الحياة فيها .

والديوان لا يهدينا على سبيل القطع إلى شيء قاله الشاعر وهو بالآستانة ، إلا قصيدة واحدة عنون لها بقوله « وقال يمدح إسماعيل خديو مصر » دون أن يعين المناسبة أو يحدد المكان . ومن سياق القصيدة وحده ، نستدل على أنه نظمها ليستقبل بها الخديو إسماعيل ، وقد جاء إلى الآستانة[1] عقب توليته عرش مصر ، ليقدم للسلطان عبد العزيز فروض الولاء والطاعة ، وليمكن لنفسه لدى الباب العالى ، ويبذل الرشاوى لرجالاته ثمن السكوت على دكتاتوريته واستنزافه أموال مصر ومصادر خيراتها ، ليبعثرها على ترفه وملذاته ومساخره . وتبدأ القصيدة بقوله :

(١) فى فبراير ١٨٦٣

لِعِزَّة هذى اللَّاهيات النَّواعم ... تَذِلُّ عزيزاتُ النفوس الكرائم
فَما كانَ لَوْلاهُنَّ تَهتاجُنى الصَّبَا ... أَصيلاً ، ويُشجِينى هَديرُ الحَمَائم
ولا شَاقنى برقٌ تألَّق مَوْهِناً ... كَزَنْدٍ تُوالى قَدْحَه كفُّ ضَارِم[1]
وَبيضاء ريَّا الرِّدْفِ مهضومةِ الحَشَا ... يُقِلُّ ضُحَاهَا جُنحَ أَسْوَدَ فَاحِم
منَ العِينِ يَحمى خِدْرَها كلُّ ضَيغَم ... بَعيدِ مَشَقِّ الجَفْن عَبْلِ المَعَاصِم[2]
فلولا هَواها ما تغنَّت حمامةٌ ... بغُصْن ، ولا انهلَّت شئونُ الغمائم

ثم يمضى فيشبب على النسق التقليدى فى أكثر من ثلاثين بيتاً إلى أن يقول :

وما هَاجَنِى إلاَّ عُصَيْفِير روضَة ... علَى ملْعَب من دَوحة الضَّال نَاعِم[3]
يَصيحُ فما أدرى لفُرقة صاحبٍ ... كَريمِ السَّجايَا ، أم يُغَنِّى لقَادِم
كأَنَّ العُصَيفِيرَ استُطيرَ فُؤادُه ... سروراً بربِّ المكرمَاتِ الجَسَائم

ويمضى فى مدح إسماعيل وتهنئته بالخديوية حتى يقول :

فَلَوْ مصرُ تدرى أرسلتْ لك نيلَها ... لِيلقاكَ فى جُنح من الليل قاتم
وَجاءت اِلَكَ الأهرامُ تسعَى تَشَوُّقاً ... إلى دَارِ قُسْطَنْطِينَ سَعْىَ النَّسَائم[4]

وهذان البيتان هما القرينة الوحيدة التى تدل على أن القصيدة قد قيلت فى الآستانة ، وليس فى بيئة النص ولا جوه العام دلالة أخرى تنم عن مكان القصيدة وهو الآستانة .

---

(١) موهناً : فى منتصف الليل .
(٢) العين : الحور العين أو بقر الوحش ؛ عبل المعاصم : غليظها .
(٣) الضال : الطيب من شجر السدر (النبق).
(٤) هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهى من الجزء المخطوط من الديوان، والقصيدة تحت عنوان «وقال يمدح إسماعيل خديو مصر» وهى ٧٥ بيتاً ؛ المخطوطة (س) ص ٢٢٦ـ ٢٣٠ ؛ والمخطوطة (ج) ٢٣١ـ ٢٣٥.

ونهتدى على سبيل الظن ، من ترجمة البارودى لحياته التى أعدها معه الشيخ محمد عبده[١] ، إلى أنه قال قصيدة أخرى بالآستانة قبل قصيدته فى مدح إسماعيل ، وهى القصيدة التى رثى بها أباه[٢]. فقد ذكر فى الترجمة أنه « رثاه بها لما ناهز العشرين » وقد كان بالآستانة فيما بين الثامنة عشرة والرابعة والعشرين من عمره .

ومع أن القصيدتين لا تمتان بصلة فنية أو بيئية أو تصويرية إلى الآستانة إلا أنهما ، وهما من أول ما سجل من إنشاده ، تدلان على نضج الشاعر واستواء شاعريته ، وعلى أنه تخطى مرحلة المحاولة والتجربة وأصبح على جادة الطريق مع كبار الشعراء . ومن ثم يمكن أن يقال إنهما ليستا أول شعر قاله ، وإنما سبقهما غيرهما من شعر التجربة الذى لم يسجله فى ديوانه .

ويمكن تعليل سكوته فى الآستانة بواحد من أمرين :

أولهما : أنه غنى بالضرورة ، وما كان يستطيع السكوت ولو أراد ، ولكنه غنى لنفسه ، ولم يصدح بشعره على الملأ أو يظهره للناس ، لأنه فى نظره لم يكن قد جاوز مرحلة التجربة ، أو وصل إلى ما ينشده من المستوى الذى يريد أن يطاول به أولئك الذين يتمثل بهم من الشعراء ، ويساند هذا الرأى قول البارودى فى مقدمة ديوانه : « إن المرء وإن كثر إحسانه ، لا يسلم من الزلل لسانه ، وقل من توغل فى حرجات القريض[٣] ، فنجا قبل أن يغص بالجريض[٤] ، ولقد ذكرت مرة قول أبى المنهال بن بقيلة الأكبر[٥] .

---

(١) المنار مجلد ٧ جزء ٢٠ فى ٢٣/١٢/١٩٠٤ . (٢) الديوان شرح الجارم جا ص ٢٠٤ .

(٣) الحرجة : المكان الضيق الملتف الشجر ؛ والقريض : الشعر .

(٤) الجريض : الريق ، والمراد قبل أن يصاب بالعى والتقصير .

(٥) عاش فى زمن عمر بن الخطاب ، واسمه بقيلة الأكبر أبو المنهال .

وإنَّما الشعرُ لبُّ المرءِ يعرضُه على المجالسِ إنْ كَيْساً وإن حُمُقاً
وإنَّ أشْعَرَ بيتٍ أنتَ قائلُه بيتٌ يقالُ إذا أنشدْتَه صدَقا

فعزمت على الإقصار قبل الإحصار[١] ، تفاديا من خطأ ربما عرض ، أو ناقد ربما اعترض » ، ويقويه أيضاً اعتراف الشاعر نفسه فى « قصيدة إسماعيل » بما يدل على التوجس والتردد وعدم الثقة بالنفس حين يقول :

وَمَا الشِّعرُ من دَأْبى ، ومَا أنا شَاعِرٌ ولا عَادَنى نعتُ الصُّوَى والمعَالِمِ[٢]

وهو الاعتراف الأول والأخير فى حياة البارودى الشاعر .

وثانى الأمرين : أنه سكت عن الإنشاد مضطراً اتقاء الحرج والمعايرة ، وقد كان الأتراك والجراكسة يعيرون من يكتب بالعربية أو يتكلمها منهم ، فما بالك بإنشاد الشعر والتغنى به ! وحين تحرر فيما بعد من هذا الحرج كانت الجملة المأثورة التى يشير بها هؤلاء إليه فى معرض التعيير قولهم باللغة التركية : « هم كاتب هم ابن بلد »[٣] . وقد رد عليهم بقوله :

تَكلَّمتُ كالماضين قَبلى بما جَرتْ به عَادةُ الإنسان أَنْ يتكلَّمَا
فَلا يعتمدْنى بالإسَاءةِ غافلٌ فلا بدَّ لِابْنِ الأَيْكِ أَنْ يترنَّمَا

وقد غنى بالشعر ملوك وأمراء وفرسان من قبله .

واختارت نظارة الخارجية التركية محمود سامى البارودى ليكون ضمن بعثة الشرف التى ترافق إسماعيل عزيز مصر أثناء مقامه بدار الخلافة[٤] ، وعرف

---

(١) فعزمت على الامتناع عن القول قبل أن أصاب بالعجز والعىّ .
(٢) الصوى: جمع صوة الحجر يكون دليلا فى الطريق؛ هذا البيت لم يسبق نشره .
(٣) عمر الدسوقى : محمود سامى البارودى ، سلسلة نوابغ الفكر العربى (القاهرة ١٩٥٨) ص٢٣ .
(٤) مذكرات الأسرة الخاصة .

البارودى أنها الفرصة التى لا تسنح إلا نادراً ، ولا تسوقهـــا الأقدار كثيراً ، فاهتبلها ووضع خبرته ومعلوماته تحت تصرف الخديو الجديد ، وقام بما وكل إليه على وجه يرضى خديو بلاده . وتوسم إسماعيل فى البارودى سداد الرأى وحسن التصرف ، ولمح فيه النجابة والذكاء ، وأعجب ببراعته فى الخط والإنشاء التركى[1] فقربه إليه ، ومنحه من العطف ما جعل البارودى يلهج بالثناء عليه ، فقدم نفسه إليه شاعراً مصريا من رعاياه ، وأهدى إليه قصيدة جملته خير الملوك وهو فى دار الخلافة . والتقليد « الهميونى » يقضى بأن الشعراء فى دار السعادة لا يعرفون إلا ملـكا واحداً وممدوحاً فردا هو الخليفة ، ولعبت القصيدة على أوتار الغرور فى إسماعيل فازداد بصاحبها إعجابا ، ووجد فيه كسبا لديوانه ، فألحقه بحاشيته لينتفع بخبرته وثقافته التركية ، وعاد به إلى القاهرة فى فبراير ١٨٦٣ .[2]

بين الحاشية وطريق الأمل :

عاد البارودى إلى الأهل والوطن شخصاً آخر غيره منذ سبعة أعوام ، عاد وفى أعطافه آمال كبار بعد أن هدته المقادير إلى أقصر الطرق لتحقيقها ، عاد وقد بلغ الرابعة والعشرين حيث ريعان الفتوة واندفاع القريحة بتيار القوة ، وقد أكسبته التجارب ، والعمل ، والإطلاع ، والتعامل مع الناس الثقافة من بابها الأوسع ، عاد وقد ذاعت قصـــيدته فى استقبال إسماعيل بالآستانة فعقدت ألسنة الشعراء من الدهشة ، ذلك لأنهم رأوا فيهـــا شيئاً غير ما ألفوه فى عصرهم ، ووجدوها بعثاً جديدا لماضى الشعر المجيد ذلك الذى ظنوه ذهب ولن يعود ، وعرفوا فيها الأصالة التى عجزوا عن الوصول إليها ،

---

(١) الجوائب المصرية ، عدد ٥٧٢ فى ١٥/١٢/١٩٠٤ .

(٢) مقدمة الديوان شرح الإمام .

والغــــاية التى تقصر مواهبهم عن إدراكها ، والأمل الذى ينشدونه لشعرهم فتقف بهم ملكاتهم دونه ،وأصبحت القصيدة حديث الأدباء فى مجالسهم ، ورواية الشعراء فى مجامعهم ، وأثارت المناقشة والجدل ، وأخذ الشعراء فى تقليدها والسير على منوالها ، ولكنهم قصروا وما بلغوا شأوها .

اطمأن البارودى إلى أن فترة التجربة قد آذنت بالانتهاء وأنه قد بلغ مرتبة المجيدين من الشعراء ، وقد ألقت ربة الشعر أزمتها بين يديه ، وأسلست له القريض ، وملكته ناصية الشعر ، وقدمت قيثارتها إليه ، فصار « يلهج به لهج الحمام بهديله ،ويأنس به أنس العديل بعديله » . وأخذ يسجل ما يقول « ولا بدع فللإنسان فتون بشعره ، وولوع ببنات فكره ، ولولا ذلك مادون الناس أشعارهم ، ولا اتخذوا حلية الأدب شعارهم ، كيف لا ؟ وبقاء الذكر حياة الأبد ، وحب الخلود أطمع لقمان فى لبد[1] . »

وجد البارودى نفسه أسير معروف إسماعيل بعد أن رده إلى وطنه عزيزاً كريما ، وبدل حزن الغربة بفرح العودة والاستقرار « وعينه معينا لأحمد خيرى باشا على إدارة المكاتبات بين مصر والآستانة العلية[2] » . والمعروف يستوجب الشكر والعرفان ومن ثم نظم البارودى قصيدة ثانية فى إسماعيل يشكره على جميله ، ويتمنى لمصر على يديه حكما سعيدا عادلا يقشع الظلمة والخطوب التى غشيتها فى حكم سعيد . ويقدم البارودى الشاعر قصيدته هذه المرة غير هياب ولا وجل ولا متردد تردده فى سابقتها ، بل تملأ جنبيه ثقة الشاعر الذى أثار الإعجاب بشعره ، وتزداد الثقـــة حتى تصل به إلى حد الغرور فيدعى أن قصيدته فاقت شعر البحترى وأبى تمام فيقول :

---

(١) محمود سامى البارودى : مقدمة الديوان .

(٢) الجوائب المصرية عدد ٥٧٢ فى ١٩٠٤/١٢/١٥

وإليكَ من حَوْكِ اللِّسان حَبيرةً يغنيك رونقُهـا عن التَّشبيبِ[1]
حَضريةَ الأنساب ، إلا أنَّهـا بدويةٌ فى الطبـع والتَّركيبِ
وَلِعت بمنطقها النفوسُ غرابةً والنفسُ مولعـةٌ بكلِّ غريبِ
كَلِمٌ أثرْتُ بِها جوادَ براعَـةٍ لا يُقتَنَى فى الحُضْرِ والتقْريبِ[2]
تَركَ « الوليدَ » ملثَّماً بغُباره ومَضَى فَـكَفْـكَفَ من عِنانِ « حبيبِ »[3]

ولا يستريح البارودى إلى العمل الديوانى وروتينه لأنه لم يخلق له ، ويضيق بما يسود جو العاملين فيه من الرياء والنفاق والدس والوقيعة ، ويظهر هذا الضيق فى صورة شعر ينظمه فى رئيسه « أحمد خيرى » بأسلوب التورية فيقول :

فَعلْتُ خـيراً بقوْمٍ فعَامَـلُونى بِضَـيْرِ
فَلا تلمْـنى إذا ما أَصبحتُ ألعنُ خَـيْرِى

وينظم فى سلوك رفاقه وزملائه بالديوان الخديوى هجاء يقول فيه :

إلى اللهِ أَشكو أَننى بَيْنَ معشرٍ سواءٌ لديهم طيبٌ وخَبيثُ
لَهم أَلسنٌ إن رُمنَ أَمراً بلغْنَه من النفسِ ، مصنوعٌ لهنَّ حَديثُ
بَرِمْتُ بهم حتى سَئِمتُ مكانَتِى وأَنكرتُ طِيبَ العيشِ وهْوَ دَميثُ
إذا لم يُغِثْنى اللهُ منهم بفَضْله فما لِىَ بين العالَمين مُغيثُ

وتنزع نفس البارودى الطموح إلى الأمل الذى يصبو إليه طوال حياته ،

---

(١) الحوك : النسيج ؛ الحبيرة : الجديدة من الثياب .
(٢) الحضر: ارتفاع الفرس فى عدوه؛ التقريب : عدو الفرس وهو يرفع يديه معا ويضعهما معا .
(٣) الوليد عبادة البحترى الطائى ؛ وحبيب : هو حبيب بن أوس الطائى المعروف بابى تمام ؛ والمعنى أن قصيدة البارودى فاقت شعر الشاعرين .

وإلى الحلم الذى يراوده منذ شب عن الطوق ، ذلك هو سبيل الجيش والحرب. ويجد البارودى طريق الأمل مفتوحاً أمامه ، بعد أن أخذ إسماعيل فى إعادة تنظيم الجيش وتقويته ، ليكون نقطة وثوب إلى مطامعه ، وأداة تحقق ما فشل فيه جده محمد على من بناء إمبراطورية فى الشرق يكون إمبراطورها المتوج ؛ غير أنه غير من خطة جده بعض التغيير ، فجعل امتدادها فى أفريقيا بدلا من البلاد العربية والأناضول ، وأراد لعاصمتها أن تكون قطعة من أوروبا ، وبذلك يقف على قدم المساواة مع غريمه وصديقه نابليون الثالث إمبراطور فرنسا ، وسيده السلطان عبد العزيز الإمبراطور العثمانى . ويسعى البارودى حتى ينقل إلى الجيش فى يوليو ١٨٦٣ ، ويمنح رتبة البكباشى العسكرية (مقدم) ويلحق بآلاى الحرس الخديوى ، ويعين قائدا لكتيبتين من فرسانه[١] . وتستشعر نفس البارودى الهدوء وقد أصبح على جادة الطريق الذى يريد أن يسلكه ، وتفتحت آفاق الأمل رحيبة فى وجهه ، بعد أن أسعفته المنى فبدلت وهمه حقيقة وتصوره واقعاً ، وأزالت المعوقات التى منعته من تحقيق ذاته الفارسة ، وقيدت فروسيته بالأغلال وأحالتها إلى ضرب من الخيال . وأصبح البارودى قائدا .

---

(١) مقدمة مراثى الشعراء ص ٨ ؛ ومقدمة الديوان شرح الإمام .

القائد والمحارب

فى بعثة عسكرية إلى أوروبا :

وأعلنت مواهب القائد الشاب عن طبيعته الحربية الأصيلة ، وظهرت روح الفروسية المختزنة فى طوايا نفسه ، فتقدم سريعاً إلى الصدارة ، وأرسل مع خمسة عشر ضابطاً من خيرة ضباط الجيش فى بعثة عسكرية إلى فرنسا وإنجلترا ، ليقضوا فترة فى مشاهــــدة نظام الجيش الفرنسى والجيش الإنجليزى ، واقتباس خبرة قوادهما[1] . « وأبحرت البعثة العسكرية على ظهر السفينة الحربية المصرية (شير جهاد) إلى فرنسا ، فاستقبلتهم الحـكومة الفرنسية بالحفاوة ، ودرسوا النظم العسـكرية الفرنسية ، والاستحكامات ، والمناورات العمومية ، وغير ذلك من فنون الحرب والقتال ، وجمعوا طائفة من المؤلفات الحربية المشتملة على أساليب الجيش الفرنسى ونظامه[2] » . واتجهت البعثة بعد ذلك إلى إنجلترا فزارت بعض معسكرات الجيش ومنشآته الحربية فيها . وقبل مغادرة البعثة إلى الوطن دعى أعضاؤها إلى ضيعة أحد النبلاء فى الريف الإنجليزى حيث أقيمت لهم حفلات التـكريم ، وخرج الفرسان على ظهور الخيل يزاولون رياضة الصيد فى الحقول والأحراش على عاده النبلاء الإنجليز وتقاليدهم .

وإذا كان هناك من استمتع من الرفاق بحفـلات التـكريم ، وبالخروج إلى رياضة الصيد فذلك هو البارودى . فليس أشهى لديه من أن تظهر فروسيته الـكامنة إلى عالم الواقع ، ومن ثم كرع المتعة حتى الثمالة ومارس رياضة الصيد

---

(١) مقدمة مراثى الشعراء ص ٨ ؛ ومقدمة الديوان شرح الإمام .

(٢) الرافعى : عصر اسماعيل جـ١ ص ١٧٧ — ١٧٨ .

والقنص ، واختزنت مخيلته صور ما مارس وما شاهد ، ثم أسفرت عن نفسها معانى تنساب فى عواطفه ، وخرجت لوحات فنية يرسمها بألفاظه ، يصور الرفاق وقد لبوا الدعوة سراعاً وخرجوا إلى الأحراش فيقول[1] :

بخيل كآرام الصريم ، وراءها ضوارى سلوق : عاطل وملبب[2]
من اللاء لا يأكلن زاداً سوى الذى يضرسنه ، والصيد أشهى وأعذب
ترى كل محمر الحماليق فاغر إلى الوحش ، لا يألو ، ولا يتنصب[3]
يكاد يفوت البرق شداً إذا انبرت له بنت ماء ، أو تعرض ثعلب[4]

وتطلق البزاة والأكلاب على الفريسة من الثعالب والطيور ، وينتهى الصيد وينقضى المأرب ، ويعود الركب إلى دار الضيافة ، ويصف الشاعر العودة فيقول[5] :

فلما رآنا صاحب الدار أشرقت أساريره زهواً ، وجاء يرحب
وقال انزلوا ، يا بارك الله فيكم فعندى لكم ما تشتهون وأطيب
فيا حسن ذاك اليوم لو كان باقياً ويا طيب هذا الليل لو دام طيب

والذى لا شك فيه أن زيارة البارودى لفرنسا وإنجلترا — وهما معقلا الحضارة الغربية — قد أغنت خياله كشاعر ، وأثرت ثقافته الحربية كقائد ، فقد رأى حياة تختلف فى صورها وتقاليدها عما ألفه فى مصر وتركيا ، وشاهد مظاهر حضارة قطعت شوطا فى التقدم ، واستجلت « زجاجة عينيه » طبيعة خلابة

(١) مناسبة القصيدة من معلومات الأسرة .

(٢) الآرام : الظباء الخالصة البياض ؛ عاطل : غير مطوق ؛ ملبب : مطوق.

(٣) الحماليق : بياض مقلة العين كناية عن ضراوة كلاب الصيد ؛ لايتنصب : لا يضعف .

(٤) بنات الماء : الطيور المائية .

(٥) التلاع : جمع تلعة وهى ما ارتفع من الأرض ؛ والعصب : برد يصبغ غزله ثم ينسج .

ساحرة تذكى إلهام الشاعر ، وأكنت مشاعره ذكريات ترهف إحساسه وتشحن عواطفه بصور وانفعالات جديدة ، واستوعب عقله خبرات عسكرية ومعلومات عن الفنون الحربية فى الجيوش الحديثة تعمق استعداداته كقائد . وكلف البارودى نيابة عن البعثة بكتابة تقرير عن الزيارة للجيشين الفرنسى والإنجليزى [١] ، وتحديد النظم التى يمكن الاستفادة منها فى بناء الجيش المصرى . وينال التقرير إعجاب المسئولين وتقدير قادة الجيش ، فيرقى البارودى إلى رتبة عقيد (قائمقام) فى نوفمبر ١٨٦٤ ، ثم إلى رتبة عميد (أميرالاى) ، ووكلت إليه قيادة الفيلق الرابع من الحرس الخديوى فى إبريل ١٨٦٥ [٢] .

ألا إنه المجد الذى سعى إليه البارودى صبياً ، جاء اليوم يسعى بين يديه حفيا ، وعرف له الدهر مكانته ، وأمد له فى أسباب العظمة طائعاً مختاراً .

فى حرب كريد ١٨٦٥ — ١٨٦٧ :

حقق البارودى شطر المنى بعد أن أصبح فارسا شاكى السلاح ، وقائدا ترهب الأقران صولته ، وظل الشطر الآخر يضغط على عواطفه وأحلامه ، وألحت عليه فروسيته العارمة فى أطواء نفسه تريد أن تثبت ذاتها فى ميادين الحرب ، فيلهج بذلك فى عالم خياله راجياً أن يستكمل مناه ويقول :

فمَنْ لى والأَمانى كاذباتٌ ... بيوم فى الـكَريهة أَوْ دِنَانِ [٣]
أُلاعبُ فيه أَطرافَ الْعَوالى ... وأُطلقُ بين هَبْوتِه حِصَانِى [٤]
تَرانِى فيه أَوّلَ كلِّ داعٍ ... وَيرتَفعُ الغبارُ فَلا تَرانِى

---

(١) مذكرات الأسرة . (٢) مراثى الشعراء ص٨ .
(٣) فى المخطوطة (ج) أدونان . (٤) الهبوة : الغبار يرتفع فى الجو .

إلى أنْ تنْجلى الغَمراتُ عنْه ... وَيعرفُنِى بِغقَـكى مَنْ بلاَنِى

أَنا ابنُ الليل والخَيلِ المُذَاكِى ... وَبيضِ الهنْد والسُّمْر اللِّدَان[1]

إذَا عَينٌ أَجدَّ بها طِمَاحٌ ... جعلْـتُ مكانَ حَبَّتِهَا سِنَانِى[2]

وكأن الأقدار كانت تسمع لندائه فاستجابت له ، وقد شبت « بجزيرة كريد » فى البحر المتوسط ثورة عامـة على الحـكم التركى أواخر عام ١٨٦٥ ، وعجز الجنود الأتراك عن إخمادها فاستنجد السلطان بمصر . وخرجت إليها حملة مصرية بينها « آلاى » من فرسان الحرس يقوده محمود سامى البارودى بوظيفة رئيس ياور حرب[3] ، « وكان خيالة ذلك الآلاى أبسل المصريين جنوداً ، وأطولهم بنودا ، اختارهم على ما أحب من كافـــة ألوية الجيش ليـكون قائدهم يوم الـكريهة والطعان[4] » . وأقلعت الحملة من الاسكندرية والبارودى أسعد رجالها ، يتوق شوقا إلى يوم يحرك فيه سيفه وقد طال سكوته فى غمده ، ويلاعب فيه أطراف العوالى ، ويلقى أولئك الذين خرجوا على سلطان المسلمين .

وتظهر كفاءة البارودى العسكرية أيام اللقـــاء ، وتسفر المعارك عن القائد البطل ، « وأجل ما يذكر له فى تلك الحرب واقعة احتال بها على الثائرين ، حتى أدخل منهم نحو الثلاثين ألفاً فى مضيق بين جبلين ، وقطع عليهم الرجعة بقسم من عساكره ، وسلط القسم الآخر نيرانه على العدو من قلة الجبل فألقوا

---

(١) المذكى جمع مذاك : ما تمت سنه وكملت قوته .

(٢) الطماح : الـكبر والفخر.هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهى من الجزء المخطوط من الديون من قصيدة عنون لها بقوله : « وقال فى صباه » وعدد أبياتها ٣٨ بيتا . المخطوطة (س) ص ٢٧٥ — ٢٧٦؛ والمخطوطة(ج) ص: ٢٨١ — ٢٨٢ .

(٣) مقدمة مراثى الشعراء ص ٩ .

(٤) الجوائب المصرية عدد ٥٧٢ فى ١٩٠٤/١٢/١٥ .

السلاح ، وطلبوا الأمان ، وساقهم أسرى »[1]. وكان يخوض المعارك فى هذه الحرب « وهو راكب على جواد أدهم شاهراً سيفه أمام جيشه يشجعهم ويقويهم ، رابط الجأش ثبت الجنان ، يهزم من كان أمامه من العدو[2] » ، ويجنى لمصر الفخار .

وأحرز الجيش المصرى النصر للأتراك ، واستسلم الثوار ، وانتهت مهمة البارودى الفارس ، وفرغ منه الشاعر لخياله وخواطره يستجمع الذكريات ، ويستعيد المشاهد والصور ، وتموج عواطف الفنان فيه بشحنات مختلفة من الانفعالات سرت إليه من المعركة ، والتقطها من الطبيعة الجميلة ، وسعت إليه من الوطن البعيد . وتحرك ربة الشعر أوتار قيثارتها تستثير الشاعر ليغنى ، ويستجيب البارودى فيصور إحساسه وسلوكه فى مأزق تعرض له هو وجيشه فيقول :

ولمَّا تداعى القَومُ واشتبك القَنَا ... ودَارت كما تهوى على قُطْبِها الحَرب
وَزُيِّن للناسِ الفِرارُ من الرَّدى ... وماجت صدورُ الخَيل والتهب الضَّربُ
ودارَتْ بنا الأرضُ الفضاء كأننا ... سُقِينَا بكأسٍ لا يُفِيقُ لها شَرْبُ
صَبَرْتُ لها حتى تجلَّت سماؤُها ... وَإنِّى صبورٌ إن أَلَمَّ بِىَ الخَطْب

ثم يرسم بالألفاظ والعبارات لوحة المعركة بأبعادها وألوانها وظلالها ، وبانفعالاتها والحركة فيها ، فتكون الخالق الفنى قد وهبه المبدع الحياة فبعثه صورة مجسمة للعيان ، فيها لمسات النوم تداعب جفون الفرسان وقد أجهدهم المسير ، ولفتهم الظلمة تحجب عنهم الرؤية فلا ينظرون على امتداد البصر غير أسنة الرماح وكأنها مشتعلة ، وتأتيهم من بعيد أصوات السمار والعازفين وصهيل الخيل وصياح

---

(١) المصدر السابق . (٢) مقدمة مراثى الشعراء ص ٩ .

الحراس مختلطة من معسكر الأعداء ، ويقترب الشاعر المصور منهم حتى يشرف عليهم فيراهم على مشاعل النيران :

مَلئُوا الفضــاءَ فما يَبِينُ لناظرٍ   غيرُ التِّماعِ البيضِ والخُرصانِ[1]
فالبدرُ أكدرُ والسماءُ مريضةٌ   والبحرُ أَشْكَلُ والرماحُ دَوانِ[2]
والخيلُ واقفةٌ على أَرْسَانِهَا   لِطرادِ يوم كريهةٍ وَرِهَانِ[3]
وضَعُوا السلاحَ إلى الصباح وأقبلُوا   يتكلَّمــــون بألسُنِ النِّيرانِ

وحين يسفر الصبح تزدوج الصورة ، وتتضح الرؤية ويردد النظـر بين الربا والمجانى[4] :

فإذا الجبالُ أسنةٌ ، وإذا الوِهَا   دُ أعنة ، والماءُ أحمـرُ قانِ

ثم يهيج بالبارودى شوقه إلى الوطن فيخلعه على جياد الحرب وكأنها من شوقها حرنت وامتنعت على اللجم ، ورجعته أنينا وشجنا من الأشجان . وتتداعى الذكريات من الوطن ، وما أسرع ما تأخذ الذكريات بعضها برقاب بعض والمرء ناء عن الوطن بعيد عنه . وتقفز إلى خاطر البارودى ذكرى تغشى سعادته بالحرب والنصر بموجة من الألم ، ذلك أن رئيسه فى نظارة الحربية[5] كان ينقم عليه كبرياءه واعتداده بنفسه ، فسعى لدى الخديو إسماعيل حتى أقنعه بإرسال فرقة من حرسه الخاص إلى كريد لإخضاع الثورة تلبية لطلب السلطان ، وإظهاراً للمودة وإمعانا فى الأخلاص له . واختير « آلاى » البارودى أملا فى إبعاده والتخلص

---

(١) الخرصان : جمع خرص وهو الرمح القصير السنان.
(٢) أكدر: مغبر من الغبار المثار ؛ أشكل : يضرب لونه إلى الحمرة.
(٣) الأرسان جمع رسن : اللجام ؛ الطراد : المطاردة فى الحرب .
(٤) المجانى : جمع مجنى وهو موضع جنى الثمار .
(٥) وكيل نظارة الحربية ؛ مذكرات الاسرة .

منه[١] ، وما درى أنه حقق للبارودى شطر أمانيه ودفع به إلى المجد يجنيه بسيفه ولسانه ، وما كان أحد أشد لهفة على الخروج إلى الحرب من البارودى ولـكن آلمه حقد الرئيس ، وأثار انفعاله رغبته فى التخلص منه وهلاكه ، ويشير البارودى إلى ذلك فى قوله بعد ذكرياته عن مصر :

فارقتُها طلباً لما هو كائنٌ ... والمرءِ طوعَ تقلُّبِ الأزْمانِ
حملَ الزمانُ علىَّ ما لم أجْنِهِ ... إن الأماثلَ عُرضةُ الحدَثانِ
نقِموا علىّ ، وقد فتـكت ، شجاعَتى ... إن الشجاعةَ حِلْيـةُ الفتيانِ
فليهنـأ الدهرُ الغيورُ برحلتى ... عن مصرَ ، ولتهـدأْ صروفُ زمانى
فلئن رجعتُ ، وسوف أرجع واثقاً ... بالله ، أعلمتُ الزّمان مكانى
أنا لا أزِلّ وإنما يَزَعُ الفـتى ... فقدُ الرجاءِ وقِلَّةُ الأعْـوانِ[٢]
فعلامَ يلتمسُ العـدوُّ مساءتى ... من بعدِ ما عَرف الخلائقُ شأنى
فليعلمنَّ أخو الجهـالة قَصْرَه ... عنى ، وإن سبقت به قدمانِ[٣]

ويتلفت البارودى حوله فلا يجـد كل الزملاء ، لقد أغتالت الحرب فريقاً منهم ، قدموا حياتهم فى الميدان قربانا للشجاعة وفداء للدين . ومن الذين طاح بهم الردى قائد فرقته[٤] ، فينشد له « نشيد الغروب » يندبه ويرثيه ، ويقول :

أىَّ فَتًى للعظيـم نَنْدُبُهُ ... شَاطَ عَلى أَنصُلِ الرِّماحِ دَمُـه[٥]
أَسلَمه صحبُـه ، ومَا علمُوا ... أَنْ سَوف يمحُو وجودَهم عدمُـه

---

(١) مذكرات الأسرة .

(٢) يزع : يكف ويمنع (٣) القصيدة كاملة انظر الوسيلة الأربعة جـ٢ ص ٤٩٦ — ٤٩٧ .

(٤) اسماعيل سليم ناظر الجهادية وقد اشترك فى الحرب ، مذكرات الأسرة ؛ وأحمد عرابى : كشف الستار عن سر الأسرار جـ١ ص ٢٣ .

(٥) شاط الدماء : خلطها كأنه سفك دم القاتل على دم المقتول .

زالَ الأولى حاذَرُوا مصارِعهم ولم تَزُلْ عن مكانها قَدمُه
طَاحَ بجثمانه الرَّدَى ، وَرقَا إلى سَمَوات ربِّه نَسَمُه
مَاتَ ، وأبقَى شجىً لفرقتِه يكادُ يَفرِى قُلوبَنا أَلمُه[1]

ولا تحجب فراسة البارودى القائد ، وهو يستكشف أرض العدو ويصدر الأوامر ليحتل منها المواقع ، عن عين الفنان فيه جمال الطبيعة حتى فى مكان الخطر ، فيرى إبداع الخالق فى أجمة احتلها لجزاً فى « قندية[2] » ، وتنتهى المعركة ، وتحجب روح الفنان السمحة عن شاعريته ماعاناه وجيشه وهو يحتلها ، ولا يذكر من المكان إلا الجمال الذى سحره وهز مشاعره ، فرسم له لوحة من شعره يقول فيها :

ومُرتبعٍ لُذْنَا بِهِ غِبَّ سُحرةٍ وللصبح أنفاسٌ تزيدُ وتنقصُ
وقد مال للغربِ الهلالُ ، كأنَّه بمنقاره عن حَبةِ النجم يفحَصُ
رقيقِ حواشى النَّبْتِ ، أما غصونُه فريَّا ، وأما زهرهُ فمنصَّصُ[3]
إذَا لاعبت أفنانَه الريحُ خِلتَها سلاسلَ تُلوَى ، أو غدائرَ تُعقَصُ
كأنَّ صِحَافِ الزَّهرِ والطلُّ ذائبٌ عيونٌ يسيلُ الدمع منها وتَشخصُ[4]
كأن شعاعَ الشمس والريحُ رَهْوَةٌ إذا رُدَّ فيه سارقٌ يتربَّصُ[5]
يمدُّ يداً دونَ الثمار ، كأنما يُحاول منها غايةً ، ثم ينكُصُ

---

(١) هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهى من الجزء المخطوط من الديوان وقد عنون لها بقوله « وقال يرثى أحد قواد الجيش وقد مات بأقريطش » ؛ المخطوطة (جـ) ص ٢٤٦ — ٢٤٧ ؛ والمخطوطة (س) ص ٢٤١ — ٢٤٢ .

(٢) مدينة شمال جزيرة كريد .

(٣) المنصص : الظاهر المرفوع أو الذى بعضه فوق بعض .

(٤) تشخص : تتفتح . (٥) رهوة : رقيقة .

وتستغرق حرب كريد قرابة عامين يتأجج فيهما قلب البارودى حنيناً إلى الوطن ، ولأول مرة يشدو بحبه له ويتغنى بشوقه إليه ، فتشهد « جزيرة كريد » مولد التغنى بمشاعر البارودى الوطنية ، وترى أول قطرات الفيض الذى تفجر فى عواطفه نحو بلاده ، وظل يملأها بالنور والحب والفداء طوال حياته . يذكر النيل ويدعو لمصر بالسقيا ، ثم يحس بأنه أغرق فى وصف بلاد الرومان وجمالها فيلتفت ليعلن أن بلاده أجمل بلاد العالم ويقول :

ذَكَرَتْ مَوارِدَها بمصرَ وأينَ مِنْ ماءٍ بمصرَ منـــازلُ الرُّومانِ
فَسَقَى السِّماكُ مَحَلَّةً ومُقَامَةً فى مصرَ كلُّ رَوِيَّةٍ مِرْنَانِ (١)
حَتَّى تَعُودَ الأرضُ بعدَ ذُبُولِهَا شَتَّى النَّماء كثيرةَ الألوانِ
بَلَدٌ خَلعتُ بهَا عِذَارَ شَبيبَتِي وطرحتُ فى يُمْنَى الغرامِ عِنَانِى (٢)
فصعيدُها أَحْوى النَّباتِ ، ومَسرحُهَا أَلْمَى الظِّلاَلِ ، وَزَهرُهَا متَدَانِى (٣)

وتتوالى الذكريات من الوطن يستقطبها الشوق والحنين إليه فتثيره كل نسمة تأتى من ناحية مصر ، ويؤرقه كل برق يظهر من جهتها ، فيسائله عن الأهل والصحب ، وعن روضة المقياس ومن فيها من الأحبة ، ويصف ذلك كله فى قصيدة عنون لها بقوله « وقال وهو بأقريطش أيام الحرب يتشوق إلى مصر سنة ١٢٨٢ هـ » — أوائل عام ١٨٦٦ — ومطلعها :

سَرى البرقُ مِصْريا فأرَّقنى وَحْدى وأذْكَرَنى مَالَسْتُ أنساه من عَهْدِ

---

(١) السماك : المراد هنا السماء . وهناك سماكان ويكنى بهما أو بأحدهما عن العلو والرفعة ، والروية : السحابة الكثيرة المطر ؛ المرنان : المرنة من شدة وقع المطر على الأرض .
(٢) خلعت عذارى : اتبعت هواى ، والعذار : ما سال من اللجام على خد الفرس .
(٣) ظل ألمى : كثيف أسود من كثرة الشجر ؛ وأحوى النبات : أسوده من كثافته .

فيا برقُ حدِّثنى ، وأنتَ مُصدَّقٌ عن الآلِ والأصحابِ مافعَلوا بَعْدى
وَعنْ روْضَةِ المِقْيَاسِ تجرى خلالَها جداولُ يُسْدِيها الغمامُ بِمَا يُسْدِى

وأنتهت الحرب ثم عاد البارودى إلى الوطن مع الجيش المكلل بالغار وقد أحرز النصرين معاً : أحرز النصر الحربى فمنحه السلطان فى أول أكتوبر ١٨٦٧ الوسام العثمانى من الدرجة الرابعة[٣] ، وأحرز النصر الأدبى فتقلد زعامة الشعر وأصبح المثل الأعلى للشعراء .

البارودى بين غواية القصر ومفاتن الحياة

فى قصور إسماعيل :

بعد عودة البارودى من حرب « كريد » نقل من آلاى فرسان الحرس إلى المعية الخديوية ياورا خاصاً ضمن ياوران الخديو[1] ، وكان إسماعيل قد قضى فى الحكم ما يقرب من خمس سنوات ، استطاع فيها ، بأسلوب الرشوة والمساومة مع الباب العالى ، أن يكسب لنفسه من الامتيازات ما يجعله الحاكم المطلق فى البلاد . وكان خياله المحموم بأطماعه يفزع سامعيه ، ففى صيف عام ١٨٦٤ لم يكن يفكر فى أن يجعل القاهرة باريس أخرى على النيل فحسب ، بل فى أن يجعل من نفسه أيضاً إمبراطورا لأفريقيا بأى ثمن وعلى حساب الشعب وطاقاته[2] ، وتوهم أن بعثرة أموال الدولة على المظاهر السطحية ليراها الزوار الأجانب ، سوف تحيل له القاهرة باريس ، وتجعله نابليوناً ثالثاً آخر . ومن ثم كان يرى المال وسيلة إلى تحقيق آماله ، فأهاب به استعداده التجارى أن يستخدم سلطته المطلقة فى جمع المال بوسائل النهب والسلب والإذلال من المواطنين ، وبالدهاء والمرواغة والتحايل والذلة من المرابين الأجانب[3] .

وحتى عام ١٨٦٧ كان إسماعيل قد جمع لنفسه من الأهالى ما يزيد عن عشرة ملايين من الجنيهات ، واستدان من بيوت الأموال الأجنبية اثنى عشر

---

(١) كان زملاؤه فى الياوران مصطفى فهمى ، وعبد القادر حلمى ، وزهراب ؛ الجوائب المصرية عدد ٥٧٢ فى ١٥ / ١٢ / ١٩٠٤ .

(٢) دافيد لاندز : بنوك وباشوات ترجمة عبد العظيم أنيس ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ١٩٤ .

(٣) الفريد سكاون بلنت: التاريخ السرى للاحتلال الإنجليزى ، تعريب جريدة البلاغ ١٩٠٨ ص ١٦ .

مليونًا أخرى ، بددها ذات اليمين وذات الشمال على ملاذه الشخصية ، وطيشه مع النساء الأوربيات ، وسفهه فى إقامة الحفلات الملكية[١] . وتجلت فى إسماعيل قدرة مفزعة على إنفاق الملايين حتى اعتبره التاريخ آية الآيات فى الإسراف ، يبذر المال بغير حساب ، ويعشق البذخ الطائل . فتأنق ما شاء فى زينة الملك وزخرفه ، وأكثر من تشييد القصور ، وملأها بالجوارى الحسان من أطراف الدنيا ، وكان ثالث ثلاثة تملكهم حب الأبهة والإسراف فى العالم : السلطان عبد العزيز ، والإمبراطور نابليون الثالث ، وإسماعيل خديو مصر[٢] .

وأصيب اسماعيل بهوس بناء القصور فبنى نحو ثلاثين قصراً من القصور الفاخرة . منها قصر الجزيرة[٣] وقد شيده على مثال قصر الحمراء بالأندلس ، وأقام حوله حديقة مساحتها ستون فدانا تسير فيها الوحوش الكاسرة والمستأنسة . وقصر الجيزة[٤] وقد استورد لبنائه وتخطيط حدائقه مهندسين وعاملين من الآستانة ، وأنشأ بستان الأورمان ملحقاً به ، وجلب له الأشجار من جزر الروم . وعلى مثال هذين القصرين بنى إسماعيل قصر القبة ، وقصر حلوان وسراى الإسماعيلية ، وسراى الزعفران ، وغيرها من القصور العديدة فى القاهرة والإسكندرية والأقاليم . ويصف شاهد عيان[٥] الحياة فى هذه القصور ، فينقلنا إلى خيالات تتوارى الأساطير الشرقية والغربية خجلا أمامها ، فألوف الجوارى الحسناوات، والوصيفات الجميلات، «والقلفاوات » المثقفات، « والشاويشات» المهذبات، ثم فريق الراقصات ، والمغنيات ، والممثلات ، والعازفات على الآلات الموسيقية

---

(١) المصدر السابق ص ١٨ .

(٢) أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن (١٩٣٤) ج ١ ص ٢٤ .

(٣) استورد له المهندسين من النمسا لبنائه ، ومقره الآن فندق عمر الخيام على النيل بالزمالك ، القاهرة.

(٤) مقره الآن حدائق الحيوان . انظر تفصيلات وصف هذين القصرين فى الخطط التوفيقية ج ١ ص ٨٤ — ٨٥ .

(٥) أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ج ١ ص ٥٠ — ٨٦ .

النحاسية والوترية ، يستوردهن من أوروبا وتركيا وبلاد الجركس (يسرجية) عمـــلاء ، ويدربونهن على العمل فى هذه القصور . وكانت زوجات الخديو الأربعة يتنافسن فى اقتناء أجمل الجوارى وأرشق الوصيفات ، ويلحقنهن بخدمتهن حتى ينلن الحظوة لدى إسماعيل .

البارودى والغزل :

فى هذه البيئة البذخة اللاهية ، وبين ردهات القصور الفاخرة ، وفى حدائقها الغناء المزهرة ، وعلى مرأى من طيورها الغردة وحيواناتها النادرة ، عاش البارودى ثمانية أعوام من شبابه وصباه ، ضابطا بالحرس الخديوى وياورا خاصاً لإسماعيل واتته الأسباب كلها لتشد الغيد الحسان إلى مداره ، ويصبح مناط الأمل ومهوى القلب لدى كل رداح هيفاء ، وتجمعت له السبل لينعم بمجالس اللهو والشراب والغناء : شباب يتفجر صبا وفتوة ، وثراء يسلكه فى عداد علية القوم ، ومجد يعلو به إلى الهام ، ونخار يكلل جبينه ببطولة فى الحرب يتيه بها على أقرانه وتحببه إلى قلوب العذارى ، وشعر يخلب الالب ويسلب القلب من الضلوع . ألا إنها حياة اللهو ألقت بكأسها بين يدى البارودى فى شبابه فـكرعها حتى الثماله ، يقوده فيها — كما يقول — شيطان الخلاعة والسكر[1] ، يتصيد قـــلوب الغانيات فيشقى بحبهن تارة ويسعد أخرى ، ويعب من الصهباء حتى تظل به الأرض الفضاء تدور[2] ، ويعيش ما يشاء من ليالى الأنس ومجالس اللهو والغناء .

ويستثير هذا اللون من الحياة شاعرية البارودى فيغنى ، ويصوغ تجاربه صوراً يصف فيها الجمال الذى يستمتع به والأحاسيس التى تخامره ، ويفرد لـكل

---

(١) الديوان : (الجارم) ج ٢ ص ٧ .   (٢) المصدر السابق ص ٢٢ .

متعة صورة ، فهو عاشق سعيد مرة ، ومعذب أضناه الجفاء أخرى ، وشارب تارة ، ومستمتع بالطبيعة رابعة ، أو يمزج كل متعه فى صورة واحدة حين تلتقى معانيها فى عواطفه وتختلط أحاسيسها فى نفسه ، يعيش كل ذلك ، ويشدو به على قيثارة شعره ، ويخرجه إلى الحياة ليبقى ، ونقرأه فنحس بأن البارودى كان فى شبابه ابن كأس ولذة[1] ، يستأثر لنفسه بملذات الحياة ، وينتهبل المتعة ويعتصرها لينعم بآخر قطرة فيها .

والواقع أن البارودى بفتوته العارمة ، وصبوة الشباب فيه عاش هذه السنوات من عمره بشراً وشاعراً ، يستمتع بلهو الصبا ومفاتن الحياة ، ويجرى على طبيعته مع الغواية والصبا فى سباق[2] ، لا يسأم اللهو ولا يسأم اللهو منه[3] ويعلن ذلك كله فيقول[4] :

عَصَيْتُ نذيرَ الحِلْمِ فى طاعة الجَهل ... وأغضبتُ فى مَرضاةِ حبٍّ المَهَا عقْلى
ونَازعتُ أرْسَان البِطَالة والصِّبا ... إلى غايةٍ لم يأْتِها أحــدٌ قبْلى

وكأن البارودى كان يرى الاستمتاع بالشباب هو السوىّ من السلوك الإنسانى فيجهر بذلك فى قوله :

إذَا المرءُ لم يطْربْ إلى اللَّهو والصِّبَا ... فما هُو إلاّ من عِدَادِ البَهائمِ[5]

أو يرى المرء بين سبيلين فى الحياة عليه أن يختار بينهما ، اللهو أو الهمّ ، فاختار البارودى الأولى كما يقول :

إذَا المرءُ لمْ يُعطِ الحَيَاةَ نصِيبَهَا ... من اللَّهْوِ قَادتْه الهُمومُ إلى الشَّكْوِ[6]

---

(١) أنظر : ديوان البارودى (الإمام) ج ٢ ص ٣٤٤ .

(٢) أنظر : ديوان البارودى (الجارم) ج ٢ ص ٢٩٤ . (٣) المصدر السابق ص ٢٩٥ .

(٤) ديوان البارودى (الإمام) ج ٢ ص ٣٣٩ — ٣٤٠ .

(٥) هذا البيت لم يسبق نشره وهو من الجزء المخطوط من الديوان من قصيدة عدد أبياتها ١٢ بيتا عنون لها بقوله (وقال يفتخر) ؛ المخطوطة (س) ص ٢٤٣ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٢٤٨ .

(٦) هذا البيت لم يسبق نشره وهو من الجزء المخطوط من الديوان من قصيدة عدد أبياتها ٢٢ بيتا ؛ المخطوطة (س) ص ٣٠٤ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٣١٠ .

وكان البارودى وهو شاب يؤمن بأن الحب ضرورة لازبة لأنه فطرى وغريزى ، ويرى أنه لا حيلة للإنسان فى صد الغرام ، أو حفظ القلب من أن يقع فى شراك الهوى ؛ بل كان لا يصبر على العيش خلى الفؤاد من الحب والجوى ، ويرى أن الإلحاح فى اللوم وكثرة النصح يغريان بالصبوة والغواية كما يقول :

صَبَوتُ إلى المُدَامَةِ والغَوانى   وحكَّمتُ الغَـوايةَ فى عِنَانى
وقلتُ لِعِفَّتى بعـدَ امْتناعٍ   إليكِ ، فقد عَنَانى مَا عنـانى
فمَا لى عن هوى الحسناءِ صبرٌ   يُوقِّر عنـد سَوْرَته جَنَانى
وكيفَ يُفيقُ[1] من دَارَت عليه   كئوسُ هوًى من الحَدَقِ الحسانِ
أعَاذِلُ ، خلِّنى وشئونَ قلـبى   وخذْ ما شئتَه فى أىِّ شَانِ
فقد شبَّ الهوَى من رام نُصحى   وأغْرى بالمحبةِ[2] مَنْ نَهـانى

والشباب كما يراه البارودى عارية مستردة ، لا يلبث أن يذهب وتبقى منه الذكريات والحسرات فليغنم اللذة ويخلع عذاره فيه كما يقول :

إنَّ عَصرَ الشبابِ فينا مُعارٌ   واللَّيـالى تردُّ كلَّ مُعَارِ
فامْرَحا وامرَحا ، فقد آذنَتْنَا   نسماتُ الصَّبـا بخلعِ العِذَارِ

ويتنقل قلبه فى هوى العذارى ، يتعرضن له فتصور حسنهن بلورتا عينيه فى صفحة القلب ، ويصوبن إليه سهامهن المريضة فيصمين فؤاده ويروح فريسة الأهداب ، ويخلع البارودى فى حب الغيد رسنه ، ويبيع بالسهد فى ليل الهوى وسنه كما يقول :

---

(١) فى المخطوطة (ج) يضيق .

(٢) فى المخطوطة (ج) وأغرى فى المحبة ، وهذه الأبيات الستة لم يسبق نشرها ، وهى من الجزء المخطوط من الديوان من قصيدة عنوانها « وقال فى صباه » ، وعدد أبياتها ٣٨ بيتا ؛ المخطوطة (ج) ص ٢٨١ — ٢٨٢ ؛ والمخطوطة (س) ص ٢٧٥ — ٢٧٦ .

خلعتُ فى حبِّ غزلانَ الحِمَى رَسَنِى ... وبعتُ بالسُّهد فى لَيل الهَوَى وَسَنى [١]
وَأَعجَبتنى عَلَى ذَمِّ العذُولِ لهَا ... صبابةٌ نقَّلَتْ سرِّى إلى العَلَن
فَليبلغ العذلُ منى ما أرادَ، فقدْ ... أَسلَمتُ للشوق رُوحى، وَالضَّنَى بدَنى [٢]

ولكأنى بالبارودى وقد علق قلبه بواحدة من الوصيفات فى قصور إسماعيل وأتصل الود بينه وبينها، ثم تخشى عليه العيون والأرصاد وبطش إسماعيل فتمتنع عنه، ويهيج به الشوق فيغنى لحن الهجران والصد فى قصيدة مطلعها[٣]

عُودى بوَصْل، أو خُذِى ما بَقِى ... فقد تَدَاعَى القلبُ ممَّا لَقِى

ويشكو لها الجوى وما يقاسى قلبه حين يتذكرها فتهوى الزفرات بدموعه، ويستعطفها وقد علمته الذل وكان لا يعرفه، ثم يذكر مكانها فى القصر وقد حاطت الفرسان به فيقول:

حَاطَت به الفرسانُ حورَ المَهَا ... يا مَنْ رأى الرَّبْرَبَ فى الفَيْلَقِ [٤]
أَرنُو إليها وهْىَ فى شَأْنها ... كنظرةِ العَانى إلى المُطْلَقِ
يَارَبَّةَ القُرطَقِ هـل نظرةٌ ... أَحيَا بهَا؟ يا ربَّةَ القُرطَقِ [٥]

وتزداد الحبيبة صداً فينفطر قلبه أسى وحزنا، ويشكو تباريح الهجر، ويبكى بدموع غزار ويصرخ[٦]

---

(١) الرسن: المقود؛ الوسن: النوم.

(٢) هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهى من الجزء المخطوط من الديوان من قصيدة عنوانها «وقال أيضا فى صباه»، وعدد أبياتها ٣١ بيتا؛ المخطوطة (س) ص: ٢٧٩؛ والمخطوطة (ج) ص ٢٨٥.

(٣) الديوان: (الجارم) ج ٢ ص ٣١٠ — ٣١٤.

(٤) الربرب: القطيع من الظباء.

(٥) القرطق: الفراجية ذات الأكمام الواسعة، وكانت لباس الجركسيات والتركيات فى القصور. أنظر: مذكراتى فى نصف قرن ج ١ ص ٥١.

(٦) القصيدة كاملة فى الديوان: (الجارم) ج ٢ ص ٣١٥ — ٣١٧.

أَيُّ قلبٍ على صُدُودِكَ يَبقى ؟ أَوَ لم يكفِ أننى ذُبْتُ عِشْقاً ؟
لم تَدَعْ منى الصَّبابـةُ إلاَّ شبحاً شفَّهُ السَّقامُ فَدَقَّـا

وترحل عنه حبيبة أخرى فيحيل رحيلها حلاوة الحب التياعاً وعذاباً ، لكنه يرضى بما يلقاه فى سبيلها من العذاب ، ويتمنى نظرة منها يقنع بها على البعد فيقول :

يا راحلاً غابَ صبرى بعدَ فُرقتِهِ وأَصبَحَتْ أَسْهُمُ الأَشْواقِ تُصمِينى
إنْ كانَ يُرضيكَ ما أَلقاهُ منْ كمدٍ فى الحب مذْ غبتَ عنّى فهوَ يُرضينى
لَم أَلقَ بعدَكَ يوماً أستبينُ به وجهَ المسرَة إلاّ ظَلَّ يُبكينى
قَدْ كُنتُ لا أَكتفى بالشَّملِ مُجتمعاً فاليَومَ نظرةُ عينٍ منكَ تكفينى(١)

وتمطله ثالثة وتجدد له الوعود فيعيش على الأمانى ، ثم يطلب منها أن تمنحه « القبلة » التى وعدت ، فتزور عنه وتهجره ، فيشكو ويستنجد ، ويندم ويطلب المغفرة فى قصيدة يقول فيها(٢)

وَيلاهُ من نَارِ الهوَى وآهِ من طُولِ الجوَى
أرسلتُ طَرْفى رائداً فما علا حتَّى هَوَى
وسارَ قلبى خَلفَهُ فلَمْ يَعُدْ حتَّى اكتوَى
قَدْ طَالَمَا زَجَرتُهُ يَاليتَه كانَ ارْعَوَى
لِكلِّ شَىءٍ آفَةٌ وآفَةُ القَلْبِ الهوَى

(١) هذه الأبيات لم يسبق نشرها ، وهى من الجزء المخطوط من الديوان تحت عنوان « وقال يتشوق إلى إلف له » ؛ المخطوطة (س) ص ٢٨٧ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٢٩٣ .

(٢) هذه القصيدة فى الجزء المخطوط من الديوان تحت عنوان « وقال فى الغزل » وهى ١٩ بيتا . وقد نشرت الجوائب المصرية منها فى عددها ٥٧٢ فى ١٥/١٢/١٩٠٤ عشرة أبيات وهى هنا الأبيات الستة الأولى والأبيات الأربعة الاخيرة ، والبقية لم يسبق نشرها ؛ المخطوطة (س) ص ٣٠٢ — ٣٠٣ ؛ والمخطوطة (ج) ص : ٣٠٨ — ٣٠٩ .

أَمَا كَفَى هَذَا الجفَا   حتّى أَعَانَتْهُ النَّوَى
وَظَبْى أُنْسٍ سُمتُهُ   إنجازَ وعْدِى فَلَوَى
طَلبتُ منه قُبلَةً   فازورّ عنّى والْتَوَى
وسُمتُه وعْدَ المُنَى   فانحازَ عنّى وَانزَوَى
يَا سائِلِى عَنْ حَالَتِى   دَعْنى فَصَبْرِى قد ذَوَى
أَصبحتُ فى تَيْهُورَةٍ   يسأَمُ فيها من ثوَى [١]
لاَ صاحبٌ وافٍ ولاَ   خِلٌ إلى حَالِى أوَى
فَيَا إلهِى رَاعِنِى   وادْفَعْ عَنِ النَّفْسِ التَّوى [٢]
وَلاَ تكلْنِى للَّتِى   لَوْ صَادفَتْ نجْمَاً خَوَى [٣]

وتمرض فاتنة قلبه فيهلع ، ويريد زيارتها فيمنع ، ولا يملك من أمرها وأمره إلا الشكوى من العذاب والدعاء لها بالشفاء فيقول :

دَعْ حبيبَ القلب يا سَقَمُ   فَبنفسِى لاَ بِهِ الأَلَمُ
كَيفَ حلَّ السُّقمُ فى بَدَنٍ   خُلِقَت من حُسنه النِّعَمُ
يَا لهَا من لَوعة شعَبَتْ   ركْنَ قلْبِى وَهْو ملتئِمُ [٤]
مَنعُونى مِنْ زيارَته   وحمَى قلبى لَهُ حَرَمُ
تَهمُونى فى مَوَدَّته   والهوَى منْ شأْنِهِ التُّهَمُ
رَبِّ قنِّعهُم بفِرْيَتِهمْ   وَانْتصِفْ مِنهُمْ بمَا زَعَمُوا
وَاشْفِ نَفْساً أَنتَ بَارِئُهَا   فإليكَ البُرءُ والسَّقَمُ [٥]

---

(١) فى تيهورة : فى متاهه (٢) التوى : الضياع والخسارة . (٣) خوى النجم : سقط .
(٤) شعبت : صدعت وفرقت .
(٥) هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهى من قصيدة من الجزء المخطوط من الديوان تحت عنوان « وقال فى هوى له وقد مرض » ؛ المخطوطة (س) ص : ٢٤٤ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٢٤٩ .

ويأتى دور البارودى فيمرض من الحب ، ويصيبه العشق بالعلة ، ويسرى فى جسمه الضنى ، وينحل حتى تبين أعظمه ، فيضرع إلى حبيبته لتمن عليه بالوصل حتى لا يتحكم فيه المرض ، وينشد لحنا مرقصا يقول فيه :

عَليلٌ أنتَ مُسقِمه ... فمَا لَكَ لا تكلِّمهُ
سَرَى فيه الضّنى حتى ... بدتْ للعينِ أعظُمُهُ
فلا إنْ باحَ تعذُره ... ولا إنْ ناح ترحَمُهُ
إذَا كان الهوَى ذَنبى ... فقلْ لى كيفَ أكتُمهُ
وَدمعِى أنتَ مُرسِلهُ ... وقلبى أنتَ مؤلمُهُ
وَلاَ واللهِ مَالى فى الْـ ... ـهوَى ذَنبٌ فأعلَمُهُ
فوَيلِى مِنْ غَريبِ الدَّلْـ ... ـلِ أبلانى تحكُّمُهُ
تَردَّدَ فى محبتـه ... ولم يسمحْ بها فمُهُ
نسبْتُ به ، فبَانَ على ... جَبِينِ الشِّعْرِ مِيسَمُهُ
فمَا لى فى الّذى أمْلـ ... ـيهِ مِنْ فَضْلٍ فأغنَمهُ
وَلكن حُسنُه يَبدُو ... إلى عينى فترسُمُهُ
وَيَنثر لفظهُ دُرًّا ... على سَمْعِى فأنظِمُهُ(١)

وتسمع لضراعته الحبيبة فتعوده ، ويصف لنا ما دار فى هذا اللقاء فيقول :

قالتْ أراكَ عليلَ الجسْمِ، قُلتُ لهَا ... من شفّه الحبُّ أبلى جسمَه السَّقَمُ
قَالتْ فهلْ منْ دواء يُستطَبُّ بِهِ ... قلتُ الوصالُ ،فراحتْ وَهْى تَبْتسِمُ(٢)

---

(١) هذه الأبيات لم يسبق نشرها ، وهى من الجزء المخطوط من الديوان من قصيده عدد أبياتها ١٦ بيتا ؛ المخطوطة (س) ص ٢٤٥ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٢٥٠ .

(٢) البيتان لم يسبق نشرهما وهما من الجزء المخطوط من الديوان من مقطوعة عدد أبياتها أربعة ؛ المخطوطة (س) ص ٢٤٦ والمخطوطة (ج) ص ٢٥١ .

ويكتب لمن أعرضت عنه وظلمت هواه ولم ترد تحيته وسلامه فيقول :

ذنبى إليكَ غرامى فهلْ يحلُّ ملاَمى ؟
يَا ظَالماً فى هوَاهُ هــلاً رعيتَ ذِمامِى
حتَّامَ تُعْرِضُ عَنِّى وَلاَ تردُّ سَــلاَمِى ؟
وكيفَ تُنكرُ وَجْدِى أما رأيتَ سَــقامِى ؟
فيَاسميرَ فُــؤادِى فى يقْظَتِى وَمنَــامِى
مَتَى يَفوزُ بِوَصْــلِ أسيرُ لحْظِكَ (سَامِى)[1] ؟

ويستشهد البارودى على بكائه بحمام الأيك فكلاهما يشدو ، ولكن البارودى يشدو نواحاً وألماً من الوجد ، وحمام الأيك على الغصن يغنى ، ويظن البارودى أنه وجد فيه قرينا وشريكا فى الألم لتخفف المشاركة من عذابه ، ولكنه لم يجده مثيله فى الصبابة والوجد ، فانصرف عنه وهو يقول[2] :

سَلْ حَمَامَ الأَيْكِ عَنِّى إنَّه أَدرَى بحُــزْنِى
نحنُ فى الحُبِّ سَواءٌ كلُّنَا يبــكى لغُصْــن
غيرَ أنَّ الوجْدَ منْهُ ليسَ مثلَ الوجْدِ منِّى
أنَا أَبــكِى من غرَامِى وَهْوَ فى الغُصْنِ يُغَــنِّى
وَهْوَ بالدَّمعِ بخيــلٌ ودُموعِى ملءُ عيْــنِى
لَسْتَ فى الصَّبوةِ مثْلِى فَانصرِفْ يا طــيرُ عَــنِّى

(١) هذه الأبيات لم يسبق نشرها ؛ وهى من الجزء المخطوط من الديوان من قصيدة عدد أبياتها ١٠ أبيات ؛ المخطوطة (س) ص ٢٤٦ ، والمخطوطة (ج) ص ٢٥١ .

(٢) هذه المقطوعة لم تسبق نشرها وهى من الجزء المخطوط من الديوان ، المخطوطة (س) ص : ٢٩٠ ؛ والمخطوطة (ج) ص : ٢٩٦ .

وغزليات البارودى فى ديوانه المطبوع والمخطوط تدل على أنه نقّل فؤاده حيث شاء من الهوى ، وكابد الغرام الحقيقى مع أكثر من حبيبة فى سنوات شبابه . « وظبية المقياس » كانت آثرهن عنده ، ومن ثم كانت أكثرهن ذكراً فى شعره ، ولعلها أول من تفتحت لها عواطفه فتمكنت من فؤاده وظل يذكرها طوال حياته ، وقد كان لأسرته قصر بمصر القديمة يطل على روضة المقياس ، وكان للخديو إسماعيل قصر فى روضة الجزيرة نفسها ، والبارودى فارس من فرسان حرسه وياور من ياورانه . ثم « مهاة شبره[1] » ، وشبرا فى عصر البارودى ، كانت المكان المطروق للتنزه فى مزارعها النضرة ومناظرها الجميلة ، وكان يقصدها أفراد الأسرة الخديوية ، والسراة ، والأعيان ، مشاة وركبانا وللحريم عربات خاصة[2] ، وبها قصر النزهة[3] لإسماعيل . « وغزالة الجزيرة[4] » ولعلها من وصيفات قصر الجزيرة تخرج مع صويحباتها إلى متنزهات القصر تسترق النظر إليه خوف الرقيب ويتبعها قلبه ثم تذهب ، ويقف مطويا على كمد. ثم « ليلى حلوان » ، وللبارودى فى شبابه صولات وجولات بين غادات هذه الضاحية الجميلة من عربيات[5] وتركيات ، وكانت فى وقته مسكن الأسر الجركسية والتركية ، وبها قصر لإسماعيل ، ويسجل البارودى ليلة أنس قضاها مع « ليلى حلوان » فى قصيدة يقول فيها :

فى نَشوة الخمر سرٌّ من مَراشفِهاَ وفى الأراكة شكلٌ من تهَادِيهاَ[6]

يا ليلةً بتُّ أسقى مِن بنانَتِهاَ ومن لواحظها خمراً ومِنْ فِيهاَ

---

(١) أنظر: الديوان (الجارم) ج ٢ ص ١٠٨. (٢) مذكراتى فى نصف قرن ج ١ ص ٥٥ .

(٣) مقره مدرسة التوفيقية . (٤) أنظر: الديوان (الجارم) ج ٢ ص ١٥٨ — ١٥٩ .

(٥) أنظر : الديوان (الجارم) ج ١ ص ٥٨ .

(٦) الأراكه : شجرة طويلة الساق كثيرة الورق والأغصان خوارة العود يتخذ منها السواك .

حتّى إذا رفَّ خيطُ الفجر وابتدرت حمائمُ الأيكِ تشدُو فى أغانيها
قامتْ تمَايلُ سكرَى فى مآزرها والرَّوعُ يَبْعَثُهـا طوراً ويثْنيِهاَ
ثم انثنَت وَيدى قيدٌ لخاصِرهاَ كالخيزرانة رياً فى تثنيهـا
فى بُلجَةٍ لا تـكادُ العينُ تُنـكرُهاَ وَسُحْـرَةٍ ربَّماَ شفَّتْ نواحِيهاَ
حتَّى تجاوزت أحراساً على شَرفٍ يكادُ يمنعُ همٌّ النفْس داعِيهاَ
وَحركَتْ حلقَاتِ البْابِ فانفتحتْ عن سَاحةٍ سكنتْ فيها تَراقِيهاَ
فعدتُ والعينُ غرقى فى مَدَامعِها والقلبُ فى لوعة تَنزُو نوازيهاَ
فيَالهَاَ ليـلةً كانَتْ بِوُصْلَتِهاَ تاريخَ لهوٍ يَهيجُ النفسَ دَاوِيهاَ[١]

وروعة الغزل عند البارودى أنه صادر عن قلب لا يتـكلف الحب بل يفيض به ويزخر ، فإذا نعم بحلاوته ولذته سال نغما يتدفق سلاسة وجمالا ، وإذا عذبه الصد والشوق والهجران صاغ الألم فى عواطف لاذعة يمازجها حس دقيق ، يصور ذلك فى سهولة ويسر ، لأنه يصور واقعاً تنبض به أحاسيسه ، فلا نلبث حين نقرؤه أن ينفذ إلى أعماقنا ، ويتجاوب معه مشاعرنا . ويحب البارودى ويغرق فى الحب ، ويجهر بذلك ويعلنه على الملأ دون تحفظ أو خشية من لوم ، فهو يؤمن بأن الحب ضرورة لازبة لأنه فطرى فى المـرأة والرجل ، وألم الصبابة هو الألم العبقرى الذى تحيا به نفس الشاعر المرهفة[٢]. وكان يرى أن الفتى الـكريم لا يعيبه اللهو والتصابى فـكل مسوق لما أريد له[٣] ، ويتصدى للائمين ويطلب إليهم أن يدفعوا عنه الصبابة إن استطاعوا ،

---

(١) هـذه الأبيات لم يسبق نشرها وهى من الجزء المخطوط من الديوان من قصيدة تحت عنـوان « وقال يذكر ليلة أنس بحلوان » ، وعدد أبياتها ١٤ بيتاً ؛ المخطوطة (س) ص : ٢٩٦ ؛ والمخطوطة (ج) ص : ٣٠٢ .

(٢) أنظر الديوان : (الجارم) جـ ١ ص ١٢ . (٣) الديوان : (الجارم) جـ ١ ص ٢٤٤ .

فإن لم يستطيعوا ولن يستطيعوا فليدعوه وشأنه ، فليس له على الهوى أمر ولا نهى[١] . ولمَ يوجه إليه فى حبه اللوم ؟ ولو أنصفوا لكانت الغيد الحسان أولى بهذا اللوم منه ، فهن اللاتى يصمين قلبه بسهام حبهن كما يقول :

يلومون أشواقى كأنِّى ابتدعتُها ... ولَوْ علمُوا لاموا الظِّباء الجَوَارِيَا
وَمَالِىَ ذنبٌ عندهُم غير أنَّنى ... شدَوتُ فملتُ الحمامَ الأغانيَا
وهلْ يكتمُ المرءُ الهوَى وهْوَ شاعرٌ ... ويَثْنِى عَلَى أعْقابِهنَّ القَوافيَا[٢]

والبارودى فى أكثر حبه كان عفيفاً لا يزيد مطلبه فى معشوقته عن اللمسة أو الهمسة ، والمناجاة أو البسمة ، وأكثر ما يكون مناه « قبلة » تطفىء لهب الشوق وحرارة الجوى . وكان البارودى يتيه بعفته فى حبه ، ويراها موضعاً لفخره ، ففى قصيدته « أربَّةُ العود[٣] » يصرح بأنه أباح للعين فيها ما تقر به ، لكنه زاد كَفّ الصِّبا عن معقد الأرز[٤] ، وفى قصيدة « أبى الشَّوقُ إلا أن يحِنَّ ضَميرُ[٥] » بعد أن قضى الليل يشرب مع حبيبته خرج حين أسفر الصبح يجر الذيل تيها ، وإنما يتيه الفتى إن عفّ وهو قدير[٦] .

ويظهر مذهب البارودى فى اللهو والخلاعة والحب صريحاً فى قوله :

ومَاذَا على مَنْ خَامر الحبُّ قلْبَه ... إذَا رالَ معْهَا للخلاعَةِ والصَّبْوِ
وهلْ فى الصِّبَا واللَّهْو عارٌ على الفَتَى ... إذا العِرضُ لم يَدْنس بإثم ولا بَغْوِ[٧] ؟

---

(١) المصدر السابق ص ٢٤٦ — ٢٤٧ . (٢) يثنى على أعقابهن : يردها وعنها ؟ هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهى من الجزء المخطوط من الديوان من قصيدة ٣٤ بيتا تحت عنوان « وقال فى ذكر الشوق » ؛ المخطوطة (س) ص٣٠٦ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٣١٢ .

(٣) الديوان (الجارم) ج٢ ص ٨٨ . (٤) المصدر السابق ص ٩٠ .

(٥) المصدر السابق ص ١٨ .

(٦) المصدر السابق ص ٢٤ . (٧) البغو : التعدى .

لَعمرُكَ ما قارفتُ فى الحُبِّ زلةً ... ولا قَادَنى معهَا إلى سوأةٍ خَطْوِى

وَلـكِنَّنى أَهْوَى الخلاعةَ والصِّبَا ... وأَتبعُ آثار الفَضِيـلَةِ والسَّرْوِ [(١)]

والواقع أننا نجد البارودى المحب فى أكثر تجارب حبه فاتك الصبوات فى قدسية وجلال ، عرف الحب شريعة وجدانية فلم يتردد فى اعتناقها ولو كان رئيس وزراء ، فالحب عنده جذوة روحية تصل صاحبها بسرائر الوجود وترفعه إلى أوج المجد والخلود كما يقول :

والعشْقُ مكرمَةٌ إذا عفَّ الفَـتَى ... عمَّا يهيم به الغَوِىُّ الأَصوَرُ [(٢)]

يقوى به قلبُ الجبان ، ويَرْعَوى ... طمعُ الحريصِ ، ويَخضعُ المتـكبِّرُ

ولـكن دعواه العفة المطلقة وعدم مقارفته زلة فى الحب وأنه لم يدنس غرامة بإثم ، ينقضها اعتراف صريح منه بأن الشباب قد نزى به مرة فانزلق ، وخرج عن خط العفة الذى رسمه لنفسه . وصراحة البارودى فى الاعتراف تدل على أنه كان أمينا مع عواطفه ، وصادقاً فى التعبير عنها كما فى قوله :

وَمـلْمَسِ عفَّةٍ قد نلتُ منه ... بأيدى اللَّهو ما شاء التَّمنِّى

ملـكتُ به عِنَان الشَّوق حتى ... قضيتُ لُبَانتى وأرحتُ ظَنِّى

فَلاَ تسأَلْ على ما كانَ منهُ ... ولا تسأَلْ على ما كان منِّى

فَلَوْلاَ أنَّ جندَ الصبحِ وافَتْ ... طلائعُه وزالَ الليـلُ عَنِّى

لَدُمتُ على مُعاقَرةِ الأَماَنِى ... ولـكنْ ربَّمَا عاودْتُ فَنِّى [(٣)]

---

(١) السرو : الفضل؛ هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهى من الجزء المخطوط من الديوان من قصيدة عدد أبياتها ٢٢ بيتا ؛ المخطوطة (س) ص ٣٠٤ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٣١٠ .

(٢) الأصور : المنحرف عن الرشاد .

(٣) هذه المقطوعة لم يسبق نشرها وهى من الجزء المخطوط من الديوان ؛ المخطوطة (س) ص ٢٨٧ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٢٩٣ .

وقد بدا لبعض الكتاب أن يؤكدوا أن البارودى لم يكن صادقاً فى غرامياته ، وقد جزموا بأن قصائده فى هذا الفن لم تكن إلا محاكاة لأساليب الأقدمين ، ولا ندرى كيف جاز أن تقوم هذه الدعوى بالرغم من صدق العاطفة التى تفيض بها غزليات البارودى ، فتصل إلى قلوبنا ، وتشركنا معه فى آلام نفسه ومشاعره وملذاته ووساوسه ، وتجعلنا نحس بالدموع التى يعبر بها عن يأسه تارة ولهيب الشوق فى حناياه تارة أخرى ، وبرغم ما تذكرنا آيات شعره فى الغزل بغراميات « الشريف الرضى » فى كثير من الأحيان ، وبالرغم مما يصرح به البارودى نفسه فى شعره بأنه أحب ، وتنقل ، وتعذب ، وهجر ، وبكى ، وتألف ، فتأبى الدعوى وتقول له : لا ، إنك لم تفعل ولكنك تقلد الأقدمين ! وفى مقدمة ديوانه يقول البارودى نفسه عن دوافع قول الشعر عنده ، « إنما هى أغراض حركتنى ، وإباء جمح بى ، وغرام سال على قلبى » ولكن الدعوى تتهمه بالكذب وتقرر أن الغرام سال على قلب غيره وما هو إلا ناظم ومقلد له . ورائد هذه الدعوى محمد حسين هيكل[1] السياسى الوزير ، ولعله بعقلية السياسى الوزير فى عصره أراد تنزيه البارودى عن مآثم الفتيان ، فقد كتب عنه وقد نسى أن البارودى مر بفترة الشباب ، وبقى فى مخيلته أنه وصل إلى رئاسة الوزارة ، ويجب على الوزراء ورؤسائهم — فى تصوره — أن يعيشوا بلا قلوب !

البارودى والخمر :

وكذلك ذهبت الدعوى فى خمريات البارودى ، فقد اتهمت بالزيف هذا الفيض القوى من حب الحياة والبهجة ، وتعشق متعة الشراب وظلال أنسه

---

(١) فى مقدمته لديوان البارودى شرح الجارم ومعروف .

الورافة ، وجعلته تقليداً لا ينبع من حس ، ولا يصدر عن عاطفة صادقة ، وذلك لأن محمد حسين هيكل لم يتصور ، بعقلية عصره ، أن يجهر رئيس الوزراء بمعاقرة الخمر ، أو أن يعرف الناس عنه أنه يشرب الراح ، ومن ثم ذهب فى دعواه إلى أن خمريات البارودى كانت تقليدا ، مع أن البارودى تغنى بالخمر وآثارها فى العقول والأحاسيس ، وبأوصافها ألوانها فى جدتها وعتقها ، غناء خبير مارس الشراب حتى عرف أسرار التجربة . كل ذلك فى عاطفة تفيض قوة وحيوية ، بل تفيض فرحاً وبهجة ولذة ، وكأنما يريد أن يمنحنا محبة الحياة . وديوانه ملىء بمجالس الشراب فى ليالى الأنس ، تارة فى ثنايا قصائده وطوراً فى مقطوعات وقصائد مفردة ، يصف دنانها وندمانها وكئوسها وسقاتها وحتى صوت عطاسها حين تفتح للشاربين[1] وصفا رائعاً يعود أكثره بنا قروناً إلى الوراء لنستعيد ما نظمه فيها أبو نواس وابن المعتز . وقد يقال إن بعض قصائد البارودى فى الخمر لا تخلو من ضعف ، وذلك أمر مسلم به ، ولكن هذا الضعف لا يرجع إلى أن الخمر لم تذهب بعقل البارودى كما تقول الدعوى ، وإنما يرجع إلى أن الشاعر لا يمكن أن يكون مجيداً فى جميع الأغراض وفى جميع الحالات ، وقد يصيبه الفتور والضعف لظروف طارئة ، أو يرجع إلى أن وصف الخمر فن لا يحسنه جميع الشعراء ، وإن كان فى حبها من الصادقين .

وأكثر ما يكون البارودى مبدعا حين تقترن نشوة الشباب فيه بفرحة الحياة ، وتستوعب أحاسيسه ذلك كله ، ثم تمزجه بجمال الطبيعة وفتنة الحسان الجميلات ، ويغنيه العاشق المفتون بالجمال المنتشى بابنة الكرم نغما يدفع قلوب السامعين إلى مشاركته حياته ومتعته . وحين نستعرض قصائده

---

(١) الديوان (الجارم) ج ٢ ص ١٥٢

« غَادِ النَّدَى بالجيزة الفَيْحاء[١] » ، أو «ألاَ عَاطِنِيهَا بِنْتَ كَرْم تزوجت[٢] » ، أو « وَليلةِ أُنس قصَّر اللّهوُ طولها[٣] » ، أو « أدرِ الكأْسَ يا نديمُ وهَاتِ »[٤] ، أو « زَمْزِمِى الكأْسَ وهَاتِى[٥] » ، أو إملاَءِ القَدَح[٦] » ، أو « تَغَنَّى الحمامُ وَنَمَّ الشَّذَا[٧] » ، أو « نمَّ الصَّبَا وانتبه الطائرُ[٨] » ، أو « حَبَّذا الراحُ فى أوان البَهارِ[٩] » ، وغيرها نجد أن البارودى كان يحيا حياته فى شبابه كما يهوى ، يستأثر لنفسه بكل نعيم فى دنياه ، « ويجمع جمعاً بديعاً بين الطبيعة والحب والخمر ، وكأنما تلتقى معانيها فى نفسه لقاء واحداً[١٠] » . ومن جميل ما وصف لنا فيه ليلة من ليالى شرابه وأنسه قوله :

لاَعبَ السُّكرُ قدَّه فتثنَّى ... ودعاهَ فرطُ السرور فغَنَّى

رَشَأٌ تعبُد النواظرُ منه ... واحدًا فى الجمال ليس يُثَنَّى

أَنبتَ الحسنُ فوقَ خدَّيه ورداً ... ليس إلاَّ بغَمزة اللَّحظ يُجْنَى

لم يزلْ يرضع السُّلافةَ حتَّى ... غابَ عنَّا ، كأنه ليسَ منَّا

فأنمناه فوقَ مهدٍ وثيرٍ ... برهةً كىْ يَفيق ، ثمّ انصرفْنَا

فَلَبِثْنَا هُنيهةً ، ثم لمَّا ... خَفَّ من سُكرٍ وأَقبلَ قُمْنَا

وأَدرْنَا الكؤوسَ حتَّى تولتْ ... أنجمُ الليل من أُحَاد ومثْنَى

يَا لهَا ليلةً أبحنَا بِهَا اللَّهْـ ... ـوَ إلى وردةِ الغَداةِ وَتُبْنَا[١١]

---

(١) الديوان جـ١ ص ١٩ . (٢) الديوان جـ١ ص ٢٦ . (٣) الديوان جـ ١ ص ٦٩ .
(٤) الديوان جـ١ ص ٨٩ . (٥) الديوان جـ١ ص ٩٢ . (٦) الديوان جـ ١ ص ١٢١ .
(٧) الديوان جـ١ص ٢٦٠ . (٨) الديوان جـ١ص١١٦ . والمراد زمن تفتح الأزهار فى فصل الربيع.
(٩) الديوان جـ٢ص١٤٢؛ والبهار: نبت طيب الرائحة. (١٠) شوقى ضيف «البارودى» ص١١٣ .
(١١) هذه المقطوعة لم يسبق نشرها ، وقد عنون لها فى الجزء المخطوط من الديوان بقوله « وقال يصف ليلة أنس » ؛ المخطوطة (س) ص ٢٨٥ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٢٩١ .

ولم تكن الخمر عند البارودى فى كل أوقاتها للنعيم والمتعة ، فقد كان يشربها بعض الأحايين ليعقد لسانه ساعة الغضب حتى لا يظهر سره ، أوليدرأ بها الهم ويسرى عن نفسه الحزن ، فإذا غنى ليصف أو ليقول وهو فى هذه الحالة ظهر على شعره التهالك والضعف كما فى قوله :

وَمَا شُربى المُدام هوًى ولكن ... عقدتُ بحدِّ سَوْرَتِهَا لِسَانِى
مَخافةَ أنْ تَهيجَ بناتُ صَدْرِى ... فيظهر بعضُ سِرِّى للعَيَانِ
دَعِ الدُّنيَا وسلِّ الْهمَّ عنْهَا ... إذَا اعتكَرَتْ بِصَافيةِ الدِّنَانِ
فَإنَّ الرَّاحَ راحةُ كلِّ نفسٍ ... إذَا دارت على نَغَمِ القِيَانِ
من الخَمْر التى درَجت عليهَا ... أَفانينٌ من العُصُر الغَوَانِى
تَخَالُ وَميضَهَا فى الكأس ناراً ... فتلمَسُهَا بأطراف البَنَانِ
فَخُذْهَا غيرَ مُدَّخِرٍ نَفيساً ... فليسَ العمرُ يدخُلُ فى ضَمَانِ (١)

وكذلك شأن الفرسان من رجال الحروب يستخفون بالحياة حين تورى الحرب زندها ، ويغرقون فى حبها ومتعها حين تغيب السيوف فى أغمادها ، وكأنما يعوضون أيام الشدة بالرخاء ، وأيام الخطر بالمتعة والنعيم ، أو لعلهم ينتهبون اللذة واللهو قبل أن تناديهم الخطوب مرة أخرى فلا يدرون ماذا يكون مصيرهم فيها . وهى حال خليقة بالجندى المفطور على الجندية ، والشجاع المفعم بالنوازع الفتية ، ومن أهمها الأخذ بالقريب الحاضر والبعد عن الإطالة والتعمق والاستقصاء ، فليس من اللازم اللازب لصاحبها أن يتغلغل فى التفكير إلى الدقائق والخفايا ، وأن يتوسع فى الخيال والفلسفة ، وإنما اللازم اللازب له أن

---

(١) هذه الابيات لم يسبق نشرها وهى من الجزء المخطوط من الديوان من قصيدة عدد أبياتها ٣٨ بيتا وعنون لها بقوله « وقال فى صباه » ؛ المخطوطة (س) ص ٢٧٥ — ٢٧٦ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٢٨١ — ٢٨٢ .

يكون عند دعوة الإقدام والفخار والقوة ملبياً ، وعند دعوة المرح والغرام والفتوة مجيباً . وكذلك كان البارودى كما يدل على نفسه بشعره وكما يخبر عنه عارفوه ومعاشروه وأبناء عصره[1] . ويجسد البارودى فارس القرن التاسع عشر لنا المثال الرفيع للفارس العربى منذ روت عنه الأساطير ، وحين دخل التاريخ من بابه العريض فى القرن السابع مع امبراطوريته الواسعة إلى حروب الصليبين والتتار ، ويعيد إلى واقعنا صورته بجميع خطوطها وألوانها النفسية بعثاً ونشوراً ، حتى الظلال التى قد تعلق بالصورة من طريقة تناوله الحياة العامة والخاصة ، فتعكس السمو فى شخصيته ، والنور الذى يضىء جوانبها من عشقه وخمره وحبه لجمال الطبيعة وفخره وإبائه وكرمه .

على هذه الصورة كانت قيثارة البارودى أثناء عمله بالقصر ضابطاً وياوراً للخديو ، تعزف أنغام الحياة التى يعيشها مستمتعاً بحبه وصبواته ، متنقلا بين مجالس اللهو يجنى اللذة ويكرع المتعة . ويظل البارودى منطلقاً فى لهوه يغنى ، حتى أواخر عام ١٨٦٧ فتفتقد حمامة الأيك أنغام الهوى من صديقها الشاعر ، ولا تعود تسمعه يتنقل من حبيب إلى حبيب ، يشدو بنغمات الحب ويبكى ألم الصد ويذرف الدمع من لوعة الأسى ونار الهجران ، ثم يأتيها صوته من بعيد يعزف لحن الاستقرار والعيش الهنىء فى قفصه الذهبى الجديد ، فقد وجد البارودى إلفه ، واهتدى إلى القرين ، وتزوج بعديله هانم يكن[2] .

ومع أن أسرة البارودى تنفى نفياً قاطعاً أن شاعرنا تزوج قبل « عديله هانم

---

(١) عباس محمود العقـاد : شعراء مصر وبيئاتهم ص ١٣٤ .

(٢) بنت أحمد يكن ، « ويكن » معناها ابن الأخت ، وقد كان أحمد يكن بن أخت محمد على ، واعتمد عليه فى بناء ملكه ، وولاه إمارة الحجاز ، وتوفى عام ١٨٥٧ .

يكن[١] » . إلا أن بعض المصادر التاريخية ذكرت أن « عديله » كانت الزوجة الثانية للبارودى[٢] ، وأنه تزوج قبلها بإحدى جواريه لمدة قصيرة ، ثم اختفت هذه الزوجة فى ظروف غامضة[٣] ولم يعد أحد يذكرها أو يذكر عنها شيئاً . وتروى بعض هذه المصادر[٤] أن البارودى ذكر هـذا الحادث فى بيت واحد له يقول :

أتغلبنى ذاتُ الدَّلال على أمرى ... إذاً أنا أوْلى بالقنـــاعِ وبالسِّتر

ندوة البارودى الأدبية :

كان بالقاهرة على عهد البارودى كثير من المجالس الخاصة ، من منتديات للأدباء ، ومجالس للفقهاء ، ومجتمعات للظرفاء أو المفتنين ، وندوات خاصة يجتمع فيها رجال الفكر وشيوخ العلم وعشاق الأدب . وهم مزيج مختلف ، منهم الثرى الوجيه ، والأديب الفقير ، والأزهرى المعمم ، والموظف المطربش ، والعالم والشاعر والنديم وطالب الحاجة ، والمزدلف إلى القوة والثروة ، ويجتذب كل مجتمع صاحبه الذى يناسبه حتى ليكاد كل واحد يعرف مكانه من هذه المجالس حسب ذوقه وحاجته

أما المجالس العامة فكانت تجتمع دون نظام وعلى غير موعد ، يحضرها المتشاعرون ، ويؤمها المبتدئون وأدعياء الفن والأدب ، تعقد فى المقاهى

---

(١) ولم يرد فى مذكرات الأسرة ذكر لزواج له قبل عديله هانم يكن .

(٢) برود لى : كيف دافعنا عن عرابى وصحبه ، لندن ١٨٧٤ بالإنجليزية ص ١٨٧ ؛ والدكتور محمد صبرى السربونى من حديث معه فى مايو ١٩٦٧ .

(٣) يرد الدكتور محمد صبرى أسباب الاختفاء إلى أنها قتلت لأمور تتعلق بالشرف ؛ ويذكر برودلى أن أعداء البارودى ، بعد هزيمة التل الكبير واعتقاله ، كانوا يرددون قصة تراجيدية عن انتقام البارودى من زوجته الأولى بسبب أمور تتعلق بالشرف ، ولكنه بعد أن رأى البارودى ووهنه وضعفه ورقته كان يجد صعوبة فى تحقيق القصة .

(٤) د . محمد صبرى السربونى فى الحديث الذى جرى معه .

والمتنزهات وفى الأفراح والمآتم . ويصف هذه المجالس واحد من روادها[١] فيقول : وجدت فيها صنوفاً ممن يدعون الأدب وهم جهلة بلداء ، صناعتهم المغالبة والحقد وهمّ كثير منهم التكسب ونيل العطاء ، فإن أعطى رضى وإن منع يظهر السخط والهجاء . . . يسمون شقشقة اللسان عنوان البيـــان ، ويرون البلاغة والفصاحة فى الهجاء والوقاحة ، ويعدون الغلط الشنيع من أنواع البديع . . يسطون على أدب غيرهم ، ويدعونه لأنفسهم . ثياب منقوشة وعمائم منفوشة ، وأعباب كبيرة ممتلئة كبيرة ، لا يعرفون من العلم إلا إسمه ولا من الأدب إلا رسمه ، إذا رأوك على بساط الأدب تطفلوا فإن أخذت فى البحث تنصلوا ، على أن شهرتهم أكبر من الأجرام ولحاهم أطول من إلية الأغنام . . » .

وأما المجالس الخاصة فكانت صورة مصغرة من مجلس الخليفة أو الأمير فى الزمن القديم ، وقد كان عظماء القرن الماضى يستريحون إلى محاكاة عظماء القرون السابقة ، ويحبون أن يروا أنفسهم فى حالة تضارع تلك الحالة ، ومجالسهم تحيي مجالس الإمارة وتروى الأدب الذى سمعوا به أو قرأو عنه . ورواد هذه المجالس من ذوى الميول العلمية والأدبية والفنية من طبقة الأوساط والأغنياء ، ممن تثبت جدارتهم ويعرف مقامهم فى هذه الميادين . وقد جرت العادة فى الندوات الأدبية وقتذاك ألا يحضرها غريب عنها إلا بصحبة عضو منها يزكيه لروادها ، فيأخذون فى مناقشته حتى يتثبتوا من بضاعته ، خشية دخول المزيفين وأدعياء الصناعة الذين كثروا فى تلك الأيام[٢]

وكانت ندوة البارودى الأدبية قمة الندوات فى عصره يعقدها فى داره بباب الخلق ، ويؤمها صفوة القوم من أعيان المنشئين والشعراء والعلماء وعشاق الأدب

---

(١) عبد الله النديم : سلافة النديم جـ ١ ص ٢٤ — ٢٩ .

(٢) المصدر السابق .

والعلم[١] . ومن هؤلاء الشيخ حسين المرصفى ، والسيد على أبو النصر وعلى الليثى شاعرا المعية الخديوية ، ومحمود صفوت الساعاتى ، والشيخ أحمد الزرقانى الكاتب الأديب ، ومحمد سعيد بن جعفر مظهر الشاعر الناثر ، وشيخ الأدباء عبد الله فكرى ، وأحمد وهبى الشاعر « الطرابيشى »[٢] ، وطالب العلم الشيخ محمد عبده . وفى الندوة أمهات الكتب الأدبية تقرأ ، ودواوين الفحول من شعراء العربية تنشد ، ومعارضات لها تنشأ ، وعرض للمعنى الواحد فى صيغ مختلفة ، وأساليب تتمثل فيها ألوان البديع ، ونقد لكل ذلك تتخلله النوادر والملح الأدبية ، ثم يأتى دور الملهم فيرين الصمت ، ويتحول المجلس إلى آذان متلهفة لسماع المعجز من نبى الشعر الجديد . ويعود بهم البارودى — حين ينشد — قرونا إلى الوراء عبر التاريخ ، وكأنهم فى حضرة الشريف الرضى تارة ، أو مجلس المتنبى أخرى ، أو على الركب مع النابغة الذبيانى ثالثة ، أو يشاركون أبا نواس دَنَّه ، أو يحملون السيوف إلى الغارة مع أبى فراس ، أو ينعمون بالطبيعة مع البحترى[٣] . وفى كل مرة تهزم شخصية البارودى فيتوقظهم من الحلم وتردهم من الرؤى والتصور إلى الحقيقة وهم لا يكادون يصدقون أن هذا شعر ينشده شاعر يعيش بينهم ، ويرونه القمة التى تثبت ذاتها دون أن تكون ظلا لشاعر سبقه ، والمعجز الذى بعث الشعر العربى بعد طول رقاد ، والرائد الذى قاد نهضة شعرية فى العصر الحديث .

---

(١) عبد الله النديم : سلافة النديم جـ١ ص ٢٤ .

(٢) كان يبيع الطرابيش فى دكان بالغورية ؛ أنظر : أحمد تيمور: تراجم أدباء القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر ص ١٤٤ .

(٣) عارض البارودى هؤلاء الشعراء فى بعض قصائد لهم وقد نشرت المعارضات فى كتاب الوسيلة الأدبية وقد بدىء فى طبعه عام ١٨٧٥ ، وذلك يدل على أنه قالها فى شبابه منذ عاد من تركيا حتى وقت الطبع.

الفصل الثالث

البارودى على طريق الثورة

فياقوم ، هبُّوا ، إنما العمرُ فرصةٌ — وفى الدهر طرقٌ جمةٌ ومنافعُ
أصبراً على مسِّ الهوان وأنتمُ — عديدَ الحصى ؟ إنى إلى الله راجعُ
وكيف ترون الذلَّ دارَ إقامةٍ — وذلك فضلُ الله فى الأرض واسعُ
أرى أرؤساً قد أينعت لحصادها — فأين ـ ولا أين ـ السيوف القواطعُ ؟
فكونوا حصيداً خامدين،أو افزعوا — إلى الحرب حتى يَدْفَعَ الضيمَ دافعُ
أهبْتُ، فعاد الصوتُ لم يقضِ حاجةً — إلىّ ، ولبَّانى الصَّدَى وهْوَ طائعُ !

البارودى

مولد البارودى الثائر

التحول الكبير :

ويقبل عام ١٨٦٨ فإذا به من الأعوام الحاسمة فى حياة البارودى ، فقد أعلن فى قصيدتين أن السنة التاسعة والعشرين من عمره سنة فاصلة بين عهدين من حياته: عهد الصبا واللهو والغواية ، وعهد الجد والمسئولية والهداية[1] كما يقول :

نَزَعتُ عن الصِّبا ، وعصيتُ نفسى ودافعتُ الغَوَايةَ بالتأسِّى
ومَنْ يكُ جاوز العشرين تَتْرى وأرْدفَها بأربعةٍ وخَمْسِ
فقد سَفَرت لعينيه الليالى وبان له الهُدى من بعد لَبْسِ

وكان من الممكن أن نصدق البارودى وهو يذكر لنا فى هذه القصيدة البواعث الظاهرة لهذا التحول حين يقول :

نظرتُ إلى المِرَآة فكشَّفَت لى قناعاً لاح فيه قَتِيرُ رأسى[2]
وكنتُ وكان فَيْنَاناً أثيثاً أُنَازع شِرَّتى ، وأذود بأْسى[3]
فعدتُ وقد ذَوَى مِنْ بعدِ لينٍ أُدَارِى صَبْوَتى ، وأُسِرَّ يأسى

ولكننا نحس ريحاً ملتهبة بالعاطفة الوطنية والشعور الصادق بمعاناة الوطن وعذابه تطالعنا بها قصيدته الثانية التى يقول فى أولها :

متى أنت عن أُحْمُوقة الغَىِّ نازعُ وفى الشَّيب للنفس الأَبيَّة وازعُ[4] ؟

---

(١) الديوان : الجارم جـ٢ ص ١٦٠، ٢٠٢.

(٢) القتير : أول ما يظهر من الشيب.

(٣) أفنان الشجر : أغصانه ، وشعر فينان كثير ؛ وأثيث : كثير طويل ؛ الشرة : النشاط وقوة الشباب .

(٤) الأحموقة : قلة العقل وشدة الحماقة .

ألا إن فى تسع وعشرين حِجَّةً ... لِكل أخى لهوٍ عن اللهو رادعُ
فحتَّام تُصبيكَ الغوانى بدلِّها ... وتهفو بلُيْتَيكَ الحمامُ السواجعُ ؟
وهل يستفيق المرء من سَكرة الصِّبا ... إذا لم تهذب جانبيه الوقائعُ ؟
أمَا لكَ فى الماضين قبلك زاجرٌ ... يكفُّك عن هذا ؟ بَلَى ، أنت طامعُ

والقصيدة تشهد ميلاد ثورة أخذت تجتاح البارودى وتملأ عليه نفسه ودنياه ، وتنقله من عالم الفردية الذاتية التى يعيش فيها إلى محيط العمل من أجل الجميع ، ومن محور الحياة الخاصة الذى يدور فيه إلى مجال النضال الوطنى الكبير. ثورة يريدها أن تمتد من نفسه إلى مواطنيه فتوقظهم ليستأصلوا أسباب ذلهم وعلة ظلمهم ، ويشعلوها ناراً تذهب بأسباب العذاب والظلم . ومثل هذا التحول الكبير لا يمكن أن يحدث للبارودى فجأة ودون بواعث ومقدمات ، أو أن يسببه بلوغه سنا معينة فى حياته ، بل لابد أن دوافع قوية كانت وراء هذا التحول ، وتجارب معينة عاشها البارودى فانفعلت بها نفسه وشحنت بها عواطفه حتى وصلت إلى درجة التشبع فأفاق . والبارودى منذ عاد من حرب « كريد » أصبح بحكم عمله قريباً من مركز السلطة ومحور السياسة والحكم فى البلاد ، يلازم صانعها ياوراً ويعيش مع مستشاريه من رجال المعية قرناً وزميلا ، ويرى البارودى الأحداث تسرع من حوله منذرة بالخطر ، حتى لتكاد تسلم الوطن إلى نهاية مفزعة من الإفلاس والخراب والوقوع فى أغلال النفوذ الأجنبى ، فتشده إليها فزعا مشفقا .

رأى البارودى « إسماعيل » وقد قرب إليه طغمة من المتمصرين والأجانب ، يقودهم العميل الأرمنى نوبار ، وجعلهم رسلا يجلبون له الملايين من البيوتات المالية الأجنبية ، قروضا تسوق البلاد إلى الهاوية ، وتجرها إلى مهاوى الاحتلال لينفقها على ملاذه ومباذله ، يبنى بها القصور ، ويقيم بها الحفلات ، ويبعثرها فى أوربا على مغامراته ومظاهر العظمة المفتون بها .

وشهد البارودى قبضة إسماعيل وهى تقطر بدم الضحايا من الفلاحين الذين اعتصرهم جباته وجلادوه حتى آخر درهم يملكون ، فى صورة ضرائب لم تسنها إلا شهوة الطاغية إلى المال . وزين له مستشاروه طريق الفساد ، ونأوا به عن الرشاد ، وتقربوا إليه بالخبث والمكر والخديعة والغدر ، وأخترعوا له الأساليب التى ترضى أهواءه وتمد بالمال معدة أطماعه ، وذكروه بما فعل جده محمد على من مصادرة الأراضى لتكون ملكا خاصاً للوالى ، « فهو نائب السلطان فى البلاد خليفة الله فى أرضه والعباد ، فأرسل إلى الأقاليم من لهم قلوب كالصخور وخلق معروف بالوحشية والفجور ، أرسل عكوش وعمر لطفى ومحمد سلطان لإكراه الأهالى على تسليم الأطيان ، فاغتصبوا له تفاتيش الصعيد .. واستعمل حسن راسم على الأقاليم البحرية ليتمم الخراب ويعمم الرزية[1] » .

وراقب البارودى إسماعيل وهو يستقبل فى قصوره الأفاقين من الأجانب ،سماسرة وتجاراً ولصوصاً محترفين ، ويبعثر عليهم أموال الدولة دون حساب . وكم من قادم جاء إلى مصر لا يملك قوت يومه ، فما هو إلا أن يأوى إلى إحدى قاعات الانتظار بقصر الجزيرة أو عابدين حتى يصبح من كبار التجار الموردين ، والفلاح المصرى رابض فى الطين مسخر دون مقابل للشركة الفرنسية فى القناة ، وفى حقول الخديو وحاشيته من الطغاة الظالمين[2] .

وعاصره البارودى « وهو يبيع الرتب بيع القماش إلى الأوغاد والأوباش ، ويستعملهم فى الأحكام وهم لا يعرفون ما خطت به الأقلام . كل ذلك ومعدة ظلمه تهضم الحديد ، وجهنم أطماعه تقول هل من مزيد[3] » . وخاب فأل البارودى فى إسماعيل واخطأت فراسته فيه ، وقد ظنه — يوم استقبله فى

---

(١) عبد الله النديم ومذكراته السياسية (١٩٥٦) ص ٧٣ .
(٢) المصدر السابق . (٣) المصدر السابق .

الآستانة وعاد فى حاشيته — الحاكم المرتقب الذى تنتظره البلاد ليجرى فيها نسيم الأمن بعد ركود ، ويفيض عليها ماء العدل بعد نضوب ، وليبدل الاستبداد إنصافاً ورحمة ، فلا تمضى سنوات خمسة من حكمه إلا والبلاد على سعة أطرافها كلمان أعد المذنبين يظل سماؤها الطغيان ، ويستبد بها الظالمون[١] .

يرى البارودى كل هذه الأحداث ويرقبها . ويشهد خفايا الأمور ويسمعها ، وهو صاحب النفس الأبية الحرة فيمضه الظلم ، ويحزه الفساد وخز الإبر ، ويفيق من سكرة الصبا ، ويجفو النوم عينيه كما يقول :

فَسمْعُ أنينَ الجوْرِ قدْ شَاكَ مسمعَى ورؤيةُ وجهِ الغَدرِ حلَّ عُرَى جَفْنِى[٢]

وتشده الأحداث بقوة إلى دائرتها ، وما كان ليستطيع ولو أراد أن يكون بمنأى عنها ومعزل ! فهى أحداث يتعلق بها مستقبل أمته ، يراها ولا يستطيع أن يدفعها ، فتموج فى نفسه ثورة مكبوتة وتضيق عليه الأرض بما رحبت كما يقول :

وغدوتُ حرّانَ الفؤادِ كأنمـا ضاقت علىَّ برُحْبِها الآفاقُ

وتزداد الأحوال سوءاً خلال عام ١٨٦٨ ، « فقد حدث فيه حادث كان له شأن كبير فى زيادة القروض وانحدار مالية البلاد إلى الهاوية ! وهو إسناد وزارة المالية إلى إسماعيل صديق المفتش[٣] . . وكان هـذا الرجل فى ذاته من الكوارث التى حلت بمصر[٤] » . ويصاب البارودى بالفزع من هـذا التعيين فهو يعرف إسماعيل المفتش حق المعرفة ، ويعرف أسلوبه فى العمل ، ويعرفه منذ كان « مسيرا للركائب[٥] » فى عهد عباس ، جباناً يخاف ظله أمام الأقوياء

---

(١) جريدة الطائف ١٨٨٢/٥/٦ .

(٢) هذا البيت لم يسبق نشره وهو من الجزء المخطوط من الديوان من قصيدة عدد أبياتها ٥٥ بيتا ؛ المخطوطة (س) ص ٢٦٩ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٢٧٥ .

(٣) أخو إسماعيل من الرضاع مجهول الأصل ، ويقال إنه جزائرى المولد .

(٤) الرافعى : عصر إسماعيل ج ٢ ص ٣٢ . (٥) بلنت : التاريخ السرى ص ٣٤ .

طاغية مستبدا مع الضعفاء ، يعرفه وهو يشق طريقه بالدس والوشاية والخديعة والملق ، ويحوز عطف إسماعيل وهو القدير على استطلاع رغبات سيده ، ويملك الأسلوب الذى يروقه ، ويعد له المتع ألواناً ، ويفتن فى جمع المال من الأهلين — فى صورة ضرائب — بوسائل التعذيب والأرهاب . ومن ثم كان إسماعيل يجد لديه الراحة ومفتاح عقده ومشكلاته ، وكان المفتش يأخذ نصيبه من الغنيمة فأثرى وعاش حياة الترف والبذخ ، وبنى القصور واقتنى الجوارى والحظايا(١)

وبين البارودى والمفتش عداء قديم(٢) ، قد يكون سببه الكراهية التقليديه أو الطبيعية بين الفارس الشجاع والجبان الرعديد ، وبين الرفيع والوضيع ، وبين صاحب الحسب وساقط النسب ، والفخور بمروءته ونزاهته والمتخذ من ذلته وفساده وكذبه وريائه بضاعة ووسيلة للوصول إلى مآربه . وكثيراً ما كشف البارودى دسه لدى الخديو ورجال الحاشية وهو يحاول أن يوقع الفتنة بينهم جميعاً(٣) . ولكن هذه الصفات كانت لدى إسماعيل مواهب رفعت المفتش إلى وزارة المالية ليصبح شيطانه على خزائن مصر المفلسة ، وليصير الرجل الثانى فى البلاد(٤) ، فتزداد به وطأة الظلم ، ويستدين للخديو ١٢ مليونا من الجنيهـــات(٥) . ويرى البارودى البلاد تهوى إلى الكارثه وقد انتهت مقاليدها إلى ثالوث الطغيان ، يجثم فى قاعدته إسماعيل المفتش ونوبار ويقبض على قمته الخديو إسماعيل . ويكشف البارودى حجب الغيب ببصيرة الشاعر ، فيرى سفينة البلاد تسرع بقياده الثالوث

---

(١) أنظر : مذكراتى فى نصف قرن جـ ١ ص ٣٠ ؛ وبلنت ص ٣٤، ٤٦٨ — ٤٧٠ .

(٢) مذكرات الأسرة .

(٣) مذكرات الأسرة ؛ وانظر: الرافعى : عصر إسماعيل جـ ١ ص ٢٣٧ .

(٤) بلنت ص ٣٤ ، ٤٦٨ — ٤٧٠ .

(٥) الرافعى: عصر إسماعيل جـ٢ ص ٣٢ — ٣٥ ؛ وجورج يانج: تاريخ مصر ص ٣٤٤ — ٣٥١.

إلى صخور الهاوية لتتحطم ، وتهز الأحداث البارودى فيفيق من سكرة الصبا ، ويقلقه الفزع والخوف على وطنه فيتغير ، كما يقول :

وهل يَستفيقُ المرءُ من سَكرة الصِّبا ... إذا لم تُهـذِّب جانبيه الوقائعُ

وتشهد سنته التاسعة والعشرون من عمره هذه الإفاقة وذاك التغيير والتحول الكبير ، فتحظى بمولد البارودى الثائر .

ويفكر البارودى ويطيل التفكير فى عمل يقف به تيار الفساد الاقتصادى والاجتماعى والسياسى الذى يجر البلاد إلى الهاوية ، ويحاول أن يجمع زملاءه وأقرانه من رجال المعيه ومستشارى الخديو على فكرته ، ويتحسس اتجاهاتهم ويتلمس آراءهم فى حرص وحذر ، فلا يجد منهم إلا آذاناً موقورة ، وقلوباً قد غلبها الخوف وران عليها الفساد ، سادرين فى عمايات الغواية والغش والتضليل معاونين الطاغية فيما يفعل بالبلاد ، راضين من الغنيمة بنصيبهم . ويجد نفسه بينهم غريب الروح والشيم فيهتف :

تغـيَّر الناسُ عما كنت أَسمعُه ... واستحكم الغدرُ فى السَّادات والحَشَمِ

وظلَّ أعدلُ من تلقاهُ من رجلٍ ... أعدى على الخلق مِنْ ذئب على غنَمَ

مِنْ كل أَشوَهَ فى عِرْنينه فَطَسٌ ... خالٍ من الفضل مملوءٍ من النَّهَمِ (١)

سُودُ الخلائق دلاَّجُون ما طَمِعوا ... على المَحارِم هدَّاجُون فى الظُّلَمِ (٢)

فلاَ ذَمامةَ فى قَول ولا عَملٍ ... ولا أَمانة فى عهد ولا قَسَمِ (٣)

بلوتُ منهم خلالاً لو وسمتُ بها ... وجهَ الغزالة لم تُشْرق على عَلَمِ (٤)

لاَ يدركُ المجدَ إلاَّ من إذا نهضَتْ ... به الحَميَّةُ لم يقْعُدْ على رَغَمِ (٥)

---

(١) الأشوه : ذو الشوه أو المشئوم ؛ العرنين : الأنف .

(٢) الدلاج : الذى يسير بالليل ؛ والهداج : الذى يمشى مشية الشيوخ فى ارتعاش وخوف .

(٣) الذمامة : العهد .

(٤) الغزالة : الشمس؛ العلم : الجبل .

(٥) هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهى من الجزء المخطوط من الديوان من قصيدة عدد أبياتها ٣١ بيتا ؛ المخطوطة (س) ص ٢٦٥؛ والمخطوطة (ج) ص ٢٧١ .

وينزه البارودى نفسه عما يدنسون به أنفسهم ، ويعجب للأيام تجمعهم سدة الملك ومستشاريه ، وتنظمهم معه فى سلك واحد ليعيش بينهم والفرق شاسع والبون بعيد فيقول :

فَإِنْ كَانَ سوّى الدهرُ بينى وبين مَنْ ... أرى مِنْ بنيه فى الحظوظ فَمَا سوّى
نصحتُ وغشُّوا واستقمتُ وراوغُوا ... وهل مَنْ هَدَى بين الأنام كمن أغوَى [1]

ثم يعود إلى ندوته الأدبية فى داره بباب الخلق عله يجد استجابة عند من يمثلون فكر الشعب من مثقفيه ، ولكنه يجدهم لا يملكون من الحجة إلا ما وضعه المزيفون فى آذانهم يضللون به شعب المسلمين باسم الدين ، من مثل قولهم « إن طاعة الحاكم — مهما ظلم — من طاعة الله ، وإن كل شىء بقضاء وقدر »[2]؛ ومن ثم « كانوا يرون شئونهم العامة بل والخاصة ملكا لحاكمهم الأعلى ومن يستنيبه عنه فى تدبير أمورهم يتصرف فيها حسب إرادته ، ويعتقدون أن سعادتهم وشقاءهم موكولان إلى أمانته وعدله ، أو خيانته وظلمه ، ولا يرى أحد منهم لنفسه رأيا يحق له أن يبديه فى إدارة بلاده ، أو إرادة يتقدم بها إلى عمل من الأعمال يرى فيه صلاحاً لأمته ، ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى أنهم محكومون مصرفون فيما تكلفهم الحكومة به وتضربه عليهم[3] » .

الثورة المكبوتة :

ويعود البارودى إلى نفسه فيجدها وحيدة عاجزة عن أن تفعل شيئا ينقذ

---

(١) هذان البيتان لم يسبق نشرهما وهما من الجزء المخطوط من الديوان من قصيدة بعنوان « وقال يفتخر » وعدد أبياتها ١٨ بيتا ؛ المخطوطة (س) ص ٢٥٨ — ٢٥٩ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٢٦٤ — ٢٦٥ .

(٢) عبد الله النديم ومذكراته السياسية ص ٧٦ .

(٣) الشيخ محمد عبده : تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٣٦ .

الوطن من الذئاب التى تكاثرت عليه فيتألم ، وتضطرب جوانحه « بثورة مكبوته » . ثورة على الحاكم الظالم وعلى الحاشية الفاسدة ، وثورة على المواطنين الذين أذلهم الطغيان حتى فقدوا الأحساس بأنسانيتهم ووجودهم ، وتسعفه ربة الشعر بقيثارتها لينشد عليها « نشيد الثورة المكبوته » ، يذكر فيه إسماعيل وجشعه فى جمع الأراضى والمال ويتنبأ له بالنهاية المحتومة لكل جشع ظالم فيقول:

يودُّ الفتى أن يجمعَ الأرضَ كلَّها إليه ، ولمّا يدْرِ ما الله صانعُ
فقد يستحيلُ المالُ حَتْفاً لربِّه وتأتى على أعقابهن المطامعُ
ولستُ بعلاَّم الغُيوب ، وإنما أرى بِلَحاظِ الرأى ما هو واقعُ
فَذَرْهم يخوضوا ، إنما هى فتنةٌ لهم بينها عمَّا قليلٍ مَصارِعُ

ويتحدث عن الرتب والنياشين التى يبيعها إسماعيل للذين ألهتهم مظاهر الحياة فشغلوا بها عما يقاسيه الشعب ، يتحلون بها وهم معطلون من كل خير أو فضيلة فيقول :

لواعبُ بالأَسماء يَبْتدرونَها سَفاهاً ، وبالألقاب ، فهى بضائعُ
وهل فى التَّحلى بالكُنَى من فضيلةٍ إذا لم تُزيَّن بالفَعَال الطبائعُ ؟

ويحكى حالة الفزع والاضطراب وعدم الأمان أو الاستقرار التى يعيش فيها المواطنون فيقول :

فيارُبَّما بات الفتى وهْوَ آمنٌ وأصبحَ قد سُدَّت عليه المطالِعُ

ويذكر ما هيأ به نفسه وأعدها للأمر الذى فكر فيه غير أن الذين من حوله لم يساندوه فى الرأى جبنا وضعفا فيقول :

وما أنا ـ والدنيا نعيمٌ ولذةٌ ـ بذى تَرَفٍ تحنُو عليه المضاجِعُ
فلاالسيفُ مَفْلُولٌ ،ولاالرأىُعازِبٌ ولا الزَّندُ مَفْلُولٌ ، ولاالسَّاقُ ظَالعُ
ولكنَّنى فى مَعْشرٍ لم يقُمْ بهم كريمٌ ، ولم يركب شبَا السيفِ خَالعُ

ويتمنى البارودى لو أن معه زميل نضال يشاركه فكره وإحساسه وتذكو فى قلبه ثورة على الأوضاع كالتى تلهب جوانحه ، يشاطره الرأى ويفضى إليه بسريرته ونجواه ، ويرسم معه خطط المستقبل لهذا الوطن المنكوب ، إذن لتحمل نصيبا من عبء الشعور الذى يطويه البارودى بين جنبيه ، ولاستراحت نفسه لوجود من يشاركه آلامه وآماله ، ولكنها أمنيات كطيف الحالم تكذبه اليقظة كما يقول:

فمنْ لى ـ ورَوْعاتُ المنى طيفُ حالمٍ ـ ... بذى خُـلّةٍ تزْكُو لديه الصنائعُ
أُشاطِرُه وُدِّى ، وأُفْضى لسَمعه ... بسرى ، وأمليه المنى وهو رَابعُ
لعلى إذا صادفتُ فى القول راحةً ... نضحتُ غَليلاً ما روَتْه المَشَارعُ

ثم يبلغ الشعور الوطنى بالبارودى ذروته فيدعو قومه إلى الثورة على الأوضاع الفاسدة ، دعوة تثير فيهم الحمية ، وتهزهم من مضاجع الغفلة ، فيمس مواطن الخزى التى يعيشون فيها من هوان وذلة وظلم ، ويحاول أن يدفع عنهم الخوف الذى ملأ قلوبهم بتقدير موقفهم ، وهم كثرة عديدة أمام الظالم ، وهو وأعوانه قليلون ، ويدعوهم إلى حمل السلاح لتكون « ثورة مسلحة » تقضى على رؤوس الفساد فيقول :

فيا قومَ ، هبُّوا ، إنما العمرُ فرصةٌ ... وفى الدهرِ طُرْقٌ جَمَّةٌ ومنافعُ
أصبراً على مسِّ الهوان وأنتمُ ... عديدُ الحصى ؟ إنى إلى اللهِ رَاجعُ
وكيفَ ترَون الذُلَّ دارَ إقامةٍ ... وذلك فضلُ اللهِ فى الأرضِ واسعُ
أرى أرْؤُساً قد أينعت لِحَصادها ... فأين ـ ولا أين ـ السيوفُ القواطعُ ؟
فكونوا حصيداً خامدين،أو افْزعوا ... إلى الحربِ حتّى يدفعَ الضيم دَافعُ

ولكنها صرخة تذهب قبض الريح ، ويعود صداها يتعثر فى أذيال الخيبة وحيداً كأنه مر بصحراء بلقع ، ويتلفت البارودى حوله فلا يجد سميعا لندائه

ولا مجيبا له ، وكأن مواطنيه قد وضعوا أصابعهم فى آذانهم كيلا يسمعوا ، وآثروا أن يكونوا حصيداً خامدين فيثور البارودى عليهم ويقول :

أَهَبْتُ ، فعاد الصوتُ لم يقْضِ حاجةً ... إلىَّ ، ولبَّانى الصَّدَى وهْوَ طائعُ

فلم أدْرِ أنَّ اللهَ صوَّر قبلَكم ... تماثيلَ لم يُخلَق لهنَّ مسامعُ

فلا تَدْعُوا هَذِى القلوبَ ، فإنها ... قواريرُ مَحْنِىٌّ عليها الأضالعُ (١)

وثورة البارودى على الأوضاع الفاسدة عام ١٨٦٨ ودعوته قومه إلى الثورة واستعمال القوة حدث وطنى يستحق الدراسة والاهتمام . فالبارودى لم يكن من الطبقات المظلومة التى تعانى إرهاق الضرائب أو محنة السخرة ، ولم يمس عرضه بأذى من فجور الخديو وبطانته ، ولم يهضم حق من حقوقه فى الرتب العسكرية أو المراكز المدنية ؛ بل كان على النقيض من ذلك ، كان من الجراكسة وهم الطبقة التى حظيت بالامتيازات فى الدولة ، والتى يختار منها أنصار الخديو ومعاونوه وضباط جيشه ، يرفل فى الثراء والنعيم ، ويعمل حارسا للخديو ثم ياورا ، ويصاهر الأسرة الخديوية بزواجه من بنت أحمد يكن إبن أخت محمد على .

ولو أننا تعمقنا فى دراسة « القصيدة العينية » التى خرجت منها صيحته الأولى للثورة ، وما أحاط بها من ظروف نفسية للشاعر نجدها صرخة صادرة عن وطنية صادقة ، أطلقها البارودى الشاعر ذو الإحساس المرهف والنفس الحرة الكبيرة ، وانبعثت من شعور الفنان المتألم للحرية المذبوحة فى وطنه ، وللظلم الذى يجثم على صدر مواطنيه ، وللإرهاب الذى يفرى كرامة المصريين وقلوبهم فيهيب بهم أن يهبوا للثورة . وهنا يظهر البارودى الفارس فيمد الفنان بالوسيلة والأداة وهو لا يعرف فى هذه المرحلة من حياته إلا السيف والرمح حلا للمشكلات

---

(١) قصيدة « الثورة المكبوته » فى الديوان (الجارم) ج٢ ص ٢٠٢ — ٢١٣ .

السياسية ومن ثم دعا قومه إلى الحرب ، وإلى معركة تطيح برؤس الإرهاب وتخلصهم من الفساد .

والذين كتبوا عن البارودى من المؤرخين السابقين ساروا على النهج الذى رسمته « حملة التشويه » المدبَّرة ، تلك التى سلطت على زعماء الحركة الوطنية العرابية سموم أقلامها ، ووجهت إليهم أكاذيبها ومفترياتها حتى تنال من سمعتهم وتشوه من وطنيتهم ، فتقتل فيهم المثل العليا للأجيال التى بعدهم حتى يفقدوا الثقه فى الزعامة الوطنية ، فتخمد فى نفوسهم روح الكفاح ، ويموت فى قلوبهم نبض الحماس للوطنية الذبيحة على يد الاستعمار وأعوانه . زعمت « حملة التشويه » وتبعها — بحسن نية — مَنْ كتب بعدها من المؤرخين ، أن صرخة البارودى لإنقاذ وطنه ورفع شعار الحرية فيه لم تكن من أولها صرخة بريئة لوجه الوطنية والحرية ، بل دفعته إليها أغراض شخصية من أطماع ذاتية وآمال تراوده فى تولى الملك !

والحقائق تجعلنا نختلف مع أولئك الذين ذهبوا هذا المذهب فى إلقاء التهمة جملة دون تفصيل أو توقيت . فالبارودى حين صرخ صرخته الوطنية الأولى عام ١٨٦٨ وهو فى التاسعة والعشرين من عمره ، ودعا إلى « ثورة مسلحة » لم يكن يهدف إلا إلى صالح وطنه وإنقاذ مواطنيه ، فأطلقها نفثة مصدور آلم قلبه الظلم وشاك سمعه أنين المظلومين . وظروف البارودى وقتذاك من صغر سنه ، ومركزه الوظيفى ، وعدم توافر إمكانيات الثورة الحربية ووسائلها من قوة عسكرية ، أو قوة شعبية تؤيده ، أو أنصار وأعوان يقفون إلى جواره وهو يقود انقلابا يزيل به النظام القائم ويتولى على أثره الملك تجعل الأمل المزعوم ضرباً من الوهم أو نوعاً من الخبال ، ولم يعرف عن البارودى أنه كان موهوماً أو مخبولا !

وحقيق بالبارودى أن يجد الإنصاف من وطنه ، فيعترف له بأن صوته كان أسبق الأصوات فى الدعوة إلى « الثورة المسلحة » على الفساد والظلم فى مصر الحديثة . وجدير بالتاريخ أن يسجل له هذا السبق ، ويذكر له بالتقدير شجاعته الوطنية فى وقت « بلغ فيه الاستبداد أشده ، والظلم جاوز حده ، والطغيان فى عنفوانه ، والقهر قابض على صولجانه ، ويد الظالم من حديد والناس كلهم عبيد له أى عبيد[1] » حقيقة أن صيحته الأولى لم تجد صدى فى نفوس الشعب ، ولم يشفع البارودى قوله بعمل إيجابى سريع لقلة العون والأنصار ، ولكن صيحته ظلت تدور فى سماء الوطن تطن فى أذن المواطنين حتى تبعتها صيحات أخر منه ومن غيره ، وارتفعت الصيحات حتى اخترقت الآذان ومست القلوب ، وأزالت عن الأفئدة خوفها واستردت شجاعتها فقامت بالثورة المسلحة عام ١٨٨١ .

وكان البارودى ذا بصيرة ورأى ، فعايش الاستبداد والرجعية وأهلهما وهادنهم مرحليا رغما عنه كما يقول :

أُعاشرهم رَغْماً ، ووَدِّى لَوَ انّ لى ... بهم نَعَماً أدْعو به فَيُسَارعُ

ولعله عايشهم ليجد فرصة ينشر فيها رأيه ويجمع الأنصار من حوله ، أو لعله خشى أن يقابل رضا إسماعيل وعطفه بالتخلى عن خدمته ، فيستجلب نقمته ، أو يثير من حوله الشكوك وما أكثرها فى عهد إسماعيل ، ذلك الذى يجعل النفى والتشريد لمن لا يحوزون رضاه ، ويأخذ الناس بالظنه ، ويقتلهم بالشبهة . فقد كانت إرادته المطلقة تحكم الخاص والعام ، وما كان لأحد أن تساوره نفسه بأن يعمل ما يخالف رأيه ، أو يرفض أمراً صدر منه ، أو يعارض دكتاتوريته المطلقة ، أو يلفظ ببنت شفة نقداً لأعماله ، فقد كان

---

(١) محمد عبده : تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ١٢ .

بجانب كل لفظة نفى عن الوطن أو إزهاق للروح أو تجريد من المال[1] .
آثر البارودى سياسة المداراة والصبر والملاينة والعمل فى صمت ، على فرصة تواتيه ، فيجمع من حوله الأعوان ليقودهم إلى عمل كبير يخلصون به الوطن ، وحتى لا يفطن إسماعيل إلى ما فى نفسه فيطير به طيرة بطيئاً سقوطها . وفى ذلك يقول :

مداراةُ الرجال أخفُّ وطْـأً ... على الإنسان من حربِ الفَسادِ
وما كان العَدَاء يخـفُّ لولا ... أذى السلطانِ ، أو خوفُ المَعَادِ[2]

ومع ذلك فلم يكن — وهو الشاعر — بمستطيع أن يكتم الثورة التى تجتاح نفسه ، فكانت تخرج سما فى شعره ، وشواظا من نار سخريته وهجائه ، يطلقها على ثالوث الفساد والطغيان وأعوانهم ، ويصليهم بذمه ويصمهم بالعار ويسجل مثالبهم للتاريخ . يهجو نوبار بالقصيدة التى مطلعها[3] :

وِصَالُكَ لى هَجرٌ وهجرك لى وَصْلُ ... فزدنى صُدوداً ما استطعت ولا تَأْلُو

وفيها يقول :

وكيف أودُّ القربَ من مُتَلَوِّنٍ ... كثيرِ خبَايَا الصدر شيمتُه الخَتْلُ
خَبُثْتَ فلو طُهِّرتَ بالماء لاكْتَسَى ... بك الماء خُبْثاً لا يحل به الغُسْلُ
فوجهُك منحوسٌ وكعبُكَ سافلٌ ... وقلبُك مَدْغُولٌ[4] وعقلك مُخْتَلُّ
بك اسودَّتِ الأيامُ بعدَ ضيائها ... وأصبحَ نَادى الفضلِ ليس به أهْلُ

---

(١) محمد عبده : تاريخ الأستاذ الإمام جـ١ ص ٣٦ .
(٢) الديوان : الجارم جـ١ ص ٢٤٨ — ٢٤٩ .
(٣) دلتنى كريمتا الشاعر الفاضلتان فاطمة ومشيرة على أن هذه القصيدة قيلت فى نوبار
(٤) القلب المدغول : الفاسد الحقود .

فَـلو لم تـكن فى الدّهر ما انقضّ حادثٌ بقوم ، وما زلّت بذى أمل نعلُ
فما نـكبةٌ إلاّ وأنت رسولُها ولا خيبةٌ إلاّ وأنت لها أصلُ
أذمُّ زماناً أنت فيه وبلدةً طلعتَ عليها إنه زمن وَغْل[1]

وفى إسماعيل صديق المفتش يقول[2] :

يا سابقَ الشّيطانِ فى فِعْله أما كَفَى أنك منْ حـزبِهِ ؟
لو لَمْ تـكن فى الدّهر مُسْتَوزَرَا ما سارع النـاسُ إلى سَبِّهِ
فأَخسأْ فما الخنزيرُ فى نوعـه أخسُّ طبعـاً منك فى لُبِّهِ
أنتَ الّذى لَولاَ خمولُ الوَرَى ما نامَ مِنْ أَمْن علَى جَنْبِهِ
يَفعلُ بالنّـاس أفاعيلَهُ ولا يخافُ اللهَ من ذَنْبِـهِ
فالخيرُ والنِّعمةُ فى بُعْـدِهِ والشرُّ والنِّقمـةُ فى قُربهِ
أشـدُّ خلْق اللهِ كِبْراً فإنْ فاجأته كرٌّ على عقْبِـهِ
لَوْ بلغَت همّتُـه كوكباً فَرَّ منَ الجـوِّ إلى شُهْبِهِ
هجوتُه لاَ بالغاً لؤمَـهُ لـكنّنى كفـكفتُ مِنْ غرْبهِ
فإنْ أكُنْ قد نلْتُ من عِرضِهِ فإنّـنى دنّستُ شعرِى بِهِ[3]

---

(١) القصيدة كاملة تحت عنوان «وقال يهجو» جـ٢ ص ٥٩٦ — ٦٠٥ من الديوان شرح الإمام

(٢) ذكرت لى كريمتا الشاعر أن هذه القصيدة قيلت فى إسماعيل صديق المفتش .

(٣) الأبيات الثمانية الأولى لم يسبق نشرها، وهى من قصيدة عنوانها فى المخطوطة (ج) « وقال يهجو» ثم ضرب بالقلم على كلمة «يهجو»، والقصيدة ١٧ بيتا، مضروب بالقلم على ١٤ بيتا منها ، ولم نستطع قراءة الستة الأبيات الأولى لشدة طمسها ، واستطعنا قراءة الأبيات الثمانية التالية لها وهى هنا من ١ إلى ٨ والأبيات الثلاثة الباقية من القصيدة موجودة فى الديوان المطبوع (الجارم) جـ١ ص ٨٢ ومنها البيت التاسع والعاشر هنا . ولم يذكر من القصيدة فى نسخة الجارم وفى الديوان الذى شرحـه الإمام إلا الأبيات الثلاثة التى لم تشطب فى المخطوطة (ج) . ولم يذكر فى المخطوطة (س) من القصيدة ، إلا الأبيات الثلاثة الأخيرة تحت عنوان «وقال» ص ٣٦ .

ويمتد هجاؤه إلى الذين يعاونون فى الحكم جميعاً « ويذم سيرة رجال الحكومة الاستبدادية على عهد إسماعيل » فيقول :

وأناس صَحِبتُ منهم ذئاباً ... تحت أثوابِ أُلْفَةٍ ووِدادِ
أظهروا زخرفَ الخِداع ، وأخفَوْا ... ذاتَ نفسٍ كالجمر تحتَ الرمادِ
فترى المرءَ منهم ضاحكَ السِّنِّ وفى ثوبه دماءُ العِبَادِ
معشرٌ لا وليدهُمْ طاهر المَهْدِ ، ولا كهلهُمْ عفيف الوِسادِ
حَكَمُوا مصرَ وهى حاضِرَةُ الدُّنْيَا وقَدْ سَما حُسنُها فى البَوادِى
أَصبَحَتْ بعْدَهُم جحيماً وكانَتْ ... جنةً ليس مثلُها فى البِلادِ
وَقَعُوا بين مُدْنِهَا وقُرَاهَا ... بضُرُوبِ الفَسَاد وقْعَ الجرَادِ
فى زَمَانٍ قدْ كانَ للظُّلْم فيهِ ... أَثرُ النَّارِ فى هَشِيم القتَادِ
حِينَ لمْ يُرحم الكبيرُ ولم يُعْطَفْ عَلى الأُمهاتِ والأولاد
بمُريعٍ من العَذابِ مُهينٍ ... ومُبيرٍ منَ الأذَى رَعَّادِ
تِلْكَ آثارُهم تدُلُّ على مَا ... كانَ منْهُمُ مِنْ جَفوةٍ وتبادِى[1]

ظلت نفس البارودى تموج بالثورة المكتومة وهو يرى إسماعيل سادرا فى أحموقة التبذير والإسراف واللعب بمقدرات البلاد ، ينفق الملايين فى الرشوة والهدايا لسلطان تركيا ورجال الباب العالى ، لينال لقب الخديو ، ويحصر الخديوية فى أبنائه ، ويبعثر المال على مظاهر الترف والبذخ فى حفلات افتتاح قناة

---

(١) عنوان القصيدة فى المخطوطة (ج) « وقال يذم سيرة رجال الحكومة الاستبدادية على عهد إسماعيل باشا خديو مصر » ثم شطب على ما بعد كلمة « وقال » ص٧٢ وجعل لها الديوان المطبوع عنوانا مختلفا ففى طبعة الجارم جعل لها « وقال فى الذم » ، وطبعة الإمام جعل لها « وقال يذم أناسا » ، والقصيدة فى المخطوطة (ج) ٣٠ بيتا ثم شطب على أبيات ستة من ٢٠ الى ٢٥ ، وهى هنا الأبيات من ٥ إلى ١٠ ؛ وقد ذكرت القصيدة كاملة فى المخطوطة (س) ص ٧٠ ، على غير ماجرى عليه الناسخ ، تحت عنوان « وقال يذم » ، وهذه الأبيات الستة لم يسبق نشرها.

السويس بسفه جعل الخبراء الأجانب يصفون هذه الحفلات بسلسلة متصلة من أعمال جنونية لم تنل البلاد منها أية فائدة مقابل نفقاتها الفادحة ، « ووراء واجهة الحفلات شعب وصلت به العبودية والفقر إلى الحضيض[1] » . وعلى بعد خطوات منها عشرات الألوف من قبور المصريين الذين ماتوا وهم يعملون مسخرين فى حفر القناة .

ولا تستطيع خزانة الدولة أن تواجه تبذير إسماعيل وخداع الأجانب وتحايلهم فى النهب الإجرامى واستنزاف دماء الشعب المصرى ، فتمد له البنوك والبيوت المالية الأجنبية حبل تغلغل النفوذ الأجنبى - فى صورة قروض — ليربط به مستقبل البلاد . ويبتكر له وزير ماليته إسماعيل المفتش الحيل التى يبتز بها أموال المواطنين حتى آخر درهم لديهم . وبلغ ما اقترضه اسماعيل حتى عام ١٨٧١ من الأهالى والأجانب ٤٦ مليوناً من الجنيهات . أما الأهالى فقد استطاع أن يخرسهم بإرهابه وظلمه ، وأما رجال المال والمرابين الأجانب فقد أوقعته حماقته تحت سيطرتهم بعد أن عرفوا اللغة التى يفهمها وهى لغة النقود، فعندما يريد الخديو أن ينفق كانوا مستعدين لتقديم القروض إليه مقابل فوائد وعمولات قد تصل إلى قيمة نصف القرض نفسه ، وعندما يتباطأ فى الاقتراض كانوا يدفعونه دفعا إليه بوسائل الضغط والتهديد ، ومن خلال القروض وبسببها استطاعوا أن ينفذوا إلى مرافق الدولة ويقبضوا على مقاليد الأمور فيها .

على الطريق مع الأحرار :

فى عام ١٨٧١ بدأت تهب ريح من فكر جديد على مجالس المثقفين فى مصر ، وأخذت المناقشات تدور حول الأفكار الجديدة وصاحبها « جمال

---

(١) بنوك وباشوات ص ٢٥٠ .

الدين الأفغانى » وقد نزل بمصر ضيفا فأكرمت مثواه . « ويشتد الجدل حتى لتكاد تحدث فتنة بين القوم ؛ بين معارضيه الذين يصفون كل ما لا يجدونه فى علمهم التقليدى ضلالا ومروقا ، وبين ذوى البصيرة من الشباب الذين يتلمسون معالم الطريق ليخرجوا من الظلمات التى تحيط بهم من كل جانب . الظلمة السياسية ، والظلمة الاجتماعية ، والظلمة الدينية ، والظلمة الفكرية ، ينشرها عليهم ديجور الظلام الأكبر من استبداد الحاكم وطغيانه . واستهوت المناقشات حول « جمال الدين الأفغانى » وأفكاره محمود سامى البارودى ، كما استهوت صنوفا من المثقفين وذوى النفوس المتطلعة إلى الحرية الذين يتوقون إلى المعرفة الحقيقية وقد أضنت الحيرة قلوبهم ، أو يتوقون إلى الحرية الفكرية والسياسية وقد طعموا مذاقها وهم يتعلمون فى الخارج .

وكأن القدر كان يعد جمال الدين الأفغانى ليقوم بدور كبير فى مصر ، فقد وصل إليها وفى قلوب كثرة من شبابها عزمة تتوق إلى العمل حتى تخرج الوطن من الظلمة التى يعيش فيها إلى النور ، وفى أفئدتهم ومضة من أمل فى فجر جديد تلقى به مصر عن كاهلها كابوس الفساد ، ويتحقق لها المستقبل الكريم . غير أنها كانت عزمات فردية ليس بينها تكتل وتعاون ، وآمال متفرقة لا يجمعها لقاء ، ومن ثم لم تستطع أن تؤثر فى ميزان القوى الوطنية ، ولم تجرؤ على الظهور على مسرح العمل أمام طغيان إسماعيل وعيونه ، فكان جمال الدين محور التجميع ، وكانت حلقاته مجالا للتعارف بين الطاقات المختزنة المتحفزة للانطلاق ، وفى مجالسه التقى الأحرار

وتردد البارودى على مجالس جمال الدين الخاصة[1] ، واستقبل البارودى

(١) تاريخ الأستاذ الإمام جـ١ ص٤٦ ؛ وأحمد أمين زعماء الإصلاح فى العصر الحديث (١٩٦٥) ص٦٧ .

جمال الدين فى ندوته الأدبية بداره فى باب الخلق ، واستمع إليه وهو يتدفق كالسيل من قريحة لا تعرف الكلال ، يبسط ما ينير العقول أو يطهر العقيدة أو يذهب بالنفس إلى معالى الأمور ، أو يستلفت الفكر إلى النظر فى الشئون العامة مما يمس مصلحة البلاد[1] ، وإلى ما وصل إليه أهلوها من ذل العبودية وبؤس التحكم .

كان الأفغانى يبسط لسامعيه آراءه فى الدين فيدعو إلى ضرورة تجديد الفكر ، فيتناول تعاليم الإسلام وشرائعه بروح متفتحة مسايرة للعصر والمدنية الحديثة ، وينادى بحركة تجديد دينى تقلع ما رسخ فى عقول العوام والخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها الحقيق . ويشرح لهم وجهة نظره فى الأدب فهو يرى ضرورة تحويله لخدمة الشعب ، يطالب بحقوقه ، ويدفع الظلم عنه حتى يكون أدباً منبثقاً من آلام الشعب وآماله معبراً عنها ، وليس أدباً أرستقراطياً يعيش فى ركاب الحاكم يمدحه ويهنئه ويستعطفه ويعتذر إليه ، وبذلك يصبح أدباً هادفاً يعالج مشكلات الأمة الاجتماعية والسياسية والعاطفية ، وينشر بين الناس فى الصحف والندوات وبالخطابة والشعر . وفى السياسة يريد أن تتحرر الشعوب الإسلامية من عبوديتها للحكام ، وأن تفهم موقفها من الحاكم وموقف الحاكم منها ، وأن يكون لها رأى عام قوى واسع الثقافة ، حازم يستطيع أن يقرر مصيره فى شئونه الداخلية والخارجية .

ويسمع البارودى « جمال الدين » وكأنه يعرفه من أمد بعيد ، وتتلاقى روحاهما وكأنهما يصدران من إحساس واحد إحساس المتألم لما ينوء به القوم من الظلم والعبودية ، ومن العقول التى تغلفت بالجهل والأضاليل ، ومن

---

(١) محمد عبده : تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ٣٧

السياسة الخرقاء التى تسوق البلاد إلى الهاوية . إحساس النفوس الحرة تتعذب لعذابات البشر وإن لم يصبها الضرر ، فتعمل لخلاصهم وتسعى إلى شفائهم مما يتألمون منه ، وإن اختلفت الدوافع وتباينت الوسائل . فالبارودى تدفعه العاطفة الوطنية ، والتطلع إلى الحرية ، والإخلاص للأرض التى حلت بها تمائمه ، والأفغانى تدفعه النزعة الدينية والرغبة فى نهضة العالم الإسلامى فى وجه الدول الغربية ، وفى وجه ملوكه وأعدائه المتألبين عليه ، بل فى وجه أبنائه الكارهين للإصلاح كراهة الطفل المريض لمذاق الدواء . والبارودى يرى — بعقلية رجل الحرب — أسلوب التغيير فى القوة وفى دعوة قومه إلى الثورة المسلحة والإطاحة برءوس الفساد ، والأفغانى - وهو فارس أيضا شهد الحروب وحضر الوقائع[1] ومارس الحياة السياسية فزادته تجربة ومرانا — يرى التغيير فى إيقاظ عقول الخاصة من أبناء الأمة وتنويرها حتى تتضح لهم الرؤية أولا ، ويعرفون مواقعهم من الغاصبين الأجانب والمستبدين من الحكام ، ثم يعمل هؤلاء لتكوين الرأى العام فى الأمة وتجميع الشعب من حولهم فيكون الإصلاح أو الثورة[2] .

ويلتقى البارودى فى مجالس جمال الدين بالصفوة المتحررة من المثقفين وقد شدهم جميعا إليه بسحر كلماته ، وكأنها المفاتيح الصغيرة التى تدار فتنبعث منها قوى الكهرباء لا يستقر لها قرار . وتمس جرأته وآراؤه قلوب الشباب ، وتتجاوب مع الأفكار التى يكتمونها فى نفوسهم حذر الدكتاتور الطاغية ، « والحق أن الشجاعة كانت ضرورية لكل رجل يتكلم فى مصر بصراحة ، ولم يكن إسماعيل يسمح بأقل معارضة ، وكان حكمه مطلقا حتى فقدت الألفاظ

---

(١) عباس محمود العقاد : محمد عبده ، سلسلة أعلام العرب ص ١٢٤ .

(٢) زعماء الإصلاح ص ٢٩٢؛ وتاريخ الأستاذ الإمام جـ١ ص ٣٧ .

المستقلة من أفواه الرجال[١] » . ويتعرف البارودى على الذين يشاركونه أحاسيسه الوطنية المكبوتة[٢] – تلك التى أفعم بها قلبه منذ عام ١٨٦٨ – وإن أخرس الخوف ألسنتهم وأضعفتهم التفرقة !

كان جمال الدين ذا بصيرة نافذة تلمح فى كل مريد غاياته ومواهبه ، فينميه فيه ملكات ذهنه ، ويستحث فى قرارة طبعه غاية وسعه من الاجتهاد والهمة حسب فطرته واستعداده ، وقد لمح جمال الدين فى البارودى طموحا يذهب به إلى معالى الأمور ، ويدفعه إلى القيام بعمل كبير يخلص به الوطن من الفساد والذل ، وعرف فيه الهمة التى تنهض بصاحبها إلى الغاية العصيبة والمطلب البعيد ، والثقة التى لا غنى عنها لمن يتصدى للعظائم من الأمور فاصطفاه ، مع قلة من مريديه ، على غيرهم وأعطاهم من الاهتمام والوقت قدراً كبيرا . وكأن الأفغانى رأى بظهر الغيب أن للبارودى رسالة فى وطنه ودوراً فى سبيل تحرير أمته ، ووجده على ثقة بنفسه فى أداء الرسالة فقد تهيأ لها بنزعاته وآماله ، واقتدر عليها بطموحه واستعداده .

ويكشف الأفغانى عن آرائه الحرة فيجد فيها البارودى كثيراً من ذات آرائه ويكتشف أنهما يسيران على نفس الطريق مع الأحرار ، فالأفغانى يهدف إلى نهضة العالم الإسلامى فى وجه الدول العظمى ، وخطته فى ذلك أن يبدأ بتأسيس دولة واحدة على الأقل صالحة لقيادة العالم الإسلامى كله فى معترك السياسة الدولية ، وفى تنفيذ برامج النهضة والهداية العملية ، وأن تكون هذه الدولة الرائدة مصر . وتلتقى الخطة مع مايرمى إليه البارودى من تخليص

---

(١) التاريخ السرى ص ٧٩ .

(٢) من رواد حلقة جمال الدين الأفغانى : محمد عبده ، عبد السلام المويلحى ، إبراهيم المويلحى ، إبراهيم اللقانى ، سعد زغلول ، على مظهر ، حفنى ناصف ، أديب اسحاق، عبد الله النديم ، عبد الكريم سلمان، إبراهيم الهلباوى وغيرهم .

وطنه من الظلم والدكتاتورية المستحكمة فيه، وإنقاذه من النفوذ الأجنبى الذى أخذ يستشرى فى مرافقه.

ويقتنع البارودى بأسلوب العمل السياسى الأفغانى وهو التغيير عن طريق تجميع الرأى العام بإنارة العقول، وإيقاظ الشعور، وكشف حجب الغفلة عن القلوب حتى تحس بالظلم وتتألم للذلة، فتثور على الظالم وهذا تحدث معجزة التغيير. ويشتد إعجاب البارودى بجمال الدين، وبسيطرته على القلوب والعقول، وبحجته وبيانه حين « تلقى إليه أدق المسائل فيحل عقد أشكالها .. بلسان عربى مبين لا يتلعثم ولا يتردد وكأنه عربى اللسان والمنبت[1] ». وتتحول معانى الإعجاب إلى شعر يصفه به البارودى فيقول:

يَالَكَ منْ ذِى أَدَبٍ أَطْلَقَتْ[2] فِكْرَتُه ثاقبـــــةَ الأنجُمِ
حازَ مدًى قصَّر عنْ شَأْوهِ كلُّ أخى سَابقةٍ يَرجمِ[3]
فَهوَ إذَا قَالَ علَا ، أوْ جَرى برَّز ، أوْ نَاضَــل لمْ يُحجمِ
ذُو فِكْرة فَاضت بمَا أُودِعَت منْ حكمةٍ كالعَارضِ المُثْجمِ[4]
دان لَهُ بالفضْلِ عن خِــبْرة كلُّ فَصيحِ القَولِ أَو أَعجَــمِ
دلَّ على مَعـــدِنهِ فضلُهُ دَلَالَةَ التِّــبْرِ عَلى المنْجَــمِ[5]

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٤٤ .
(٢) فى المخطوطة (ج) أطلعت بالعين .
(٣) جاء الناظم بالفعل المضارع مكسوراً وهو غير مسبوق بجازم، وقد جاء فى شعر العرب كثيراً ومنه قول النابغة:

بمخضب رخص كأن بنانه عنم يكاد من اللطافة يعقد

وقال زهير (على خلاف):

سألنا فأعطينا وعدنا فعدتم ومن أكثر التسآل يوما سيحرم

(٤) العارض المثجم: السحاب السريع المطر.
(٥) هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهى من الجزء المخطوط من الديوان من قصيدة عدد أبياتها عشرة بعنوان « وقال يمدح » ؛ المخطوطة (س) ص ٢٦١ ؛ والمخطوطة (ج) ٢٦٧ . وقد دلتنى كريمتا الشاعر على أنها قيلت فى الأفغانى.

نيرون يمهد للاحتلال :

فى ٨ يونيو ١٨٧٣ صدر الفرمان الجامع وفيه تغير أسلوب وراثة العرش فى مصر فانحصر فى الإبن الأكبر ، وتحددت به ولاية العهد فى محمد توفيق بن إسماعيل ، وعين محمود سامى البارودى كبيراً لياوران ولى العهد[١] الجديد ، وتهيأت بذلك فرصة للبارودى عرف فيها توفيق عن قرب ، ووضع يده على مفاتيح شخصيته التى تحكمت فيها عوامل كثيرة سببتها نشأة توفيق وعلاقته بأبيه ، فأخرجت منه إنساناً ضعيف الرأى متردداً قليل الشجاعة والحزم[٢] ، وكان قد ولدته لإسماعيل إحدى سراريه[٣] فلم يعامله المعاملة الخليقة بولى عهده ، ولمحت أمه « الجارية » نذر الشر تريد أن تعصف بولدها فأدخلت فى روعه وهو طفل صغير أن والده يريد التخلص منه حتى لا يكون وريث عرشه ابن جارية ، فعاش توفيق والرعب يملأ قلبه من أبيه . ولم تربطه بهذا الوالد رابطة الإخلاص أو المودة ، وكانت نشأته بين سيدات الحريم أكثر مما هى بين الرجال ، ومن ثم نشأ ضعيفاً لا يسعه إلا الإذعان لأية إرادة أقوى من إرادته، ولكنه يسعى بعد ذلك لتنفيذ ما يريد بالطرق الملتوية الخفية[٤] .

ولعل البارودى حاول أن يقف إلى جوار ولى العهد الشاب وأن يقيمه على الطريق السليم ، أو يبث فيه شيئاً من الثقة بالنفس ، أو يبعث فى قلبه بعضاً من الشجاعة والحزم أملا فى أن يكون عاهلا لمستقبل أفضل ، ولكن

---

(١) مقدمة مراثى الشعراء ص ١١ ؛ ومقدمة الديوان شرح الإمام .

(٢) عبد الرحمن الرافعى : الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى (١٩٤٩) ص ٢٢ .

(٣) بعد صدور الفرمان الجامع أشار السلطان على إسماعيل بأن يعقد عليها حتى ترتفع إلى مرتبة الزوجة ، فصارت الزوجة الرابعة لإسماعيل ؛ مذكراتى فى نصف قرن جـ ١ ص ٨١ .

(٤) التاريخ السرى ص ٩٥ — ٩٦ ؛ والرافعى : الثورة العرابية ص ٢٢ .

توفيقاً كان كما صنعته الأقدار « سلبي الطباع ، همه الأول أن يخفى حقيقة نفسه، ويلقى على الغير تبعة الفشل الذى يحدث بسبب خطئه ، وكذلك بغضه للشيء لم يكن يظهر برفضه إياه صراحة بل باصطناع الأقاويل والوقيعة والتفرقة . . لم يخلص لشيء قط ، ولم يثق به أحد إلا غدر به[1] » . عرف البارودى عنه كل ذلك خلال الشهور الثلاثين[2] التى قضاها كبيراً لياورانه ، فلم يحمل له احتراما طوال حياته . وفى أكتوبر ١٨٧٥ نقل البارودى إلى حاشية الخديو ليصير كاتب السر الخاص(سكرتيراً) لإسماعيل[3] .

عاد البارودى إلى معية إسماعيل فوجده وكأن الشيطان يتخبطه من المس ، بعد أن بلغت ديونه ٩٦ مليونا من الجنيهات رهن فيها كل موارد الدولة ، وأحاط به الدائنون من كل مكان وشدودا عليه قبضة السداد ، وهددته الدول التى ترعى مصالح الدائنين بإشهار إفلاسه ، فارتكب الجريمة الوطنية الكبرى وباع أسهم مصر فى قناة السويس (نوفمبر ١٨٧٥) لانجلترا ، فمهد الطريق أمامها للاحتلال الذى أصبح بعد هذه الجريمة أمرا لا مفر منه . وتتابعت جرائم إسماعيل السياسية فطلب من انجلترا إيفاد موظف مالى يدرس مالية البلاد ، وجاءت « بعثة كيف Cave » فى ديسمبر ١٨٧٥ لتضع خطة التدخل الأجنبى ، وتحفر لإسماعيل قبره كما اعترف هو بذلك[4] . وبدأت الخطة بإنشاء « صندوق الدين » عام ١٨٧٦ فكان أول هيئة رسمية أوروبية تفرض التدخل الأجنبى وتبدأ بها الوصاية الأوروبية على مصر ، وتلاها تكوين مجلس أعلى مختلط للمالية ، ثم توحيد الديون وإنشاء المحاكم المختلطة . سلسلة من الجرائم السياسية والوطنية

---

(١) التاريخ السرى ص٩٦.

(٢) مقدمة مراثى الشعراء ص١٠.

(٣) المصدر السابق .

(٤) كوشرى : المركز الدولى لمصر والسودان (١٩٠٣) ص ٥٧ .

مكنت للنفوذ الأجنبى فاحتل بها مواقع جديدة على حساب استقلال البلاد .

وتتحالف القوى المستنزفة المالية المصرية وتتكتل العناصر المرهقة لاقتصاديات الدولة لتقضى على معنويات الشعب ومادياته ، فبينما ترزح البلاد تحت ديون إسماعيل ، وينتهك التدخل الأجنبى استقلالها — تطلب تركيا نجدة من الجيش المصرى لتعينها على ثورة الهرسك وبلاد الصرب ، ولا يجد إسماعيل فى خزائن الدولة الخاوية ما يعد به الحملة ، فيوفد البارودى إلى الآستانة برسالة خاصة على السلطان يقبل اعتذار مصر ويعفيها من العبء الجديد ، ويقيم البارودى فى الآستانة ثلاثة أشهر[1] ثم يعود إلى مصر يحمل تهديد السلطان ووعيده ، فيفرض إسماعيل على الشعب المرهق « ضريبة الجهاد » . وتسافر الحملة لتقدم الشبيبة المصرية ضحايا لحرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل . ويوفد البارودى إلى الآستانة برسالة أخرى تختص بالفتنة البلغارية وخروج الجبل الأسود على تركيا[2] ، ويكاد الردى يلحق بالبارودى أثناء عودته من هذه السفرة (ديسمبر ١٨٧٦) « فقد اصطدم القطار الذى أقله من الاسكندرية بقطار بضاعة على كوبرى كفر الزيات فزلزل حديد الكوبرى ، وتقوست أعمدته الضخمة ، والتوى بعضها على بعض ، ونجا البارودى بمعجزة وكان على قيد أنامل من الموت ، ولكن هول الصدمة لم يفقده جنانه ، ولم تفارقه فروسيته والموت يفغر له فاه ، فقد استنجدت به فتاة جركسية من ركاب القطار ، فلم ينج إلا بعد أن انتشلها من جحيم الموت[3] » .

---

(١) مقدمة مراثى الشعراء ص ١١ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) الجوائب المصرية عدد ٥٧٢ فى ١٩٠٤/١٢/١٥ .

نجا البارودى ليعود إلى الوطن فيجد ما هو أشد عـلى نفسه من الموت وأضر به من حمام يؤده ، وجده وقد زحف عليه أخطبوط الاستعمار الأوروبى سافرا فى صورة « الرقابة الثنائية » من فرنسا وانجلترا (نوفمبر ١٨٧٦) . وفى القصر وجد إسماعيل ، نيرون مصر ، ينقض على صحبه وأوليائه ، ليتخلص منهم فى جنون الخائف وفزع المستبد الذى ضعف أمره ، وضيق عليه الخناق فانـكشفت جرائمه ، ولا يجـد له مهربا إلا فى القضاء على شركائه ثم إلقاء التبعة عليهم فلا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم . عرف البارودى قصة اغتيال إسماعيل صديق المفتش (نوفمبر ١٨٧٦) بعد أن اختلف اللصان ، العميل والسيد وقد حاصرتهما الاتهامات بسرقة أموال الدولة وتبديدها خلال مفاوضات الرقابة الثنائية ، وطلب كل منهما النجاة لنفسه فألقى التهمة على أخيه . وأدرك الخديو أن وزير ماليته الأمين قد استنفد أغراضه ، وأن فى موته نجاة من الفضيحة ، فاستدعاه إلى قصره وقتله أتباعه غدرا ورموا بجثته إلى النيل[1] ! ويعاف البارودى القصر ومن فيه ، ويـكره العمل الذى يربطه به فيطلب العودة إلى الجيش .

فيض المعركة :

وتواتى البارودى الفرصة فى إعلان الروسيا الحرب على تركيا (إبريل ١٨٧٧) ليعود إلى الجيش ، وتستنجد تركيا بمصر فتنجدها بحملة من اثنى عشر ألف مقاتل[2] ، وينضم البارودى إلى الحملة قائدا من قوادها لعل الحرب تغسل آلام نفسه ، أو تنسيه ما حل بوطنه من الذل والهوان ، وما ينزل به من عذاب على يد جلاديه « رجال الحـكومة الاستبدادية » .

---

(١) التاريخ السرى ص ٤٦٨ — ٤٧٠ ؛ والرافعى : عصر إسماعيل جـ ٢ ص ٦٢ — ٦٤ .
(٢) قدر محمود فهمى الحملة بخمسة وعشرين ألفاً فى كتابه البحر الزاخر جـ ١ ص ٢٠١ .

أقلعت الحملة فى مايو ١٨٧٧ إلى الآستانه ثم إلى « وارنه » على البحر الأسود[١] ، ولا يلبث البارودى الفارس حتى يجد نفسه على أرض المعركة قاب قوسين من اللقاء الذى يتوق إليه ، يصحبه فيه « حسام وطرف أعوجى ولهذم » ، ويأخذ البارودى فى الاستعداد للمعركة فلا يترك لعنصر المفاجأة منفذاً ، ولا يهدأ حتى يعد لكل أمر عدته ، ثم يأوى إلى خيمة القائد فيسمع نشيجاً يحاول مرافقه أن يكتمه حتى لايسمعه قائده ، وتهتز عواطف الفنان فى البارودى القائد ، وتستثار شاعريته ، وتسرع إليه ربة الشعر بقيثارتها ليغنى ، فيبدأ بصلاة وابتهال قربانا للوطن البعيد ولمغانى حبه وصباه فى « روضة المقياس » ، تلك التى ما إن فارقها حتى أخذ يحن لها شوقاً ، ودون مزارها مسالك يأويها الردى ومنادح ، ويكشف عما يتنازعه من شرف الواجب والحنين إلى الوطن فيبعث لبلده بالدعاء ، ويؤثر البقاء ليغدو على جمع العدا فيكافح ، ويرسم لوحة لأرض المعركة وكيف وجدها :

تَصيحُ بها الأصداءُ فى غَسَقِ الدجى   صِيَاحَ الثكالى هيَّجتها النوائحُ

ثم أصبحت بعد أن عسكر جيشه فيها :

مهالِكُ ينسَى المرءُ فيها خليلَه   ويندُرُ عن سَوْمِ العُلاَ من يُنافحُ[٢]

فَلاَ جَوَّ إلا سَمْهرىٌّ وقاضِبٌ   ولا أرضَ إلاَّ شمَّرىٌّ وسابِحُ[٣]

ويحدد ملامح الصورة فيضع فيها تنظيم الجيش وخطته للمعركة المقبلة بتفاصيلها فيقول :

تَرَانا بها كالأُسد تَرصد غارةً   يطير بها فتْقٌ من الصُّبح لامحُ[٤]

---

(١) ذكرت الجوائب المصرية فى عددها ٥٧٢ فى ١٥/١٢/١٩٠٤ أن مركزه كان فى « وارنة » ثم فى « رسجق » وآخر الحرب فى « فيلبيه » .

(٢) ينافح : يكافح فى طلب الرفعة .

(٣) السمهرى : الرمح الصلب ؛ والقاضب : السيف القاطع ؛ والشمرى : الشجاع المجرب .

(٤) فتق من الصبح : انشقاق الفجر .

مدافعُنا نُصْبَ العِدا ، ومُشاتُنا قيامٌ ، تليها الصافِنَاتُ القَوارحُ[١]
ثلاثةُ أصناف تقيهِن سَــاقَةٌ صِيَالَ العِدَا إن صَاحَ بالشر صائحُ[٢]

ثم ينثنى إلى بـكاء الرفيق ، ذلك الذى يخشى عليه من الردى ، وهو يعرف أن البارودى القائد يتقدم جيشه فى المعركة ، والعدو يستهدف القائد بالإصابة ، فيسدى إليه النصح . ويحكى البارودى مادار بينه وبين الرفيق فيقول :

ولم يكُ مبْكاه لخوف ، وإنَّما توهم أنى فى الـكريهة طَائِحُ
فقال اتَّئِدْ قبل الصِّيال ، ولا تـكن لنفسك حرباً ، إننى لك ناصـحُ
ألم تَرَ معقودَ الدُّخان ؛ كأنما على عَاتقِ الجوْزَاء منه سَرَائِحُ ؟[٣]
فلا رَأْى إلاّ أن تـكونَ بِنَجْوَةٍ فإنك مقْصودُ المـكانةِ واضحُ
فقلت تعلَّم إنمــا هى خُطَّةٌ يطول بها مجدٌ ، وتُخشى فضائحُ
فإن عشتُ صافحتُ الثريا ، وإن أمُتْ فإن كريماً من تضمُّ الصفائحُ[٤]

وبعد أربعـة أشهر[٥] يصل الجيش المصرى إلى مقاطعة « سرنسوف » بأوكرانيا ، ويقبل « عيد الفطر » ، وكان البارودى فقد الشعور بحساب الزمن بعد أن استحوذت الحرب على قلبه وعقله وأعطاها كل نفسه ، ولم تعد الحياة عنده إلا صبحاً يغير فيه على الأبطال وليلا يأوى فيه إلى الأدغال[٦] ، وتستغرقه المعارك فلا يدرى من أمر العيد شيئاً حتى يخبره به مرافقوه ، وفجأة يتحسر

---

(١) الصافنات القوارح : الخيول الأصيلة التى بلغت الخامسة من عمرها .
(٢) ساقة الجيش : مؤخرته .
(٣) السرائح : القطع من القماش ، والمراد قطع الدخان .
(٤) الصفائح : حجارة عريضة رقيقة ، والمراد القبر .
(٥) أكتوبر ١٨٧٧ شوال ١٢٩٤ .
(٦) الديوان جـ ١ ص ١١٣ .

عنه لثام الفارس ، ويظهر من تحت السرد الأب الحنون والحبيب المشوق والصديق والمواطن ، وتترى الذكريات إليه من كل جانب : ذكريات الحمى والأهل والصحاب ، وتهجمه الغربة والوحدة بآلامهما وعذاباتهما فى بلاد لا صلة تقرب بينه وبين أهلها . يمور كل ذلك فى عواطفه ، وتضغط الآلام على نفسه ثم تجد المتنفس فى لسانه فيحكى وينشد ما فعلت به ذكريات العيد وهو غريب فيقول :

أَلاَ أيُّها اليومُ الذى لم أكن له ذَكُوراً ، سوى أنْ قِيلَ لى هو عِيدُ
أَتسألُنَا لُبسَ الجديدِ سفاهةً وأثوابُنا ما قد علمتَ حَدِيدُ
فحظٌ أناسٍ منه كأسٌ وقَيْنَة وحظٌ رجالٍ ذُكرةٌ ونشيدُ
فمن لغريبٍ « سرنسوفُ » مُقَامُه رمت شملَه الأيامُ ، فهو لهيدُ[1]

ثم يصف البلاد التى يقضى بها العيد مقاتلا ومحاربا وصفاً تخالها ماثلة لك فيه ، ويصور الحركة والصورة بحيث تتوهم أنك ترى وتسمع فيقول :

بلادٌ بها ما بالجحيم ، وإنما مكانَ اللَّظَى ثلجٌ بها وجليدُ
تجمعت البلْغارُ والرومُ بينها وزاحمَها التاتارُ ، فهى حُشودُ
إذا راطنوا بعضاً سمعتَ لصوتهم هَدِيداً يكادُ الأرضُ منه تَمِيدُ[2]
قباحُ النواصى والوجوهِ ، كأنهم لغيرِ أبى هذا الأنامِ جُنودُ[3]

وبين الذكريات الحلوة والواقع الموحش تظهر اللهفة إلى العودة وأمنية اللقاء فيقول :

فَمَنْ لى بأيامٍ مضت قبلَ هذه بمصرَ ؟ وعيشى لو يدومُ حميدُ
عسى اللهُ يقضى قربة بعد غُرْبَةٍ فيفرحَ باللقيا أبٌ ووليدُ

---

(١) لهيد : مثقل مجهود .
(٢) الهديد : الدوى أو الصوت الغليظ كهدير البعير ؛ وتميد الأرض : تتحرك .
(٣) كأنهم لبسوا من أبناء آدم .

ويكتب البارودى إلى الصحب والرفاق فى الوطن علّ حديث الشوق منهم يطفىء لوعة الوجد عنده ، غير أن البريد يتأخر ، ويمضى زمن لا يأتيه فيه قادم ببشرى ولا يعطف عليه رسول ، فيؤرقه القلق ، ويبرحه الشوق ، فيغنى آلامه ومواجده ، ويكتب إلى صديقه وأستاذه « حسين المرصفى » ، ولكن كتبه تثوى شهراً وليس لها رد ، فيهرع البارودى إلى قيثارته ، ينشد عليها عاتبا ومغاضباً ، ويفيض فى وصف إحساسه وشوقه إلى الوطن حتى ليكاد المرء يسمع من شعره صوت « الوابور » ينعب بالبين والفراق ، ويلمس من ألفاظه لوعة النأى وحرقة الاغتراب ، ويحس فيه القلق والترقب للبريد المتأخر ، ويرى صورة متحركة للمعركة مع أمة الروس والبلقان فيقول :

فياسَاكنى الفسطاطِ ا ما بالُ كُتْبِنَا ... ثَوَتْ عندكم شهراً وليس لها ردٌّ ؟

نأَتْ بى عنكم غُربةٌ ، وتجهَّمتْ ... بوجهىَ أيامٌ خلائقُها نُكْدُ

أدورُ بعينى لا أرى غيرَ أمَّةٍ ... من الروس والبلقان يُخطئها العدُّ

جَواثٍ على هامِ الجبال لِغارةٍ ... يطيرُ بها ضوء الصَّباح إذا يبدُو

إذا نحنُ سِرنا صرَّح الشرُّ باسمه ... وصاح القَنَا بالموت ، واستقتل الجندُ

فأنت ترى بين الفريقين كُبَّةً ... يُحدِّثُ فيها نفسه البطلُ الجَعْدُ[1]

على الأرض منها بالدماء جداولٌ ... وفوق سَرَاةِ النجم من نَقْعِهَا لِبْدُ[2]

وبين كل ذلك يظهر البارودى الفارس وسط المعركة .

صئولٌ وللأبطال همسٌ من الوَنَى ... ضروبٌ وقلبُ القِرْنِ فى صدره يعدُو[3]

---

(١) الكبة : الحملة يحملها الجيش ويندفع بها على عدوه ؛ والجعد : الشجاع الكريم .

(٢) اللبد (بالكسر) : ما يتلبد من شعر وصوف .

(٣) الونى : الضعف والأعياء ؛ القرن : من يقاوم وهو نظير فى الشجاعة .

فما مهجة إلا ورمحى ضميرُها ولا لَبَّةٌ إلا وسيفى لها عِقْدُ[١]

ثم ينتقل البارودى إلى إقليم (دبريجة) فى بلغاريا ، ويمعن البريد فى التأخر فلا يصله رد من أبناء وده ، ويظن البارودى أن رسائله وصلتهم وأنهم مقصرون عن المبادرة بالإجابة[٢] ، فيكتب قصيدته الثانية إلى المرصفى[٣] ومطلعها :

يا ناعسَ الطَّرف إلى كم تنام أسهرتَنى فيك ونامَ الأنام

وفيها يعتب ويشكو ويتألم ، ويصف حاله على البعد وقد انقضت بشاشة العيش وساء المقام ، ويتمنى أن يكون حرفا من حروف التلغراف أو ريشة بين خوافى الحمام .

حتى يُوافى مصرَ فى لحظةٍ يقْضى بها فى الله حقَّ الذمام

وظلت « الحملة المصرية » تحارب نحو عام فى بلغاريا وأكرانيا بشجاعة وجرأة ، وأبلى الجنود المصريون بلاء حسنا حتى وضعت الحرب أوزارها ، واضطر الترك إلى معاهدة « سان استفانو » المشهورة فى مارس ١٨٧٨ . وأنعم على البارودى برتبة اللواء والوسام المجيدى من الدرجة الثالثة ونيشان الشرف لقاء ماقدمه من ضروب الشجاعة وألوان البطولة والإقدام[٤] .

---

(١) القصيدة كاملة فى الديوان المطبوع (الإمام) و (الجارم) ٦٣ بيتا ، أما فى الوسيلة الأدبية فهى ٦٢ بيتاً فقط .

(٢) الوسيلة الأدبية جـ ٢ ص ٤٩٧ .

(٣) القصيدة كاملة فى الوسيلة الأدبية جـ ٢ ص ٤٩٧ — ٤٩٨ وهى ١٩ بيتاً ، والقصيدة فى المخطوطتين ١٨ بيتاً فقط ، وترتيبها فيهما يختلف عن ترتيبها فى الوسيلة ولفظة واحدة مستبدلة فى البيت السابع عشر من المخطوطتين .

(٤) مقدمة مراثى الشعراء ص ١٢ .

مقدمات الثورة الوطنية

واستيقظ المارد :

ترك البارودى تركيا وهى تجر أثواب الهزيمة فى حربها مع الروسيا ، وعاد ليجد فى مصر نصراً مؤزراً . . نصراً حققته الصحافة وأقلام الكتاب فى إيقاظ الرأى العام وتجميعه وتحريكه . ويسمع فى ندوته الأدبية أخبار ذلك النصر ، ويحكى له صديقه « محمد عبده » قصة التطور فيقول : « منذ نشبت الحرب بين تركيا والروسيا وجد الناس من نفسهم لذة فى الاطلاع على ما يكون من شأن الدولة العثمانية صاحبة السيادة عليهم مع دولة الروسيا ، فتطلعوا إلى مايرد من أخبار الحرب ، وسهلت كثرة الأجانب فى البلاد ورود الجرائد الأوروبية إلى طلابها من الأوربيين ، ومهدت مخالطتهم للعامة والخاصة الطريق إلى العلم بما فيها ، فزاد تشوق الناس إلى الوقوف على حوادث تلك الحرب ، وسرى هذا الشعور إلى بعض الجرائد العربية التى كانت لا تزال إلى هذا العهد قاصرة على مالا يهم ، فانطلقت فى إيراد الحوادث ونشرها ، وظهر فيها الميل إلى إطراء ما كانت تأتى به العساكر الروسية ، وازدراء ما كان ينسب إلى الجنود العثمانية ، فوجد فى الناس الناقم على تلك الجرائد والناصر لها ، وحدث بين العامة نوع من الجدل لم يكن معروفا من قبل ، ثم استحدثت جرائد كثيرة لمباراة ما سبقها فى نشر الأخبار ، ومناوأتها فى المشرب ، واندفعت الرغبات إلى الاشتراك فيها إلى حد لا يمكن منعه ،وقضى سلطان الوقت على سلطان الإرادة القاهرة .

« ولم يكن ما ينشر فى الجرائد محصوراً فى حوادث الحرب ، بل اجترأ

الكثير منها على نشر ما عليه سائر الأمم فى سيرتهم السياسية والمعاشية ، وزادوا على ذلك نشر ما كان قد حدث فى الحكومة المصرية من سوء الأحوال المالية ، وكثر المتحدثون بما يكثر فى تلك الجرائد . وأخذ الشيخ جمال الدين فى حمل من يحضر مجلسه من أهل العلم وأرباب الأقلام على التحرير وإنشاء الفصول الأدبية والعلمية فى مواضيع مختلفة لا تخرج جامعتها عن إصلاح الأفكار وتهذيب الأخلاق ، فتسابق إلى ذلك الكتاب ، وتبارت الأقلام ، وأخذت الحرية الفكرية تظهر فى الجرائد إلى درجة يظن الناظر فيها أنه فى عالم خيال ، أو أرض غير أرض الخبال[١] » .

ثم يسمع البارودى تلك المناقشات تدور جهاراً فى المجالس والمنتديات ، ولكنها تتحاشى ذكر إسماعيل بنقد أو التعرض له بذم على الملأ ، فالخوف منه مازال يعقد الألسنة وعيون الطاغية فى كل مكان ، وهو لا يرحم مصرياً يرفع راية العصيان . وينصت البارودى إلى الهمس يسرى فى المجالس الخاصة حول الدكتاتور الذى أذل المصريين بظلمه وقد ركع اليوم هواناً وضعفاً أمام لجنة التحقيق الأوروبية ، التى تغلغل نفوذها فى البلاد وأصبح سلطانها فوق كل سلطان . ويتوقع البارودى بلحاظ رأيه نهاية إسماعيل ، وترى بصيرته — ولها من وراء الغيب أذن سميعة وعين ترى ما لا يراه بصير — قرب الخلاص من حكمه ، ويذكر يوم نادى الأحرار ليتعجلوا هذه النهاية بالثورة المسلحة فلم يستمعوا لندائه[٢] ، واضطر وقد خذله قومه أن يغمض عينه على القذى ، فيشكو لقيثارته ويقول :

---

(١) محمد عبده فى تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٣٧ — ٣٨ .
(٢) أنظر (ص ١٢٨ — ١٣٧) من الكتاب .

لَعَمْرى لقد ناديتُ ، لو أنَّ سامعاً ونوهتُ بالأحرار ، لو أنَّ منقذَا

وَطَوَّفْتُ بالآفَاق ، حتى كأننى أحاولُ من هذى البسيطةِ مَنْفَذَا

إذا مارأيتُ الشىءَ فى غير أهلِهِ ولم أستطع ردًّا ، طرفْتُ على قَذَى

وفى هذه الفترة تبدأ الآمال العراض تراود البارودى فيمزجها بدعوته إلى الثورة للإصلاح ، ويكشف عن مكان المجد الذى تنازعه إليه نفسه ، حتى يخرج أمته من المحنة التى تطحنها ، ويقودها إلى المجد السياسى ، ويخلصها من ظلمة الجور فى قوله :

فحتَّى متى يا دهرُ أكتمُ لوْعةً تـكلِّفُ قلبى كُلْفَةَ الريح بالشَّذَا ؟

ألَمْ يأنِ للأيام أن تُبصِرَ الهُدَى فتخفِضَ مأفوناً ، وترفعَ جِهْبَذَا

إذا لم يكُن بالدَّهر خَبْلٌ لما غدا يَسيرُ بنا فى ظلمة الجَوْرِ هكَذَا

وفى أبريل عام ١٨٧٨ يعين البارودى « مديرا » للشرقية[(١)] ، فيمكث بها أربعة أشهر ، ويرى فيها رأى العين صنوف العذاب وألوان الإرهاق التى يعانيها الفلاح ، من أعوان الخديو تارة ومن مندوبى التحصيل للرقابة الثنائية تارة أخرى ، « فقد كان هذا العام عام شقاء على مصر ، ولم يكن الحصول على المبلغ الجسيم الذى وضعته اتفاقية (جوشن وجوبير)[(٢)] على كاهل الفلاحين المفلسين ممكنا إلا بإكراههم تحت الكرباج على ارتهان أراضيهم وممتلكاتهم للمرابين اليونانيين ، الذين يرافقون جباة الضرائب وهم يجوبون القرى ، وكانت مدن الأقاليم أيام الأسواق تغص بالنساء يبعن ملابسهن وحليهن المرابين الأوربيين ، فالأزواج والأقرباء من ورائهن قد احتجزهم جامعو الضرائب والكرابيج مشهورة فى

---

(١) مقدمة مراثى الشعراء ص ١٥.

(٢) من أهم بنود الاتفاقية فرض الرقابة الأجنبية على المالية المصرية .

أيديهم لتمزق جلودهم إن لم يدفعوا[١] » .

وشاهد البارودى ممارسة الاستعباد على الطبيعة حين يساق الفلاحون قطعانا إلى « أبعاديات » الأمراء والحكام « وباشوات » البلاد للعمل مسخرين لقاء كسرة الخبز التى تمسك الروح بالجسد .

ويعود البارودى إلى القاهرة فى سبتمبر ١٨٧٨ بعد أن عين رئيساً لضبطيتها ـ محافظاً[٢] ـ ليجدها تتأجج برد الفعل الذى أحدثه تأليف وزارة مختلطة (أغسطس ١٨٧٨) ، ويمور « الرأى العام » فيها بثورة تكسر آخر قيد يمنع المارد من الانطلاق ، وإسماعيل سفاح الشعب بالأمس يجأر إليه ويستنجد به اليوم ليقف معه فى محنته ، وليشد أزره أمام النفوذ الأجنبى الذى يحفر له قبره ويدفعه إلى نهايته المحتومة . « ويشعر الشعب بقوته وحاجة الحاكم إليه ، ويتنبه الرأى العام فيه إلى أنه يستطيع أن يقف الظلم ويطالب بحقوقه ، وأن من حقه مراقبة الولاة والحكام ، ورفع صوته بنقدهم[٣] » .

وتبدأ الصحافة السياسية العربية فتهاجم النفوذ الأجنبى ، وتعد تشكيل الوزارة المختلطة افتئاتا على استقلال البلاد وتدخلا سافراً فى شئونها ، وتنعى على الحكام ضعفهم أمام الدخيل ، وتقارن بين الطيش والجبروت فى الداخل والذلة والاستسلام فى الخارج . ويقف مجلس شورى النواب موقف المعارضة من الوزارة ويتمسك بحقوقه وسيادته على البلاد . « ويحضر مشايخ البلاد وأعيانها إلى القاهرة فى مظاهرة وطنية يطالبون وزير المالية الإنجليزى بتخفيض الضرائب وتحديد مواعيد ثابتة لتحصيلها ، ومنع الكرباج والقهر فى جبايتها[٤] » . ويتدخل « الحزب

---

(١) التاريخ السرى ص ١٣ ، ٢٧ .
(٢) مقدمة مراثى الشعراء ص ١٥ .
(٣) زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ص ٢١٩ .
(٤) التيمس ٢٣/١/١٨٧٩ .

الوطنى الحر[١] » فى السياسة ، وينتقل إلى المرحلة الثانية من خطته فتختفى كتب العلم ، وينتهى الحديث عن الإصلاح الدينى كأساس للإصلاح السياسى والاجتماعى ، ويبدأ الأفغانى وأعضاء حزبه يناقشون الفساد من جذوره ، ويردونه إلى أسبابه الحقيقية من الظلم الاجتماعى والاستبداد السياسى والتدخل الأجنبى ، ويرون الطريق إلى الإصلاح فى التحرر من ذلك كله بالثورة[٢] . ثم يتحول الحزب إلى « محفل ماسونى وطنى تابع للشرق الفرنسى » ، وتقبل عليه نخبة من المفكرين والناهضين المصريين وأصحاب المناصب العالية فى الدولة والبارودى منهم[٣] ويبلغ أعضاؤه أكثر من ثلثمائة عضو[٤] .

عبأت الوزارة المختلطة ، بتكوينها المهين للكرامة القومية وبأعمالها المثيرة للخواطر ، شعور الشعب نحوها بالكراهية من أول يوم لها ، وزادت الكراهية حين ظلت تمعن فى إذلال الأمة وتحابى المصالح الأجنبية حتى لم يبق للصبر منزع ، فتفجرت الثورة عليها فى صفوف الجيش وخرج الضباط يستردون كرامة الأمة ويطيحون بنوبار ووزارته الأوروبية .

وظهرت بوادر الخطر واضحة فى الانبعاثة الوطنية الجديدة بين الأمة على أصحاب المصالح المشتركة من الرجعيين والاستعمار ، فأسرعوا إلى الاتفاق حتى يكونوا جبهة يوقفون بها تيار الشعور الوطنى قبل أن يجرفهم جميعاً ، وامتصوا دفعة الكراهية وفورة الثورة بتغيير الواجهة والمظهر الخارجى ، فعين محمد توفيق ولى العهد رئيساً لمجلس النظار (مارس ١٨٧٩) . ولكن توفيقاً لم يكن بأكثر وطنية من نوبار ، ولم تكن وزارته بأحسن حالاً من الوزارة السابقة

---

(١) مدرسة جمال الدين ومريدوه وأتباعه .

(٢) د. على الحديدى : عبد الله النديم (١٩٦٢) ص ٧٧ .

(٣) تاريخ الأستاذ الإمام (إضافات) ج ١ ص ٤٦ ؛ وأحمد أمين : زعماء الإصلاح ص ٧٤ .

(٤) تاريخ الأستاذ الإمام ص ٤٠ — ٤١ .

بل كانت أسوأ منها ، ذلك أنه فوق تعيين الوزيرين الأوروبيين مثار الشكوى ومناط الإهانة الوطنية ، فقد تقرر أن يكون لهما فى مجلس النظار الحق فى وقف كل عمل لا يوافقان عليه . وعادا أقوى مما كانا عليه من قبل ، وصارا صاحبى الكلمة النافذة فى شئون الحكومة جمعاء ، ففقدت الوزارة صبغتها القومية ، وأمعنت فى الإساءة إلى الرأى العام ففضت مجلس شورى النواب بعد خمسة أيام من تشكيلها ، ودل مسلكها على أنها تبغى حكم البلاد بإرادة المستعمرين[١] .

نداء الثورة:

رأى الشعب من أعمال توفيق وهو رئيس لمجلس النظار أنه دكتاتور تحت التمرين ، ولن يلبث حتى يتمثل فوق خضوعه للنفوذ الأجنبى طغيان أبيه واستبداده ، فاضطربت الأفكار وثارت الخواطر وقويت فى النفوس فكرة « الكرامة القومية » ، واتجه الرأى العام إلى مناقشة السبل التى تخلصهم من التدخل الأجنبي كله ، ومن الوزارة الأوروبية الثانية وقد أصبحت امتداداً أكثر مهانة لوزارة نوبار الأولى . ويجتمع ذوو الرأى من أعيان البلاد ونوابها بدار إسماعيل راغب على هيئة « جمعية وطنية[٢] » ، ويضعون مشروع

---

(١) كتب البارودى بيتين اثنين بهذه المناسبة عنون لهما بقوله « وقال فى محمد توفيق حين عين ناظر النظار »

بك استقامت مصر حتى غدت يحمدها الوارد والصادر

وكيف لا تبصر قصد الهدى حكومة أنت لها ناظر ؟

ولو دققنا النظر فى البيت الثانى لوجدناه ذما بما يشبه المدح ، فهو استفهام بالنفى على سبيل التقريع والتوبيخ ، وكتابة بيتين اثنين فى هذه المناسبة الكبيرة بالنسبة لتوفيق تدل على تدهور العلاقة بينه وبين البارودى .

(٢) كان الاجتماع فى ٢ أبريل ١٨٧٩ ؛ التجارة عدد ٢١٤ ، ٢١٦ فى ٧ ، ١٨٧٩/٤/٩ .

« اللائحة الوطنية[١] » للإصلاح المالى والدستورى . ويناقش حزب الأحرار والمحفل الماسونى أبعاد الموقف بجرأة ، ويتبينون العواقب الوخيمة التى تنزل بالبلاد إن طال حكم إسماعيل[٢] . « ويصدر العلماء فتاواهم بأن استبداد أمراء المسلمين مخالف لتعاليم الإسلام ، وأن الحكم الإسلامى إنما هو فى الحقيقة شورى لا تعتمد سلطة الحاكم فيها إلا على حسن قيامه بتنفيذ الشريعة ، وبيعة الناس له بالإمارة . ثم ينتهون إلى وجوب إزاحة إسماعيل عن الحكم بالعزل أو القتل[٣] » .

وكذلك كانت مراكز القوى الوطنية كلها تموج بالغضب والثورة ، ومع أنها كانت تتحرك متفرقة ولكن حركتها كانت فى اتجاه متشابه ، ومن ثم كان يعوزها الربط والتجمع حتى تتكتل فى حركة واحدة توجه بها رأس الحربة إلى قلب الرجعية والاستعمار ، وكانت فى انتظار الزعيم الذى يوحد الصفوف ثم يقودها فى ثورة تستأصل الفساد وتطهر الوطن من أعدائه الرجعيين وطلائع الاستعمار .. الزعيم الذى ترضى عنه صفوف القوى الوطنية لغيرته القومية وحميته الوطنية ومكانته وسمعته بين مواطنيه .

وفى ظنى أن أنظاراً كثيرة من شباب « حزب الأحرار » ومن « المحفل الماسونى » وغيرهما تطلعت إلى البارودى ليكون هذا الزعيم . والبارودى جدير بهذا الظن ، فقد كان وقتذاك كما وصف نفسه ومكانته بقوله :

وأَصبحتُ محسودَ الجلالِ كأننى ‏ ‏ ‏ على كُلِّ نفسٍ فى الزمان أَميرُ[٤]

---

(١) تفصيلات اللائحة فى عصر إسماعيل للرافعى ج ٢ ص ١٨٠ — ١٨٥ .

(٢) العقاد : محمد عبده ص ١٢٨

(٣) بلنت : التاريخ السرى ص ٩٥ ؛ والعقاد : محمد عبده ص ١٢٨ — ١٢٩ وانظر أيضا :
Mc Coan, Egypt Under Ismail, P. 89, (London 1889).

(٤) نشرت القصيدة التى منها هذا البيت بالوسيلة الأدبية ج ٢ ص ٤٧٩ . وقد طبعت عام ١٨٧٩ .

وكان كما قال عنه صديقه الشيخ محمد عبده « كلمة أمير فى مصر كثيرة التداول، ولكن مصداقها محمود سامى البارودى[١] » . وكأن البارودى قد أحس بالآمال التى نيطت به ، وبالأنظار التى تطلعت إليه فخرج على الأمة « بنداء الثورة » . يبدؤه فيقدم نفسه إلى مواطنيه ليعرفوا فيه الأمير الحق والقائد المرجو ، وليقارنوا بينه وبين من هم فى دست الحكم ، فهو الذى وهب نفسه للمجد وطلابه حتى بلغ منه قمه الشماء ، وأعد للحياة سيفه ورأيه وهمته التى لا يشغلها الصغير من الأمور ، وهو الشجاع الذى لا يقهر والحذر الذى لا يخدع ، وقد علمته التجربة وكفه حلمه عن التهور ، فما كشف قناع الحلم عن سفه ، ولا مسح جبين العز من خجل ، ثم يشرح الأسباب التى يدعو مواطنيه من أجلها إلى الثورة ، وكيف استهدفهم بالإذلال والقهر حكام بلغ بهم الفساد والذلة لطلائع الاستعمار درجة عافتهم بسببها كراسى الحكم وكادت أن تلفظهم فيقول :

حلبتُ أَشْطُرَ هذا الدهر تجربةً ... وذقتُ ما فيه من صابٍ ومن عَسَلِ[٢]

فما وجدتُ على الأيامِ باقيــةً ... أشهى إلى النفْسِ من حُريَّةِ العملِ

لكننا غرضٌ للشر فى زَمَنٍ ... أهلُ العقول به فى طاعةِ الخَمَلِ

قامت به من رجالِ السُّوء طائفةٌ ... أَدْهَى على النفس من بُؤسٍ على ثَكَلِ

من كل وغْدٍ يكاد الدَّستُ يدفعه ... بغضاً ، ويلفظُه الديوان من مَلَلِ[٣]

ذلَّت بهم مصرُ بعد العزِّ واضطربت ... قواعدُ الملك حتى ظلَّ فى خَلَلِ

وأصبحَتْ دولةُ الفسطاطِ خاضعةً ... بعد الإباء ، وكانت زهرةَ الدُّولِ

---

(١) طاهر الطناحى : الهلال ، جزء ٤ سنة ٣٨ أول فبراير ١٩٣٠ ص ٤٧٤ .

(٢) يقال حلب فلان الدهر أشطره إذا خبر ضروبه .

(٣) الدست : فارسية تستعمل للمجلس والديوان .

ويضرب على أوتار العزة والكبرياء فى مواطنيه ، فيصور ما أصاب بلادهم حين تسلط عليها الطغاة ، وتحكموا فيها بظلمهم ، ففسدت الأخلاق ، وتخبط الناس فى ظلمات اليأس ، ثم يستثيرهم ويشعل لهيب الكرامة فيهم ليصبوا جام غضبهم على ظالميهم ويندفعوا إلى الثورة فيقول :

بئسَ العشيرُ وبئست مصرُ من بلدٍ   أضحت مناخاً لأهل الزور والخَطَلِ
أرضٌ تأثَّل فيها الظلمُ ، وانقذفت   صواعقُ الغدر بين السهل والجبلِ (١)
وأصبح الناسُ فى عَمْياء مظلمةٍ   لم يخْطُ فيها أمرؤٌ إلا على زَلَلِ
لم أدْرِ ما حلَّ بالأبطال من خَوَرٍ   بعد المِراسِ وبالأسياف من فَلَلِ
لا يدفَعُون يداً عنهم ولو بلَغَت   مَسَّ العفافَةِ من جبنٍ ومن خَزَلِ
خافوا المنيةَ فاحتالوا ، وما علموا   أن المنيـــةَ لا ترتَدُّ بالحِيَلِ
هيهاتَ يلقَى الفتى أمْناً يَلذُّ به   ما لم يخُضْ نحوه بحراً مِنَ الوَهَلِ (٢)

ثم يحاول البارودى أن يعيد الثقة إلى نفوسهم فيضع أمامهم صورة من أمجاد أسلافهم الذين أقاموا العــدل وسادوا الأمم وقاموا ببطولات قدموا فيها أنفسهم قرباناً للشجاعة فيقول :

وتلك مصرُ التى أفْـنَى الجِـلاد بها   لفيف أَسلاَفـكم فى الأعْصر الأولِ
قومٌ أقروا عمادَ الحق وامتلـكوا   أزِمَّة الخلقِ من حافٍ ومنتعلِ

ويصرخ فيهم داعياً إلى المبــادرة بالثورة قبل الفوات ، وإلى انتزاع قيود الخوف والرهبة التى تعوقهم عن التفـكير والعمل السريع ، ومطالبا بأن يولوه أمرهم دون ما تردد أو لجاجة ، ليقودهم فى ثورتهم ، ويتخطى بهم ظلمات الاستعباد والخوف إلى نور الحرية والعدل والاستقلال ، وترد لهم بها حقوقهم الضائعة وكرامة الوطن المسلوبة فيهتف :

---

(١) تأثل : تثبت وتأصل .   (٢) الوهل : الفزع .

فبادروا الأمرَ قبلَ الفوْتِ، وانتزِعُوا شكالَةَ الرَّيثِ فالدنيا مَعَ العَجِلِ (١)
وقلِّدوا أمرَكُم شهماً أخا ثقةٍ يكونُ رِدْأً لكم فى الحادثِ الجللِ
ولا تَلِجُّوا إذا ما الرأىُ لاحَ لكم إن اللَّجاجةَ مدْعاةٌ إلى الفَشَلِ
وطالبوا بحقوقٍ أصبحت غَرَضاً لكل مُنتزعٍ سهماً ومختَتِلِ
لا تتركوا الجِدَّ أو يَبْدُو اليقينُ لكم فالجِدُّ مفتاحُ باب المطلبِ العَضِلِ (٢)
حتى تعودَ سماءُ الأمن ضاحيةً ويرفُلَ العدلُ فى ضافٍ من الحُلَلِ

ولكن نداء البارودى إلى الثورة يذهب كما ذهب أخ له من قبل لا يرتد إليه صداه وإن احتاف السبب وتغيرت الظروف . ذلك أن الرجعية قد أحست بمواقعها تتزلزل من تحتها أمام هدير الأمة ، فهادنت لتستعد ثم لتنقض ، وعمدت إلى الخديعة والمراوغة لتمييع الدفع الثورى وتفتيت قواه وتغيير اتجاه الحركة الوطنية . نفذت إلى موقع النواب والمطالبين بالدستور حين قبل إسماعيل « ولى النعم » اللائحة الوطنية ، وكلف « محمد شريف بتشكيل الوزارة فرضوا وشكروا . وتسللت كذلك إلى الحزب الوطنى الحر بأن هرع توفيق ــ دكتاتور الأمس والمعتدى على مجلس النواب بفضه ــ إلى الحزب يتقرب إلى زعمائه ويعلن انضمامه تحت لوائه ، ويتصل بجمال الدين وينضم إلى محفله الماسونى ويحبذ آراءه فى الإصلاح (٣) ، « وصار جمال الدين صلة قوية بينه وبين المصلحين الذين وعدهم توفيق مرة بعد أخرى بأنه متى وصل إلى العرش فسوف لا يحيد قيد شعرة عن جادة الحكم الدستورى (٤) » .

(١) الشكالة : الوثاق بين يدى الدابة وأرجلها ، وشكالة الريث : قيد البطء والتأخر .
(٢) المطلب العضل : المستغلق .
(٣) تاريخ الأستاذ الإمام : جـ١ ص٤١ ؛ وزعماء الإصلاح ص ٧٦ ، ٢٢٠ .
(٤) بلنت : التاريخ السرى ص ٩٥ ؛ وتاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ١٣٦ .

أسلوب الرجعية :

كان أسلوب توفيق فى خداع القوى الوطنية ومجاهرته بالإصلاح حين يتولى العرش ووعوده بإقامة حياة دستورية يدل على دهاء شديد ، فقد استطاع أن يحول تيار الكراهية عنه ، ويستبدل به التقدير والمودة . وتطلعت إليه القوى الوطنية على أنه الأمل المرتقب ، فسعت إلى عزل أبيه (٢٦ يونيو ١٨٧٩) وأقامته على عرش مصر ليأتى الإصلاح على يديه[١] . ورحب المصلحون جميعاً بارتقاء توفيق أريكة الحكم ، واعتبروه دليلاً على حسن الطالع ، وتطلعوا إلى العصر الجديد بثقة الرجال الذين خطوا خطوة فى سبيل تحقيق أمانيهم[٢] .

واستطاع توفيق أن ينفذ إلى البارودى أيضاً ، وقد أدرك أن فى اكتسابه إلى صفه كسباً لأرض جديدة يدعم بها موقعه ، وينال بها تأييداً شعبياً من القوى الوطنية التى تثق فيه ، فعينه وزيراً للمعارف والأوقاف[٣] . وتمكن بمكره أن يخدع البارودى كما خدع بقية العناصر الوطنية ، وحسب البارودى كما حسب غيره من القادة الوطنيين أن توفيقاً مخلص فى دعواه الإصلاح وفى إقامته حياة دستورية سليمة ، وظن كما ظنوا أنه قد بلغت به الآمال أبعد غاية ، وبزغت به شمس الهداية بعد ما أفلت ، وخرج الناس به من ظلمات الظلم ، وتوهم كما وهموا أن مصر قد بدأت به عهداً جديداً من الحرية والعدالة[٤] وهو ما يريد البارودى لوطنه على يد أى إنسان . ومن ثم أيد « البارودى » توفيقاً وسانده .

وبعث توفيق إلى محمد شريف بالكتاب التقليدى لتشكيل الوزارة ، وكان بمثابة جس للنبض الوطنى لدى القوى الوطنية ولمعرفة مدى تمسكها بمطالبها

---

(١) جريدة مصر : عدد ٤ فى ٢٥ يوليو ، ٧ أغسطس ١٨٧٩ ؛ وتاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٧٤ — ٧٥ . (٢) بلنت : التاريخ السرى : ص ٩٥ .

(٣) فى وزارة محمد شريف ؛ الوقائع المصرية ٥ يوليو ١٨٧٩ .

(٤) أنظر قصيدة تهنئة توفيق بتولى العرش : الديوان (الجارم) ج١ ص ١٣٨ .

السابقة ، وجاء الكتاب خالياً من الإشارة إلى الإصلاح الدستورى والحكم النيابى ، واكتفى بالإشارة إلى الأزمة المالية والإصلاح الإدارى[١] . ولكن الأمة كانت فى فورة الحماس ولم تكن مستعدة للتفريط فى الحقوق التى جاءت بتوفيق إلى العرش من أجلها ، وقد لمست فى نفسها القوة التى تعزل بها صاحب العرش وتولى غيره ، وبدأت سلسلة من الاجتماعات والمشاورات ، وتجمعت الغيوم فى الأفق ، وأحس توفيق بالخطر ، والرجعية إذا أحست بالخطر لجأت إلى سياسة الخداع .

استقدم توفيق إلى القصر جمال الدين الأفغانى ، وأكد له ثباته على خطة الإصلاح ، وزاد فى مخادعته فقال له « إنك أنت موضع أملى فى هذه الأمة أيها السيد[٢] » . واستدعى شريفاً ووعده بكتابة « أمر سام » يشرح فيه خطته فى الحكم بعد تأليف الوزارة[٣] ، وصدر الأمر السامى مؤيداً لشورى النواب ، وحاثا على الإصلاح المالى والقضائى وزيادة التعليم وكثير من الإصلاحات[٤] ، حتى ليخيل لمن يقرؤه أن توفيقاً غدا مبعوث العناية الإلهية للإصلاح الذى انتظرته مصر حقباً وأجيالا . وكذلك كان أسلوب الرجعية من قديم ، تسرف فى الوعود الخلابة الكاذبة حين ترى الخطر محدقاً بها لتمتص تيار العداء ، ثم لا تحقق منها شيئاً . وهلل الشعب وكبر وفرح بواليه الجديد ، وقد خيل الوهم الذى أحالته الخديعة يقيناً عند المصريين أن عهد الاستبداد الفردى قد زال إلى الأبد ، وأن الحكم الدستورى قد أظل البلاد .

ونال البارودى نصيب كبير من هذا الوهم فأنشد مطولة يحيى فيها توفيقاً « ويهنئه بجلوسه على الأريكة الخديوية » ، ولعل خاطراً طاف به مما يعرفه عن

---

(١) صدر فى ٢ يوليو ١٨٧٩ ؛ انظر والكتاب كاملا فى مصر للمصريين لسليم خليل النقاش ، (١٨٨٤) ج ٤ ص ١٠ .

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٧٧ ؛ ومذكراتى فى نصف قرن ج ١ ص ١٠٩ .

(٣) مذكرات سائح : شارلوت يانج بالإنجليزية ص ٥٨ (١٨٨٤) .

(٤) نشر الأمر السامى فى الوقائع ٥ يوليو ١٨٧٩ .

حقيقة توفيق المنافق الغادر والماكر المخادع ، فاستدرك وذكره بما كان وعد به من إنشاء مجلس نواب الأمة المصرية[١] وهو وعد مؤيد من الشعب ومن الله فقد أوصى به الإله نبيه « وشاورهم فى الأمر » ، وجعله قاعدة الحكم فى الإسلام « وأمرهم شورى بينهم » . وسجل البارودى على توفيق أمره السامى باتخاذ الشورى قاعدة لحكمه وكأنه قد أصبح أمراً واقعا وقانوناً مقضياً لا مفر من تنفيذه ، ومن أجل ذلك كله فهو يهنئه ويمدحه ثم يقول :

سنَّ المشورةَ ، وهى أكرمُ خُطةٍ   يجرى عليها كلُّ راعٍ مُرشِدِ
هى عصمةُ الدينِ التى أوصى بها   ربُّ العبــــاد إلى النبيِّ محمَّدِ
فمن استعانَ بها تأيَّدَ ملــكُه   ومن استهانَ بأمرِها لم يَرشُدِ
أمْرانِ ما اجتمعاً لقائدِ أمــةٍ   إلا جَنَى بهما ثمارَ السؤْدُدِ
جمعٌ يكون الأمــرُ فيما بينهم   شُورَى ، وجندٌ للعدوِّ بمرصَدِ
هيهاتَ يحيا الملكُ دون مشورةٍ   ويعزُّ ركنُ المجد ما لم يُعمَدِ

والواقع أن توفيقاً لم يكن فى يوم من الأيام مؤمناً بالحكم الدستورى بل كان فى خاصة نفسه تواقاً إلى الحكم المطلق ، لـكنه كان يلجأ إلى أسلوب النفاق والمهادنة والغدر لضعف عزيمته وقلة حزمه وسقوط همته . وعرف فيه وكلاء الدول هذه الرغبة فشجعوه ليتحكموا فى السلطة باسمه[٢] ، ولمحوا فيه الضعف والجبن فاستغلوا حادث عزل أبيه فى الضغط عليه ، وأخذوا يلوحون به كلما أرادوا منه إذعاناً لأوامرهم فينكب على وجهه خوفاً وجبنا ، « وظل همه الأول طوال عهده فى النزول على إرادة الدول الأوروبية[٣] » .

---

(١) فى المخطوطة (ج) مضروب على جزء من عنوان القصيدة وهو « ويذكره بما كان وعد به من إنشاء مجلس نواب الأمة المصرية » ؛ والمخطوطة (س) ليس بها هذا الجزء من العنوان.

(٢) الرافعى : الثورة العرابية ص ٢٢ ، ٢٧ ، ٢٨ ؛ وبلنت : التاريخ السرى ص ٩٥ — ٩٦ .

(٣) الرافعى : الثورة العرابية ص ٢٢ .

وبينما يحتفل الشعب بمكاسبه القومية كانت القوى الاستعمارية والرجعية ، بقيادة توفيق ، تقوى مواقعها وتنظم صفوفها وتتحالف فيما بينها . ومن أعضاء هذا التحالف الحاشية الخديوية ، وكان جمال الدين الأفغانى قد أشار من قبل على إسماعيل بتغيير هيئتها ، فقد خالط الفساد والاستبداد الدم واللحم من رجالها ولم يعودوا صالحين للعهد الجديد ، ومن ثم غضبوا على الحركة الوطنية ونقموا عليها[١] . وكذلك مندوبو الدول وطلائع الاستعمار الأوروبى فقد رأوا فى الحركة الوطنية شللا لنفوذهم وإفساداً لخطتهم فى التدخل توطئة للاستعمار الحقيقى ، ومن ثم جهدوا فى وضع العراقيل وإقامة الموانع أمام طريقها. وتحالف رجال الحاشية الخديوية ومندوبو الدول وطلائع الاستعمار ضد الحركة الوطنية ، وظلوا وراء توفيق حتى أقنعوه بضرر الأوضاع الجديدة[٢] .

وأخذ توفيق ينقض وعوده ولما يمض شهر ونصف على إعلان منشور الدستور وينقض على مواقع القوى الوطنية فرادى . ففى اليوم الذى اطمأن فيه على عرشه بوصول الفرمان السلطانى أعلن رغبته فى التخلص من « محمد شريف » ، فاستدعاه ووزراءه وطلب إليه الاستقالة بعد أن رفض البرنامج الدستورى الذى أعده[٣] . وحين شعر « الحزب الوطنى الحر » بالخطر على الآمال الدستورية وأخذ أعضاؤه يشحنون العواطف ويعبئون الرأى العام بخطبهم وأحاديثهم ليطالب الشعب بتنفيذ الدستور ، استدعى توفيق « جمال الدين الأفغانى » إلى قصر عابدين وقال له : إنى أحب كل خير المصريين ويسرنى أن أرى بلادى وأبناءها فى أعلى درجات الرقى والفلاح ، ولكن مع الأسف إن أكثر الشعب خامل جاهـــل لا يصلح أن يلقى عليه ما تلقونه من الدروس والأقوال المهيجة فيلقون أنفسهم والبلاد فى تهلكة . ورد عليه جمال

---

(١) أحمد أمين : زعماء الإصلاح ص ٢٢٠ ؛ ومذكراتى فى نصف قرن ج ١ ص ١٠٩ .

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٥٧ — ٥٨ .

(٣) مذكراتى فى نصف قرن ج١ ص ٩٢ ؛ ومصر للمصريين ج ٤ ص ٢٠

الدين بلسان حزبه يقول : « ليسمح لى سمو أمير البلاد أن أقول بحرية وإخلاص إن الشعب المصرى كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده ، ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل ، فبالمنظار الذى تنظرون به إلى الشعب المصرى ينظر إليكم ، وإن قبلتم نصح هذا المخلص وأسرعتم إلى إشراك الأمة فى حكم البلاد عن طريق الشورى ، فتأمرون بإجراء انتخابات نواب عن الأمة يسنون القوانين وينفذونها باسمكم وإرادتكم ، يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم[1] » . وكان جزاء النصيحة المخلصة أن قبض على جمال الدين فى ٢٤ أغسطس ١٨٧٩ ونفى من البلاد[2] ، وشرد أنصاره ومريدوه وحددت إقامتهم فى بلادهم وقراهم بعيداً عن العاصمة ، ومنعوا من الحديث فى السياسة .

بدأت الرجعية تحتل مواقع جديدة على حساب المكاسب الوطنية ، فشكل توفيق فى ١٨ أغسطس ١٨٧٩ « مجلساً عالياً ينعقد تحت رئاسته بعد أن صار لغو مجلس النظار وإبطاله[3] » . وتشكيل المجلس على هذه الصورة أصاب الأمة بخيبة أمل كبرى فى توفيق ، وأظهره على حقيقته استبدادياً يهوى إعادة سيرة أبيه فى الحكم ، ولكن الذين من خلفه يستند إليهم ويستمد منهم قوته وهم وكلاء الدول لم يرقهم أن يظهر فى أفق مصر إسماعيل آخر ، فقد يخرج عن طاعتهم ويحدث لهم القلاقل والمشكلات حين ينفرد بالحكم بعيداً عن نفوذهم ، ومن ثم كان عليهم أن يبحثوا عن عميل آخر مخلص يسمع لهم ويطيع ، يضعونه على رأس السلطة الفعلية فى البلاد ، يكبتون به الشعور الوطنى ويضربون به الخديو ، وفى هذه التفرقة يقوى نفوذهم ويسود .

وكان « مصطفى رياض » العميل المثالى ، فقد كان يهوى الحكم المطلق

---

(١) محمد المخزومى : خاطرات جمال الدين ص ٥٣ (بيروت ١٩٣١) .
(٢) أمر النفى منشور بالوقائع المصرية ٣١ أغسطس ١٨٧٩ وبالأهرام فى ١٨٧٩/٨/٢٨ .
(٣) الوقائع المصرية فى ٢٤ أغسطس ١٨٧٩ .

هواية تسلطت على نفسه ، ويمعن فى الإذعان لوكلاء الدول حتى لا يرى بأساً من إغضاب الأمة كلها والخديو نفسه فى سبيل إرضائهم ، وهم أولياء نعمته القادرون على إبقائه فى الحكم. واضطر توفيق أن يرضخ « لنصحهم » ولم يكن ذلك إلا الإذعان وهو يعلم أن رياضاً غريم له يحب الاستئثار بالحكم ولن يدع له من أمور السلطة شيئاً[1] ، فأصدر مرغما قرار تعيينه رئيساً للوزارة فى ٢١ سبتمبر سنة ١٨٧٩ .

توالت الضربات المفاجئة على المواقع الوطنية فأصيبت صفوفها بذعر شل قدرتها على المبادرة والعمل ، وأخذت فى التفرق والانحسار أمام المد الرجعى، وتسلل اليأس إلى بعض القلوب وانطفأت فيها شعلة الأمل فى إصلاح البلاد فاستكانت وضعفت . وواجهت الحركة الوطنية فى مصر أحرج لحظاتها وهى تقف على مفترق طريقين : طريق الخضوع والاستسلام للقوى الرجعية وطلائع الاستعمار يستعبدون الأمة ، ويمعنون فى إذلالها ، ويمهدون لاستعمار أوروبى محقق . والثانى ، طريق المقاومة والكفاح فى سبيل الحرية ومن أجل حياة أفضل تحت النظام الدستورى .

وخلال قرون عديدة كانت البلاد قد جربت الطريق الأول فقاست منه أهوال العذاب والذل ، ثم جربت الثانى على نطاق ضيق بين الطبقة المستنيرة أيام إسماعيل ، فاستطاعت أن تقف فى وجه الاستبداد ، وأن تعزل رأس الطغيان ، وتحصل على بعض الحقوق الوطنية التى فقدتها اليوم فى انحسار الهزيمة . وكان لابد من ظهور عناصر قوية تتسلم القيادة ، وتعيد تنظيم الصفوف المتفرقة ، وتطلع بخطة جديدة تبعث الاطمئنان فى القلوب الفزعة ، وتملك من السيطرة على النفوس ومقومات الزعامة ما تستطيع به أن تقود البلاد فى مقاومتها ضد مد الطغيان وكفاحها فى سبيل الحياة الدستورية .

« والبارودى » فى ذلك كله يترك الذين يأخذون الأمور بظواهرها

---

(١) بلنت : التاريخ السرى ص ٩٦ ؛ والرافعى : الثورة العربية ص ٣٩ .

وإطارها الخارجى فى مظنة من أمره ، فقد أخذ عليه بعض المؤرخين أنه خرج على الاتفاق الذى عقده شريف مع وزرائه بعد استقالتهم (أغسطس سنة ١٨٧٩) بألا يشتركوا فى وزارة جديدة إلا إذا وافق الخديو على البرنامج الدستورى الذى أعده شريف وأن يكون هو رئيس الوزراء ،ومع ذلك انضم البارودى وزيراً للأوقاف والمعارف فى المجلس العالى الذى شكله الخديو برئاسته ، ثم اشترك فى وزارة رياض وزيراً للأوقاف ، وهو يعلم نزعته الاستبدادية وبغضه للشورى وخضوعه المزرى للنفوذ الأوروبى ، ولكأنى بهم يتهمون الرجل بالانضمام إلى صفوف الرجعية وبالانحراف عن المبادئ الدستورية وتأييد الحكم المطلق !

ولكننا إذا فحصنا الحقائق التاريخية من حياة البارودى الأولى والأخيرة وتتبعنا الدلائل السابقة والشواهد اللاحقة من أعماله فى الحركة الوطنية ، لنأينا به عن كل مظنة ، وابتعدنا عن كل مأخذ بسبب اشتراكه فى الوزارتين. فالبارودى لم يقبل الوزارة ليكون من أنصار توفيق ، وهو يعرفه ظلاً للاستعمار ضعيف الشخصية ، ولو أنه كان من أنصاره لما كان أول مناد بخلعه ولما ناله بعد ذلك الضرر والأذى من جراء ثورته عليه ، ولم يدخل وزارة رياض انحرافا عن المبادىء الدستورية وهو من أشد المناصرين لها حماساً فى حزب شريف « الحزب الدستورى[1] » ، وفى « الحزب الوطنى الحر » ، وفى « المحفل الماسونى » ، ومن أكبر الدعاة بين الناس فى شعره لمبادئها ، وكان الناس يتناقلون شعره فيها وتردده المجالس وينشد فى المنتديات حتى أصبح بحق « شاعر الشورى » . وفوق ذلك كله فالبارودى يعتبر أبا للدستور فى مصر القرن التاسع عشر ، فالدستور الذى وضعه بعد ذلك وهو رئيس للوزراء عام ١٨٨٢ يعد أكمل الدساتير فى مصر ما قبل ثورة ١٩٥٢ ، ولم تنل البلاد فى ماضيها دستوراً أكثر تحقيقاً للآمال منه . ومع ذلك فهو فى الوزارتين « قد اشترط للاشتراك فيهما أن

---

(١) بلنت : التاريخ السرى : ص ٩٩ — ١٠١ .

يحتفظ بالاستقلال فى كل مايخص وزارته[1] » ، ولم يكن منصب الوزارة غاية آماله فلما بلغه عض عليه بالنواجز ونسى فى سبيله مبادئه ، فآمال البارودى كانت فيما وراء الوزارة ، بل كانت كما يقول معاصروه « أوسع من رحاب مصر[2] » .

ولعل الذين أخذوا على البارودى موقفه هذا وقعوا تحت تأثير « ولاء » البارودى لحزب شريف الدستورى وقد كان من أنصاره ، وأغلب الظن أن الولاء نفسه — لو علموا — هو الذى دفع البارودى إلى أن يخرج على اتفاق شريف ، وأن يقبل العمل فى مجلس الخديو وفى وزارة رياض ، ولكنه ولاء لجماعة وطنية أخرى تعمل فى سرية وتكتم وهى « تنظيم الضباط بالجيش » .

تنظيم الضباط بالجيش :

نبتت البذور الأولى لحركة الضباط بالجيش فى حرب الحبشة (١٨٧٥ — ١٨٧٦) بين من أبقت عليهم المعارك من الضباط المصريين الصغار ، الذين عادوا وقلوبهم تفيض بالمرارة والألم وتركوا من خلفهم ألوف الضحايا من إخوانهم الجنود والضباط[3] ، أودت بهم القيادة الخرقاء وسوء التدبير ، وجبن قادة الحملة وجهلهم المطبق بفنون الحرب وإدارة المعارك ، وخيانة أركان الحرب الأمريكيين الموظفين بالجيش المصرى[4] . عادوا ليستقبلوا من أمامهم أولى الأمر فى القاهرة لا يبالون بكرامة الجيش الجريحة ولا بسمعته المهيضة ، ولا يذكرون الضحايا الذين ذهبوا ، أو يحاكمون الجبناء والخونة الذين تسببوا فى النكبة . واشتدت المرارة فى النفوس عندما كوفىء صانعو النكبة من القادة ـ وكلهم من الشراكسة والأتراك ـ بالرتب والنياشين والمناصب الرئيسية فى الجيش ، وحرم منها البقايا المتخلفة من وقود المعركة من

---

(١) بلنت : التاريخ السرى ص ١٠٦ (٢) يعقوب صروف : المقتطف فى ١٩٠٥/١/١ ؛ وجورجى زيدان تاريخ مشاهير الشرق ج ٢ ص ٣٠١ .

(٣) بلغت ضحايا هذه الحرب ٨٥٠٠ من الجنود المصريين، وبلغ ما أنفق عليها ٣ملايين من الجنيهات.

(٤) تفاصيل مادار فى هذه الحرب أنظر: أحمد عرابى: كشف الستار عن سر الأسرار جا ص٣٠ـ٤٣.

الضباط المصريين [١] . وثارت الخواطر الخفية وكانت ضاربة أطنابها بين الجهادية فى أواسط عهد إسماعيل [٢]، وبدأت النواة الأولى للحركة الثورية وأخذ الضباط المصريون يلتفون حولها .

ووجدت الحركة متنفساً لها فى حرب الصرب والبلقان حين خرجت الحملة المصرية تساعد تركيا فى قتالها مع الروسيا عام ١٨٧٨ . وعلى أرض المعركة يقل الحرص ويذهب الخوف ، وتظهر مكنونات الصدور وتتجاوب النفوس المتفقة فى التفكير والمشرب ، وفى الحرب يتحدث الجنود بصراحة وحرية ، ويناقشون مجريات الوطن دون قيود من خوف . وانطلقت المناقشات حول الوطن تنضح بالألم والأسى ، ملايين تنفق فى سفه وتبذير ، واقتصاد متهالك يدفع البلاد إلى هاوية الإفلاس ، واستبداد يدفع الناس إلى الذلة ، وظلم يحرم عليهم حتى مجرد التفكير فى الحرية ، وقسوة فى جمع الأموال لسداد الديون الأجنبية ، ونفوذ أوروبى يجثو الخديو أمامه خوفا وهلعاً . وتعود الحملة ويكثر المنضمون إلى تنظيم ضباط الجيش .

واستطاعت الحركة أن تثبت وجودها كقوة سياسية حين عبأت المشاعر وسيطرت بالتوجيه على نحو ٦٠٠ ضابط ولفيف من طلبة الكلية الحربية ونحو ألفين من الجنود ، فقاموا بالمظاهرة العسكرية التى أسقطت الوزارة المختلطة [٣]. ولم يكن ليغيب عن فطنة الدكتاتور الحذر إسماعيل وقتذاك أن المظاهرة لا يمكن أن تكون وليدة المصادفة ، بل عرف بخبرته أنه لابد وأن يكون من ورائها حركة منظمة ، فأمر بأن يطلق آلاى حرسه النار على المتظاهرين ، ولكن قائد الحرس — وكان من أنصار حركة الضباط — أمر الجنود بإطلاق أسلحتهم فى الفضاء [٤] . وساورت إسماعيل الشكوك فأخذ فى القبض على كل من يظنه

---

(١) كان من القائدين أحمد عرابى وعلى الروبى وفرج عبد العال . (٢) مصر للمصريين ج ٤ ص ٥ .
(٣) كشف الستار ج ١ ص ٤٥ ؛ تفاصيل المظاهرة فى عصر اسماعيل ج ٢ ص ١٧٠ — ١٧٣ .
(٤) البحر الزاخر ج ١ ص ٢٠٢ .

من زعمائها ، وحامت الشبهات حول أحمد عرابى وعلى الروبى ومحمد النادى[(١)] ، وجىء بهم أمام مأمور ضبطية القاهرة (المحافظ) محمود سامى البارودى « فآنسوا فيه تأففا من الظلم والاستبداد ، وميلا إلى العدل والدستور[(٢)] » . وترك لقاء البارودى فى نفوس زعماء الحركة الكثير من الثقة به والاطمئنان إليه ، واتصل به على الروبى سرا[(٣)] فوجده على الطريق معهم بفكره ، وكان البارودى قد سمع الكثير عن التنظيم فى حرب البلقان ، وفتح صدره للضباط الصغار يناقشون معه أمور الوطن المضطربة ويمدهم بروح منه ، ويؤمن بالعمل على تحرير الوطن من الظلم والاستبداد الأجنبى ، ويأنف من التعصب للجنس ، ويسعى إلى أن يسود البلاد حكم دستورى يحقق العدالة للجميع .[(٤)]

اجتمع قادة التنظيم بالبارودى ، وكاشفوه بأمرهم وبتقديرهم لعدله وعدم تعصبه ، وأرادوه أن يرشدهم برأيه ، وأن يهديهم بوطنيته الصادقة ، وأن يشير عليهم كلما حزبهم أمر ، وله منهم السمع والطاعة ، ولهم عليه النصح والحماية فقبل[(٥)] . ورأى البارودى أن إبقاء علاقته بهم سرا أدعى لنجاح الحركة حتى يكون ، دون أن يعرف أحد ، لسانهم المعبر عن رأيهم والمدافع عنهم إن أصابهم ضرر ، والمؤيد لمطالبهم لدى الحكومة والمنذر لهم إن أحاق بهم خطر[(٦)] ، وتعاهدوا وأقسموا على الولاء والوفاء . كان « ولاء » البارودى إذن لحركة الجيش وليس لمحمد شريف وحزبه ، ومن أجل هذا الولاء قبل أن يعمل مع توفيق ورياض « كضرب من المصانعة كيلا تظهر نواياه الحقيقية وحتى تظل مستورة إلى حين[(٧)] » ، وحتى يمنع عن الحركة الضرر ما أستطاع ، ولينذر زعماءها بالخطر حين يلوح فى الأفق ، « فكان ينقل إلى عرابى ورفاقه من قرارات مجلس الوزراء ما يتعلق بهم ليحذروه أو يتهيئوا للقائه[(٨)] » .

---

(١) كشف الستار جـ١ ص ٤٦ .
(٢) المصدر السابق
(٣) بلنت : التاريخ السرى ص ١٠١ .
(٤) مذكرات الأسرة الخاصة .
(٥) مذكرات الأسرة الخاصة .
(٦) بلنت : التاريخ السرى ص ١٠٥ .
(٧) شوقى ضيف : البارودى ص ٧٢ .
(٨) مشاهير الشرق جـ ٢ ص ٣٠١ .

ويغلب على الظن أن البارودى كان همزة الوصل فى اللقاء بين زعماء حركة الضباط وأعيان البلاد وكبرائها والعلماء ، ذلك اللقاء الذى أسفر عنه تكوين جمعية سرية أطلقت على نفسها « الحزب الوطنى المصرى » واتخذ الحزب مقره فى « حلوان » بعيداً عن العيون والرقباء[١] . وكان فى مقدمة أعضائه محمود سامى البارودى وأحمد عرابى وعبد العال حلمى وعلى فهمى ومحمود فهمى وحسين الشريعى وسليمان أباظة[٢] ، وأصدر الحزب أولى نشراته السياسية فى ٤ نوفمبر ١٨٧٩[٣] ثم توالت النشرات تكشف عن مساوىء الحكم الذى نكبت به البلاد على عهد توفيق ، والأغلال الجديدة التى أضافها رياض حول عنق الأمة ، وهاجمت عودة الرقابة الثنائية ، وكثرة المستشارين والموظفين الأجانب الذين فرضوا على الدواوين الحكومية بمرتبات ضخمة، وتعدد المؤسسات وبنوك التسليف والرهونات الأوروبية التى استنزفت موارد الشعب ومصادر أرزاقه ، وبينت للرأى العام مدى الخسارة المادية والوطنية التى منيت بها مصر من تنازل الحكومة عن أرباح قناة السويس ، ثم هاجمت بعنف طغيان رياض واستبداده وخنقه حرية الرأى ومصادرته الصحافة ، ورسمت للحكومة الخطة الوطنية التى يجب أن تنتهجها لصالح الوطن[٤] .

استقبل الشعب منشورات الحزب الوطنى بالتأييد والتعضيد ، وقد بعثت فى نفوس المواطنين الكراهية الكامنة لحكم رياض وخديويه توفيق ، وأظهرت للعالم الخارجى ـ وكانت تطبعها الصحف الفرنسية ـ ما تعانيه مصر من النفوذ الأجنبى وعملائه ، وأصابت توفيقاً ورياضاً بالرعب والفزع فحاولا معرفة أعضاء الحزب لينزلا بهم البطش والنقمة ، ولكن جهودهما ذهبت سدى . وتغلغلت حركة الضباط فى مراكز الثقل كلها : فى الجيش ، وفى الوزارة ، وفى القصر[٥] ،

---

(١) كشف الستار جـ ١ ص ١٤٨ ـ ١٤٩ . (٢) جون نينه : عرابى باشا ص ٣٧ — ٣٩ .

(٣) طبع من المنشور ٢٠ الف نسخة أنظر : المصدر السابق .

(٤) مصر للمصريين جـ ٤ ص ٧٩ ؛ وكشف الستار جـ ١ ص ١٤٨ — ١٤٩.

(٥) كان من زعمائها على فهمى وهو قائد الحرس بالقصر .

وفى المعارضة[١] ، وأصبحت فى موقف يخول لها حرية العمل والقدرة على المبادرة واختيار الوقت المناسب للمعركة الفاصلة مع الرجعية وعملاء الاستعمار .

وشغلت السياسة وحركة الكفاح السرى شاعرنا البارودى ، فلم يمنح الشعر والأدب شيئاً جديداً يسجل مجريات الأحداث ، اللهم إلا وصاياه التى أكثر منها فى هذه الفترة ، فهو يدعو فى شعره إلى الاحتراس والحذر وعدم الإندفاع فى الثقة بالناس ، ولعله كان يرمى إلى أن ينبه أعضاء الحركة السرية فى الجيش وفى الحزب الوطنى . ومن هذه الوصايا قوله :

بَلَوتُ الناسَ واستخبرتُ عنهم ... صروفَ الدهرِ آناً بعد آنِ
فما أَبصرتُ غيرَ أخى كِذَابٍ ... خلوبِ الودِّ مصنوعِ الحَنانِ
يصرِّح بالعداوة وهْوَ ناءٍ ... ويمذُق فى المحبَة وهْوَ دَانٍ[٢]
لَه فى كلِّ جارحَةٍ لسَانٌ ... يَدُور به علَى حُكْمِ الزَّمانِ
فلا تأْمنْ على نجواكَ صدْراً ... فرُبَّ خديعةٍ تحتَ الأَمانِ
وَلاَ يغرُرْكَ قولٌ دونَ فعْلٍ ... فإنّ الحُسْنَ قبحٌ فى الجَبَانِ
وخلِّ النَّاسَ عنكَ فليسَ فيهم ... سليمُ القلب عندَ الإمتحَانِ
تَشَابهتِ الأَسافلُ بالأَعالى ... فَما تدْرِى الهَجينَ من الهِجَانِ[٣]

أما فى وزارة الأوقاف ، فكان البارودى نشطاً لا يكف عن العمل ، « فقد نقح قوانينها وجعلها على قواعد راسخة سليمة ، وسد أبواب الخلل التى كانت الوزارة عرضة له[٤] » . ونهض بمشروعات كثيرة للإصلاح أقام بها العمل فى

---

(١) المقصود بالمعارضة الحزب الوطنى بحلوان لأنه يعارض حكم رياض .

(٢) يمذق فى المحبة : لا يخلص الود ويشوبه بكدر .

(٣) فى المخطوطة (ج) فما يدرى . والهجين : الذى أبوه عربى وأمه أمة؛ والهجان من كل شىء خياره وخالصه؛ وهذه الأبيات لم يسبق نشرها وهى من الجزء المخطوط من الديوان من قصيدة عدد أبياتها ٣٨ بيتا؛ المخطوطة (س) ص ٢٧٥ — ٢٧٦ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٢٨١ — ٢٨٢ .

(٤) مقدمة مراثى الشعراء ص ١٦ .

الوزارة على جادة الطريق السليمة ، وكون لجنة من العلماء والمهندسين والمؤرخين وناط بهم البحث عن الأوقاف المجهولة مستعينين بكتب التاريخ وحجج الوقف الموجودة بالديوان ، ورد بذلك للوزارة من الأوقاف الضائعة والمغتصبة ما لا حصر له ، وأنشأ الكثير من المساجد والمساكن ، وجمع الكتب والمخطوطات الموقوفة المتفرقة فى المساجد ووضعها فى مكان واحد ، لحفظ هذا التراث من الضياع ، ولما أتم « على مبارك » إنشاء « دار الكتب » كانت هذه المجموعة الضخمة النادرة من كتب الأوقاف أكبر المجموعات التى نقلت إليها[١] . واهتم البارودى بالآثار العربية فعين لها لجنة من ذوى الخبرة فجمعوا الكثير منها ووضعوها فى « مسجد الحاكم » حتى تبنى لها دار خاصة[٢] .

واستطاع البارودى فى هذه الفترة أن يخرج صديقه محمد عبده من العزلة التى فرضت عليه بعد أن حددت إقامته فى قريته عقب نفى جمال الدين الأفغانى ، وأن يزكيه لدى رياض كى يتولى تحرير « الوقائع المصرية » (يونيو ١٨٨٠) . واستعان محمد عبده بزملائه عبد الكريم سلمان وإبرهيم الهلباوى وسعد زغلول من مدرسة جمال الدين فبدأت بهم الوقائع والصحافة المصرية عهداً جديداً[٣] ، وتحولت الوقائع إلى جريدة يومية تدلى برأيها فى الإصلاح الداخلى فى شىء من الحرية والجرأة .

وأسهم البارودى فى تشجيع التعليم والعمل الخيرى ، فتولى منصب نائب رئيس « جمعية المقاصد الخيرية » بعد إنشائها عام ١٨٨٠ ، وأيدها بماله ونفوذه لتؤدى رسالتها . وكانت هذه الجمعية من أولى الجمعيات الخيرية التى أنشأت المدارس

---

(١) مقدمة مرائى الشعراء ص ١٦ — ١٧ ؛ وتاريخ مشاهير الشرق ج ٢ ص ٣٠٠ ؛ ومجلة المنار مجلد ٧ جزء ٢٠ فى ١٢/٢٣ ١٩٠٤ (٢) مقدمة مرائى الشعراء ص ١٧ .

(٣) تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ١٣٧ .

والمستشفيات للتعليم وعلاج الفقراء[١] ، ثم تحولت إلى منتــدى أدبى وندوة سياسية تناقش فيها أمور الأدب وشئون السياسة ، وكان لندواتها الأسبوعية وخطبائها من تلاميذ جمال الدين فضل كبير فى التوعية السياسية حتى صارت فيما بعد أكبر منتدى سياسى فى البلاد[٢] . وفى حفل افتتاح الجمعية ألقيت قصيدة العلم التى نظمها البارودى لهذه المناسبة[٣] ، يحث فيها على طلب العلم ، ويظهر فضل التعليم فى كشف أسرار الحياة ، وكيف توصل قدماء المصريين بالعلم إلى حضارتهم الشامخة التى ظلت تصارع الزمن بأهراماتها وأبى الهول رمزاً لعلمها فتتغلب عليه ، وفيها يقول :

بِقُوة العلْم تقوى شوكةُ الأمم ... فالحُـكمُ فى الدَّهر منسوبٌ إلى القَلَمِ [٤]

فاعكُف علَى العِلْم تبلغْ شأْوَ منزْلةٍ ... فى الفضلِ محفوفَةٍ بالعزِّ والـكَرَمِ

لَولاَ مدَاومةَ الأَفكارِ مَاظَهرتْ ... خزائنُ الأرض بين السَّهلِ والعَلَمِ

فانظر إلى الهَرمين المَاثلين تَجد ... غرائباً لا تَراهَا النَّفسُ فى الحُلُمِ

تضمنَّنَا حِكَماً بادت مصَادرُهَا ... لـكنَّهَا بقِيت نقْشاً على وَضَمِ

ولاحَ بينهما « بلْهيبُ » متَّجِهاً ... للشَّرق يلحظُ مجْرى النِّيل منْ أَمَمِ [٥]

رمزٌ يدلُّ على أنّ العـُلومَ إذَا ... عَمَّت بمصرَ نزتْ مِنْ وهْدَةِ القِدَمِ

---

(١) أسست هذه الجمعية على غرار جمعية عبـدالله النـديم الخيرية الإسـلاميـة بالإسكندرية وكان عبـاس حلمى ولى العهد رئيسا فخريا لها ؛ أنظر : الرافعى : الثورة العرابية ص ٢٢٢ ؛ وعبد الله النـديم ومذكراته السياسية ص ١٠١ .

(٢) جورجى زيدان: تاريخ الآداب العربية ج٤ ص٨٦ ؛ والرافعى: الثورة العربية ص٢٢٢ـ٢٢٥ .

(٣) ألقاها خطيب الجمعية الرسمى الشيخ محمد عبـده ، أنظر : د . على الحديدى : عبد الله النـديم ص١٧٦ ؛ ومذكرات الأسرة الخاصة.

(٤) هذا البيت نشر بمجلة المنار مجلد ٧ جزء ٢١ فى ١٩٠٥/١/٧ . (٥) بلهيب : أبو الهول.

ثم يهيب بقومه أن يكثروا من إنشاء المدارس ، فهى مفتاح الرقى للأمة تصنع الشاعر والكاتب والحاسب والحقوقى والخطيب والطبيب فيصلحون فساد البلاد ، ويقيمون ركن العدل فيها ، وفى ذلك يقول :

فَاسْتيقظُوا يا بنى الأوطانِ وانتَصِبوا | للعلم ، فَهْو مَدارُ العدْلِ فى الْأُممِ
شِيدُوا المدارسَ فهْى الغرسُ إن بَسقَتْ | أفنانُه أثمرت غضاً من النِّعَمِ
مَغنى علُومٍ ترى الأبناءَ عاكفةً | على الدُّروس به كالطَّير فى الحَرَمِ [(١)]
فكمْ ترى بينهم منْ شاعرٍ لَسِنٍ | أو كاتبٍ فَطِنٍ أوْ حاسِبٍ فَهِمِ
ونابغٍ نالَ من علْم الحُقُوق بها | مزيةً ألبستهُ خِلْعَةَ الحِكَمِ
بلْ كمْ خطيبٍ شَفى نفساً بموْعظةٍ | وكم طبيبٍ شفَى جسماً من السقَّمِ
دمْ بهم تصلُح الدنياَ إذَا فسدَت | ويفرُقُ العدلُ بين الذئب والغَنَمِ
وَكيف يثْبتُ ركنُ العدْل فى بلدٍ | لم ينتَصِبْ بينَهَا للعِلْمِ منْ عَلَمِ [(٢)] ؟

---

(١) فى المخطوطة (ج) ترى الأبناء؛ وهذا البيت والبيت الذى قبله نشرا بمجلة المنار

(٢) هذه الأبيات من قصيدة بالجزء المخطوط من الديوان وهى ٣٧ بيتا ؛ المخطوطة (س)ص ٢٢٤ — ٢٢٥ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٢٢٩ — ٢٣٠ ، ولم يسبق نشر أكثر القصيدة . ونشرت مجلة المنار فى المجلد ٧ جزء ٢١ فى ١٩٠٥/١/٧ عشرة أبيات ، سبعة أبيات من القصيدة التى بالديوان المخطوط ، وثلاثة أبيات آخر لم تذكر فى المخطوطتين وهى :

أنى يفوز لنا قدح بفائدة | ونحن فى زاخر بالجهل ملتطم
لا تجعلوا اليأس عذراً فهو داعية | إلى المذلة بعد العز والشمم
لو كان يعلم حى أن خيبته | من زلة الرأى لم يعتب على القسم

ويدل ذلك على أن صاحب المنار لم يأخذها من الديوان بل من القصيدة المتداولة بين الناس منذ ألقيت فى حفل « جمعية المقاصد الخيرية » ، والمعروف أن البارودى فى أواخر أيامه كان يغير ويبدل ويحذف ويضيف فى شعره قبل أن يسجله بالديوان .

الفصل الرابع

دور البارودى فى الثورة

فما أنا ممّن تقبلُ الضّيمَ نفسهُ ... ويرضَى بما يرضى به كلُّ مائِقِ
ولكننى ناديتُ بالعدلِ طالباً ... رضا الله ، واستنهضتُ أهلَ الحقائقِ
أمرتُ بمعروفٍ، وأنكرتُ منكراً ... وذلك حكمُ الله فى رقابِ الخلائق
فإن كان عِصياناً قيامى ، فإننى ... أردْتُ بعصيانى إطاعةَ خالقى
وهل دعوةُ الشورى علىَّ غضاضةٌ ... وفيها لمَنْ يبْغى الهُدَى كلُّ فارقِ
بلى ، إنها فروضٌ من اللهِ واجبٌ ... على كلِّ حيٍّ من مَسوقٍ وسائِقِ

* * *

فلما استمرَّ الظلمُ قامت عصابةٌ ... من الجندِ تَسْعَى تحتَ ظلِّ الخوافِقِ
وشايعَهم أهلُ البلادِ ، فأقبلُوا ... إليهم سراعاً بين آتٍ ولاحِقِ
فهذَا هو الحقُّ المبينُ ، فلا تسل ... سِوَاىَ ، فإنى عالمٌ بالحقائِقِ

* * *

دَعَوْنى إلى الجُلَّى ، فقمتُ مبادراً ... وإنى إلى أمثَالِ تلك لسابِقُ
إذا المرء لم ينهَضْ بقائم سَيْفهِ ... فياليتَ شِعْرى كيفَ تُحْمَى الحقَائِقُ

البارودى

حتمية الثورة

الأسباب المباشرة للثورة :

نهج رياض فى حكم الأمة النهج الذى تعلمه من أستاذه إسماعيل والذى يتفق مع طبيعته الظالمة الغشوم ، ويرضى به أولياء نعمته . استبداد مطلق ، وعنجهية « الباشوات » القدامى الذين ينظرون إلى الشعب بعين الزراية والاحتقار ولا يعترفون بوجوده أو حقه فى الرقابة على شئون الحكومة ، وقسوة فى تحصيل الأموال التى فرضت ظلماً على المواطنين لمقابلة التسويات الأجنبية ، وسخرة مضروبة على الفلاحين للعمل فى « أبعاديات » ذوى السلطان والجاه من الحكام والأمراء ، وضرب على الأمة بيد من البوليس[(١)] ، ونفى وتشريد لمن يرفع صوته بالمعارضة أو الشكوى من الظلم[(٢)] ، وسجن لمجرد الشبهة وتعذيب لمن يؤخذ بالظنة ، وضياع لأموال المواطنين بإلغاء قانون المقابلة[(٣)] ، واستخفاف بآراء العلماء والكبراء والمثقفين ، وإرهاب للجمعيات الوطنية التى تصدر منشورات ضد سياسة الحكومة[(٤)] ، وغلق وتعطيل للصحف التى تخط قلما فى نقد رياض أو المس بالمصالح الأجنبية[(٥)] ، وفصل للموظفين المصريين بغير حساب ، وتعيين المستشارين والخبراء الأجانب بمرتبات خيالية ، وإنقاص لعدد الجيش وإحالة ضباطه إلى الاستيداع ، وإرخاء العنان للضباط الجراكسة يقسمون الجيش إلى طبقتى السادة والعبيد .

---

(١) بلنت : التاريخ السرى ص ٩٧ .

(٢) بلغ عدد المنفيين إلى السودان فى وزارة رياض ٩١٢ حسب إحصاء الجريدة الرسمية الفرنسية المونيتور إجبسيان فى ١٨٨١/١٠/٦ .

(٣) قانون المقابلة بالتفصيل فى الثورة العرابية للرافعى ص ٥٤ ــ ٥٧ ، وقد ضاع على المواطنين ١٠ ملايين من الجنيهات دفعوها ضرائب لأطيانهم مقدماً .

(٤) الحزب الوطنى بحلوان ومصر الفتاة بالاسكندرية .

(٥) أغلق رياض صحف : مرآة الشرق ، مصر ، التجارة ، مصر الفتاة ، الريفورم ، المساجير ، إيجبسيانو ؛ وأنذر وعطل فترة صحف : الاسكندرية ، المحروسة الفاروالسكندرى ؛ ومنع من دخول البلاد صحف : النحلة ، أبو نضارة ، أبو صفارة ، القاهرة ، الشرق .

وفى مجال المصالح الأجنبية كان رياض العميل المخلص ، جربوه فى لجنة التحقيق العليا عام ١٨٧٨ فوفى لهم ورعى مصالحهم ، واختاروه فى الوزارة المختلطة فكان رجلهم الأمين [١] . وحين صار الأمر إليه تسابق هو وتوفيق فى التقرب إلى القوة التى تسندهما ضد الشعب ، وأضافا حول عنق الوطن أغلالا جديدة من سلطان التدخل الأجنبى ، ودعيا الرقابة الثنائية إلى العودة والتحكم فى البلاد ، وباعا أرباح مصر فى قناة السويس فأعطيا للصوص القناة كل حقوق مصر المادية فيها ، ووافقا على تأليف لجنة دولية تتدخل فى شئون مصر وتضع نظاماً مالياً لتسوية الديون العامة ، فأصدرت قانون التصفية الذى يعتبر مثلا للإجحاف بحقوق المواطنين وصورة صارخة لمحاباة الدائنين الأجانب . ظلمات فى بحر لجى من الظلم يعيش فى أعماقها الشعب بكافة طبقاته وقواه العاملة ، وتتجمع فى موجات من الكراهية والغضب حتى يبلغ السيل الزبى ، وتصل الأرواح إلى التراقى منذرة بتفجير شعبى تخرج به الأمة إلى فجر جديد ! !

وكانت القداحة التى أورت شرارة الضوء لهذا الفجر الجديد هى الفروق الطبقية والتعصب الجنسى التى أخذت تتحكم فى مقدرات الضباط والجيش ، ويقف على قمتها عثمان رفقى وزير الحربية الجركسى . فقد كان موغلا فى التعصب للضباط الجراكسة والأرناءود والأتراك ، يمنحهم الترقيات ويضع زمام سلطة الجيش فى أيديهم ، على حين يلقى الضباط المصريون منه أسوأ أنواع المعاملة والزراية والإهمال . لم يقتصر على اضطهادهم والوقوف فى سبيل ترقيتهم بل اتخذهم هدفاً لأشد ضروب العنت والإرهاق ، فعزل منهم الكثير وسخر الجنود وضباطهم فى حفر الترع وفى الأعمال الزراعية بأراضى الخديو والأمراء ، وأمعن فى تعصبه حتى كاد يصدر قانوناً يجعل حرمان الضباط المصريين من الترقى أمراً مشروعاً ويقصره على بنى جنسه من الجراكسة .

وبدأت الثورة تجتاح قلوب الضباط المصريين جميعا وكان معظمهم قد انضموا الحركة

---

(١) تألفت فى يناير ١٨٧٨ ، وكان تعيين رياض كطلب مندوبى الدول الاجنبية .

الضباط[1] . واجتمع زملاء التنظيم وقرروا العمل علانية لوقف الظلم الذى حاق بهم وأظل البلاد ، « فوافقهم على طلب الإنصاف ، محمود باشا سامى ناظر الأوقاف ، وهو منضم إليهم فى أصل الاتحاد ، ويعد واحداً من الأجناد ، فجعلوه مرجع مشورتهم ومظهر سريرتهم[2] » .

وأصبح التنظيم وهو يعبر مرحلة التحول هذه فى حاجة ماسة إلى اختيار زعيم يقود العمل العلنى ضد الطغيان ، ولعل البارودى لو أراد هذه الزعامة لألقى الجميع إليه بسيوفهم ومقاليد أمرهم ، ولكنه رأى بثاقب فكره ألا يندفع فيعلن عن انضمامه إلى الحركة ، أو يقود العمل العلنى بنفسه ، وآثر أن تظل صلته بها سرا ، ودوره فيها دور المستشار والناصح وموضع السر الأمين ، فذلك أجدى لها وأضمن لسير العمل فى طريق النجاح . أو لعله تنحى عن هذه الزعامة « لأحمد عرابى » وهو يراه أحق منه بقيادة العمل الذى كرس له سنوات عديدة من عمره ، وقد تجمع حوله إخوانه الضباط وسيطر عليهم بجرأته وقوة حجته ، وهفت إليه قلوبهم لأنه واحد منهم أنبتته القرية المصرية وسقاه ماء النيل فيحس آلامهم ويلمس مشكلاتهم ؛ وبايع الضباط « أحمد عرابى » برئاسة الحركة وزعامتها وأقسموا له يمين الولاء[3] على السيف والمصحف[4] .

وبقى البارودى مستشار الحركة ولسانها فى مجلس الوزراء ، ولئن كان وجوده فى مجلس الوزراء والحركة ما زالت سراً غير مذاع ضرورة ملحة ، فوجوده فيها بعد أن تعلن عن نفسها وتصبح هدفا ظاهراً لمؤامرات الخديو ورياض وعثمان رفقى وطلائع الاستعمار — حتم لازم تقتضيه حمايتها والوقوف بجانب مطالبها .

(١) مصر للمصريين ج ٤ ص ٨٤. وكان من أعضاء التنظيم السرى : أحمد عرابى ، عبد العال حلمى ، على فهمى ، على الروبى ، محمد النادى ، محمود فهمى ، محمد عبيد ، أحمد عبد الغفار ، ألفى يوسف ، خضر خضر ، على عيسى ، أحمد فرج ، يوسف فهمى وغيرهم ؛ أنظر محاكمات زعماء الثورة العرابية : مصر للمصريين ج ٧ ، ٨ ، ٩ .

(٢) عبد الله النديم ومذكراته السياسية ص٤٤ ؛ ومذكراتى فى نصف قرن ج ١ ص ١١٤ .

(٣) مصر للمصريين : محضر استجواب عبد العال حلمى ج ٧ ص ٦٠ .

(٤) كشف الستار ج ١ ص ١٥٤ .

وفى صبيحة ١٧ يناير ١٨٨١ تقدم أحمد عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى بمذكرة يطلبون فيها — نيابة عن ضباط الجيش — عزل عثمان رفقى وتعديل قوانين العسكرية بما يحقق العدل والمساواة . وأسفرت حركة الضباط بهذه المذكرة عن نفسها وأعلنت للأمة وجودها ، وتدخلت كقوة سياسية تستطيع التأثير فى تغيير مقاليد الحكم بعد أن رأت حتمية الثورة وأنها الحل الوحيد لعهد جديد . واجتمع مجلس الوزراء فى ٣١ يناير برئاسة الخديو ، وقرر توفيق ورياض وعثمان رفقى قتل الحركة فى مهدها باستئصال زعمائها ، ودبروا لثلاثتهم مؤامرة للقضاء عليهم بعد محاكمة صورية[1] . « ولكن السر وصل إلى الضباط فى الحال ، من محمود باشا سامى المفضال[2] » ، وأنهى إليهم بالمؤامرة المدبرة ليتخذوا للأمر عدته[3] . وأيقن عرابى ورفيقاه على فهمى وعبد العال حلمى أنها خطوات التنفيذ المكيدة حين دعاهم عثمان رفقى صباح أول فبراير إلى وزارة الجهادية بقصر النيل ، فأعدوا الخطة لمواجهتها وجعلوا اعتقالهم فى قصر النيل ساعة الصفر لتنفيذ العمل الجماعى فى الجيش . وما إن اعتقلوا حتى سارع آلاى الحرس بالإفراج عنهم ، وعاد بهم إلى ثكناته ، ثم انضم إليهم آلاى طرة وتجمعوا فى ساحة عابدين .

ورأى الخديو جيش مصر لأول مرة يواجهه بأسلحته ونيرانه ويوجه أول إنذار إليه ، فتملكه الذعر والاضطراب وظهرت طبيعة الجبن والخوف فيه ، وانتهز البارودى لحظة الضعف فى توفيق فأشار عليه بإجابة طلبات الجند ، وحاول تبرير مظاهرتهم العسكريه بقوله : « إنى أراهم مطيعين بدليل هتافهم باسم الخديو ، ولو أجيبت طلباتهم لانحسمت المسألة بسلام[4] » . واستسلم توفيق وانتدب البارودى لمفاوضة الزعماء . ومن الطبيعى أن تسفر المفاوضات ، والبارودى على رأسها ، عن التسليم بمطالب الجيش كاملة . فأقيل عثمان رفقى ، وألغى قانون

(١) البحر الزاخر جـ ١ ص ٢٠٦ — ٢٠٧ ؛ ومذكراتى فى نصف قرن جـ ١ ص ١١٣ .
(٢) عبد الله النديم ومذكراته السياسية ص ٤٥ . (٣) تاريخ مشاهير الشرق جـ ٢ ص ٣٠١ .
(٤) كشف الستار جـ ١ ص ١٦٥ ؛ ومذكراتى فى نصف جـ ١ ص ١١٤ .

العسكرية ، وأسندت وزارة الجهادية إلى محمود سامى البارودى . وكان النصر مؤزرا ، واستردت القوى الوطنية بهذا النصر شجاعتها فأيدته بروح منها ، ووقفت خلفه تناصره ، وأخذت تتطلع إلى عمل أكبر .. إلى ثورة تطيح بالفساد كله .

والحق الذى لامراء فيه أن حركة الجيش فى فبراير ١٨٨١ كانت لها دوافع وطنية أخرى غير استياء الضباط من القوانين العسكرية الجديدة ، فالاستياء وحده غير كاف لأن يحدث حركة وطنية أو يؤدى إلى ثورة ، ولو أنه وحده هو السبب وثار الضباط من أجله لكان تمردا فى الجيش ، ولبقيت حركة الضباط فتنة محلية ، ولوجدت الحكومة فى الضباط الشراكسة الذين ميزهم القانون الجديد ، وهم أكثر عدداً ، قوة يقمعون بها الفتنة ، ولاتخذت من الأمة سندا يساعدها على إخماد الحركة بإنصاف المستائين أو معاقبة المتمردين . ولكن الحكومة لم تجد فى الأمة ذلك السند وأعوزتها تلك القوة ، فقد اشتعلت الثورة فى الجيش كله ضباطاً وجنودا ، عدا قلة من الجراكسة وقفوا بلا حول ولا قوة ، وهبت الأمة على بكرة أبيها تؤيد الثوار وتتحفز للوثوب أمامهم إلى الثورة ، فقصرت يد الحكومة عن أن تنال زعماء الثورة بسوء . واتسعت حركة الضباط وخرجت عن محيط الجيش إلى الأمة ، وأصبحت حركة شعبية وجد الشعب فيها تحقيقاً لذاته وتعبيراً عن الثورة المكبوتة فى نفسه وانتقاضا على الحكومة التى يعتبرها مصدر آلامه ، ورأى فيها شعاع الأمل فى حياة أفضل من الهاوية التى يقبع فى قرارها .

كانت حركة فبراير عملا بطولياً فى نظر المصريين ، فقد كانوا يدينون بالطاعة للخديو ويهابون سلطانه ، ويرون فيه سيداً وضعه الخليفة ليطاع وتعنو له الوجوه . وما كان يتصور أحد أن يذهب إلى مقر سلطانه جندى فلاح نشأ فى قرية ومن ورائه جنود فلاحون مثله ، ويقدمون المطالب بيد والإنذار بيد أخرى ، فيظفرون بمطالبهم ويجبرون الخديو على الرضوخ لهم ثم ينقلبون راجعين لم يمسسهم العذاب الأليم . واعتبرت الأمة ما قام به عرابى ، وإن كان عسكرياً فى مظهره ، عملا وطنياً مجيداً

لأنه بعث الأمل فى أن تتبعه وثبات أخر تنقذ الشعب من الحضيض الذى يتردى فيه . وأحست الطبقات المتعلمة التى تتطلع إلى الحياة الدستورية أنها ليست قليلة الحيلة أمام الاستبداد كما كانت تتوهم ، فإن لديها فى الجيش قوة مادية متجمعة ، ولو أنها انضمت إليه ووحدت السعى إلى الهدف لوضعت حدا عاجلا لشقاء البلاد .

وكانت نظارة البارودى للجهادية مرحلة جديدة من مراحل تطور الجيش المصرى ، فقد اتجه به اتجاها وطنياً يرفع من روحه المعنوية والقومية والعسكرية ، وألغى التفرقة العنصرية التى حجبت المناصب العليا عن الضباط المصريين ، وأصدر اللوائح اللازمة لإصلاح حال الجيش وزيادة مرتبات الضباط والجنود ، وألف اللجان لتعديل النظم والقوانين العسكرية بمـــا يتفق وكرامة الجيش الوطنية والإنسانية . ويصف محمد عبده عمل البارودى فى هذه النظارة بعد توليته لها بقليل فيقول[1] : « بعد أن صدر الأمر الخديوى بتعيينه ناظراً للجهادية مع بقاء نظارة الأوقاف فى عهدته ، أخذ فى إزالة ما كان حاصلا فى نفوس رجال العسكرية واتخاذ الوسائل الفعالة لحفظ الأمن والنظام فى الجيش ، وكانت نظارة الجهادية أشد اختلالا من نظارة الأوقاف ، وفى حاجة ماسة إلى إصلاح عظيم لابد فيه من الروية والتدبير ، وطلب ذلك كله من أبوابه بالتدريج ، واثقاً من حسن نيته ومضاء عزيمته وثقة الجيش والأمة به . وفى هذه الفترة القصيرة تيسر له إصلاح كثير من شئونها ، وتحويل بعض أحوالها إلى ما هو أحسن » .

وفى مواجهة أزمة الثقة بين الخديو ورياض من جانب وزعماء الثورة من جانب آخر ، أقام البارودى حفلات ليجمعهم فيها علّ اللقاء يرد الثقة المفقودة ، أو يزيل بعض ما شاب النفوس إثر حركة فبراير[2] . أو لعله أراد ، وقد حام الشك حول اتصاله بزعماء الحركة ، أن يعمى على موقفه الحقيقى بخطاباته إلى

---

(١) من وثيقة نسب البارودى وتاريخ حياته التى كتبها محمد عبده بمساعدة البارودى نفسه أثناء توليته نظارة الجهادية ونشرت بالمنار مجلد ٧ جزء ٢٠ فى ٢٣ديسمبر ١٩٠٤ .

(٢) الرافعى: الثورة العرابية ص ١٠٥ .

الضباط فى هذه الحفلات وهى تدعو إلى طاعة الخديو والإخلاص للحكومة[١] .
ولكن جهوده من أجل السلام ذهبت سدى ، فقد أحس تحالف الرجعية والاستعمار من الخديو ورياض ومعتمد انجلترا بالخطر الذى يتهدد مصالحهم من التأييد الشعبى الذى نالته حركة الضباط فى طول البلاد وعرضها بعد حادثة قصر النيل ، « وأيقنوا أنها لم تعد عملا عسكريا محصورا فى دائرة المطالب العسكرية ، بل تحولت إلى حركة وطنية عامة يؤازرها المصريون جميعاً عسكريون وغير عسكرين[٢] » . ورأوا رأى العين مدى العطف والتأييد الذى نالته من جميع الطبقات وفى المقدمة العلماء والأعيان وعمد البلاد ومشايخ العربان ، وكما يقول محمد عبده : « إن الجند والأمة كليهما كانا فى جانب عرابى[٣] » .

وشرع كل طرف من ثالوث الخطر يفكر فى طريقة للخلاص من زعماء الثورة لكى يقضوا على المد الوطنى قبل أن يستفحل أمره ، وأخذوا يدبرون لهم المؤامرات[٤] تباعا. ولكن محاولاتهم ذهبت عبثاً، فقد كان صديقهم سامى البارودى وزير الحرب ينذرهم بكل مشرع جدى يدبر لهم فى الخفاء ، ويطلعهم على ما يصل إليه علمه من الدسائس التى تحاك ضدهم ، واستطاع أن يفعل ذلك بنجاح لأنه قلل من الاجتماع بعرابى ، وإن ظلا على اتصال دائم بواسطة على الروبى[٥] ، ومن ثم كان زعماء الضباط على علم بكل مكيدة تدبر لهم فيأخذون الحذر ويتربصون للمكيدة ويفضحون عملاءها قبل تنفيذها ، ويزداد سخط الشعب وكراهيته للمتآمرين ولا يملك الخديو ورياض إلا أن يحنيا رأسيهما للعاصفة . وضاقت نفس الخديو وعيل صبر رياض من فشل المؤامرات وكشف الدسائس[٦] .

---

(١) خطبته فى حفل نظارة الجهادية فى الوقائع ٧/٤/١٨٨١ .

(٢) مذكراتى فى نصف قرن ج ١ ص ١١٨ ؛ وبلنت : التاريخ السرى ص ١٠٤ ـ ١٠٨ .

(٣) تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٢١٥ . (٤) مذكراتى فى نصف قرن ج ١ ص ١١٧ .

(٥) بلنت : التاريخ السرى ص ١٠٥ ـ ١٠٩ .

(٦) بلغت المؤامرات كما عددها عرابى فى كشف الستار ج ١ ص ٢١٩ ـ ٢٢٩ ثلاث عشرة مؤامرة ؛ أنظر كذلك : مصر للمصريين ج ٧ ص ٦٩ .

استقالة البارودى من الجهادية :

كان موقف البارودى من حركة فبراير ودفاعه عن زعماء الحركة ومطالب الجيش فى مجلس الوزراء يثيران الشك فى نفس رياض فبث العيون والأرصاد من حوله ، حتى تأكد من العلاقة السرية بين البارودى وزعماء الحركة ومن نقله قرارات مجلس النظار إليهم[١] ، فدس له عند الخديو وظل به حتى « اعتقد توفيق قلباً وقالباً أن محمود سامى متحد اتحادا كليا مع زعماء الحركة[٢] » ، وأن بقاءه فى نظارة الجهادية مع ميله إلى عرابى سبب تطاول الضباط على السلطة العليا فى الدولة[٣] ، فناصبه ورياض العداء وتربصا به الشر وتلمسا له أسباب المضايقة حتى اضطر إلى الاستقالة فى ٢٢ أغسطس ١٨٨١ .

وكان البارودى قد اتفق مع زعماء الضباط أنه إذا لم يستطع دفع الضر عنهم قدم استقالته ، وعليهم أن يعدوا هذه الاستقالة إنذارا لهم يتوقعون بعده شرا مستطيراً[٤] . وقدم البارودى استقالته إلى الخديو بالإسكندرية[٥] ، وحين عاد إلى القاهرة أرسل إليه رياض مع خطاب قبول الاستقالة وكيل الداخلية[٦] ليبلغه قرار الحكومة بأن عليه فورا أن يترك القاهرة ويسافر إلى ضيعته ويظل بها محددة إقامته ، أو بمعنى آخر يعتكف سياسيا كيلا يتصل بأحد من الضباط أو يتصل به أحد منهم . ولازم وكيل الداخلية منزل البارودى وهو يعد نفسه للسفر ليشرف على تنفيذ القرار ، وجاء عرابى ومعه بعض الضباط إلى منزل البارودى ليتأكدوا من خبر استقالته ويعرفوا أسبابها ، فاعتذر عن عدم مقابلتهم ، وانصرفوا وهم يحسون بمخالب الرجعية والاستعمار توشك أن تنشب بأعناقهم ، ويرون فى

---

(١) مذكراتى فى نصف قرن ج ١ ص ١١٦ ؛ وتاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٢٠٣ — ٢٠٧ .

(٢) البحر الزاخر ج ١ ص ٢٠٨ .

(٣) تاريخ الأستاذ الإمام ج١ ص ٢١٣ .

(٤) بلنت : التاريخ السرى ص ١٠٩ .

(٥) مصر للمصريين . محضر استجواب محمود سامى البارودى ، ج ٧ ص ٦٩ — ٧٠ .

(٦) خليل يكن . أنظر المصدر السابق ؛ أحمد عرابى الزعيم المفترى عليه ص ٨٣ ؛ وانظر أيضا: التاريخ السرى ص ٣٦١ من حديث مع عرابى .

استقالة البارودى وعدم مقابلتهم نذر الشر الذى يكاد أن يحيط بهم [1] .

استقل البارودى القطار إلى ضيعته « بقرقيرة » [1] ، وذهب إليها ونفسه تتميز من الغيظ ، وقلبه يفيض بالكراهية والحقد على رياض ، ذلك النمام الذى كشف صلته بعرابى وصحبه ، وجرى بينه وبين الخديو بالوقيعة حتى أقاله فأصابه فى مقتلين : أصابه فى أمانيه الشخصية فتبدلت أحلاما ، وأصابه فى مهمته الوطنية فأصبحت حركة الضباط ولا سند لها فى معسكر الرجعية يحميها من المؤامرات ويرد عنها غائلة العدوان . وأفعم قلب البارودى بالمرارة وانفعلت نفسه بالألم من رياض فهرع إليه شيطان الشعر يدق له طبول الهجاء والانتقام ، ويعلن الحرب عليه ، ويصب جام الهجاء على رأسه ، ويصوره بألوان من خلقه ومن طبعه : شذوذ وفجور ، ودمامة وغرور ، وغدر وصغار ، وأصل من الأشرار ، ونسب مطعون فيه ، ومخاز ورثها عن جده وأبيه . فخرجت الصورة بشعة تشمئز منها النفس وينحنى أمامها هجاءو العربية جميعاً ويعترفون لها بالتفوق ويحملونها إلى متحف التاريخ لتبقى كما يقول هو نفسه :

تبـلى العظامُ ويبقى ذكرُه أبداً ... فى كلِّ عصرٍ لهُ سجعٌ وترْنامُ

يبدأ البارودى « قصيدة الانتقام » بإعلانه القطيعة الأبدية لرياض ذلك الذى قوض أمانيه فجعلها أضغاث أحلام فيقول :

مَالِى بوُدِّكَ بعدَ اليوم إلْمامُ ... فاذهبْ فأنتَ لئيمُ العَهد نمَّامُ
قَد كنتُ أحسَبنى أدركتُ مأربةً ... من المُنى ، فإذَا ما خلتُ أحلامُ
هَيهاتَ منِّى الرضاَ من بعد تجربةٍ ... إنَّ المودةَ بينَ النَّاسِ أقسامُ
فَأطلُبُ لنفسكَ غيرى، إنَّنِى رجُلٌ ... يأبَى لىَ الغَدْرَ أخْوالٌ وأعمامُ

(١) انظر : مصر للمصريين ج ٧ ص ٧٠ .

(٢) مركز أجا دقهلية .

ثم يُمسك بمعول الهدم فيضرب به كيان رياض وجبروته فيقول :

هذا الَّذى تكرهُ الأبصارُ طلعتَهُ لحظها منه إيذاء وإيلامُ
فى وَجْهِه سِمَةٌ للغَدْر بيِّنَةٌ وبينَ جنبيه أحقادٌ وأَوْغَامُ[(١)]
له علَى الشَّر إقدامٌ ، وليس لَهُ إلاَّ عن الخَير والمعروف إحْجَامُ
قَد يَمَّتَهُ المَخَازى فهْى نَازِلةٌ منه بحَيثُ تَلاَقَى اللؤمُ والذَّامُ
ما إنْ أَصبتُ له خُلقًا فأحمَده فكلٌّ أخلاقِه للنفس آلاَمُ
فظٌّ غليظٌ مَقيتٌ ساقطٌ وَجَمٌ وغدٌ لئيمٌ ثقيلُ الظِّلِّ حَجَّامُ[(٢)]
جاءتْ به عجُزٌ ليستْ بطَاهِرَةٍ لها بمَدْرَجَةِ الفَحشَاء أَزلاَمُ[(٣)]
مُستيقظٌ للمخَازى غير أَنَّ لَهُ طرفًا عن العِرْض والأوتارِ نَوَّامُ
وكَيفَ يصلحُ أمر النَّاسِ فى بَلَدٍ حكامُه لِبنَاتِ اللَّهوِ خُدَّامُ
وهَاكَ ما أنتَ أهلٌ فى الهجاء له فالهَجْوُ فيك لنقْضِ الحَقِّ إبْرَامُ[(٤)]

ويهدأ البارودى نفساً بعد انتقامه من رياض بالهجاء ، والانتقام وخاصة عند الفرسان يغسل الكثير من أحقاد النفس وأوضارها . وتقبل الطبيعية الريفية بجمالها الساحر على البارودى فتلهيه — كما هى معه دائما — عن كل شىء ، فليقى بزمامه إليها ويستغرق فيها علها تذهب عنه المرارة والألم ، وحسبها البارودى فرصة يستجم فيها من عناء السياسة ، ويستريح من خداع القوم ، ويلقى وراء ظهرانيه بمؤامرات الحكم ودسائسه . وجاءته ربة الشعر تمشى على استحياء ،

---

(١) أوغام جمع وغم : الحقد الثابت فى الصدر . (٢) رجل وجم : لئيم بخيل .

(٣) المدرجة : الطريق ؛ والأزلام جمع زلم : السهم والنصيب .

(٤) هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهى من الجزء المخطوط من الديوان وعدد أبيات القصيدة التى ذكرت فيها ٣٧ بيتا وعنون لها فى الديوان بقوله « وقال بعد ما استقال من وزارة الحربية يذم بعض الوزراء » ، وذكرت هذه القصيدة فى المخطوطة (ج) ص ٢٥٤ ـ ٢٥٦ فقط ولم تذكر فى المخطوطة (س) ولعل الناسخ لها عرف اتجاه محمود الإمام فى ألا يطبع من الديوان شعر الهجاء الفاحش.

وتعزف له على قيثارتها بعد أن غاضبها وشغل عنها بأعباء السياسة ، وعاد إلى الشاعر صوته الذى احتبسته شواغل وزارة الأوقاف ثم الجهادية فأخذ يغنى ، واستعاد ذكريات الصبا وحن إلى الشباب ، ولكن الشيب الذى أخذ يشتعل فى رأسه ، وقد بلغ الثانية والأربعين ، يذكره بعمره فينهى نفسه عن متابعة الصبا ويهيب بها أن تستمتع بجمال الواقع فيصف القطار الذى أتى به من القاهرة :

يطوى المَدَى طَىَّ السِّجلِّ، ويهتدى   فى كل مَهْمَهَةٍ يَضِلُّ بها القَطَا
يجرى على عَجَلٍ ، فلا يشكو الْوَجَى   مدَّ النهارِ ، ولا يملُّ من السُّرَى (1)
ريانُ ملءَ ضلوعِهِ ، لكنه   يشكو بزفرته لهيباً فى الحَشَا

حتى يصل به إلى جانب أفيح ، وجنات زاهية النبات ، وحدائق ملتفة ، جمال يسلمه إلى جمال آخر .

فَإذا شممْتُ وجدتَ أطيبَ نفحةٍ   وإذا الْتفتَّ رأيتَ أحسنَ ما يُرى

وقرب نهاية أغسطس يكون القطن قد أوشك جنيه من أشجاره ، فبدا للشاعر بين ملوز ومنور كالغادة التى ازدانت بأنواع الحلى :

فكأنَّ عاقِدَهُ كراتُ زُمُرُّدٍ   وكأن زاهِرهُ كواكبُ فى الرُّبَا

ثم يطوف به طائف خفيف مما يعتمل فى أعماق نفسه من مشكلات السياسة فيفر منه ، ويبدى رضاه بما هو فيه ويقول :

هذا لعَمْرُ أبيك داعيةُ الرضَا   وسلامةُ العُقْبَى ، ومفتاح الغِنَى
فَعَلاَمَ أَجْهَدُ فى المطالب باذِلاً   نفسى ؟ وَهذَا للمطالبِ مُنْتَهَى
فالحمدُ لله الذى وَهَبَ العُلاَ   ومَرَا الأذى عنى ، فأبصرْتُ الهُدَى

ويحاول فى قصيدة ثانية أن يجد ملهاة وتسلية فى مزرعته فيستمتع بجمال

---

(1) الوجى : رقة القدم والحافر من كثرة السير .

الطبيعة وبالظباء تحت الظلال راتعة ، وبالطير فوق الغصون منتشرة ، وبالطل ينهل من مساقطه مثل عقود الجمان منتشرة عله ينسى ، ولكن خاطر السياسة يشتد فى نفسه وينازعها هذه المرة فيلجأ إلى الاقذاع ليطارده فيقول :

فيَابنُ وُدِّى ! هلُمَّ نقتسِمِ الـ ـلهْوَ ، فنفسى إلى الصِّبا حَسِرَهْ
وخلِّنا من سياسةٍ دَرَجَت بين أُنَاسٍ قلوبُهم وَغِرَهْ
يَقْضُون أيامَهم على خَطَرٍ فبئسَ عُقْبى السياسَةِ الخَطِرَهْ
خديعةٌ لا يزال صاحبُها بين همومٍ وعِيشَةٍ كَدِرَهْ

ولا يلبث البارودى فى ضيعته طويلا حتى تأتيه أخبار من القاهرة تفزعه ، فقد كانت استقالته فعلا نذير الخطر الزاحف على زعماء الضباط ، وأكدت الأحداث أن الأمر قد قضى فيه بليل ، وأن الخطة قد وضعت للقضاء عليهم بقسوة وبلا رحمة ، فقد عين توفيق زوج أخته داود يكن وزيراً للجهادية وهو لواء جركسى من شرار الرجعيين ، اشتهر بقسوته وتعصبه ضد المصريين(١) . وعزل رياض « أحمد الدرملى » محافظ القاهرة وكان من أنصار حركة الضباط وعين مكانه « عبد القادر حلمى » وهو من العسكريين الجراكسة أيضا . وكان من حاشية اسماعيل وقد عرف بشدته وبطشه وجبروته وعدائه للمصريين(٢) .

وكانت أولى مراحل الخطة منشورات أصدرها ناظر الجهادية الجديد لجميع آلايات الجيش تحرم على الضباط الاجتماع فى المنازل ، وتأمرهم بعدم مغادرة الآلايات ليلا أونهارا والامتناع عن الحديث فى السياسة ، وتفرض عقوبة السجن بالقلعة للمخالفين ، ومنشورات أخرى تمنع اجتماع أكثر من اثنين من الضباط فى المدينة وتعرض المخالفين للقبض عليهم من رجال الضبطية(٣) . والمحافظ الجديد بث

(١) بلنت السرى ص ١٠٩
(٢) مذكراتى فى نصف قرن جـ ١ ص ١١٩ ؛ وكشف الستار جـ ١ ص ٤٥.
(٣) كشف الستار جـ ١ ص ٢٢٥ — ٢٢٦ ؛ ومصر للمصريين جـ ٤ ص ٩٠ ؛ وتاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ٢١٣ — ٢١٥ .

العيون والأرصاد حول منازل الزعماء ليفتكوا بهم غيلة وغدراً[١] . أما المرحلة الثانية من الخطة فكانت فى تشتيت آلايات الجيش وتوزيعها فى البلاد وإحداث الفرقة بينها ، وانتهز الخديو فرصة وجوده بالاسكندرية فاستمال إلى صفه آلاى الاسكندرية وحاول إغراء آلاى الحرس لينضم إليه ، ويعود بهما إلى القاهرة ليضرب الحركة وآلايات الجيش الموالية لها على انفراد بعد تشتيتها[٢] .

ويتكشف البارودى فى خطة الرجعين — بعين السياسى والقائد — ما يوشك أن يدفع بالجيش إلى حرب أهلية ، وما يتهدد الوطن كله بنكسة تذهب بما أحدثته حركة فبراير من يقظة للشعور الوطنى . وتجميع للرأى العام حول المطالب القومية ، فيهرع إلى القاهرة ، ويضرب بتعليمات الخديو ورئيس الوزراء عرض الحائط ، فمثله لا يخلد إلى الاعتكاف السياسى بينما الأحداث تصنع تاريخ الوطن . ويعود البارودى إلى القاهرة ، فتعود إلى زعماء الضباط ثقتهم بأنفسهم ، وقد وجدوا سياسى الحركة إلى جوارهم ، يمدهم بمشورته الناضجة ، ويكشف لهم بخبرته ورأيه مغاليق الأمور ، ويبصرهم بالحدود التى تقف بهم دون التردى فى مزالق التهور ، وقد كادوا يندفعون إليه فى غيبته[٣] .

ويتصدر البارودى اجتماعات الضباط فى منزله كل ليلة يستعرض مع زعمائهم الموقف ، ويناقشون الخطة ويدرسون الاحتمالات ، ويعدون لكل شىء عدته[٤] . ويأخذ البارودى مكانه الحقيقى بين زعماء حركة الضباط علانية ، ويتبين للناس أنه سياسيها ومستشارها الذى تصدر عن رأيه ومشورته .

وتأتيهم العيون والأرصاد بأنباء المعسكر الرجعى بعد مده الأخير الذى حاول

---

(١) المصادر السابقة ؛ ومذكراتى فى نصف قرن جا ص١١٩ .

(٢) بلنت : التاريخ السرى : ص ١٠٨ — ١٠٩ ، وكشف الستار جا ص ٢٣٠ — ٢٣١ ، والرافعى الثورة العربية ص١٢١ .

(٣) أنظر التفصيلات فى كشف الستار ج ١ ص ٢٢٦ — ٢٢٧

(٤) مصر للمصريين ج ٧ ص ٦٠ محضر استجواب عبد العال حلمى

به أن يحصن مواقعه ويضعف من مواقع القوى الوطنية : أما رياض فقد بدأ يعقد المجالس فى منزله بالقلعة ، وتنازل عن غطرسته وترفعه متوهما أن ذلك سوف يكسبه شعبية بين الناس ، ولكن مجلسه لم يأو إليه إلا صائدو الحاجات وذوو المصالح من أشياعه وعملائه الذين يكيدون لزعماء الضباط بوحى منه ، ويرسمون المؤامرات التى يكشفها حذر الضباط ويقظتهم ، فيرميه البارودى بسهام من تندره وقذائف من سخريته وينشد :

يَقُولُ أناسٌ ـ والعجائبُ جَمّةٌ ـ … متى أصبح «الوزانُ» ربَّ مجالِسِ[1]

نرى كلَّ يوم عصبةً فى فِنَائِهِ … تُجاذبه أطرافَ تلكَ الوسَاوِسِ

فقلتُ لهم : لا تعجَبُوا لاجتِماعِهِم … لديه ؛ فإن الحُشَّ ماوَى الخَنَافِس[2]

وأما توفيق فهو ممعن فى الخداع والتردد ، يعمل فى الظلام لحساب نفسه ، ويريد أن يتخلص من زعماء الضباط ومن رياض جميعاً حتى تخلص له السلطة المفردة . يدبر المؤامرات بواسطة رجال الحاشية لعرابى وصحبه ، ثم يبعث إليهم بالرسل يخطب ودهم ، ويحسب نفسه واحداً منهم[3] ، ويتهم رياضا بأنه العدو اللدود لهم ولحركتهم .

وتعيش الأمة تحت سحب الخوف والأرهاب ، وتتجمع طبقاتها المختلفة فى مجالسها ومنتدياتها ، وتجمع على ألا منجى للوطن مما يعانيه إلا بثورة تزيح رياضا من الوزارة ، وترغم الخديو على التسليم بالحكم الدستورى . وتتطلع الأعين إلى الجيش وقد بعث انتصاره فى وثبة فبراير آمال الأمة فى « الوثبة الكبرى » .

وتثبت التجربة ، وهى ما تزال تؤكد كل يوم أن الثورة هى الطريق الوحيد الذى يستطيع النضال المصرى أن يعبر عليه من الماضى إلى المستقبل . فالثورة هى السبيل الذى تستطيع به مصر أن تخلص نفسها من الاستغلال الذى

---

(١) الوزان لقب أسرة مصطفى رياض وكانت أسرته مشهورة بهذا اللقب راجع الرافعى: الثورة العرابية ص ٣٨ (٢) الحش :المرحاض (٣) بلنت : التاريخ السرى ص ١٠٨

أرهقها والأغلال التى كبلتها ومن الرواسب التى أثقلت كاهلها ، فإن عوامل القهر والاستبداد التى تحكمت فيها طويلا ونهبت ثرواتها لا تستسلم بالرضا ، وكان لابد للقوى الوطنية أن تصرعها ، وأن تحقق انتصارا حاسما عليها كلما أمكنها ذلك .

وكانت الثورة هى الوسيلة الوحيدة للقضاء على التفرقة العنصرية التى سيطرت على العقلية التركية والجركسية المتحكمة فى مصر ، وللقضاء على الدخيل سواء فى ذلك الأسرة الحاكمة التى اتخذت من مصر مزرعة لها ولأصهارها ومحاسيبها ، أم النفوذ الأجنبى الذى توارى خلف الأسرة الحاكمة يحميها من الشعب بقوته ونفوذه فى سبيل استنزاف ثروة البلاد .

وقد أثبتت التجربة أيضا أن الجيش هو الذى يبدأ الخطوة التنفيذية الأولى دائما فى الحركات الوطنية الثورية فى الشرق . ويتدخل فى اللحظة الحرجة ليعبر عما يضطرم به قلب الأمة من ثورة . ولينقذها مما تعانيه من ظلام سياسى وعبودية اجتماعية ، ذلك لأنه — ولا يزال — العامل الأكبر فى الحركات السياسية ، له وحده من القوة والاتحاد ما يمكنه من تحقيق أهدافه .

ويجب ألا يغيب عن الأذهان أن كل مصالح الدولة ومرافقها وقتذاك كانت قد تغلغلت فيها « الرقابة الثنائية » وسيطرت عليها وحولتها فى اتجاه غير وطنى . ولم يكن هناك من هيئة وطنية تملكها مصر دون تدخل الأجانب غير الجيش . ومن هنا نرى أن الجيش كان مقدرا له أن يلعب دورا هاما فى السياسة الوطنية التى لم يكن هناك بد من ظهورها ، وقد جمع فى جنوده أبناء الشعب بمختلف طبقاته الكادحة التى أرهقها التحكم والاستغلال ، فكانت تسرى فيه أحاسيس الأمة المختلفة ، ومن ثم أصبح نقطة الارتكاز الطبيعية التى تجمع من حولها السخط القومى ، ونقطة الانطلاق التى اتخذت طريقها إلى الثورة .

الزحف المقدس :

تحـددت الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الجمعة ٩ سبتمبر ١٨٨١ ساعة الصفر لقيام الجيش بالثورة ، فزحف « أحمد عرابى » على رأس وحدات من آلايات الجيش إلى ميدان عابدين ووجهت إلى القصر مدافعها[1] ، وأرغم الخـديو على قبول مطالب الأمة : فأقال وزارة رياض ، ووافق على تشـكيل مجلس نيابى ، وعلى زيادة الجيش والتصديق على قوانينه . ونجحت الثورة دون أن تراق فى سبيلها قطرة دم واحـدة ، وانتصرت الأمة بواسطة جيشها الذى استطاع أن ينقذها من وهدة الرق السياسى ، وأن يهيىء لها سبيل الإصلاح الدستورى السليم ، واستيقظ الناس من حلمهم الطويل فإذا بهم قد تخلصوا من الاستبداد ، وتحققت لهم أمانيهم التى انتظروها قرونا وأجيالا طويلة .

ومن الطبيعى أن يتدخل رجال الثورة فى اختيار أعضاء الوزارة ، فوافقوا على أن يتولى رئاستها محمد شريف ، ورغبوا فى أن يـكون البارودى ناظرا للجهادية . ولـكن الخوف من نفوذ البارودى داخل شريفا ، فهو يعلم صلته برجال الثورة ، وثقتهم به ، وإصدارهم عن رأيه ، ومن ثم ستـكون له الـكلمة العليا فى مجلس الوزراء . ويحاول شريف الاعتذار بشتى الأسباب عن اختياره وزيراً فى وزارته فيصطدم بإصرار عرابى على تعيينه ، « فالعسكرية لا تطمئن لغيره ناظراً لهم ، وهم يثقون فيه وفى حبه للحرية والعدل والمساواة[2] » ، ويرضخ شريف وتشـكل الوزارة فى ١٤ سبتمبر ١٨٨١ .

---

(١) أنظر تفصيلات الزحف على عابدين فى مصر للمصريين ج ٤ ص ٩٠ — ٩٤ ؛ وكشف الستار ج ١ ص ٢٣٠ — ٢٣٨ ؛ والوقائع المصرية فى ١٨٨١/٩/١١ ؛ والرافعى : الثـورة العرابيـة ص ١٢٢ ـ ١٣٠ .

(٢) كشف الستار ج ١ ص ٢٣٨ .

وتجتاح البلاد موجة من الفرح غامرة ، فقد ابتهجت بأشراق عهد الحرية الذى انتظرته طويلا ، وسرى بين طبقاتها تيار من الاطمئنان والتفاؤل فى مستقبل كريم ، ويصف شاهد عيان أجنبى شعور الأمة نحو الثورة فيقول : « كانت الأشهر الثلاثة التى أعقبت حصار عابدين من أسعد الشهور التى مرت بمصر من الوجهة السياسية . ويسرنى أنى حظيت بمشاهدتها بعينى رأسى ، ولو أنى سمعت بها شفاها لداخلنى الشك فى صحتها . وفى الحق أنها لم يكن لها شبيه فى الأيام التى رأيتها فى مصر ، وأخشى أن تكون منقطعة النظير فى الأيام المقبلة ، فجميع الأحزاب الوطنية ، وسكان القاهرة والريف على بكرة أبيهم قد اتحدوا لتحقيق الفكرة الوطنية . ولعل الخديو نفسه قد سر بعد انتهاء الأزمة لتخلصه من رياض الذى كان يستأثر بالحكم ولا يترك له شيئاً من السلطان ، وظنه أن شريفاً لابد وأن يخلصه آجلا أو عاجلا من عرابى . أما شريف وزملاؤه من وجهاء الأتراك فقد فرحوا بعودة السيطرة وسلطان الحكم إليهم . ونجا الضباط من كابوس الخطر الذى تهددهم طوال حكم رياض ، وارتاح المصلحون للحرية التى أصبحت واقعاً فى متناول أيديهم ... وتجاوبت فى أنحاء مصر صيحة فرح وسرور ، لم يسمع بمثلها على ضفاف النيل منذ مئات السنين ، وقد رأيت الناس وهم يستوقف بعضهم بعضاً فى شوارع القاهرة ويتعانقون على غير تعارف سابق ، ويبتهجون معا لعصر الحرية الجميل الذى بدا لهم فجأة كما يبدو الفجر إثر ليل مخيف طويل[1] » .

وهدأت الأمور بعد اضطراب ، وبدأت مصر تشعر بنوع من الاستقرار فى عهد الوزارة الدستورية ، وتنحى العسكريون عن مسرح السياسة وعادوا إلى

---

(١) بلنت : التاريخ السرى ص ١١٣ — ١١٤ .

معسكراتهم يرقبون الأمور بعيون الحراس على مكاسب الثـورة ، ويتتبعون الإصلاح المنشود من الوزارة الجديدة . وبعد أن صدر المرسوم بإجراء الانتخابات لمجلس النواب أصدر البارودى وزير الجهادية أمره بنقل عرابى وآلايه إلى رأس الوادى بالشرقية ، وعبد العال حلمى إلى دمياط حتى يبطل الدعوى من أن الجيش وزعماءه يتدخلون فى السياسة . فصدعا لأمره ونفوسهم مطمئنة إلى أن مقاليـد الجيش فى يد وزير الثورة ومستشارها الأمين ، وأنه سوف يحميهم من المؤامرت التى تدبر فى الخفاء ، ويكون لسانهم فى مجلس الوزراء .

وكان افتتاح مجلس النواب فى ٢٦ ديسمبر ١٨٨١ يوماً مشهوداً من أيام مصر التاريخية ، فقد كان حصيلة النصر الذى جاهدت الأمة من أجله طويلا ، ورمزاً للحرية السياسية التى كانت حلماً فأصبحت حقيقة وواقعاً ؛ غير أن طلائع الاستعمار فى مصر أصابها مس من الفزع وهى ترى الأمور تنتهى فى مصر إلى أيدى مواطنيها . ومجلس النواب فى نظرهم مهما حسنت نيته وتأكد اعتداله لابد وأن يمس مصالح الأوربيين المتعددة ، والحـكم النيابى سوف يدفع بمصر إلى أن تستكمل استقلالها وعزتها ، فتعيد النظر فى هـــذه المصالح التى يعرف الأوربيون أنها قائمة على السلب والنهب دون سند من ضمير أو قانون

ودفع طلائع الاستعمار الفزع على مصالحهم ونفوذهم إلى شن حملة مسعورة فى الصحف الأوروبية ضد الثورة ورجالها ، ملأوها بالأكاذيب ، ودبجوها بالسموم محاولين تشويه الحقائق وإثارة الرأى العام الأوروبى ليدفع بحكوماته إلى التدخل فى شئون مصر لحماية عملائهم ومصالحهم . وتشير كبرى الصحف البريطانيـة [1] إلى ذلك بصراحة فتقول : « إن من العبث إخفـاء الحقيقة ، فإن القـائمين بالحركة

---

(١) التيمس ٢٧/٩/١٨٨١

لاغرض لهم سوى هدم النفوذ الأجنبي فى الإدراة المصرية ، وتخليصهـا من رق المراقبة الأوروبية ، وإذا جاز القول بأن تلك النيـة كانت منذ أسبوعين مقصورة على لفيف من الضباط ، فإنها ليست كذلك اليوم . إن سكان الإسكندرية والقاهرة ومدن الأقاليم يؤيدون عمل الجيش كل التأييد ، وهم الآن أشـد جرأة من غيرهم فى الجهر بأغراضهم » . وتشتد صراحة صحيفة أخرى [1] فتقول عن عملاء النفوذ الأجنبي : « كيف يثق بنا أصدقاؤنا بعد ذلك ، ونحن نتخلى عنهم إن أصابتهم محنة ، وقد كانوا يعملون لصالح المواطنين والأجانب على السواء ، ومصر مازالت غير مؤهلة للحكم النيابى ، والمستبد العادل كرئيس الوزراء السابق خير من تسلط الجيش الذى يهدف — ولو مع مجلس النواب المنتظر — إلى أن يحـكم البلاد بالحديد والنـــار ، وأن يرفض دفع الديون ، ويمنع تعـاون الأوروبيين وخبرتهم فى الإدارة المصرية ، ولن ننتظر حتى نراهم يلقون بنا فى البحر المتوسط » .

ورأى البارودى وعرابى ومحمد عبده أن يردوا على هـذه الحملة المسمومة [2] ويضعوا مبادىء الثورة وأهدافها فى بيـان ينشر فى الصحف الأجنبيـة ، عسى أن يكون فى نشره ما يلقى بعض الضوء على الهجوم المغرض الذى امتلأت به الصحف الاستعمارية . ونشر البيان فى جريدة « التيمس البريطانية » تحت عنوان : « برنامج الحزب الوطنى » [3] .

وقد حدد البرنامج ستة مبـادىء للثورة : الأول يتعلق بصلة مصر بالبـاب العالى وهى صلة تعترف بالسلطان خليفـة المسلمين ، ولـكنها تقاوم من يحـاول

---

(١) البال مال جازيت ١٨٨١/١٢/٦ . (٢) بلنت : التاريخ السرى : ص ١١٥ .
(٣) التيمس فى ١٨٨٢/١/٣ .

الاعتداء على حقوق الوطن ، أو إخضاعه لتركيا . والثانى يقرر تأييد الخديو مادامت أحكامه فى نطاق العدل والقانون ومن خلال الحكم الدستورى . والثالث الاعتراف بالديون الأجنبية حفظا لشرف الأمة ، والعمل على استخلاص مالية الدولة من أيدى أرباب الديون . والرابع حماية مكاسب الثورة بالعمل على إقامة حكم نيابى سليم ، وإطلاق حرية الكلمة والمعتقد ، وتعويد الأجيال على التربية القومية حتى يعرفوا معنى الحرية الحقيقية . والخامس إعلان التنظيم وحركة الضباط حزبا سياسياً لادينيا والمواطنون جميعاً لهم حق الإنضمام إليه دون تفرقة عنصرية أو دينية . والسادس إصلاح البلاد ماديا وأدبيا بحفظ الشرائع والقوانين وتوسيع نطاق التعليم وإطلاق الحرية السياسية والفكرية [١] .

التمهيد للتدخل :

ولكن حملة السلام والملاينة من المصريين لم تغن شيئاً ، فقد كانت إنجلترا وفرنسا تعدان عدة التحدى والتدخل المسلح ، وقررتا مناهضة أمانى المصريين [٢] ، وأخذت الصحافة فى لندن وباريس تمهد لهذا التدخل فهاجمت الثورة الوطنية واتهمت المصريين بالتعصب الدينى . ثم بدأت الدولتان التحرش بالحكومة الوطنية ، وذلك بافتعال سلسلة من الأزمات التى تضع العراقيل فى طريق سير الأمور ، فلم يكد مجلس النواب يجتمع فى ٢٦ ديسمبر ١٨٨١ حتى طلب المراقبان الإنجليزى والفرنسى عدم تعرضه للميزانية لأنها من اختصاصهما وحدهما ، وكأنهما كانا يطلبان تنازل الأمة عن حكم نفسها بنفسها ؛ إذ كيف تحكم أمة نفسها إذا حرمت كل سيطرة على ماليتها ؟ !

---

(١) نص البرنامج كاملا فى التاريخ السرى ص ٤٤٠ — ٤٤٣ ؛ ومصر للمصريين ج ٤ ص ٢١٧ — ٢٢٠ . (٢) المسألة المصرية ص ١٧١ ؛ والتاريخ السرى ص ١٣٣ .

ثم لم تلبث الحكومتان الإنجليزية والفرنسية أن أرسلتا – دون مناسبة – فى ٨ يناير ١٨٨٢ مذكرة[١] تعلنان فيها تأييدهما الكامل للخديو فى استعمال سلطته المطلقة واستعدادهما لهذا التأييد بشتى المظاهر ! وكان من الواضح أن هذا الاستفزاز الذى لا سبيل إلى احتماله إنما أريد به تحريض الخديو على استعادة أتوقراطية أبيه إسماعيل ، فيحل مجلس النواب ، ويقيل الحكومة ، ويحكم بمشيئته ، ويدفع المد الرجعى حتى يقضى على الثورة وعلى النظام الدستورى كله ، ويمكن لأعوانه وحلفائه نفوذهم فى البلاد . وقوبلت المذكرة من جميع طبقات الأمة بثورة عارمة يمثلها ما قاله عرابى : « هذا تحد لحرياتنا ، وليس لإعلان اتحاد فرنسا وانجلترا معنى سوى أن انجلترا ستغزو مصر كما غزت فرنسا تونس . . دعهم يأتون ، فكل رجل وطفل فى مصر سيقاتلهم . ليس من مبادئنا أن نضرب الضربة الأولى ، ولكننا سنعرف كيف نردها[٢] ».

ولم يكن ذلك آخر سهم فى كنانة الدولتين ، فقد أرسلتا فى ٢٠ يناير ١٨٨٢ مذكرة مشتركة تؤيد ما طلبه المراقبان الماليان من أن مجلس النواب ليس من حقه الاقتراع على الميزانية المصرية[٣]. واعتبر المجلس هذه المذكرة إهانة موجهة إليه ، فما إن تقدم شريف « باللائحة الأساسية » للمجلس وقد نص فيها على منع النواب من الإشراف على الميزانية — استجابة لمطالب المراقبين الأوربيين ، ومهادنة للنفوذ الأجنبى — حتى أجمع النواب على رفض هذه اللائحة ، وقرروا

---

(١) نص المذكرة فى مصر للمصريين ج٤ ص١٧٢ ؛ والرافعى : الثورة العرابية ص١٨٩–١٩٠ .

(٢) من حديث عرابى إلى الفريد سكاون بلنت فى تكنات قصر النيل عقب تقديم المذكرة ، التاريخ السرى ص ١٣٩ .

(٣) تيودور روتشتين : تاريخ المسألة المصرية تعريب عبد الحميد العبادى ومحمد بدران (١٩٣٦) ص ١٦٥ .

أن يعدوا هم دستوراً يحقق لمصر الحياة الديمقراطية الصحيحة ويكفل لها الاستقلال الكامل .

وثارت ثائرة « محمد شريف » وتجاوز غضبه غضب أحلافه الجدد من الأوربيين ، فقد كان يعتقد أن المصريين قد خلقوا ليحكمهم الأتراك ، أما أن يتحكموا فى بلادهم ويتجرءوا فيرفضوا قانونا تقدم به محمد شريف زعيم الحزب الدستورى نفسه فهذا أمر فى نظره غير محتمل ! وظهرت شخصيته التركية المتغطرسة على حقيقتها ، وتعرى من ثياب التستر وراء المطالبة بالدستور ، لتبين أغراضه المختفية فى دعواه ، وتكشفه هدّافاً وساعياً وراء الحكم والسلطان ، وهوى إلى القاع ، وأحرق رصيده من الوطنية حين علق على رفض النواب لمشروعه بقوله : « إن المصريين أطفال ، ويجب أن يعاملوا معاملة الأطفال ، وقد قدمت لهم الدستور الخليق بهم ، فإذا لم يرضهم كان عليهم أن يعيشوا بدونه . إنى أنا الذى أنشأت الحزب الوطنى ، وسيجدون أنهم لا يستطيعون العمل بدونى ، ولا شك أن هؤلاء الفلاحين فى حاجة إلى الإرشاد[١] ! » ولم يكن رد أعضاء مجلس النواب ـ الفلاحين ـ إلا التصميم على إقالة شريف ، وتعيين من يكون أكثر موافقة لرغبات المجلس وأحرص على كرامة الوطن واستقلاله .

قمه المجد السياسى :

وانتخب مجلس النواب لجنة من خمسة عشر نائبا لتتولى المفاوضات مع الخديو حول الموقف الوزارى ، فأنهوا إليه رغبة المجلس فى إقالة شريف لامتناعه عن التصديق على القانون الأساسى الذى وضعته لجنة الدستور بالمجلس فأقاله توفيق .

---

(١) من حديث محمد شريف لبلنت أثناء الأزمة ، أنظر : التاريخ السرى ص ١٤٤ .

ورأى الخديو تصميم المجلس على استعمال حقه كاملا فوكل إليهم أمر اختيار رئيس جديد للوزراء ، ورجع أعضـــاء اللجنة إلى زملائهم النواب ، وقضوا يوما كاملا يتشاورون فيما بينهم ليختاروا أصلح الساسة للمهمة وأخلصهم للوطن وأقدرهم على حمل الأمانة الدستورية . وأجمع النواب على أن « البارودى » هو رجل الساعة الذى يستطيع بثوريته أن يتجاوب مع آمال الأمة ، ويكفل لها الحياة الديمقراطية السليمة ، ويحافظ على كرامتها الوطنية باستقلالها الكامل . وأنهت اللجنة إلى الخديو رغبة المجلس فى اليوم التالى ، فأسند إلى البارودى رئاسة الوزارة [١] فى فبراير ١٨٨٢ .

وكانت طريقة اختيار البارودى لرئاسة الوزارة سابقة وطنية فريدة فى السياسة المصرية ، ذلك أن اختياره لم يكن مباشرة من الخديو بل بواسطة مجلس النواب ، وكان دور الخديو فى هذا الاختيار هو مجرد التصديق الشكلى على إرادة المجلس ، وقبل مجلس النواب تحمل المسئولية بثقة وجدارة [٢] . ومن أجل ذلك أطلق على وزارة البارودى بحق « الوزارة الوطنية » ، وأطلق عليها أيضاً « وزارة الثورة » فقد كانت تضم ثلاثة من زعمائها : محمود سامى البارودى للرئاسة والداخلية ، وأحمد عرابى للحربية ، والبحرية ومحمود فهمى للأشغال . [٣]

بعث البارودى بخطاب قبول تأليف الوزارة إلى الخديو متضمنا المبادئ التى جعلها دستورا ومرشدا لسياسته فى الوزارة الجديدة . وبعد أن تناول فيه

---

(١) تفصيل مناقشات النواب وتشكيل اللجنة ومفاوضتها مع الخديو فى الرافعى : الثورة العرابية ص ١٩٥ — ٢٠٢ ؛ ومصر للمصريين ج ٤ ص ٢٢٠ — ٢٢٣ ؛ وبلنت : التاريخ السرى ص ١٤٧ — ١٤٨ .

(٢) المسألة المصرية ص ١٦٥ .

(٣) أما باقى الوزراء فهم : على صادق للمالية ، مصطفى فهمى للخارجية والحقانية ، عبد الله فكرى للمعارف ، حسن الشريعى للأوقاف .

مشكلة الديون وعزم الوزارة على الوفاء بها ، والإصلاحات الداخلية كتنظيم المحاكم ، وإصلاح الإدارة ، والاهتمام بمشروعات الخدمات والإنتاج من تحسين حالة التعليم والعلاج ، وتوسيع رقعة الزراعة ومجال التجارة والصناعة مضى يقول : « لكن الوزارة قبل كل شيء ترى من الواجب أن تعين اختصاصات مجلس النواب ليتيسر له أن يأتى الحكومة بالمساعدة التى تنتظرها منه ، وأن يحقق آمال البلاد المحصورة فيه ، ولذلك فأول شيء تسرع فيه الوزارة هو وضع نظام أساسى للمجلس المومأ إليه ، ويكون من أحكام هذا النظام احترام جميع الحقوق الممتازة والعهود الدولية . . . وتحديد التبعة التى تلحق الوزارة أمام المجلس ، وكيفية المخابرة والمباحثة فى أمر القوانين ووضعها وتنظيمها ، وسيكون هذا النظام الأساسى محتويا على جميع الشروط اللازمة لتأكيد مصالح العموم بعيدا من أن يكون سببا لقلق البال . هذه يا مولاى لائحة الوزارة الجديدة وفقا لآمال الوطن . . . »[1] .

وافتتحت وزارة البارودى أعمالها بإعداد الدستور ، وجعلته بحيث يوائم آمال الأمة ويحقق إرادتها ويحفظ كرامتها كدولة مستقلة لمجلس نوابها حق نظر ميزانيتها . وكان البارودى يحس من أول يوم فى وزارته بتزايد الجفاء بينه وبين الخديو ، فما كان توفيق ليسيغ أن يصبح الأمر بينه وبين الوزارة قائما على غير ما ألف من مبادىء السيطرة ونوازع الاستبداد ، ولكن الوزارة استعاضت عن معونته بتأييد الأمة ومجلس نوابها . وحمل البارودى الدستور إلى الخديو وكأنه يحمل آمال الأمة وتوقيعاتها عليه بالموافقة ، فلم يسعه إلا أن يضع خاتمه بالتصديق ، وما كان ليستطيع – ولو أراد – أن يفعل غير ذلك .

---

(١) نص الخطاب فى مصر للمصريين ج ٤ ص ٢٢١–٢٢٣ ؛ والوقائع المصرية ٥ فبراير ١٨٨٢ .

وكان يوم الأربعاء ٨ فبراير ١٨٨٢ قمة المجد الذى بلغه البارودى فى حياته السياسية كلها ، وذروة النصر الذى وصلت إليه الأمة بثورتها ومجلس نوابها ووحدة القوى الوطنية فيها ، فقد حضر محمود سامى البارودى رئيس الوزراء إلى مجلس النواب ومعه اللائحة الأساسية المحققة لإرادة الأمة مصدقا عليها من الخديو ، وقوبل البارودى فى المجلس بالتعظيم والإكبار ، وسر النواب بنفوذ رأيهم فشكروا الوزارة الجديدة على ذلك ، ثم وقف محمود سامى خطيباً فى المجلس يقدم الدستور لنوابه فقال : « أيها السادة النواب . . أحسب نفسى سعيد الطالع بحضورى بينكم حاملا إلى حضراتكم القانون الأساسى الذى سيكون إن شاء الله قاعدة لجميع أعمالكم ، ويسرنى كل السرور أننى لم أحمله إليكم إلا بعد تيقنى من أنه خير أساس يمكنكم أن ترفعوا عليه من الأعمال ما يعزز شأن البلاد ، وينمى ثروتها ، ويقوى أصول العدل فيها . . . إلا أننى أعلم كما تعلمون أن مجرد وضع القانون على أصول الحرية وقواعد العدالة لا يكفى فى وصولنا إلى الغاية المقصودة من اجتماع حضراتكم ، بل لا بد من أن ينضم إلى ذلك خلوص النية من كل واحد منكم فى المحافظة على حدود هذا القانون ، ودقة النظر فى الوقوف عندها بحيث تكون جميع الأعمال والأفكار منحصرة فى دوائرها . . .

« إن التفات النظر إلى الخصوصيات يبعث فى القلوب محاسدات ومناظرات تحمل على الخلاف الدائم — نعوذ بالله منه — وإنكم تعلمون أن الذين رقوا إلى ذروة العز وأوج الشرف لم ينالوا ذلك إلا بإخلاصهم فى طلب النفع العام ، فاعترف العالم بفضلهم ، وأجلتهم القلوب فأحلتهم أعلى المنازل ، فثبتوا فى مكانتهم ماداموا متحلين بحلية الإخلاص .

« وإنى أهنىء نفسى بوقوفى بين عقلاء البلاد العارفين بحقوق وطنهم عليهم ، العالمين بأن شرفهم معقود بشرف بلادهم ، الموقنين بأنهم لن يكونوا نواباً حقيقيين إلا إذا أقاموا على صدقهم براهين من العمل ، وحججاً من الثبات فى خطة الاعتدال ، حتى يقنع بها البعيد كما عرفها القريب . . .

« وآخر ما نتواصى به ألا نجعل للتعصب المشربى دخلا فى الأعمال الوطنية التى كلفتكم البلاد أن تقوموا بأدائها ، وأن تكون الوطنية الحقة هى الباعث القوى على كل فكر ، والغاية القصوى من كل قول وعمل . . . [(١)] »

كشف لنا خطاب البارودى فى مجلس النواب عن منابع أصيلة من وطنيته القوية العميقة ، ومن ديمقراطيته الصحية ، ودلنا على موهبة جديدة فجرتها المناسبة ، فأسفرت لنا عن « البارودى الخطيب » وقد تملك ناصية القلوب « بخطابه الذى يعد من أبلغ ما كتب البارودى ، ومن أقوى الخطب السياسية ، بل هو قطعة رائعة من الأدب السياسى لما تضمنه من المعانى السامية ، والآراء السديدة ، والنصائح الحكيمة ، والأسلوب البليغ [(٢)] » .

وظل الخطاب لفترة طويلة حديث الخاص والعام ، فقد أرسى قواعد جديدة للحكم ، وأسساً سليمة للعلاقة بين السلطة التشريعية والتنفيذية ، ورسم خطة للإصلاح العام . وأطلقت الصحف على البارودى « ميرابو مصر [(٣)] » ، وعمت البلاد موجة فرح شاملة لذلك النصر الوطنى الكبير ، وسرت فى النفوس هزة النشوة لإعلان الدستور الجديد ، وأطنبت الصحف فى الحديث عن مزاياه وعن

---

(١) نص الخطاب فى مصر للمصريين جـ٤ ص٢٢٦ — ٢٢٧ ؛ والوقائع المصرية فى ١٨٨٢/٢/١٢ .
(٢) الرافعى : الثورة العرابية ص ٢١٥ .
(٣) الطائف فى ١٨٨٢/٢/١٢ .

حياة الاستقرار والأمن فى ظله ، وعن الأمل المنشود فى التخلص من النفوذ الأجنبى وفساد الماضى .

وتقاطرت الوفود على العاصمة من أنحاء البلاد تعبر عن شعور الغبطة والفرح[١] وأقيمت الاحتفالات فى طول البلاد وعرضها غداة صدور الدستور ، وكان احتفال « جمعية المقاصد الخيرية » أكثرها بهجة وروعة وجلالا ؛ فقد شهده البارودى ووزراؤه ورجالات الأمة وعلماؤها ونوابها وأعيانها وكبار ضباط الجيش[٢] ، وتلاه احتفالات النواب والأعيان بالقاهرة[٣] والإسكندرية[٤] . وكانت هذه الاحتفالات صورة صادقة للحياة السياسية والفكرية فى ذلك الوقت فقد كان يؤمها صفوة مثقفى الأمة ومفكريها على اختلاف مشاربهم ، وكانت . المبادىء السياسية والأفكار الاجتماعية والثقافية تتداعى على ألسنة الخطباء[٥] ثم تعرض للمناقشة ، ويتوالى الخطباء والناس لا يملون فقد كانوا فى شوق إلى سماع الكثير فى هذه الموضوعات .

وأحدثت مهرجانات النصر وعياً دستورياً وسياسياً كبيراً بين الأمة ، فقد كانت الخطب والمناقشات تطبع فى الصحف وتقرأ فى أنحاء البلاد ، وتنتشر فى القرى والكفور . « وأصبحت السياسة حديث المجتمع ، ولم يعد فى البلاد

---

(١) مصر للمصريين ج ٤ ص ٢٣٢ — ٢٣٣ .

(٢) تفصيلات الحفل فى الوقائع المصرية ١٥، ٢٠/٢/١٨٨٢ .

(٣) منها حفل النائبين أحمد محمود وابراهيم الوكيل : انظر الوقائع فى ٢١/٢/١٨٨٢، وحفل أحمد أباظة : الوقائع ٥ مارس ١٨٨٢ ، وحفل أحمد نير يكن : مصر للمصريين ج ٤ ص ٢٣٤ ، وحفل محمد طاهر : المصدر السابق .

(٤) تفصيلات حفلات الإسكندرية فى مصر للمصريين ج ٤ ص ٢٣٤ — ٢٤١ .

(٥) من الخطباء فى هذه الاحتفالات : محمد عبده، عبد الله النديم، ابراهيم اللقانى ، وأديب إسحاق، حسن الشمسى ، مصطفى ماهر ، فتح الله صبرى ، أنظر : مصر للمصريين ج ٤ ص ٢٣٤ .

مكان يخلو من اجتماع تناقش فيه شئون البلاد السياسية[1] » . ويقول شاهد عيان أجنبي يعرف العربية : «إنه عدّ في السوق ٢٧ مجموعة من الناس يتحدثون عن الميزانية أو اللائحة الأساسية أو الوزارة الوطنية الجديدة أو النفوذ الأجنبي الذي يستعد للرحيل[2] » . ومن ناحية أخرى كانت هذه المهرجانات نهضة حقيقية لفن الخطابة فعبارات الخطباء وأسلوبهم وطريقة أدائهم وتعبيرهم عن أفكارهم دلتنا على الحظ الكبير من المقدرة الفنية التي يتمتع بها جيل الثورة من تلاميذ الأفغاني وقد أخذوا يحولون الأدب إلى أدب هادف يعبر عن مطالب المجتمع .

ومضى مجلس النواب يؤدى الأمانة التي عهدت بها الأمة إليه ، ومضابط جلساته تنبض بالوطنية الصادقة وتدلنا على الكفاية والقدرة وسداد الرأى والإلمام بالنظام النيابي ، ولاشك في أن النواب المخضرمين الذين أدركوا النيابة في مجلس شورى النواب على عهد إسماعيل قد لمسوا الفرق بين المجلسين ، فقد كان الأول استشاريا لايملك السلطة الفعلية على الحكومة أو التوجيه لسياستها ، أما الثاني فقد كان مثلا المجالس النيابية في أرقى مستوياتها ، له سلطاته التامة والوزارة مسئولة أمامه مسئولية كاملة .

وتحققت في عهد وزارة البارودى أماني الأمة وأماني نفسه ، وبلغ بإعداد الدستور وإقراره في مجلس النواب أمله الذي كرس حياته من أجله وجاهد طويلا في سبيله . ويهتف بذلك في اليوم الأكبر يوم أن أصبحت الأمة تحكم بأبنائها فيقول :

سَعيتُ وأدركتُ المنى غير أنني ... أضعتُ شبابي في سبيلِ طلابِ

(١) التيمس البريطانية في ١٠/٣/١٨٨٢ .

(٢) مراسل التيمس البريطانية : المصدر السابق .

المواجهات الساخنه بين البارودى وتوفيق :

انتهت دورة مجلس النـواب الأولى فى ٢٦ مارس ١٨٨٢ وكأن السلام والاستقرار قد انتهيا بانتهائها فى البلاد ، ذلك أن طلائع الاستعمار قد أصيبت بالذعر والهلع وهى ترى أهل مصر ينزعون حقـاً إلى الحرية ، وينجح مجلس نوابهم نجاحا يضعه فى مصاف المجالس العريقة فى التاريخ ، وتحقق وزارة البارودى آمال الأمـة فى الإصلاحات المختلفـة ، وتسعى جاهدة فى إنجـازها ، وتكلف الإدارات بالدراسة والبحث طوال عطلة المجلس حتى تـكون مستعـدة للدورة المقبلة ، ووجد أعداء الشعب فى ذلك النجاح علامات الخطر على نفوذهم واستغلالهم للبلاد وأصاب الرجعية مس من الجنون وهى ترى الفلاحين يستلبـون السلطة منهـا ، ويحاولون فينجحون فى موضع المسئولية الذى وضعتهم الأمة فيه بحيث يكونون — وهم نائبون عنهـا — مصدر كل سلطان .

وكان لابد للرجعية وحلفائها ـ يدفعهم الحقد والخوف والجنون ـ من القيام بعمل يشوهون به هذا النجاح ، ويستردون به سلطانهم ، فخططوا للقضاء على الثـورة . ورأوا أنهم إن قضوا على القيـادات الثورية بأسلوب من أساليبهم المعروفة ، يقضون على مكاسب الثورة ويحولونها نكسـة تعيد البلاد إلى منطقة نفوذهم ، فاستعانوا بفريق من الضباط الجراكسة الموتورين — وهم أداة الرجعية — عـلى تنظيم اغتيال جماعى لرجال الوزارة وكبار ضباط الجيش والرءوس المفـكرة فى الثورة ، ولـكن سبقت مشيئة الله فاكتشفت المؤامرة قبيل تنفيذها بساعات [١] ، ولم يكن أمام المسئولين إلا أن يشكلوا محكمة عسكرية تحاكم المتآمرين .

---

(١) كشفها أحـد المشتركين فيها وهو الملازم خليـل حسن ، أنظر : مذكراتى فى نصف قرن جـ ١ ص ١٣٥ .

وحتى تأخذ العدالة مجراها ، ولا تتهم المحكمة بالتجنى والتعصب وضع على رأسها ضابط جركسى [1] من جنس المتهمين ، فحكمت بما ارتأته قصاصا للجريمة [2] . وأيقنت العناصر المعادية للثورة أن تنفيذ الحكم فى أنصارهم المتآمرين لابد وأن يضعف معسكرهم ، ويفقد ثقة عملائهم فيهم ، ومن ثم صمموا على أن يحموهم من القانون . وأوعز المعتمد البريطانى إلى الخديو بالامتناع عن التصديق على الحكم [3] . وكانت أولى الأزمات بين « الوزارة الوطنية » والخديو .

ويذهب البارودى إلى توفيق فى ٨ مايو ١٨٨٢ لينهى إليه باسم الحكومة أن الخديو ليس من حقه الامتناع عن التصديق على حكم المحكمة العسكرية ، فإذا به يجده وقد جمع معتمدى الدول الأوروبية يتزعمهم « ماليت » قنصل انجلترا العام ليكونوا مستشاريه ويصدر عن رأيهم ! وبعد أن يتحدث البارودى يسكت توفيق ويتكلم ماليت بلسانه فيقول : « إن بعض المحكوم عليهم من هو حائز لرتب أعطيت لهم من السلطان ولا يمكن تجريدهم منها إلا بإذن منه » . ويرد البارودى : « بأن إقحام الباب العالى فى هذه المسألة الداخلية تنازل عن الامتيازات التى نالتها مصر بفرمانات استقلالها الداخلى ، والحكومة ليست على استعداد لهذا التنازل » . ويمضى البارودى فيقول : « وإذا وردت أوامر الباب العالى بعدم تجريدهم من الرتب فان تطيع النظارة هذه الأوامر ، ولو حضر وفد عثمانى فسيمنع من النزول إلى أرض مصر ولو اقتضى الأمر استعمال

---

(١) الفريق راشد حسنى ، أنظر المصدر السابق ص ١٣٤ .

(٢) تفصيلات المؤامرة والأحكام أنظر : مذكراتى فى نصف قرن جـ١ ص ١٣٤ — ١٣٧ ؛ ومصر للمصريين جـ٤ ص ٢٦٣ — ٢٦٧ ؛ وبلنت : التاريخ السرى ص ١٧٩ — ٢٠٢ .

(٣) مذكراتى فى نصف قرن جـ ١ ص ١٣٦ .

القوة ، وستكون النتيجة قيام ثورة ضد السلطان ، وما نأمله هو عدم تدخل انجلترا فى الأمر [١] » .

والواقع أن قنصل انجلترا كان يعمل على تأليب الخديو ضد وزارة البارودى وإحداث أزمات مفتعلة تدفعها إلى الاستقالة ، أو تغرى توفيق بالارتماء فى أحضان الإنجليز ووصايتهم ، وقد كتب « ماليت » فى هذه الأزمة إلى حكومته يقول [٢] : « اسمحوا لى أن ألاحظ أنه عند النظر فى الخطة التى يجب أن نغرى الخديو باتباعها إزاء حكم المجلس العسكرى ، يجب أن نلقى نظرة عامة على الحالة كلها ؛ وأن نذكر أن وزارة البارودى تسعى إلى تضييق الحماية الإنجليزية والفرنسية ، وأن نفوذنا آخذ كل يوم فى النقصان . وقد يستحيل علينا أن نستعيد سلطاتنا العليا حتى تخضخض من شوكة الحكم العسكرى ، وفى اعتقادى أنه لابد من حدوث ارتباكات شديدة قبل الوصول إلى حل يرضينا للمسألة المصرية ، وأن الحكمة تقضى باستعجال هذه الارتباكات لا بتأجيلها ! »

وأراد البارودى أن يفوت على معتمد انجلترا خطته التى تهدف إلى توسعة شقة الخلاف بين الخديو والحكومة ، فاقترحت وزارته حلا للأزمة بأن يصدر الخديو أمره بتعديل الحكم وتخفيفه ، وظنت أن فى هذا الحل ترضية للخديو وأنه يحفظ للمحكمة العسكرية وللحكومة كرامتهما ؛ بيد أن الخديو امتنع عن إبداء رأيه حتى يستشير قناصل الدول ! . وأخذ البارودى برد الخديو ، وأيقن أنه قد رمى بثقله كله فى جانب مندوبى الاستعمار ، وألقى بزمامه إليهم يصرفونه كيف يشاءون ، وأن خديوى البلاد بدأ يطلب جهارا من القوى

---

(١) مذكراتى فى نصف قرن جـ ١ ص ١٣٦ ؛ وانظر كذلك الرافعى : الثورة العرابية ص ٢٦١ — ٢٦٢ .

(٢) مصر رقم ٧ عام ١٨٨٢ ص ١٠٧ .

الأجنبية حمايته من شعبه وحكومته ، وغضب البارودى لكرامته كرئيس للوزراء ولكرامة الوطن والدستور، وعرض الأمر على مجلس الوزراء فرأى المجلس أن الخديو ليس له أن يستمع إلى مشورة قناصل الدول بعيداً عن وزرائه ، وليس له حسب قواعد الدستور حق هذه الاستشارة أو حق الامتناع عن التوقيع على أحكام المحكمة العسكرية العليا ، وعاد البارودى إلى الخديو ليقدم له اللوم الشديد لنزوله على إرادة قناصل الدول وإهماله رأى وزرائه[١] . وانقطعت العلاقة بين الخديو ونظاره من هذا اليوم[٢] .

ولم تجد وزارة البارودى مفراً وقد اختلفت مع الخديو بعد أن سلك مسلكا تخطى فيه حدود الدستور ، وتعدى به على استقلال البلاد من أن تعرض الأمر على « مجلس النواب » ليرى فيه رأيه ، فاستدعت النواب من عطلتهم إلى القاهرة ليجتمعوا فى جلسة غير عادية ويقضوا فى الأزمة برأى . واجتمع النواب بالوزارة ظهر يوم ١٢ مايو ١٨٨٢ فى دار البارودى ، ليقفوا على أسباب الخلاف بينها وبين الخديو ، وبعد أن تكررت اجتماعاتهم بصفة غير رسمية فى غير مبنى مجلس النواب ازدادوا إيماناً بأن الأزمة مدبرة من الخديو وحلفائه طلائع الاستعمار ، ووجدوا أن وزارة البارودى تقف إلى جانب الدستور واستقلال الوطن فأيدوا موقفها وساندوها ، وقرروا « أن الخديو إذا استمر على دسائسه مع القنصلين الإنجليزى والفرنسى لن يكون هناك مناص من محاكمته وخلعه[٣] » . وخرجت الصحف الوطنية تكشف تحالف توفيق مع الدول الأجنبية ، وتنصر

---

(١) الكتاب الأصفر عام ١٨٨٢ وثيقة رقم ٦١ ؛ وانظر أيضاً الرافعى : الثورة العرابية ص٣٦٣ .

(٢) مذكراتى فى نصف قرن جـ ١ ص ١٣٧ . (٣) بلنت : التاريخ السرى ص١٩٨ .

الوزارة ومجلس النواب فى موقفهما الوطنى ، وتجرأت فلقبت الخديو « بالخائن المخدوع » ، وهاجمته لارتمائه فى أحضان الوصاية الأجنبية ، واتهمته بخيانة الوطن والدين فى أسلوب لاذع لم تعهده البلاد من قبل ، وانتقلت من الهجوم على توفيق إلى الهجوم على أسرة محمد على كلها [1] .

وانطلقت أبواق الرجعية تروج الإشاعات لتبث فى النفوس الاضطراب والقلق ، وتلقى ظلالا من التبرير المسبق للتدخل الأجنبى المسلح وتهيء له الأذهان . فالبارودى يريد أن يثب إلى العرش ، والجيش على أهبة التحرك إلى عابدين ليرغم توفيقا على قبول مطالب الوزارة ، والأساطيل الأجنبية فى الطريق لتحمى صاحب السلطة الشرعى ، وخمس مدرعات تركية خرجت من الدردنيل إلى مصر بجنود عثمانية .[2] ويعجب المرء حين يجد أن بعض المؤرخين قد أخذ هذه الاشاعات المرجفة التى أطلقتها معاقل الرجعيين وأقلامهم على أنها حقائق فبنوا عليها أحكامهم التاريخية ، ولو أنهم فطنوا إلى أن البارودى لو أراد الوثوب إلى العرش للجأ إلى القوة العسكرية — وكانت طوع بنانه — ولم يلجأ إلى مجلس النواب ، ولو أن الروح العسكرية كانت مسيطرة على الحكم وأراد الجيش أن يزحف على عابدين ليرغم الخديو على أمر لما وقف حائل دونه وقد عرف الطريق إليه من قبل . ورأى فريق آخر من المؤرخين أن البارودى قد زاد الأزمة تعقيداً بتمسكه بالوزارة ، وكان عليه حين وصل الخلاف إلى الدرجة القصوى أن يترك الوزارة ويستقيل . وقد يبدو هذا الرأى صحيحاً لو أن الجالس على العرش وطنى يعمل لصالح الأمة وبوحى من الدستور ، ولكن توفيقاً

---

(١) الطائف عدد ١٠٤٢ ، ٢٠٤٢ فى ٢٩ انظر الط/ ٤ ، ٦/ ٥/ ١٨٨٢

(٢) مصر للمصريين ج ٤ ص ٢٦٩ ، ومذكراتى فى نصف قرن ج ١ ص ١٣٧ ، والكتاب الأصفر عام ١٨٨٢ وثيقة رقم ٦٢ ، ٦٣ .

كان يعمل بوحى من الخارج وبمشورة من المعتمد البريطانى .

وقد سئل البارودى عن وجهة نظره فى عدم الاستقالة ودعوة مجلس النواب دون الرجوع إلى الخديو فأجاب : بأن الخديو أحد طرفى الخصومة ، وليس الخلاف شخصياً أو على أسلوب العمل حتى تستقيل الوزارة ، ولكن شكوانا من سموه لأنه يسلك مسلكاً يقضى على استقلال مصر ، وكثيراً ما فعل ذلك دون مشورة وزرائه ، ومجلس النواب هو الفيصل الأعلى بين الوزارة وبينه(١) . والواقع أن البارودى قد وقف الموقف الذى يحتمه عليه الواجب الوطنى كرئيس للوزراء ، وهو موقف جدير بالإعجاب والتقدير ، ولو أنه تخلى عن مسئوليته واستقال لكان ذلك تسليما لأعداء البلاد وفراراً من الواجب نحو وطنه وأمته .

ظهر الخطر واضحاً لتحالف الرجعية والاستعمار فى وقوف النواب صفاً يساندون الوزارة ضد الخديو فاتجهوا إلى أسلوب التفرقة ، وعزف توفيق لأولئك الذين حملتهم موجة الثورة معها وهم طامعون فى المناصب ، وضرب على أوتار الإغراء لأولئك الذين دفعتهم رياح المصالح الشخصية فتسللوا إلى الصفوف الوطنية ، واستمع إلى إغرائه محمد سلطان رئيس مجلس النواب(٢) وستة من النواب الذين وجدوا أن مصالحهم مرتبطة بالخديو وحكم الطبقة الغنية(٣) . وأحس بقية النواب بالخدعة ، فبدا لهم أن يدركوا الأمر قبل أن ينصدع الرأب وتحدث الفرقة بين الصفوف الوطنية ، « وطالبوا بانعقاد مجلس النواب على صورة رسمية ، لينظر فى أمر الخلاف ويقرر ما يراه ملائماً لمصلحة البلاد

(١) لورد كرومر : مصر الحديثة ج ١ ص ٤٥ ؛ وانظر : مذكراتى فى نصف قرن ج ١ ص ١٣٧ .

(٢) أغراه الخديو بإقلاع الأساطيل الأوربية إلى مصر لتقمع الثورة وتعيد النظام القديم ، ووعده برئاسة الوزارة .

(٣) بلنت : التاريخ السرى ص ١٩٦ .

وأهلها[1] ؛ ولكن محمد سلطان — وقد أغواه توفيق — رفض أن يدعو المجلس للانعقاد ، واحتج بأن ذلك يحتاج إلى « دكريتو » من الخديو ، وهو لايوافق على عقد المجلس قبل دورته الثانية .

وإزاء هذا الرفض « قرر النواب والوزراء ورجال الثورة عقد جمعية عمومية من أعيان البلاد وعلمائها ونوابها ، يتخابرون فيها ويتشاورون فى كيفية حل المشكلة ، وأخذ الناس يرقبون عقد هذه الجمعية حتى تحسم النزاع[2] » . وكانت النذر كلها تعلن أن عقد هذه الجمعية سوف يسفر عن إجراءات حاسمة ضد الخديو ، فعمد إلى أسلوب المخادعة حتى تفوت الفرصة ، وحنى رأسه للعاصفة ليكسب الوقت حتى تصل إليه المعونة والسند من الأساطيل الحربية التى وعده بها معتمدا إنجلترا وفرنسا ، وأوعز إلى عملائه الجدد من النواب المنشقين بزعامة « سلطان » أن يسعوا بالصلح المؤقت بين الطرفين ، وتمت الوساطة فى ١٥ مايو سنة ١٨٨٢ على ألا يستشير الخديو الأجانب فى أمور الدولة ، ولايقطع أمراً إلا بإذن من الوزارة الدستورية[3] .

وما لبث الأساطيل أن وصلت الإسكندرية فجر يوم ٢٠ مايو ، فأحست الرجعية بالقدرة على التحرك والمبادرة بالانقضاض مرة أخرى ، وقد آنست فى نفسها القوة ، واستشعرت التأييد فى مدافع السفن الأوروبية . وألقى فى روع الخديو أنه قادر على أن ينزل بالثورة ماشاء من انتقام ، ووجد « سلطان» فى نفسه الشجاعة على أن يمالئ الخديو ويعلن أنه انحاز إلى صفه ، ونسى أمسه

---

(١) مصر للمصريين ج ٤ ص ٢٧١ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق ص ٢٧٢ ؛ والوقائع المصرية فى ١٦ مايو ١٨٨٢ .

القريب ، كما يقول الشيخ محمد عبده ، «الذى كان يطلب فيه قتل الخديو ويقول : أقتلوا الثعبان سـلالة الجناة الناهبين الذين باعونا للأجانب ، هذا هو سلطان الذى كان رئيس الحزب الوطنى ، وهو لا يريد الآن إلا مجاملة الخديو الذى لا يبغى إلا بيع البلاد للأجانب[1] » . وليس ذلك بغريب من محمد سلطان فقد كان طوال حياته يعمل لحسابه الخاص ، وهو عبد لمصلحته الشخصية ، وأكثر العملاء إخلاصاً للقوة أينما كانت ، وأحرص الناس على عرض الحياة ، يميل مع من عليه الدنيا مقبلة .

كان انحياز محمد سلطان والمستضعفين من النواب إلى الخديو مبدأ انحسار المد الثورى فى البلاد ، وأول الهزيمة والوهن فى الصفوف الوطنية ، فقد بدت الأمة أمام العالم وكأنها منشقة على نفسها ، ومن ثم حانت الفرصة للانقضاض عليها . وبدأ تحالف الرجعية والاستعمار تنفيذ مخططه فى نفس اليوم الذى وصلت فيه الأساطيل ، « فنصح ماليت سمو الخديو بأن ينتهز فرصة وصول الأسطول ويطلب من النظارة استقالتها لتخلفها وزارة أخرى يعتمد عليها . . . وتنفيذاً لهذه الخطة كلف توفيق «سلطاناً» بأن يتوجه إلى عرابى ومحمود سامى ويطلب منهما استقالة الوزارة ، فوعدا بالنظر فى هذا الطلب[2] » .

وبحث البارودى وزعماء الثورة طلب استقالة الوزارة ، وقلبوا الأمر على وجوهه ، وأخذت الآراء تتبلور فى اتجاهين :

اتجاه يتزعمه البارودى ، ويرى قبول طلب الاستقالة ، وليس فى الاستقالة الآن تخـل عن مبادىء الثورة أو مهادنة للرجعية ، فقد تعهد الخديو

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام جـ١ ص ٢٤٢ — ٢٤٣ .

(٢) مذكراتى فى نصف قرن جـ١ ص ١٣٩ .

فى ١٥ مايو سنة ١٨٨٢ بألا يستشير الأجانب فى أمور الدولة وألا يقطع برأى إلا بأذن من وزارته ، وقد يكون فى الاستقالة ترضية للخديو وتنفيس لحقده الشخصى على البارودى ، وحفظ لماء وجهه بعد حادث المؤامرة الجركسية ، ورد لاعتباره بعد أن وقف فى وجهه مجلس النواب فلم يستطع إقالة الوزارة فى النزاع السابق ، وقد يكون فيها نوع من الاعتذار والملاينة والتودد تقتضيه مصلحة الوطن اتقاء للخطر المحدق بالبلاد ، فيقلع الخديو عن الالتجاء إلى قناصل الدول ويثوب إلى رشده ، ويعود إلى التعاون مع العناصر الوطنية ومجلس النواب . وما دام المجلس قائما فلن تستطيع الوزارة القادمة مهما كان مشربها أن تحيد عن الخط الوطنى ، فإن فعلت سحب المجلس منها الثقة فتسقط[1] .

واتجاه آخر يتزعمه عرابى وبقية رجال الثورة ، ويرى عدم الاستجابة إلى طلب الاستقالة ، لأن الخديو لا يعمل بوحى من وطنيته بل ينفذ مخطط التحالف بينه وبين الاستعمار ، ومن ثم فالاستقالة معناها التسليم لأعداء البلاد . وأحس أصحاب هذا الاتجاه أن القوى الرجعية تنقض على المواقع الوطنية فرادى ، فاليوم تستهدف الوزارة فإن أفلحت فستنقض غدا على مجلس النواب ثم على بقية العناصر الوطنية الأخرى تستأصلها واحدة بعد الأخرى حتى تقضى على الثورة . وأيد هذا الاتجاه أكثر الزعماء .

وأراد البارودى أن يدع للخديو خط رجعة يعود منه إلى صفوف الأمة إن ثاب إلى رشده ، فاستدعى محمد سلطان ، الوسيط ، وأبلغه أن النظارة مستعدة للاستقالة إذا غادرت الأساطيل مياه الاسكندرية ، وقد جاءت بحجة تثبيت سلطة الخديو ضد « الثورة الوطنية » ، ومن ثم فهو يستطيع أن يطلب إليها مغادرة الديار ،

---

(١) انظر : مصر للمصريين : ج ٧ ص ٧٣ محضر استجواب محمود سامى البارودى ؛ وج ٧ ص ٦٢ ، محضر ستجواب أحمد رفعت .

فإن لم يفعل بوضع الأمر كله بين يدى ممثلى الأمة ، وما على الخديو إلا أن يجمع مجلس النواب إلى الانعقاد ويكون فى حكمه فصل الخطاب[1]. وذهب سلطان بمقترحات البارودى ولم يعد ، فالخديو قد تملكه الوهم أن الأساطيل هى كل ما بقى له من أمل فى التخلص من الثورة الوطنية وعودة الحكم المطلق إليه ، وسلطان أنبأه بشعور النواب السيىء نحو وجود الأساطيل فى مياه الاسكندرية[2] وبكراهيتهم لكل تداخل أجنبى كراهة تزداد كل يوم عما قبله[3] .

وكان هناك شطر آخر من مخطط الرجعية والاستعمار تولاه الطرف الثانى من « التحالف غير المقدس » ، فقد أرسل قنصلا الدولتين — معتمدين على تهديد الأساطيل — موظفا من سفارة فرنسا إلى « عرابى » يطلب منه باسمهما مغادرة البلاد[4] . واجتمع مجلس الثورة ، وعرض عرابى عليه طلب القنصلية فاستنكر المجلس تدخل الدولتين السافر فى شئون البلاد ، وقوبل طلبهما بالاستياء والغضب الشديدين « حتى لقد صرح أحدهم — أمام الموظف الفرنسى الذى ينتظر الرد — أن الجيش يمزق عرابيا إذا هو تخلى عن الثورة واعتزلها[5] » .

وظهرت أهداف المخطط واضحة أمام رجال الثورة والوزارة ، فقد كانت ترمى إلى الإطاحة بالبارودى وعرابى وهما حجر العثرة فى سبيل إعادة البلاد إلى أيدى الرجعيين ونفوذ الاستعمار ، وأخذت العناصر الوطنية تتأهب لما ينذر به الموقف من جسيمات الحوادث ، وصمم مجلسا الثورة والوزارة على ألا يقرا أى

---

(١) أنظر: مذكراتى فى نصف قرن جـ١ ص ١٤٠ . (٢) المصدر السابق .

(٣) تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ٢٤٢ . (٤) مذكراتى فى نصف قرن جـ١ ص ١٤٠ .

(٥) محمود الخفيف : الزعيم المفترى عليه ص ٢٠٣ ؛ وأنظر: البحر الزاخر جـ١ ص ٢١٦ .

تدخل لانجلترا وفرنسا فى شئون البلاد وإن أدى ذلك إلى القتال . وأراد البارودى أن يكون هذا القرار مقدساً ليسد على الشيطان منافذ الدس والخديعة بين زعماء الثورة وكبار الضباط [١] ، فدعاهم جميعاً إلى « تحالف مقدس » يعقدونه بشكنات عابدين ، وتلا عليهم الشيخ محمد عبده قسم الوفاء للثورة وتجديد الولاء لمبادئها على المصحف والسيف [٢] وهم يرددون بعده : « والله العظيم ، والله العظيم والله العظيم قاهر السموات والأرض ، والمتسلط على القوى والقدر ، وحق مافى كتاب الله تعالى أننى وأنا (فلان) لا أخون وطنى ، ولا أخون نفسى ، ولا أغش إخوانى ، ولا أحداً من أهل بلادى ، وأحافظ على عرضى وعلى دينى ، وعلى عرض أهل بلادى ، ولا أدع أحداً أيا كان يتعدى على أحد من أهل بلادى مادمت قادراً على منعه ، وإننى أحافظ على النظام وعلى القانون العسكرى بكل مايمكننى ، وبقدر استطاعتى ، وإذا حنثت بيمينى هذا فأكون مستحقاً لقطع الرقبة وشق الصدر ، وأكون محروما من مزايا الإنسانية والآداب [٣] »

وخرجت الصحافة الوطنية تعلن إلى الجمهور فى سخط وغضب مقترحات الخديو باستقالة الوزارة وطلبات معتمدى الدولتين بإبعاد عرابى عن الوطن ، فالتهبت العواطف وتحرك تيار الكراهية نحو الخديو والأجانب ومن انحاز إليهم من النفعيين والمستضعفين [٤] . وكان توفيق يتعجل القنصلين فى اتخاذ إجراء مسلح حاسم يقف به زحف الثورة وتيار الرأى العام قبل أن يكتسحه من الطريق ، وأن يعتمدا

---

(١) أحمد عرابى ، عبد العال حلمى ، طلبة عصمت ، يعقوب سامى ، على الروبى ، على فهمى ، محمد عبيد ، أحمد عبد الغفار ، الزمر ، حسن جاد ، على يوسف ، محمود فهمى ، عمر رحمى ، أنظر : مصر للمصريين ج ٧ ص ١٥٩ ، ١٦٤ .

(٢) مصر للمصريين ج ٧ ص ١٤٠ محضر استجواب على الروبى .

(٣) المصدر السابق ص ١٦٤ محضر استجواب الشيخ محمد عبده .

(٤) مصر للمصريين ج ٤ ص ٢٧٤ .

فى هذا التدخل على موافقة محمد سلطان رئيس مجلس النواب ومن انفصل معه من معسكر الوطنيين[١] . واهتدت الدولتان إلى منفذ التفرقة وطريق التدخل ، فوجهتا إلى الحكومة المصرية وإلى الخديو فى ٢٥ مايو ١٨٨٢ «المذكرة المشتركة» أو البلاغ الأخير يطلبان : « سقوط الوزارة البارودية ، ونفى أحمد عرابى خارج البلاد ، وتحديد إقامة على فهمى وعبد العال حلمى فى الريف المصرى[٢]».

ونفذ الشيطان فعلا من الصدع الذى أحدثه محمد سلطان فى إجماع مجلس النواب وفى الصف الوطنى ، فقد عزت الدولتان مطالب المذكرة إليه وهو رئيس مجلس النواب كاقتراح لحل الأزمة ! وذهب البارودى والوزراء إلى الخديو يستطلعون رأيه فى المذكرة ، ويقص البارودى ما حدث من توفيق فيقول[٣]: « ولما عرضت تلك اللائحة على الحضرة الخديوية صدر لى نطقها بأن القنصلين المذكورين قدما لها لائحة بالنص عينه ، ولما سئل جنابه عن رأيه استصوب عقد جمعية والمذاكرة فى هذا الأمر ، وما يستقر عليه الرأى تحرر به كتابة ، وأنه أرسل نسخة من تلك اللائحة تلغرافياً إلى الباب العالى وينتظر التعليمات . وطلب منا الحضور فى اليوم التالى » . واستدعى البارودى محمد سلطان ليمثل أمام مجلس الوزراء ، وواجهه بالمذكرة وبما نسبته إليه من وساطته واقتراحاته لحل الأزمة ، ووجد عميل الرجعية والاستعمار الجديد أن الشر يبدى ناجزيه له ، وأنه إن أقر بإجراء اتصالات مع معتمدى الدولتين بتوجيه من الخديو لينال المنصب الذى وعده به فسيكشف عن المخطط الذى يعمل فيه لحساب نفسه ، فلجأ إلى الكذب

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ٢٤٢ .

(٢) نص المذكرة فى جريدة الوطن عدد ٢ يونيه ١٨٨٢ .

(٣) مصر للمصريين جـ ٧ ص ٧٣ محضر التحقيق مع محمود سامى البارودى وانظر أيضاً جـ ٤ ص ٢٧٤ .

وتنصل من التهمة ، « ونفى أنه اتصل بالقنصلين أو ذكر مقترحات أو إشارات لا يعنيه أن يقدمها أو يبديها باسمه الشخصى ولا بصفة كونه رئيس مجلس النواب فإن هذا المجلس غير ملتئم الآن[1] » .

وغنى عن البيان أن البارودى ومجلس وزرائه قد اتفقوا بالإجماع على رفض المذكرة ، لأن « الطلبات المدونة فى اللائحة التى قدمها قنصلا انجلترا وفرنسا تتعلق بمسائل داخلية تختص بالأمور الإدارية التى اعترفت الدول الكبرى دائماً بأن حرية العمل فيها من خصائص الحكومة المصرية ، ولا يمكن لحكومة الجناب الخديو أن تلج باب المباحثات والمناظرات فى هذه القضايا دون التعدى على الفرمانات السلطانية والمعاهدات الدولية ، التى حددت مقام مصر الخصوصى ، وبدون نقض القوانين الشورية لهذه البلاد التى هى أعظم كفالة تتكفل ببقاء الحال على ما هو عليه[2] » . وأعدت الوزارة مذكرة رسمية بهذا الرفض ، وانتظرت حتى تأتى التعليمات التى زعم الخديو أنه فى انتظارها من الآستانة ، ولكن الدوائر الوزارية والشورية علمت فى اليوم التالى أن الخديو قبل مذكرة الدولتين دون انتظار لرد الآستانة أو مشورة مجلس وزرائه[3] . وذهب البارودى رئيس الوزراء ومصطفى فهمى وزير الخارجية إلى الخديو ليتعرفا جلية الأمر ، وحين سأله البارودى عن رأيه فى مذكرة الدولتين وعن رد الآستانة أجابه بقبوله لها ، فاعترض على هذا القبول قائلا : « إنه كان يجب الرجوع فى هذا الأمر إلى السلطان والوزارة فهو أمر متعلق بالمعاهدات الدولية وبأمور داخلية ، والدستور ينص على ألا يتخذ الخديو قراراً إلا بموافقة وزرائه ، وعندئذ طلب

---

(١) من رد الوزارة على المذكرة المقدمة من الدولتين ونص الرد فى جريدة الوطن عدد ٢/٦/١٨٨٢ .
(٢) من رد الوزارة على المذكرة ونص الرد فى المصدر السابق .
(٣) مذكراتى فى نصف قرن ج ١ ص ١٤٠ .

رئيس النظار صدور « دكريتو » يجمع النواب لعرض الخلاف عليهم فأبى الخديو ، وانسحب البارودى مع وزير الخارجية دون استئذان لا متماضيهما مما سمعاه[١] » .

الوزارة الوطنية تستقيل :

وجد البارودى أن الأزمة بين الوزارة والخديو أصبحت تهدد مستقبل الوطن ، ولم يعد الحكم فيها يخص مجلس النظار وحده ، فدعا إلى عقد « جمعية عمومية » تمثل الأمة ، وتضم النظار ، وأعضاء مجلس النواب ، ورجال الثورة ، والعلماء والأعيان[٢] . ولم يكن هناك خلاف فى الجمعية على رفض المذكرة ، ولكن السؤال الذى تبلورت المناقشة فيه كما يقول الشيخ محمد عبده هو « هل يمكن لنا أن نجمع مجلس النواب ؟ فأجاب محمد سلطان : أظن أن ذلك لا يكون إلا بأمر الخديو فنسأله فى ذلك ولا ريب أنه يوافق عليه ، فقال له أحد النظار وقد اكتشف خديعته : الخديو الذى كنت تطلب خلعه إن لم يمكن قتله قبل أيام[٣] » وانطلق صوت الشيخ محمد عبده فى الاجتماع يعبر عن رأى الشعب بمختلف طبقاته فيقول : « اجتماع مجلس النواب حق للشعب ونحن نوابه ، ولا بد لنا من أن نطلب النواب إلى القاهرة ، حتى لو أراد عرابى أن ينفذ ما طلب من إبعاده إرضاء للسياسة الأجنبية فليفعل ، أما نحن فلا نخضع لمثل هذه المطالب مهما أدى إليه الخلاف[٤] » .

رأى البارودى إجماع الأمة على رفض المذكرة المشتركة فجمع النظار وقرروا

---

(١) المصدر السابق ص ١٤٠ — ١٤١ ؛ وانظر أيضاً : مصر للمصريين ج ٧ ص ٧٣ ، محضر التحقيق مع محمود سامى البارودى .
(٢) تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٢٤٢ .
(٣) المصدر السابق . (٤) المصدر السابق ص ٢٤٣ .

إرسال مذكرة الرفض - التى أعدت من قبل - إلى قنصلى الدولتين حتى يسجلوا بها رد حكومة البلاد الشرعية لتنقض قبول الخديو لها . وبعد أن اطمأن البارودى إلى أن رد الحكومة الشرعية قد وصل مندوبى الدولتين جمع النظار مساء ٢٦ مايو ، وبحثوا موقف الخديو وتعديه على الدستور ، ونقضه لاتفاق ١٥ مايو الذى تعهد فيه بألا يقطع برأى يمس مستقبل البلاد أو يتصل بالدول الأجنبية إلا بعد مشورة الوزارة وعن طريقها ، وقرر الوزراء أن يحتجوا احتجاجاً رسمياً على قبول توفيق لمذكرة الدولتين ، وإظهارا لهذا الاحتجاج قدم البارودى كتاب استقالته إلى الخديو يقول فيه : « إن جنابكم العالى قد أبلغتمونا عند وصول (الدونمتين)[1] الانجليزية والفرنساوية بأنكم حررتم إلى الآستانة بطلب التعليمات . ولما كنا منتظرين ورود جواب من الباب العالى إذا بقنصلى فرنسا وبريطانيا الكبرى قدما لحضرة رئيس مجلس نظاركم لائحتهما بتاريخ ٢٥ مايو . وبناء على أوامر جنابكم العالى اجتمعنا والتأم مجلسنا وقرر هذا الجواب المرفق مع هذا ، وعندما توجهنا إلى جنابكم لاستشارتكم أخبرتمونا بأنكم قبلتم لائحة وكيلى فرنسا وبريطانيا العظمى ، وهذا القبول مباين لما أجمع عليه رأى كل النظار إجماعاً كلياً فإن قبول تدخل الدول الأجنبية فى هذه القضية يمس بحقوق الحضرة السلطانية وباستقلال البلاد . وبناء على ذلك نتشرف بأن نقدم لجنابكم استعفاءنا جميعاً[2] » .

كان افتئات الخديو على الدستور ، وقبوله لائحة الدولتين ، واعترافه بحقهما فى التدخل فى شئون البلاد ، واستعداؤهما على استقلال الوطن ، الشرارة التى فجرت بركان الثورة المحتدمة فى قلب البارودى على توفيق ، فقامت قيامته وأعلنها

---

(١) الدونمة : البارجة الحربية .

(٢) نص خطاب الاستقالة فى الوطن ٢ يونيو ١٨٨٢ .

عليه حرباً شعواء ، أنفة مما فعله حليف الاستعمار وركيزة الرجعية ، وانتقاماً لكرامة هذا الوطن الذى عرضته الخيانة للخطر ، ورأى البارودى أن الداء كله كامن فى توفيق ، ذلك الأفعى الذى أودت سمومه بالوطن أو كادت ، فيقسم أنه لن يهدأ نفساً حتى يخلص البلاد منه ولو بإراقة الدماء ، وبتقديم حياته قرباناً لوطنه . ويدق مارد الشعر طبوله وتزيد رناتها من ثورة البارودى النفسية فينشـد :

تَاللهِ أهدأ أو تقومَ قيامةٌ فيها الدماء على الدماء تُرَاقُ
أنَا لا أُقِرُّ على القَبِيحِ مهابَةً إن القَرَارَ على القبيح نِفَاقُ
قَلْبِي على ثقـةٍ ونفسى حرةٌ تأبى الدَّنِيَّ ، وصَارِمِى ذَلَّاقُ
فَعَلامَ يخشى المرء فُرقَةَ رُوحِهِ أَوَلَيسَ عاقبةُ الحَيَاةِ فِرَاقُ ؟

ثم يصور لنا عملاء الرجعية الجدد بقيادة سلطان ويرد عليهم وقد شنوا عليه حملة دعائية تلومه على الموقف المتعنت الذى وقفه من الخديو صاحب السلطة الشرعية فى البلاد فيقول :

عَابُوا علىَّ حَمِيتى وَنِكَايَتِى والنارُ ليس يعيبُها الإحْرَاقُ
فاعْرِفهمُ ، واحذَرْ تشَابُهَ أمرهم لا تستوى الأغلالُ والأطواقُ
لا تحسَبَنَّ الرفقَ ينزعُ غِلَّهم الشرُّ داء ماله إفـــرَاقُ[1]
شَرَوُا الضلالَةَ بالهدى ، واغترَّهم لينُ الحَيَاةِ وماؤُها الرقْرَاقُ
فترَى الفَتى منهم كأنَّ برأسِهِ نزغَ الجنُونِ ، فليسَ فيه لَيَاقُ

---

(١) إفراق . برء وشفاء .

مُتَلَوِّنُ الأخلاقِ بينَ عشيرةٍ جهلاً ، كما يتلَوَّنُ الشِّقِرَّاقُ[1]
لَهِجٌ بعاريةِ الحياةِ ، وما درى أنَّ الحياةَ إلى المَنُونِ مَسَاقُ

ثم يتحول إلى رأس الخيانة وسليل الرجعية فليطخه بالعار ويصمه بالخزى ، ويضع صورته على معبر التاريخ فى إطار من الذلة والهوان فيقول فيه :

عِدَادُكَ فى سِلْكِ البريَّةِ خزيةٌ ودعواكَ حقَّ الملكِ أدهى وأعظمُ
لقد هانَتِ الدُّنيا على الناسِ عند ما رَأَوْكَ بها فى مُلْكِ يُوسفَ تَحْكُمُ[2]
فإن تَكُ أُولئك المقاديرُ حكَّمتها فقد حازها من قبلُ عبدٌ مُزَنَّمُ[3]
وشتانَ عبدٌ بالحجَّةِ ناطقٌ وحرٌّ إذا ناقشتَه القولَ أَغْتَمُ[4]
فهـذا أذلَّ المُلْكَ وهو معزَّزٌ وذاك أعزَّ المُلكَ وهو مهضَّمُ
فمَنْ شكَّ فى حُكمِ القضاءِ فهذه جليةُ ما شـاء القضاءُ المحتَّمُ

ولم تكن ثورة البارودى على توفيق وعملائه إلا صدًى لثورة الأمة ، فقد كان لاستقالته أسوأ وقع فى البلاد ، وأحس الناس نذر النكسة وبوادر العاصفة ، وأيقنوا أن الخديو قد باع البلاد للأجانب[5] ، وفتح لهم أبواب السيطرة على مصاريعها . فقامت الأمة قومة رجل واحد ، وتأججت الثورة فى القلوب ، وأخذت طوائف الأمة تعلن انضمامها إلى البارودى وعرابى ضد الخديو

---

(١) الشقراق . طائر يسمى الأخيل .

(٢) يشير إلى يوسف الصديق الذى قام على خزائن مصر .

(٣) يشير إلى كافور الأخشيدى ، وكان مملوكا أسود اشتراه محمد الإخشيدى واستوزره ثم صار إليه أمر مصر وسوريا ، وكان يقصده العلماء والشعراء ، توفى فى مصر عام(١٩٦٨) ؛ المزنم : الملحق بغير قومه .

(٤) أغتم : أعيى لايبين.   (٥) تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٢٤٢ — ٢٤٣ .

وأنصاره[١] ، وعقدت الاجتماعات الوطنية فى أنحاء البلاد تأييداً لموقف الثوار وإعلانا لرفض « المذكرة الأجنبية » وتنديداً بموقف « الخائن توفيق »[٢] ، وصدرت الفتاوى من شيوخ الأزهر وعلمائه بخيانة توفيق وكفره ، ونودى بخلعه فى اجتماع النواب والأعيان ورجال الجيش فى منزل محمد سلطان نفسه فى الليلة المعروفة « بليلة أبى سلطان »[٣]. وحضر إلى العاصمة — كما يقول عرابى فى مذكراته — « جميع أعيان البلاد ومستخدمو الحكومة ، وقدموا لنا مئات العرائض بواسطة مديريهم محتجين فيها على عمل الخديو ويطلبون أحد أمرين : إما رفض اللائحة المشتركة ، أو عزل الخديو الذى قبل تداخل الأجانب فى أحوال البلاد الداخلية[٤] » . وتصف صحيفة كبرى من صحف الاستعمار إجماع الأمة ووقوفها صفا واحداً ضد توفيق والتدخل الأجنبى فتقول : « وخرج علماء الأزهر وقساوسة الكنائس وحاخامات المعابد ، وأعضاء مجلس النواب ، وأعيان الفلاحين ، ومندوبو المدارس والمعاهد ، وفريق كبير من التجار وأصحاب الحرف ، وساروا إلى قصر الخديو وطلبوا رفض المذكرة[٥] » . وبالرغم من كل ذلك فقد أمعن الخديو فى موقف العداء من الأمة ولم يرع شعورها لأنه يعلم علم اليقين أن النفوذ الأجنبى هو سنده الوحيد فى بقائه بمنصبه ، ولو تخلى عنه فمآله وأسرته إلى الزوال ، فاستمسك به وربط به مصيره ودار فى عجلته ، وكره الشعب والأمة .

---

(١) أنظر : التيمس البريطانية فى ٢٩/٥/١٨٨٢ . (٢) بلنت : التاريخ السرى ص ٣٠٧ .

(٣) تفاصيل اجتماع هذه الليلة فى مصر للمصريين ج ٧ ص ٩٢ محضر استجواب يعقوب سامى ؛ و ج ٤ ص ٢٧٦ ؛ والبحر الزاخر ج ١ ص ٢١٧ .

(٤) مذكرات عرابى المخطوطة ص ٢٦٨ . (٥) التيمس البريطانية فى ٢٩/٥/١٨٨٢ .

وفشل توفيق فى تعيين وزارة تخلف وزارة البارودى الوطنية فى الحكم وتحمل جريرة ما فعل ، وخشى أنصاره وأتباعه من مواجهة تيار الغضب والكراهية الذى يجتاح البلاد فتنحوا عن قبول الوزارة . وساد البلاد الاضطراب والذعر ، وكادت تسلم الأمور فيها إلى الفوضى ، فليست هناك من وزارة مسئولة[1]، والجيش شق عصا الطاعة على الخديو وأعلنه بالعصيان[2]، وأصاب الأجانب المقيمين موجة من الهلع والخوف ، ذلك أن تدخل انجلترا وفرنسا فى شئون البلاد ووجود أسطوليهما فى مياه الإسكندرية قد عبأ الشعور العام بالكراهية ضد الأجانب جميعا ، وأصبحت البلاد كالبركان الذى يموج ويوشك أن يأتى بالحمم فلا يبقى ولا يذر .

قدر « البارودى » الخطر الذى يتهدد الوطن ، وأحس الاضطراب الذى يسود نفوس الشعب والأجانب ، ورأى المؤامرات الدولية تخططها إنجلترا وفرنسا لخلق الأسباب والمعاذير ، ليستعيدا نفوذهما فى البلاد ، ويتخذا الخديو ذريعة وأداة تنفيذ ، فإذا الأمل الذى راود المصريين بالأمس القريب فى حكم جديد تسوده الحرية والعدالة والمساواة يذوى ويوشك أن ينقلب سرابا . ويصور البارودى المحنة التى يمر بها شعبه ووطنه فيقول :

كنا نودُّ انقلاباً نستريحُ به ... حتى إذا تمَّ ساءتنا مَصَايرُهُ
فالقلبُ مضطربٌ فيما يُحَاوله ... والعقلُ مُخْتَبَلٌ مما يحاذرُهُ
إنْ دام هذا أضاعَ الرشدَ كافِلُهُ ... فيما أرى ، وأطاع الغَىَّ زاجِرُهُ
تنكرتْ مصرُ بعدالعُرْفِ ، واضطرَبتْ ... قواعدُ المُلك حتى ريعَ طَائرُهُ
فأهمل الأرضَ جَرَّا الظُلمِ حارثُها ... واسترجع المالَ خوف العُدْمِ تاجِرُهُ

---

(١) ظلت البلاد ٢١ يوما بدون وزارة .

(٢) مصر للمصريين ج ٧ ص ١٦٢ محضر استجواب عبد العال حلمى .

واستحكم الهَوْلُ ، حتى مايَبيتُ فتًى   فى جَوْشَن الليـل إلاّ وهْوَ ساهره

ويرى البارودى ببصيرة السياسى وشفافية الشاعر أن المحنة لن تنكشف إلا بالثورة الحمراء ، فقد تحملت النفوس فوق طاقتها ولن يطول بها الزمن حتى تنفجر فى ثورة دموية عنيفة تستأصل أعوان الرجعية وعملاء الاستعمار وقدر لاحتدامها شهرين أو بعض شهر فيقول :

يا نفسُ لا تَجْزَعى ، فالخيرُ منتَظَرٌ   وصاحبُ الصبر لا تَبْلَى مَرَائِرُهُ
لعلَّ بُلْجَةَ نورٍ يُستضاء بهـا   بعد الظلام الذى عمَّتْ دَيَاجِرُهُ
إنى أرى أنفُساً ضاقَتْ بما حملت   وسوفَ يشْهَرُ حدَّ السيف شاهِرُهُ[1]
شهران أو بعضُ شهرٍ إن هى احْتَدمَتْ   وفى الجديدين ما تُغنى فَوَاقِرُهُ
فإن أصَبْتُ فمن رأىٍ ملكْتُ به   علمَ الغيوب ، ورأىُ المرء ناظِرُهُ

وفى مواجهة الذعر الذى أصاب الأجانب طلب قناصل الدول الأخرى[2] من الخديو ضمانا بالحفاظ على رعاياهم ، وأمام القلق الذى عم البلاد توافد العلماء والنواب ورجال الدين والتجار إلى قصر عابدين يشكون من الفوضى التى تنذر بالنكبة ، ويطلبون تعيين حكومة تحفظ الأمن فى البلاد . ووجد توفيق نفسه فى موقف العاجز الذى لا يمكنه تأليف وزارة ، والخائف الذى لا يستطيع أن يعطى ضمانا بالأمان لأحد ، واضطر أن يذعن للموقف فيطاب إلى أحمد عرابى أن يتولى وزارة الجهادية ليحفظ الأمن فى البلاد[3] .

---

(١) الجديدان : الليل والنهار ؛ الفواقر : جمع فاقرة وهى الداهية .
(٢) الروسيا والنمسا وإيطاليا وألمانيا .
(٣) عين فى ٢٨ مايو سنة ١٨٨٢ ، الوقائع المصرية فى ١٨٨٢/٥/٣١ .

الاستعمار يختلق المعاذير للاحتلال .

وجد توفيق وحلفاؤه زمام الأمور يوشك أن يفلت من أيديهم ، وقد أحبط خططهم تعيين عرابى حاكماً بأمره فى البلاد وعودة الأمن والطمأنينة إلى قلوب المصريين والأجانب على السواء ، ورفض « البعثة التركية » مذكرة الدولتين مضطرة بعد أن رأت إجماع الأمة على رفضها[٣] . ووجد مندوب انجلترا نفسه أيضاً وقد فشل فى خلق الأسباب للتدخل المسلح ، وكان لا بد إذن من مؤامرة جديدة تصور البلاد بصورة الفوضى والاضطراب فتلتمس انجلترا لنفسها العذر أمام « الرأى العام العالمى » فى احتلال البلاد . وتلاقت المصالح المشتركة بين ركائز الرجعية وطلائع الاستعمار فى القيام بعمل سريع يتخلص به الخديو من الثورة وزعمائها ، وتجد انجلترا المبرر للتدخل المسلح . وتمخض التحالف غير المقدس عن حادث الإسكندرية المعروف فى ١١ يونية سنة ١٨٨٢ ، والذى كتب عنه الشيخ محمد عبده فقال :

« إن الحكومة الإنجليزية على عادتها فى اختلاق العلل وارتجال المساءات قلبت وجوه المسائل ، واستدبرت طالع الحق ، واستقبلت وجه مطامعها ، واتخذت مجرد التغيير فى بعض نظامات الحكومة الخديوية سبباً للمناوأة ، واندفعت لتسيير مراكبها إلى مياه الإسكندرية تهديداً لحكومة الخديو ، وعدواناً على الوطن ، ثم نفخ بعض رجالها فى أنوف ضعفة العقول من الأجانب المقيمين بالثغر ، حتى أوقدوا فتنة هلك فيها المساكين ، قضاء لشهوة إنجليزية وأقامت منها حكومة انجلترا حجة فى العدوان على الأراضى المصرية[٢] » .

---

(١) بالرغم من الرشوة التى قدمها توفيق إليها لتكون فى صفه وقدرت الرشوة بمبلغ ٥٠ ألف جنيه غير الحلى والمجوهرات ؛ انظر التاريخ السرى ص ٢٢٦ .

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام ج ٢ ص ٣٤٤ .

وتتمة لخيوط مؤامرة التحالف أعلن الخديوى فجأة عزمه على السفر إلى الإسكندرية ، وعبثا أريد إقناعه بأن مركزه يجب أن يكون فى العاصمة على رأس حكومته ، قريباً من رجالها فى مثل هذه الظروف ، ولكن مذبحة الإسكندرية كانت فرصة له يحقق بها رغبته فى الالتجاء إلى الأسطول الإنجليزى[١]. ونصح « البارودى » عرابياً — وبيده مقاليد الأمور فى البلاد — أن يمنع الخديو من السفر ولو بالقوة ، لأنه إذا التجأ إلى الأسطول فقد تتخذ انجلترا منه ذريعة للتدخل المسلح متعللة بأنها تدافع عن صاحب السلطة الشرعى[٢] . ولكن عرابياً كان متأثراً بخطابات صديقه الفريد سكاون بلنت ومشورته ، فلم يكن يظن أن الدول تترك انجلترا تحارب مصر وخاصة بعد أن اختلفت مع فرنسا على التدخل[٣]. ومن ناحية أخرى فقد خاف عرابى من أن يستغل منع توفيق من السفر على أنه عمل إرهابى من جانب رجال الثورة ، « وآثر البقاء على مودة الخديو حتى لا يفسر عمله بالتحدى لسلطته فيهيء لأعدائه دليلا على صحة ما يزعمونه من تدخله وتسلطه حتى على حرية الخديو الشخصية[٤] .

وفى الإسكندرية بدأ الخديو وقنصل انجلترا العام « السير إدوارد ماليت» وأعوانهما حملة إشاعات ترمى إلى إثارة النفوس ، وتدعو إلى الاضطراب والأخذ بالثأر بين المصريين والأجانب ، « وأخذت الجاليات الأوربية تنظر إلى دسائس قنصل انجلترا بشيء من الريبة وكثير من القلق ، وترى أنها أسخطت الأهلين وقد تبعثهم على الثأر لأنفسهم من مذبحة الإسكندرية ، فأسرع قناصل

---

(١) دى فريسينيه : المسألة المصرية (١٩٠٥) ص٢٧٣ ، وكانت انجلترا قد انفردت بالعمل للتدخل بعيدة عن فرنسا .   (٢) مذكرات الاسرة .

(٣) أنظر : التاريخ السرى ص ٢٤١ ، ٢١٨ .   (٤) أحمد عرابى الزعيم المفترى عليه ص٢٦٩ .

النمسا وألمانيا وإيطاليا إلى الخديو وطلبوا منه تشكيل وزارة تتحمل المسئولية فى البلاد على أن يكون عرابى ناظراً لحربيتها[١] . ولم يكن الخديو يرغب فى تشكيل الوزارة لأن ذلك معناه عود بالأمور إلى مجراها الطبيعى وتهدئة للخواطر وحكم البلاد طبقاً للدستور القائم ، ولكنه اضطر تحت ضغط قناصل الدول إلى دعوة إسماعيل راغب ليشكل وزارة جديدة ، وأرسل إلى عرابى حاكم البلاد العام يقول « انتخبنا وعينا إسماعيل راغب رئيسا لمجلس النظار ... فليكن فى علمكم إحالة مقام الرئاسة لعهدة الباشا المشار إليه[٢] » .

واقترح محمود سامى البارودى على عرابى أن يشترط لتعاون « الحزب الوطنى » مع الوزارة الجديدة أن ينص برنامجها على أن تكون جميع المكاتبات والمشاورات الأجنبية الرسمية عن طريق الوزارة وحدها ، ولا يحق أن يقبل تلك المكاتبات أو المشاورات إلا بموافقة مجلس الوزراء[٣]. ولم يكن رئيس الوزراء الجديد يستطيع تأليف وزارته دون أن يتعاون معها الحزب الوطنى ، ومن ثم فقد رضخ توفيق لشرط الحزب ونص خطاب تشكيل الوزارة على أن يكون الحكم دستورياً ، وأن تكون المشاورات السياسية مع وكلاء الدول عن طريق وزير الخارجية[٤] .

أدار الخديو ظهره للشعب منذ سافر إلى الإسكندرية واستقبل بوجهه الأسطول البريطانى وأقام هو وأنصاره تحت ظلال مدافعه . وبقيت القاهرة مقراً لزعماء الحركة الثورية يتزعمهم عرابى والبارودى ، يجتمعون كل ليلة فى

---

(١) روتشتين: المسألة المصرية ص٢٠٢ — ٢٠٤؛ وانظر : مذكراتى فى نصف قرن ج١ ص١٥٣ .

(٢) مصر للمصريين ج ٥ ص ٢١ .

(٣) التاريخ السرى ص٤٢٦

(٤) نص الخطاب كاملا فى مصر للمصريين ج ٥ ص٢٢ — ٢٣ .

دار البارودى التى أصبحت مركزاً للحزب الوطنى [١] يدرسون التطورات السياسية ونتائج التجاء الخديو إلى الأسطول ، وخطة المندب التركى تجاه الحركة الوطنية ، وموقف الدول الأجنبية من القضية المصرية ، وغير ذلك من قضايا الساعة ومشكلات الأمة . وفى هذه الاجتماعات كان الزعماء يناقشون مستقبل مصر وأنواع الحكومات التى تصلح للبلاد ، وكانت « الجمهورية الحيادية » هى نوع الحكومة المفضل عند البارودى . ويقول شاهد عيان لهذه الاجتماعات [٢] :
« وأخذ محمود سامى وهو ذو ذكاء ومعارف واسعة يتكلم عن فوائد الحكومة الجمهورية لبلاد مثل مصر ، ومما قاله : لقد كنا نرمى منذ بداية حركتنا إلى قلب مصر إلى جمهورية مثل سويسرا وعندئذ كانت تنضم إليها سوريا ويليها الحجاز ، ولكننا وجدنا العلماء لم يستعدوا بعد لهذه الدعوة لأنهم كانوا متأخرين عن زمنهم . ومع ذلك سنجتهد فى جعل مصر جمهورية قبل أن نموت [٣] » .

كانت دعوة البارودى إلى قلب نظام الحكم فى مصر وإعلانها جمهورية مستقلة عن تركيا حيادية كسويسرا أول دعوة ظهرت فى مصر تنادى بالجمهورية ، وكانت تمثل فوق ذلك مرحلة من مراحل الوحدة العربية بانضمام سوريا والحجاز إليها . وتدارس زعماء الحزب هذه الدعوة ووافقوا عليها لكنها ظلت فى نطاق السرية حتى لا يستعدوا السلطان عليهم وخاصة بعد أن سحب قرار

---

(١) مصر للمصريين ج ٧ ص ٧٤ محضر استجواب محمود سامى البارودى، وكان من أبرز المجتمعين الشيخ محمد عبده ، والشيخ عليش شيخ الأزهر، والشيخ الهجرسى، وحسن موسى العقاد ، وعبدالله النديم ، وبعض أمراء الأسرة الخديوية، وعبد الرحمن البحراوى، والسادات، أنظر: التاريخ السرى ص٢٥٦ ، ٤٢٥ .

(٢) لويس صابونجى (١٨٤٣ — ١٩٢٨) صاحب جريدة النحله، وكان يصدرها من لندن باللغة العربية ، وقد اتخذه الفريد سكاون بلنت مراسلا له بالقاهرة يوافيه بأنباء الثورة العرابية فى يونيو ويوليو ١٨٨٢ .

(٣) من خطاب صابونجى إلى بلنت فى ١٨٨٢/٦/١٨ ، التاريخ السرى ص ٢٥٥ .

التدخل التركى المسلح تحت ضغط الرأى العام العربى والإسلامى ؛ بل كان الزعماء — سياسة منهم — يظهرون الولاء الدينى للسلطان ليستفيدوا من تأييده ، وهو ولا شك قوة دولية لها وزنها ، « وكانوا يستخدمونه لمصلحتهم ويعتمدون عليه حتى يروا الوقت ملائماً لإعلان الجمهورية المستقلة ، وقد كان هذا أساس عقيدتهم منذ البداية ، ولكنهم تبصروا فى العواقب فرأوا أن يسيروا سيراً وئيداً حتى يتهيأ الرأى العام[١] » .

وفى اجتماعات زعماء الثورة بمركز الحزب[٢] كانت تناقش اتجاهات الدول الأجنبية ، والتدابير التى يجب أن تتخذها مصر لمواجهة الأطماع الأوربية ، ومدى استعداد الجيش والبلاد فى مواجهة احتمالات التدخل المسلح . ورأى البارودى ببصيرة القائد الحربى أن قناة السويس هى أضعف نقط الدفاع فى المواقع المصرية ، « ونصح بأن تتخذ الإجراءات لردمها فى ساعات قلائل عند ما يبدو من جانب أوربا أو تركيا أول دلائل الاعتداء[٣] » . ولكن عرابياً استبعد فكرة الاعتداء عن طريق القناة تحت تأثير الوهم الذى خادعة به دليسبس من حيدتها واستعداد الدول وخاصة فرنسا لمنع أى اعتداء يأتى من ناحيتها[٤] » .

عاد الأمن واستتب النظام فى الأيام الأولى لوزارة إسماعيل راغب ، ولم يؤد حادث الإسكندرية الغرض المنشود لمدبريه ، وكان لابد لمعسكر الرجعية والاستعمار من خلق تعلات وأسباب جديدة تنفذ منها انجلترا إلى احتلال البلاد . وكان أول

---

(١) التاريخ السرى ص ٢٥٧ .

(٢) دار محمود سامى البارودى : مصر للمصريين ج ٧ ص ٢٧٤ ، التاريخ السرى ص ٤٢٥ .

(٣) التاريخ السرى ص ٤٢٧ .

(٤) أنظر المكاتبات بين عرابى ودليسبس فى التاريخ السرى ص ٤٥٥ — ٤٦٠ ؛ وانظر : تاريخ الثورة العرابية ص ٤٠٢ ، ٤١٥ ـ ٤١٧ .

المعاذير المختلقة منشوراً أصدره الخديو فجأة ودون سـبب ظاهر فى ٢١ يونيو ١٨٨٢ يبدى فيه خوفه على أرواح الأجانب المقيمين فى مصر فى هذه الظروف التى لايستتب فيها الأمن فى البلاد ، ويندد بما لاقوه من اضطهاد المصريين لهم فى حادث الإسكندرية . ومن الطبيعى أن يثير المنشور ثائرة زعماء الحركة الثورية ، وكان رأى البارودى أن يلتزم الخديو بالشروط التى أخذها على نفسه فى كتاب تأليف الوزارة بألا يصدر منشوراً إلا عن طريقها ، واعتبر هذا المنشور دليـلا على سوء نية الخديو ، ومحاولة منه سافرة فى إلقاء تبعة حادث الإسكندرية على المصريين حتى يتألب عليهم الرأى العام العالمى . وأيقن البارودى أن توفيقاً لا يمـكن أن يعود إلى حظيرة الوطنية ثانية ، فرأى أن يخلع ويولى ابنه عباس تحت الوصاية بدلا منه(١) .

أما ثانية التعلات والأخيرة فى سلسلة الاختلاقات فـكانت طلب الأدميرال سيمور قائد الأسطول البريطانى فى يوليو ١٨٨٢ وقف تحسين القـلاع على شواطىء الإسـكندرية ، لأن فى ذلك تهديداً للأسطول الموجهـة مدافعه إلى الإسكندرية ! وليس هناك تعـلة أصرح نفاقاً وأكثر تبريراً لمنطق الاستعمار المعكوس من هذه التعلة التى شهد عليها شاهد من أهلها بقوله فى مجلس العموم البريطانى : « أجد رجلا يحوم حول بيتى وعـلائم الإجرام بادية عليه فأبادر إلى إحضار الأقفال والمتاريس وأحـكم سد نوافذى فيقول : إن هـذا إهانة له وتهديد ، ويحطم على أبوابى ويحتل منزلى ، ويعلن أنه إنما فعل ذلك دفاعاً عن نفسه ليس غير ! »(٢) . ومع ذلك فقد توقفت التحصينات ولـكن سيمور تمادى

---

(١) التاريخ السرى ص ٤٢٥ .

(٢) مستر رتشردز ، أنظر : المسألة المصرية لروتشتين ص ٢١٦ .

فى اختلاق المعاذير للاحتلال المبيت من زمن بعيد ، فطلب تسليم بطاريات حصون الإسكندرية وإلا ضربها بمدافعه !

لسنا بصدد البحث حول قانونية هذا الطلب أو إقامة الحجة على أنه تلمس مكشوف وذريعة واهية لما وراءه من أمر كان قد تقرر من أمد بعيد ، ولكن الذى يعنينا هنا أن الأمة لم تجث على أقدامها ذليلة تطلب الرحمة من العدو وهى تدرك تأثير قوة مدافعها الحربية الصغيرة أمام مدافعه الضخمة ؛ بل رفعت رأسها شامخة فى وجه أميرها الخائن ومدافع الاستعمار الغاشم ، ولم تفرط فى كرامتها بالاستسلام . واتخذت مصر بالأمس البعيد نفس القرار الذى اتخذته بالأمس القريب تجاه الإنذار من نفس العدو[1] ، وأعلنت أنها ستخوض معركة الكرامة الوطنية فإن هزمت وهى تحمل شرفها فوق هامات قتلاها كان أكرم لها وأشرف من أن تحقن دماء أبنائها بالجبن والعار والاستسلام الذليل .

رفض مجلس النظار الإنذار البريطانى ورد عليه فى إباء وفخر يقول : « لم تعمل مصر شيئاً يقضى بإرسال هذه الأساطيل المتجمعة ، ولم تعمل السلطة المدنية ولا السلطة العسكرية أى عمل يسوغ مطالب الأدميرال . . . ونحن هنا فى بيتنا ووطننا فمن حقنا بل من الواجب علينا أن نتخذ عدتنا ضد كل عدو مباغت يقدم على قطع أسباب الصلات السليمة التى تقول الحكومة الإنجليزية إنها باقية بيننا . ومصر الحريصة على حقوقها الساهرة على تلك الحقوق وعلى شرفها لا تستطيع أن تسلم أى مدفع ، ولا أية طابية دون أن تكره على ذلك بحكم السلاح[2] » .

---

(١) سنة ١٩٥٦ فى معركة السويس . (٢) الوقائع المصرية فى ١٢ يوليو ١٨٨٢ .

بين الحرب والهزيمة والسجن

ضرب الإسكندرية وأعلان الحرب :

وضربت الإسكندرية فى ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ بقنابل الأسطول البريطانى ، وما أشبه الليلة بالبارحة فقد كانت الدعاية الاستعمارية تصور للعالم كله أن المصريين جميعاً فى صف الخديو ضد الحركة الثورية ، وأنه عند إطلاق أول قنبلة من الأسطول سيسارع الناس ويقبضون على زعماء الحركة ويضعونهم عند أقدام الخديو[١] . ولكن الأمة كلها نفرت للقتال ووهبت نفسها فداء للوطن ، فقاتلت طوابى الإسكندرية ، وأدت مدفعية الساحل واجبها كاملا وظلت تضرب العدو حتى أسكتتها قنابل الإنجليز وكانت أحدث صنعا وأبعد مرمى . وتفانى أهل الإسكندرية فى الدفاع عن مدينتهم بالرغم من أن الحرب كانت حرب مدافع وحصون وبوارج ، وبذلوا ما استطاعوا من تضحية وإقدام . ويقول الشيخ محمد عبده : « كان الرجال والنساء تحت مطر الكلل ونيران المدافع ينقلون الذخائر ويقدمونها إلى بعض بقايا الطوبجية الذين كانوا يضربونها وهم يغنون[٢] » . ويقول محمود فهمى[٣]:« رأيت فى ذلك الوقت بعينى ما حصل من غيرة الأهالى بجهة رأس التين وأم كبيبه وطوابى باب العرب وهمتهم فى مساعدة عساكر الطوبجية من جلبهم المهمات والذخائر وخراطيش البارود والمقذوفات هم ونساؤهم وأولادهم ، والبعض من الأهالى صار يعمر المدافع ويضربها » .

---

(١) التاريخ المصرى ص ٢٦٦ . (٢) تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ٢٥٠ .

(٣) رئيس أركان حرب الجيش المصرى فى هذه الحرب ، البحر الزاخر جـ ١ ص ٢٢٠ .

وبعد قتال عنيف تغلبت القوة والمعدات على الشجاعة والحمية ، ونزلت الجنود الإنجليزية إلى رأس التين مقر عميلها توفيق الذى سارع فأبرق إليهـا يهنئها بالنصر واحتلال البلاد ، ويضع نفسه تحت تصرفها وحمايتها !

وصلت أخبار الاعتداء على الإسكندرية إلى « البارودى » فى القاهرة فهرع إلى ملابس الميدان ، يرتديها وأخذ عتاده الحربى وأسرع إلى الإسكندرية ليضع نفسه فى خدمة الوطن ويشارك فى المعركة ، وذهب فور وصوله إلى معسكر « البـاب الشرقى » مقر القيادة العسكرية وأثبت وجوده هناك ثم أخذ يتجول فى المدينة[1] ليرى معالم الاعتداء الغاشم وآثار الطمع البشرى من تخريب وتدمير وأشلاء ودمار وضحايا أبرياء . سار البارودى يبكى الدمن والأطلال فى شمر صامت ، ولم تـكن دمن « لمياء » ولا أطـلال « غادة الجزيرة » هذه المرة ، بل أطلال البشر ودمن المواطنين ، وقابل فى تجواله زميـل الجهاد عبـد الله النديم وهو هائم يرى موطنه الحبيب وقد دكته القنابل وأحرقت مواقع صباه . ولحق بهم الشيخ محمد عبده وقد أفزعه الاعتداء الذى لايقره دين سماوى ولا ترضى به شريعة إنسانية ، ولـكنه جريمة ذئاب الاسـتعمار وضباع الرجعية . وقضوا ليلهم جميعا فى منزل السيد مصباح والد عبـدالله النديم .

وفى صباح اليوم التالى اجتمع البارودى بعرابى ومجلس القيـادة الحربية[2] ، وأخذ يستمع إليهم وهم يشرحون تطورات الموقف من الناحيتين السياسية والحربية.

ورأى البارودى أنها الحرب بين مصر وانجلترا لا مفر منها فى سبيل الشرف

(١) انظر : مصر المصريين جـ ٧ ص ٣٢٣ .

(٢) كان مكوناً من محمود فهمى ، وطلبـه عصمت ، وعمر رحمى ، وخليل كامل ، وعيد محمد ، وسليمان سامى ، ومصطفى عبد الرحيم ، ويرأسه أحمد عرابى . أنظر : مصر المصريين جـ ٩ ص٩٠٣ .

والكرامة ، ومن ثم لابد من أن تعبأ البلاد لحرب طويلة مريرة وتواجهها صفاً واحداً . وحتى لا يتخذ الأعداء خديو البلاد رهينة أو ذريعة لاعتداء مغلف بخداع الشرعية ووسيلة لتفرقة الأمة وإضعافها فى جهادها المقدس ، نصح البارودى المجلس أن يعمل على إعادة الخديو إلى العاصمة فإن امتنع يعاد إليها بالقوة ، ووافق المجلس على اقتراح البارودى ووكل تنفيذه إلى سليمان سامى[١]. ورفض الخديو العودة وقرر المقاومة واستنجد بمن كان معه من أنصاره[٢] ، فذهبوا مع مندوب الوفد التركى إلى مقر القيادة وقابلوا عرابياً وطلبوا إليه أن يفك الحصار عن الخديو ، وضمنوا له أن يظل بقصره بالرمل ولا يلجأ إلى الإنجليز. وانخدع عرابى بهذا الضمان وفك الحصار[٣]، ونجا رأس الرجعية بخداعه ، ونجحت آخر مراحل الخطة المدبرة فلم تمض ساعات قليلة من فك الحصار حتى انتقل الخديو إلى سرى رأس التين ليكون تحت تصرف القائد الإنجليزى وحمايته ودخلت الرجعية فى دائرة الاستعمار لتكون تابعة له بعد أن كانت حليفته فاتخذها سبيلا إلى احتلال حاول أن يلبسه مسوح الشرعية

رأت القيادة العسكرية أن الإسكندرية بعد تحطيم حصونها وتعرضها للحريق من قنابل الأسطول البريطانى ونزول الإنجليز إليها لم تعد تصلح جبهة للدفاع وقررت الإنسحاب منها إلى منطقة كفر الدوار[٤]،ورأت أن يعود البارودى إلى القاهرة ليتولى هو ويعقوب سامى وكيل الجهادية أمر تعبئة الأمة للقتال ، وتنظيم

---

(١) مصر للمصريين ج ٩ ص ٧٨٩ ، ٩١٧ ، ج ٥ ص ٦٠ ؛ وانظر : التاريخ السرى ص ٢٧٩ — ٢٨٠ .

(٢) محمد سلطان وحسن الشريعى وسليمان أباظة ومصطفى درويش رئيس البعثة التركية .

(٣) مصر المصريين ج ٩ ص ٩١٧ محضر استجواب طلبه عصمت .

(٤) مصر للمصريين ج ٧ ص ١١٠ محضر استجواب محمود فهمى .

الخطوط الخلفية ، وتوفير الإمدادات والتموين البشرى والمادى للحرب [١]. وعاد البارودى إلى القاهرة ليجد يعقوب سامى قد شكل مجلساً عرفياً من وكلاء الوزارات وبعض كبار الضباط والموظفين [٢] ليتولى الأحكام العرفية التى أعلنها رئيس الوزراء فى البلاد [٣] ، وليتخذ التـــدابير اللازمة للحرب والتحصينات الحربية للدفاع عن الوطن ، فانضم البارودى إلى المجلس يشارك فى جلساته ويسهم بجهده وآرائه فى توجيهه [٤] .

ولم تمض فترة طويلة حتى تحقق ما تنبأ به « البارودى » فى الإسكندرية فقد صبغ الانجليز عدوانهم على مصر بصبغة الشرعية ، وأذاعوا على الشعب المصرى فى منشوراتهم أنهم ماجاءوا ليستعمروا البلاد وإنما هم نواب عن الخديو فى إخماد الثورة التى قامت ضده ، وأنهم ليسوا بأعداء للمصريين ، وتقتصر مهمتهم على إعادة حقوق الخديو التى سلبها الثوار منه ثم يخرجون بعد ذلك من البلاد [٥] . وخديعة أخرى قام بها الخديو بإيعاز من قوات الاحتلال المهيمنة على مصيره ليخذل بها الأمة ويحطم من معنوياتها فى مواجهة المعتدى الغاصب ، ذلك أنهـــــا دفعته إلى أن يبرق إلى عرابى بكفر الدوار يأمره بالتسليم للانجليز . وطبيعى أن يأبى عرابى التسليم ويرد على الخديو ينعى عليه انضمامه إلى عدو البلاد ، ويبين له أن الأمة تدافع عن شرفها وكرامتها دفاعاً شرعياً قرره مجلس الوزراء والمجلس العالى الذى حضره الخديو نفسه ومندوب السلطان [٦] .

---

(١) المصدر السابق ج ٩ ص ٩٠٤ محضر استجواب إبراهيم فوزى ياور عرابى .
(٢) أسماء الأعضاء فى الوقائع المصرية ٢٣ يوليو ١٨٨٢ .
(٣) الوقائع المصرية فى ١٢ يوليو ١٨٨٢؛ والبحر الزاخر ج ١ ص ٢٢٤ .
(٤) مصر للمصريين ج ٧ ص ٩٧ محضر استجواب يعقوب سامى .
(٥) الوقائع المصرية سجلت المنشور بعد ذلك فى ١٨٨٢/٩/٢١ .
(٦) نص برقية الخديو والرد عليها فى الوقائع المصرية ١٨ يوليو ١٨٨٢ .

وأرسل عرابى إلى يعقوب سامى رئيس المجلس العرفى بالقاهرة صوراً من خطاب الخديو والرد عليه ، وطلب عقد « جمعية عمومية وطنية » من الذوات ، والأعيان ، والعلماء ، ورجال الدين يعرض عليها الموقف لترى رأيها فى الخديو ومطالبه[١] . وعقدت الجمعية مساء ١٧ يوليو بوزارة الداخلية ، وحضرها فريق من أمراء الأسرة الخديوية وشيخ الإسلام وقاضى القضاة ومفتى الديار وكبار العلماء والتجار والأعيان[٢] ، وتلا الشيخ محمد عبده الخطابات المتبادلة بين الخديو وعرابى . وبعد أن ناقش المجتمعون الموقف قرروا الاستمرار فى الاستعدادات الحربية وإرسال وفد يدعو النظار والخديو إلى العودة ليديروا الحرب من العاصمة[٣] .

وضربة أخرى وجهتها قوات الاحتلال إلى القوى الوطنية على يد الخديو العميل حين طلبت منه إعلان عصيان عرابى وعزله من وزارة الجهادية فى منشور أعلنه للناس[٤] . ودعيت « الجمعية الوطنية » فى القاهرة فعقدت اجتماعها الثانى فى ٢٢ يوليو ١٨٨٢ ، ونظرت فى منشور الخديو ثم قررت إبقاء عرابى فى منصبه وتوقيف أوامر الخديو ونظاره وعدم طاعتها أو تنفيذها ما داموا بالإسكندرية تحت سيطرة عدو البلاد[٥] .

وكان للبارودى فى مناقشات الجمعيتين الصوت المسموع والحجة الواضحة

---

(١) نص خطاب عرابى إلى يعقوب سامى فى المصدر السابق .

(٢) بلغ عدد الحاضرين أكثر من ٤٠٠ عضو ، أنظر الأسماء والقرارات فى الوقائع المصرية ٢٠ ، ٣١ يوليو سنة ١٨٨٢ .

(٣) الوقائع المصرية ٢٠ يوليو ١٨٨٢ ، وتفصيلات المناقشات فى مصر للمصريين ج ٥ ص ١٣٠ .

(٤) الوقائع المصرية سجلت المنشور فيما بعد فى عددها ١٨٨٢/٩/٢١ .

(٥) مصر للمصريين ج ٧ ص ٩٦ وحضر الجمعية الثانية أكثر من ٥٠٠ عضو ، أنظر الأسماء والقرارات فى الوقائع المصرية ٣١ يوليو ١٨٨٢ .

فى شرعية الحرب ووجوب الدفاع عن الوطن ، « فإن كتب الله لنا النصر تحققت الحرية والاستقلال ، وإن كانت الأخرى لم نعدم الشرف والكرامة ... أما التسليم للعدو فهو قضاء على كل شىء ، قضاء على ديننا ، وقضاء على وطننا ، وقبول المذلة والهوان[١] » . وأفتى شيوخ الأزهر وعلماؤه بمروق الخديو من الدين لانحيازه إلى جيش العدو المحارب لبلاد الإسلام والمسلمين . وانتشر العلماء والخطباء فى طول البلاد وعرضها يذيعون فتوى الأزهر ، ويعبئون الأمة للقتال ويستنفرونها للجهاد فى سبيل الله وحرب الإنجليز ، ويخطبون الناس فى المساجد والطرقات وفى الحقول والمجتمعات[٢] ، فأشعلوا الغيرة والحماس للوطن والدين ، وحركوا النفوس رغبة وحمية فى الاستشهاد فى سبيل الله ، وملأوا القلوب كراهية للخديو الذى باع الوطن للإنجليز أعداء الله والوطن والسلطان ، ووجهوا الأمة إلى رفض أوامره وخلع طاعته . ولذلك « لم تنجح منشورات الخديو فى أهل البلاد بل لم يكن لها فيهم أقل تأثير[٣] » .

وقامت الأمـــة كلها كرجل واحد تدافع عن دينها وشرفها ، وتوالت الإمدادات من المصريين جميعاً فكانت النساء يتبرعن عن طيب خاطر بحليهن ثمناً للعتاد والمؤونة الحربية ، ووهب الناس للجيش ما ادخروه لأنفسهم وأولادهم من طعام ، وانضم الرجال والشبان إلى معسكرات التدريب ليخوضوا المعركة ، وهرع الشيوخ إلى المساجد يدعون الله أن ينصر جيش الوطن والمسلمين[٤] . ويقول الشيخ محمد عبده : « لقد رأيت لمواطنين جميعا ينفرون إلى الحرب فى شوق وحمية لقتال المعتدين لافرق بين فلاح وبدوى ومدنى ، وكانت الغيرة الوطنية تملأ قلوب

---

(١) من حديث البارودى لحسن الشمسى صاحب « جريدة المفيد » فى عددها ٢٥ يوليو ١٨٨٢ .

(٢) التفصيلات فى الطائف ٢٨/٧/١٨٨٢ . (٣) مصر للمصريين جـ ٥ ص ١٣٥ .

(٤) برودلى : كيف دافعنا عن عرابى ص ٢٣٢ — ٢٣٣ .

الجميع . . . وكانت شوارع القاهرة تغص فى المساء بالاستعراضات العسكرية من الشبان يجولون فى شوارعها وهم ينشدون الأناشيد الوطنية[١] » .

كان الإحساس العام بين كبار الساسة وبعض ضباط الجيش بالقاهرة أن تركيز التحصينات والدفاع فى منطقة كفر الدوار يعطى الفرصة للعدو بغزو البلاد من منافذ الوطن المهملة دون تحصين وخاصة قناة السويس . وسافر البارودى وبعض الضباط إلى كفر الدوار ، وعقدوا مع عرابى وأركان حربه مجلساً عسكريا[٢] ، واستعرضوا الخطة العسكرية وقرروا تحصين الخط الشرقى ودمياط ، واتفقوا جميعاً على ما ارتآه البارودى ومحمود فهمى رئيس أركان الحرب ، من سد القناة لمنع الأسطول الإنجليزى من اختراقها واتخاذها قاعدة عسكرية ، « ولكن عرابياً وحده لم يوافق على سد القناة وظل متردداً فى هذا الشأن[٣] » واثقاً فيما وعده به « دليسبس » من حماية فرنسا والدول الأوربية لحيدتها ، وانفض المجلس دون أن يقنع عرابيا — وهو القائد الأعلى للجيش — بسد القناة .

والذى يدعو للعجب أن سد قناة السويس قد نوقش من قبل فى مجالس الثوار بالقاهرة فى الخطة التى عرضها البارودى احتمالا لاعتداء أوروبى أو تركى ، ووافق عليها عرابى وصرح وقتذاك للصحف « بأنه سوف يحترم القناة مادام العدو يحترم استقلالنا ، فإذا نشبت الحرب فإننا سنهدم القناة مؤقتاً عند أول طلقة مدفع وسأفعل ذلك آسفاً لأن القناة من طرق التجارة المحايدة[٤] » . ومن ناحية أخرى لم يكن عرابى يجهل أهمية هذا العمل فى الدفاع عن مصر « ولكنه كان يخشى

---

(١) كما نقله عنه برودلى ص ٢٣٣ .

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٢٥١ .

(٣) التاريخ السرى ص ٢٨٥ ؛ وجون نينه : عرابى ص ١٠٥ .

(٤) جريدة الاستاندرد البريطانية ٧ يوليو ١٨٨٢ .

—واها— ما يسمى بالرأى العام الأوروبى ، واستمع إلى النصائح الكاذبة التى خدعه بها دليسبس فاستمسك برأيه بالرغم مما ارتآه زملاؤه وكرروه عليه عشرات المرات ، تارة بالقول القارص وطوراً بالكتابة إليه ومع كل ذلك فقد أصر على رأيه فمهد للجنرال ولسلى نصراً من أسهل ما عرف فى تاريخ الحرب[١] » .

وتحقق ما تنبأ به البارودى ، ففى ٢٠ أغسطس ١٨٨٢ تحركت المدرعات وبوارج الأسطول البريطانى تحت جنح الليل إلى « بور سعيد » فاحتلتها ثم اقتحمت قناة السويس دون معارضة من دليسبس الذى ادعى حيادها خداعا حتى لا يسدها المصريون . وفاجأت الجيوش البريطانية الجيش المصرى المحول إلى المنطقة الشرقية قبل أن يقيم تحصيناته واستحكاماته واحتل القنطرة والإسماعيلية وشمال السويس على القناة. وتنبه عرابى للخدعة التى وقع فريستها[٢] فأبرق إلى الجيش المصرى بالمنطقة كى يسد القناة ، ولكن القرار جاء بعد فوات الأوان ! ومنح جيش الأعداء فرصة النصر كما قال قائده بعد الاحتلال بفترة : « لو أن عرابياً سد القناة كما كان ينوى لكنا الآن لا نزال فى البحر نحاصر مصر ، فإن تأخر عرابى ٢٤ ساعة نجانا ومنحنا فرصة النصر[٣] . وطارت نفس البارودى شعاعاً حين جاءته أنباء احتلال القناة ، وقد عرف بخبرة القائد أن كفة الحرب قد تحولت إلى مصلحة الأعداء وأن الوطن قد بات فى خطر ، وضاقت به نفسه وهو يرى الصواب ويريد أن ينفذه ولكن يهم فلا يقدر ، وينصح فلا يسمع لنصحه ، وتظل يده مغلولة فالأمر بيد غيره لا بيده ويتألم البارودى ويموج صدره بالحسرة فيهتف:

(١) جون نينه : عرابى باشا ص ١٠٥ .
(٢) البحر الزاخر جـ ١ ص ٢٢٩ .
(٣) التاريخ السرى ص ٢٨٧ .

لعَمْرى لقد أيقظتُ من كان راقداً وأنذرتُ ، لكنْ لم تكن تنفعُ النُّذْرُ
نصحتُ فكذبتم ، فلما أتى الرَّدَى عمدتُم لتصديقى وقد قضِىَ الأمرُ
فلم يبقَ فى أيديكمُ غيرُ حسرةٍ ولم يبقَ عندى غيرُ ما عافه الصَّدْرُ
فجاء الذى كنتم تخافون شرّه وزالَ الذى لم يبْقَ من بعدِه شِعْرُ

قائد الصالحية :

وعين البارودى قائداً « لمواقع الصالحية » غربى الإسماعيلية ، فسارع إلى تنفيذ الأمر الذى صدر إليه وهو يعلم أن الدفاع عن مصر أصبح بعد احتلال القناة والضفة الغربية أمراً ميئوساً منه من الوجهة العملية ، وفوق ذلك فقد كانت جيوش الإنجليز ضعف عدد الجيش المصرى[1] وتفوقه بالتدريب والمعدات الحربية الحديثة ، وكان الجيش المصرى موزعا على مناطق الدفاع فى البلاد[2] ويعتمد فى خطوطه الشرقية على « الرديف » والمستجدين . ولم يستنكف البارودى أن يكون تحت قيادة « راشد حسنى » قائد المنطقة أو قيادة عرابى العليا ، « ورضى أن يكون قائدا تحت الإدارة ، وأغمض عن أنه كان رئيسا للوزارة . . . وقام بما بيض تاريخه الجليل ، وحفظ له الذكر الجليل »[3] ، ولبى نداء وطنه حين دعاه كما يقول :

دَعَوْنِى إلى الجُلّى فقمت مبادراً وإنى إلى أمثال تلك لَسابقُ

وخرج البارودى إلى الحرب قائدا لفرقة من ١٢ ألف جندى من الأسلحة

---

(١) كان عدد الجيوش الإنجليزية ٦٠٠ر٥٠ جندى وعدد الجيش المصرى ٢٠ ألفا .
(٢) فى كفر الدوار ٨ آلاف و ٥٠٠ر٣ فى أبى قير و ٥٠٠ر٢ فى رشيد و ٥ آلاف فى دمياط ، أنظر : تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ٣٥٥ .
(٣) عبد الله النديم ومذكراته السياسية ص ٧٥ .

الثلاثة ، المشاة والسوارى والمدفعية[1] . وأخذ منذ وصوله إلى مواقعه « يواصل الليل بالنهار فى عمل الاستحكامات الحربية ومد خط دفاع طوله ٤ آلاف متر ، وعلى مراكز الطوابى وحصنها بحيث تستعصى على الأعداء »[2] . وكان موقع « الصالحية » يحمى خط المواجهة المصرى من حركة التفاف يقوم بها العدو ليطوق المواقع الرئيسية للجيش المصرى ، وظل جنودها دائما فى مناوشات مع طلائع الجنود الإنجليزية ويردونهم على أعقابهم قبل أن يجدوا إلى ظهر الجيوش المصرية منفذا[3] .

وفى الميدان جاء البارودى رسول يدعوه إلى القاهرة على عجل ، فأمه فى النزع الأخير تطلب فى إلحاح رؤية وحيدها ، ويتردد البارودى فى تلبية نداء ، فوطنه يريده أن يبقى ليدفع عنه المعتدين ، وسمع قائد المنطقة بالخبر فسمح له بالتغيب فى إجازة قصيرة يرى فيها أمه المحتضرة[4] . وألقى البارودى على أمه النظرة الأخيرة ثم استدار فى عجلة ليعود ، وفزعت الأم وهو يودعها ليذهب وقد ظنت أنه جاء ليدفع عنها الردى ويرد غائلة الموت أو يكون آخر من تراه ، ولم تدر أن هناك أما أخرى تناديه ويراها أحق بالرعاية والاهتمام وهى فى نزع مثل نزعها لكنه نزع الهزيمة ، ولو استسلمت لها لوضعت الأغلال فى أعناق أبنائها جميعا وهو منهم . وترك البارودى أمه وديعة بين براثن الموت وعاد إلى الميدان ليدفع عن أمه الكبرى غائلة الاحتلال . ولم يمض يوم وبعض يوم حتى

---

(١) أحمد عرابى : مذكرات عرابى ج ٢ ص ٢٠ (طبعة دار الهلال ١٩٥٣) .

(٢) الطائف عدد ٧٧ فى ١٨٨٢/٩/٧ .

(٣) المصدر السابق عدد ٧٣ فى ١٨٨٢/٩/١ .

(٤) مذكرات الأسرة الخاصة .

تخرمت المنية أمه ، وجاءه الناعى وهو فى الميدان فلم يملك لأمه الذاهبة إلا البكاء فى صمت . وتوشحت ربة الشعر بالسواد ، وناولته قيثارتها لينشد زفرات حزنه فى مرثية مطولة[1] صور فيها عواطفه نحو أمه وآلامه لفقدها وهو بعيد عنها فى معركة الشرف والكرامة ، وبدأها بقوله :

هَوًى كان لى أن ألبسَ المَجْدَ معْلَماً … فلما ملكتُ السَّبقَ عِفْتُ التَّقدُّما[2]
ومَنْ عرف الدُّنيا رأى ما يسُرُّه … مِنَ العيشِ هماً يتركُ الشَّهْدَ علقَما

ويقول فيها :

فَيَا خبراً شفَّ الفؤادَ فأوشكَتْ … سويداؤُه أن تَستحيلَ فَتَسجُمَا[3]
أشَادَ به الناعى ، وكنتُ محارباً … فألقيتُ من كفِّى الحُسَامَ المصمِّماَ[4]
وَطارتْ بقلبِى لوعَةٌ لو أطعتُهاَ … لأوشك ركنُ المجدِ أنْ يتهدَّماَ
وَلكنَّنى راجعتُ حلمِى لأنثَنِى … عَنِ الحربِ محمودَ اللقاءِ مكرَّماَ
فلمَّا استردَّ الجُندَ صِبْغٌ من الدُّجى … وعَادَ كِلاَ الجيْشَينِ يرتادُ مَجْثَماَ[5]
صَرفْتُ عِنَانِى راجعاً ، ومَدَامِعِى … عَلَى الخدِّ يفضَحْنَ الضَّمِيرَ المُكتَّما
فَيَا أُمتا ، زالَ العزَاءُ ، وأقبلَتْ … مصائبُ تنهَى القلبَ أنْ يتلوَّما
وقد كنتُ أخشى أن أراكِ سقيمةً … فكيفَ وقد أصبحتِ فى التُّربِ أعظُماَ
بلغتِ مدَى تسعينَ فى خَيرِ نعمةٍ … ومَنْ صَحِبَ الأيَّام دَهراً تهدَّماَ[6]
فَيَاليتَنَا كُنَّا تراباً ، ولم نكُنْ … خُلِقْنَا ولم نَقْدَم إلَى الدَّهْرِ مَقْدَماَ

---

(١) عدد أبياتها ٥٢ بيتا وهى من الجزء المخطوط من الديوان تحت عنوان «وقال يرثى والدته وقد ورد نعيها وهو فى الحرب» ؛ المخطوطة (س) ص ٢٣٨ — ٢٤٢ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٢٤٣ — ٢٤٧ .

(٢) فى المخطوطة (ج) عضت التقدما .

(٣) تسجم سويداء القلب : تسيل من الألم .

(٤) السيف المصمم : الماضى .

(٥) المجثم : محل النوم .

(٦) إشارة إلى أن أمه بلغت من العمر ٩٠ سنة وقد توفيت عام ١٨٨٢ فيكون مولدها عام ١٧٩٢ . وولدت محمود سامى البارودى وعمرها ٤٧ سنة .

لم تكن مصر تحارب فى جبهة واحـــدة ، ولم يكن السيف والمدفع هو الفيصل بين النصر والهزيمة ، ولكن مصر كانت تحارَب بأكثر من سلاح فى جبهات عديدة : كانت هناك جبهة استانبول ومؤامرات السياسة الدولية يستعمل فيها سلاح الضغط الدولى على السلطان ليؤيد الإنجليز فى حربهم ضد مصر ، ويمنحهم — وهو خليفة المسلمين — الصبغة الشرعية ، ويعلن عصيان عرابى حتى تزول قدسية الحرب من قلوب المحاربين المسلمين فينفضوا من حوله ، ويلقوا بأسلحتهم فيدخل المستعمر البلاد . وجثا السلطان على ركبتيه ضعفاً وذلة وأصدر فى ٦ سبتمبر ١٨٨٢ – كما طلب منه الإنجليز – منشوراً بعصيان عرابى وخروجه عن طاعة السلطان ، وشرعية اشتراك الإنجليز فى إخمـــاد العصيان المصرى [١] !!

وتلقف الخديو وأعوانه منشور السلطان وقد نشرته « جريدة الجوائب » فوزعوا منها — بواسطة العربان المأجورين وجواسيسهم — على الجنود المصريين وفى البلاد ألوف النسخ ، مرفقة بمنشورات الخديو التى تدعو إلى التسليم . وأحدث المنشور تمزقاً فى الجبهة الداخلية ، وهز عقيدة الكثيرين من الأهالى الذين يمدون الجيش بالمؤن والعتاد طواعية فى سبيل الله ، وزعزع الروح المعنوية بين الضباط ، « وكان صدمة أضعفت عزائمهم ووهنت بها قواهم [٢] » وفت فى عضد الجنود « فظنوا أنهم عصاة مخالفون لكتاب الله وسنة رسـوله [٣] » .

---

(١) نص المنشور فى مصر للمصريين جـ ٥ ص ٢٠٠ ؛ ونشر فى صحف الآستانة فى ١٨٨٢/٩/٦

(٢) مصر للمصريين جـ ٥ ص ٢٤٨ .

(٣) مذكرات عرابى (طبعة دار الهلال) جـ ٢ ص ١٨ .

واستطاعت جبهة الرجعية أن تحيط مواقع الجيش المصرى بالخيانة فاشترت الأعراب الذين يختلطون بالجيش ويعملون له أدلاء ومرشدين فى الصحراء[1]. وتمكنت من أن تزحف بالخيانة على مقر القيادة نفسه ، فاستعملت سلاح الرشوة والأمانى تغرى به النفوس الضعيفة والقلوب المريضة . وعرف « محمد سلطان » وهو يقود مخابرات جيش الاحتلال[2] أن توزيع الرشوة باسم الإنجليز قد يوقع الخونة فى الحرج فوزعها جنيهات ذهبية انجليزية باسم الخديو والسلطان ليكسو الخيانة ثياب التبرير[3]. واستطاع أن ينفذ إلى على يوسف — المشهور بخنفس — وعبد الرحمن حسن عضوى قيادة الجيش فيبعث إليهما بالرشوة ويعدهما بالرتب والنياشين[4] . وأخذ زميلا الخيانة يرسلان عقب كل اجتماع للقيادة خطة الجيش المصرى إلى محمد سلطان ، فيطلع عليها العدو[5] ويترصد الجيش الوطنى وينزل به الهزيمة .

وفى « معركة القصاصين الثانية[6] » حاول الجيش المصرى أن يدخلها بكل ثقله وقواته ليرمى بالعدو إلى القناة ، فاجتمع « مجلس الحرب » تحت قيادة عرابى ، « وحضره راشد حسنى وعلى فهمى وجميع القـــــواد الموجودين بمركز التل الكبير ومحمود سامى قومندان مركز الصالحية[7] » ، وقرروا الهجوم على مركز التجمع الانجليزى بالقصاصين ، ورسموا الخطة ، وعرف كل قائد مهمته فى

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ج١ص٢٥٩ ،وكانوا من عرب الطحاوية .

(٢) المصدر السابق . (٣) المصدر السابق .

(٤) وعد كلا منهما بعشرة آلاف جنيه بعد الهزيمة ، أنظر التاريخ السرى ص ٣٠٢ .

(٥) مذكرات عرابى (طبعة الهلال) ج٢ص٩؛ وانظر: تاريخ الأستاذ الإمام ج١ص٢٥٨-٢٥٩ ؛ والتاريخ السرى ص٢٩٤ — ٢٩٨ .

(٦) فى ٩٨/ ١٨٨٢ . (٧) مذكرات عرابى (طبعة الهلال) ج٢ص١٩ — ٢٠ .

العملية الحربية ، « وكان على « محمود سامى » قومندان مركز الصالحية أن يأتى بجيشه ليلا بحيث يصل الخط المعين للقتال عند مطلع الفجر ، ويقف على يسار جيش مركز رأس الوادى ويحيط بميمنة العدو ، والقوة التى على يمين الترعة تحيط بميسرته ، والأعراب يقتحمون الترعة من خلفه ويقطعون على العدو خط الرجعة . وعمل بهذا الترتيب رسم بطرف أركان حرب الجيش ، وأعطى لكل أمير من القواد نسخة يعمل بموجبها[1] » .

ويصف عرابى المعركة فى مذكراته فيقول : « وفى الثلث الأخير من مساء ٩ سبتمبر قام الجيش على هذا الترتيب ، فلما وصل قريباً من العدو أخذ كل محله على خط النار ، ولكن العدو كان عالماً بما استقر عليه الرأى بعد أن أطلعهم عليه الميرالاى على خنفس ، فاستعد للمعركة ، وبادر العدو بإطلاق النار واشتبك الجيشان[2] . واستبسل المصريون فى القتال تحت قيادة راشد حسنى وعلى فهمى ، وتوالى المد والجزر بين الجيشين ، « وظلت المعركة زمناً طويلا غير معروفة العاقبة وأوشك (دوق أف كِنت) ، أن يقع أسيراً[3] » . وظهرت خيوط الصباح ورحى المعركة دائرة ، وتوقع القادة المصريون هجوم جيش الصالحية بقيادة محمود سامى على ميمنة الأعداء ليغير من اتجاه المعركة ، ولكنهم أصيبو بخيبة أمل ، ذلك أن محمود سامى لم يأت بجيشه وتأخر عن موعده ، « فقد قابله فى الليل الأعراب المرتشون من رجال سعود الطحاوى ، وكانوا يعملون أدلاء ومرشدين للجيش المصرى فى هذه المنطقة الصحراوية فأضلوا البارودى وجيشه الطريق . وحين أسفر الصبح واهتدى البارودى إلى الطريق

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠ . (٢) المصدر السابق .

(٣) التاريخ السرى ص ٣٠٠ ؛ ومذكرات عرابى (طبعة الهلال) جـ ٢ ص ١٦ .

سارع إلى أرض المعركة[١] ، ولكن العدو كان يعلم تحركاته وكان له بالمرصاد ، فلما قرب من موقعه وجه إليه بطاريات مدافعه قبل أن يصل إلى موضعه من المعركة فتشتتت جنوده وولوا الأدبار[٢] .

وحاول البارودى أن يبث الشجاعة فى القلوب التى انتزعتها المفاجاة ويعيد تشكيل رجاله ، ولكن الهزيمة كانت قد ذهبت بالنفوس وأطاحت بالعقول . « وبقى البارودى مع قلة من الفرسان ، وصمدوا المدافع والنيران ، وظل مع الأعداء فى مرير قتال ، حتى لم يبق من حوله رجال[٣] » . وإلى هذه المعركة يشير البارودى من قصيدة طويلة :

فلما استمرَّ الجِدُّ ساقوا حُمولهم ... إلى حيثُ لمَ يبلغه حَادٍ وسائقُ

هُمَ عرَّضونى للقَنَا ، ثم أعرضُوا ... سراعاً ، ولم يطْرقْ من الشَّر طارقُ

مَضَوْا غيرَ معذورين ، لا النَّقْعُ ساطعٌ ... ولا البيضُ فى أيدى الكُماة دَوالِقٌ

فكم آبقٍ تلقــاهُ من غير طاَردٍ ... وكَمْ وَاقفٍ تلقاهُ والعقلُ آبقُ

فــلا رَحِمَ اللهُ امرأً باع دينَه ... بدنيا سواهُ وهْوَ للحقِّ رَامِقُ

إذَا المرء لم ينْهض بقائم سَيفِــهِ ... فياليت شعرى كيف تُحْمَى الحقائقُ

المحنه الكبرى :

كانت هزيمة الجيش المصرى فى معركة القصاصين بداية النهاية ، وفاحت منها رائحة الخيانة ، وأحس العملاء بالاتهامات تضيق على أعناقهم ، فأعدوا مع

---

(١) المصدر السابق .
(٢) مذكرات عرابى ج ٢ ص ٢٠ .
(٣) الطائف ١٠/٩/١٨٨٢ .

الأعداء خطة « الضربة القاضية » ، وكانوا فى مقدمة الجيش وطليعتـه ، فسهلوا للعدو سبيل الهجوم المفاجىء وفتحوا له الطريق ليمرّ دون إنذار أو تحذير ، فأُخذ الجيش المصرى على غرة وأنزلت به الهزيمة الكبرى فى موقعة « التل الكبير » صباح ١٣ سبتمبر ١٨٨٢ .

وعلم محمود سامى البارودى قومندان الصالحية ومن معـه من الضباط بهزيمة التل الكبير فقرر الإنسحاب من مواقعه ، « وقام مع جنوده بقطارات السكة الحديد إلى أبوكبير ثم المنصورة[1] » . وفى طلخا على الضفة الغربية لفرع دمياط قرر أن ينفذ خطة الدفاع التى رسمتها القيادة من قبل فى حالة الانسحاب، « وكان قد عمل (بلان) خطة بمعرفة أركان الحرب بجميع نقط المدافعة لغاية أسوان[2] » . وأرسل البارودى إلى عرابى بالقاهرة يخبره بتمركزه فى خط دفاعه الثانى ويطلب منه التعليمات فى برقية تقول : « من سامى لعرابى إن وافق يسأل من أحمد بك ناشد المهندس عما إذا كان يمكنه تغريق أراضى الشرقية والقليوبية بواسطة قطع جسور الشرقاوية والترعة الإسماعيلية كيـلا يكون للعـدو طريق لمصر خلاف الخانكة[3] » . وحين جاءه رد عرابى بأنه سيكتفى بقطع خطوط السكة الحديدية أرسل البارودى إليه برقية ثانية يقول فيها : « إنه لايجوز السكوت إلى الصباح عن قطع السكة الحديد قطعاً مهولا من فوق منيا القمح وبلبيس حالا مع قطع جسور ترعة الشرقاوية والإسماعلية لأجل غرق الشرقية والقليوبية حالا قبل طلوع الصباح وذلك يكون بمعرفة مرعشلى باشا وأحمد بك ناشد المهندس ، وهما الآن

---

(١) مذكرات عرابى ج ٢ ص ٣١ .

(٢) مصر للمصريين ج٧ ص ٨٤ محضر استجواب محمود سامى البارودى .

(٣) المصدر السابق ص ٣٨ — ٣٩ ، ٨٤ محضر استجواب عرابى والبارودى .

موجودان بمصر وأخبرونا حالا برأيكم[1] » . وجاء الرد إلى البارودى هذه المرة بغير مايتوقع ، فقد أخذ المجلس العرفى يبحث فكرة التسليم !!

وأسرع البارودى بالعودة ليلا إلى القاهرة ليحاول منع المجلس من التسليم للأعداء . « فالقاهرة غاصة بالجند ، ومخازن الحربية ملأى بالسلاح والذخيرة والميرة، ووسائل الدفاع متوفرة ، والدفاع واجب وطنى مادام فينا بقية[2] » ، والصعيد جبهة منيعة للقتال إن هزمت الجيوش المصرية فى القاهرة . ولكن ريح الهزيمة فى التل الكبير وصورة الدمار فى الإسكندرية جعلت أعضاء المجلس العرفى يخافون على القاهرة من غوائل الحرب والتخريب ، وأصبحوا يميلون كل الميل مع فكرة تسليم القاهرة دون حرب . وحاول البارودى أن يقنع عرابيا وصحبه القواد — إن قرر المجلس اعتبار القاهرة مدينة مفتوحة — « بترك القاهرة والالتجاء بالجيش إلى الصعيد ، فيستولى على جميع المراكب وتشحن بالذخيرة والتعيينات ، وتؤخذ إلى الصعيد مع الجيش[3] » . وفى الصعيد يمكن تنظيم الجيش من جديد ، وتعبئة القوى الإسلامية من ليبيا والسودان ، ثم الهجوم على المعتدى وطرده من البلاد . وإذا ماتغلب العدو مرة ثانية أمكن نقل الجبهة إلى السودان[4] . وكأن البارودى أراد أن يعيد سيرة آبائه السابقين ويسلك السبيل التى سلكها من قبل أجداده المماليك ، حين كانوا يغلبون على أمرهم فى القاهرة والوجه البحرى فيحتمون بالصعيد والسودان قلعتهم المنيعة . ويقول عرابى رداً على مقترحات البارودى : « وحيث أنى رأيت عدم موافقة رأيه لما تحققته من الخراب الذى يحيق بمديريتى

---

(١) مصر للمصريين جـ٧ ص ٣٩، ٨٤ محضر استجواب عرابى والبارودى.

(٢) مذكرات عرابى جـ ٢ ص٢٨ .

(٣) مذكرات عرابى جـ ٢ ص٣١ .

(٤) المصدر السابق ؛ وانظر أيضاً : مذكراتى فى نصف قرن جـ١ ص ١٩٨ .

القليوبية والشرقية ودمار عاصمة البلاد وسفك دماء الأبرياء على غير جدوى ، هذا فضلا عما رأيته من تحول الأفكار وانخلاع القلوب واختلال النظام فى الجيش . . . وافقت المجلس على التسليم[1] » !!

وأيقن البارودى أن دوى الهزيمة قد سد الآذان وأصاب التفكير بالشلل ، فتمثلت له النهاية المزرية فى الاستسلام للأعداء ! ! وبعد قرار التسليم خرج عرابى وطلبه عصمت وقد عزما على تسليم نفسيهما أسيرى حرب للقائد البريطانى. أما محمود سامى البارودى فلم يقبل أن يذهب إلى العدو المحتل ويسلم نفسه وسيفه طواعية وقال : « إنى ذاهب إلى منزلى فإذا أرادونى فإنهم يعرفون أين يجدوننى[2] » . وسلمت القاهرة فى ١٥ سبتمبر ١٨٨٢ ، ودخلها القائد الإنجليزى يحف به أعوان الخيانة ومندوبو الرجعية ، ونزل قصر عابدين ورفع عليه أعلام الاحتلال . وانتهت مرحلة من مراحل الحركة الوطنية بالهزيمة أمام المد الرجعى والاستعمارى ، وانطوت صفحة من صفحات الجهاد الوطنى لتكون ذكرى وتاريخاً ! !

وأصبحت اليد العليا فى الوطن كله للرجعية عميلة الاستعمار ، وليس هناك أشد قسوة ولا أكثر تنكيراً من الرجعية وهى فى موقف القوة ومركز النصر على القوى الوطنية المناهضة لها ، حينئذ تتملكها روح الشيطان وتنفث سموم حقدها بالتشفى فتسوم المواطنين سوء العذاب . وكذلك كان أنصار الخديو وأعوان الرجعية وعلى رأسهم محمد سلطان عقب تسليم القاهرة واستسلام القيادة الوطنية للهزيمة ، فقد ساقوا أعيان المصريين وزعماءهم إلى السجون حتى فاضت بهم ، وبلغ عددهم[3]

---

(١) مذكرات عرابى ج٢ ص ٣٢ .

(٢) أحمد عرابى الزعيم المفترى عليه ص٤٥٠ ؛ وتاريخ الثورة العرابية ص : ٤ ٤ .

(٣) مذكرات عرابى ج٢ ص ٣١ قدرهم محمود فهمى فى البحر الزاخر ج١ ص٢٢٢ بـ٢٩ ألفاً .

٣٠ ألفاً . وكان البارودى أول من ألقى القبض عليه من زعماء الثورة وزج به فى غياهب السجن ، ثم تلاه بقية الزعماء وزملاء الجهاد .

دخل زعماء الثورة ظلام السجون ودخلت مصر ظلام الاحتلال ؛ احتلال المستعمر للبلاد ، واحتلال الرجعية لمراكز التحكم والاستبداد فى المواطنين . وأصبحت مصر وأبناؤها يعيشون فى بحر لجى من الظلمات ؛ ظلمة الخوف ، وظلمة اليأس ، وظلمة المستقبل ، وظلمة التحكم والتشفى ، يحيط بذلك كله الظلمة الكبرى وهى ظلمة الاستعمار . ويصف الشيخ محمد عبده — وهو فى السجن حال مصر عقب الهزيمة فيقول : « اشتد الظلام حتى تجسم بل تحجر ، واستحجرت طباع الناس فأصبحت قلوب الثقلين كالحجارة أو أشد قسوة . . . وتمحضت السلطة لآلهة الشر ، فقلبوا الطباع وبدلوا الخلق وغيروا خلق الله[1] » . ورأى محمد عبده نفسه وزعماء الثورة « فى مَهمه لا يأتى البصر على أطرافه وفى ليلة داجية ... لايرون إنساناً ، وإنما يسمعون ذئاباً تعوى وكلاباً تنبح ، كلها يطلب فريسة واحدة ... زعماء الثورة[2] » ! !

وأيقن الزعماء أن حبل الأمل فى محاكمة عادلة قد تقطع ، وأن عروة الرجاء فى سيادة القانون قد انفصمت ، وقد دلتهم الأحداث على أن « الهمم قد سقطت والذمم قد خربت ، وغاض ماء الوفاء ، وطمست معالم الحق ، وحرفت الشرائع وبدلت القوانين ، ولم يبق إلا هوى يتحكم ، وشهوات تقضى ، وغيظ يحتدم وقسوة تنفذ ... سنة القدر وكيد الخائنين[3] » . وجاء

---

(١) الشيخ محمد عبده : تاريخ الأستاذ الإمام ج١ ص ٢٦٨ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٦٨ .
(٣) المصدر السابق .

إبراهيم فوزى محافظ العاصمة[١] إلى السجن من منزل محمد سلطان فى الأيام الأولى من اعتقال الزعماء خائفاً مصفر الوجه ، ووجد البارودى فى فناء السجن فقال له : « إننا لانتعشم فى إجراء أدنى تحقيق ، وإذا حدث فلن يكون إلا صورياً يحجر علينا فيه حتى لانتكلم بحرية ، وإن الموت هو مصيرنا اليوم أو غداً[٢] » . وفكر البارودى وقد تسلط عليه اليأس فى أن يجنب نفسه آلام الانتظار وامتهان الأعداء له بالانتحار ، فيقطع عرقاً من ذراعه ليموت بسهولة ، ولكن زملاءه ذكروه بواجبه الدينى نحو نفسه « حتى لايخسر الآخرة بعد أن خسر الدنيا[٣] » ، فثاب إلى رشده ورجع إليه صوابه ، واستغفر ربه من هذا التفكير[٤] .

وظل البارودى فى ظلمة السجن لايدرى متى تكون القاضية ، وتمر به أيام سود وهو فى محنة الوحدة وعذابات القلق ينتظر ورفاقه مايفعله بهم الطغاة . وحياة السجن تجربة جديدة للبارودى ذلك الفارس الذى لم يعرف الأسر ولاالقيد ، ورئيس الوزراء الذى كانت بيده مقاليد الأمور ، والزعيم الوطنى الذى وقف فى وجه الرجعية والاستعمار . وأثارت التجربة فى البارودى الفنان مشاعر الألم ، وكان الألم العبقرى الذى يجيئه بالإلهام ، وسرعت إليه ربة الشعر تعزف لحن « الوحدة والعذاب » وفيه يصف نفسه بين سجنه وسجانه فيقول :

---

(١) كان من رجال الثورة ، ولم يكن قد زج به بعد فى السجن حتى يستعان به فى استتباب الأمن .

(٣) مصر للمصريين جـ٧ ص١٧٨ محضر استجواب أحمد رفعت سكرتير مجلس وزراء البارودى .

(٣) المصدر السابق .   (٤) المصدر السابق .

شفّنى وجدى ، وأبلانى السّهر   وتغشّتنى سمادير الكدَرْ(١)
فَسوادُ الليل ما إنْ ينقضى   وبياضُ الصبح ما إنْ يُنتظَرْ
لا أنيسٌ يسمعُ الشكوى ، ولا   خبرٌ يأتى ، ولا طيفٌ يمرْ
بين حيطانٍ وبابٍ موصدٍ   كلّما حركَهُ السجّانُ صَرْ
يتمشّى دونه ، حتّى إذا   لَحِقتهُ نبأةٌ منّى استقرْ
كلما دُرْتُ لأقضى حاجةً   قالت الظلمةُ مهلا لا تدُرْ
أتقرّى الشىء أبغيه فلا   أجدُ الشىء ولاَ نفسى تقرْ
ظلمةٌ ما إنْ بها من كوكب   غيرُ أنفاس تَرامَى بالشرَرْ
فاصْبرى يا نفسُ حتى تظفَرى   إنّ حُسن الصّبر مفتاحُ الظفَرْ
هى أنفاس تَقَضّى ، والفتى   حيثما كان أسيرٌ للقدَرْ

ويستجوب الزعماء أمام « قومسيون التحقيق » أو بالأحرى أمام محكمة التفتيش ، « وقد اختير أعضاؤها من عملاء الرجعية الذين أمد لهم الاستعمار فى حبل الخديعة فجعلهم واجهته المزيفة فى البلاد ، فكرسوا همهم لإدانة زعماء الثورة إرضاء لسيدهم المحتل ، وإمعاناً فى التشفى وحقد نفوسهم . ويصف الشيخ محمد عبده هذه المحاكات فيقول : « ذهب أرباب السلطة الزائفة فى بحور الحوادث الماضية يغوصون لطلب أصداف من الشبه ومقذوفات من التهم ، ليموهوها بمياه السفسطة ، وليبرزوها فى معرض السطوة ، ويغشوا بها أعين الناظرين . لا يطلبون ذلك لحق خفى فيظهرونه ، أو نظام فاسد فيصلحونه ، بل ليثبتوا أنهم فى حبس من حبسوه غير مذنبين . وقد وجدوا لذلك أعواناً من خلفاء الدناءة ، وأعداء المروءة ، وفاسدى الأخلاق ، وخبثاء الأعراق رضوا

(١) سمادير جمع سمدور : غشاوة العين ويريد بها الهموم .

لأنفسهم قول الزور وافتراء البهتان واختلاق الإفك ، فتقدموا لمجلس التحقيق بتقارير محشوة بالأباطيل ليكونوا علينا من الشاهدين[١] » !

حطت كل هذه المحن بكلكلها على نفوس الزعماء وقد مزقتها الهزيمة فذهبت ببقية روعها ، وتصوروا سجونهم قبوراً يرون فيها نهاياتهم المفزعة ، والسلطات الرجعية تنصب لهم المشانق على مرمى البصر من نوافذهم . وطحنت قواهم المعنوية ألوان التعذيب التى تعرضوا لها من خدم الخديو وحاشيته فى السجن وقضت على البقية الباقية من تفكيرهم السليم . وناخ اليأس على الأمة كلها فأضاع رشدها ، وأشعل الخوف من الانتقام طريق الهرب فى جحور الذلة فتسابق الناس إليها حتى إذا جاءوها لم يجدوا شيئاً ، ووجدوا الوطن عندها يبكى مستقبل أبنائه من الأجيال القادمة ، ويبكى فى أبنائه التضحية والفداء والشجاعة فى مواجهة الهزيمة .

وأعلنت سلطات الرجعية والاستعمار حرب الأعصاب على الزعماء فى السجون ، فشنت على أسرهم حملات التعذيب ، وسلطت عليهم ألواناً من الانتقام والإرهاب ، وحاولت بالإغراء والتمنى أن تضرب بعض الزعماء ببعض ، فأمدت لكل منهم على انفراد حبل الأمل إن هو ألقى التهمة على الآخرين . وزينت لفريق منهم طريق النجاة فى شهادته على عرابى أو البارودى بارتكاب مفتريات وأكاذيب ليكونوا كبش الفداء . والرجعية يحدوها فى ذلك كله روح التشفى والانتقام ، والاستعمار يستهدى المخطط الذى وضعه لاحتلال طويل الأمد ، ومن ثم فهو يرمى إلى تحطيم المثل العليا فى الزعامة الوطنية لكى تخمد روح المقاومة

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ج١ ص٢٦٨ .

الشعبية والكفاح ضد المستعمر . فالأمة قد وثقت بزعمائها وأمدتهم بكل إمكانياتها وطاقاتها فى حرب الحرية المقدسة ضد ظلم الأتراك والاحتلال الإنجليزى ، فإذا انهزموا أمام القوة فأمر طبيعى أن يقهر القوى الضعيف ، وليس من العار أن تهزم أمة فى حرب ، والزمن كفيل بأن يبعث فيها من يحمل المشعل ويواصل الجهاد فتنهض الأمة وتؤيده دفاعاً عن شرفها المغلوب ، ولكن الخطر الأكبر على روح « المقاومة الشعبية » أن يتحطم رمز القيادة المصرية ، وتلطخ الزعامة بالعار ، وتصاب بالذل ، وتنسى الضحايا التى بذلت دماءها فى المعركة تلبية لندائها ، وتتنكر لأنصارها فى محنة المصير . حينئذ تصاب الأمة بخيبة أمل فى القادة ، وتفقد الثقة فى الزعماء المصريين ، وتخبو الروح المعنوية للشعب ، وتموت المقاومة الشعبية للمحتل الغاصب فينعم باستعمار طويل . ومن أجل ذلك كان السجن لزعماء الثورة محنة تعذبت فيها أرواحهم وجسومهم معاً ، ومأساة تصدعت منها أكبادهم وانشقت لها مرائرهم ، وذهبت بنفوسهم حسرات .

والبارودى له فى كل ذلك القسط الأوفى والنصيب الموفور ، فقد اعتبر خارجا على طبقته وضالا من بنى جنسه بانضمامه إلى صفوف الفلاحين ، وتعرض هو وأسرته لألوان التعذيب والإرهاب والتشفى على يد أغوات الخديو وأنصاره من الشراكسة والأتراك . وحاولوا بواسطة محام عين ليدافع عن البارودى[1] أن يساوموه على تخفيف الحكم عنه لقاء معونته « لجنة التحقيق » على إدانة

---

(١) امتنع المحامون الوطنيون عن الدفاع عن المتهمين خوفا من الحكم الرجعى ، وانتهز الفرصة شاب من المرتزقة يسمى « يوسف كامل » يحمل جنسية روسية وعرف بأنه من المرتزقة الذين يعيشون بلا عمل وكان عمره ١٨ سنة وامتهن المحاماة بعد الهزيمة فعين للدفاع عن البارودى ثم نحته زوجة البارودى ووكلت بردولى للدفاع عن زوجها . أنظر : بردولى : كيف دافعنا عن عرابى وصحبه ص ١١٠ ، و ١٨٧ ، ٢٨٠ .

عرابى[١] ، ولـكنه رفض أن يغدر برفيق الجهاد وأمعن فى الرفض ولم يذكر عرابيا بسوء[٢] ؛ بل حاول أن يبرر ما ينسبونه إلى عرابى ويتلمس له المعاذير[٣] . وأتوا إليه عن طريق الوقيعة ، فأوحت إليه « لجنة التحقيق » أن عرابيا يتهمه بمحاولة إغراق الشرقية والقليوبية وأظهروا له البرقيات المتبادلة بينهما ، ولـكن البارودى فاجأهم بالاعتراف بالمحاولة « بناء على خطة المدافعة المرسومة من قبل والواجب اتباعها فى انسحاب الهزيمة[٤] » . وظل البارودى على موقف الشرف والإباء الوطنى كريم الأصل والعنصر ، فلم يطعن الثورة من الخلف ، ولم يغدر بزملائه ، ولم يستجب للوقيعة « بينه وبين عرابى أمام لجنة التحقيق[٥] » .

بيد أن الوساوس والأوهام أخذت طريقها إلى نفوس الزعماء ، وجسمتها الوحدة والوقيعة فحسب كل منهم أن الزملاء غدروا به . وفى لحظة الضعف البشرى — التى يتعرض لها الإنسان فى مثل هذه الظروف فتختلط عليه سبل التفكير — ظن كل منهم بزملائه الظنون وحسب أن الآخرين يأتمرون به ليقدموه كبش الفداء ، ولم تـكن من وسيلة لتبيان الحقيقة وقد ضربت عليهم العزلة التامة وانقطعت الصلة بينهم جميعا . وكذلك تعرض البارودى لهذا الضعف البشرى المؤقت وأصيب بخيبة أمل فى الرفاق ، ولـكن بقية من كرامته وخلق الفارس فيه أبت عليه أن يجهر بهذا الظن للأعداء فى محاضر التحقيق ، واحتفظ به لنفسه ولم يُسِرّه إلا لربة الشعر حين جاءته تؤنس وحشته فى ظلمة السجن فغنى لها لحن « الشـكوى وعتاب الرفاق » وفيه يقول :

---

(١) بشهادته أن عرابيا أمر بحرق الإسكندرية ، وأمر بإطلاق المدافع بعد رفع الراية البيضاء بالاسكندرية ؛ أنظر : المصدر السابق ص ٢٨١ ، ٣٠٨ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) مصر للمصريين جـ٧ ص ٨٤ محضر استجواب البارودى .

(٤) المصدر السابق .

(٥) بردولى ص ٣٠٨

وكنّا جميعاً ، فلمّا وقعتُ   صبَرت ، وغادَرنى معشرى
ولو أنّنى رُمت إعناتَهم   لقُلتُ مقـــالةَ مُستبصِرِ
ولكننى حين جدّ الخصامُ   رجعتُ إلى كرم العُنصرِ

وساعدت الوحدة وظلمة السجن ووطأة اليأس وحرب الأعصاب نمو الوهم وسوء الظن بالرفاق فى نفس البارودى ، فأصيب بخيبة أمل ، ثم تحول سوء الظن مع الوقيعة إلى نقمة على من ظنهم خانوه وغدروا به ، فأصلاهم بشواظ من شعره فى مطولة أملتها الأعصاب المرهقة والنفس المعذبة بالشك والوهم ، وفيها « يعرّض برؤساء الجند الذين تخاذلوا فى الثورة العرابية » ومنها :

أضعتُ زمانى بينَ قومٍ لَوَانّ لى   بهم غيرَهم ما أرهقتنى البوَائقُ
فَإنْ أكُ مُلقَى الرحْلِ فيهم فإننى   لهم بالخِلَال الصّالحات مُفَارقُ
فتبًّا لهمُ من معشر ليس فيهمُ   رشيدٌ، ولا منهم خليلٌ مُصَادقُ
ظننتُ بهم خيراً ، فأبتُ بحسرة   لها شجنٌ بين الجوانح لَاصقُ
فيا ليْتَنى راجعتُ حلمى،ولم أكن   زعيماً ، وعاقتنى لذالكَ العَوَائقُ
ويا ليتنى أصبحتُ فى رأس شاهقٍ   ولم أرَ ما آلت إليه الوثَائقُ[1]

أمل كالسراب :

وعلى الرغم من الوقيعة والدس بين زعمـاء الثـورة ، وبالرغم مما تخلف فى نفوس أكثرهم من هول الصدمة وسوء الظن والشك بالزملاء ، لم ينزل الضعف بهم إلى الخطيئة الكبرى من التنكر لدورهم فى الثورة ،

(١) الوثاق : المراد هنا العهود والمواثيق بين زعماء الثورة .

أو التنصل من تعبئة الأمة لحرب المستعمر ، أو محاولة الغدر بالزملاء . وإنما ألقى بعضهم تبعة تطور الأحداث مع الخديو على « تسلط العسكرية » وسيطرة صغار الضباط الذين دفعهم الحماس إلى منع الزعماء من أخذ الأمور بالحسنى واللين ، ومن ثم لم تحقق القوى الرجعية مآربها فيهم عن طريق اعترافاتهم فى « لجنة التحقيق » ، ولم تعد التهم الموجهة إليهم — إذا كانت هناك عدالة فى المحاكمة — لتصل بهم إلى حبل المشنقة التى نصبها لهم عدوهم القديم مصطفى رياض وزير الداخلية الجديد(١) ، ولم تكن لتحطمهم معنويا أمام الشعب . ومع ذلك فلم تكد تذهب عن الزعماء صدمة الهزيمة ، وتفيق نفوسهم مما غشيها من الضعف نتيجة لهول الموقف ، وبعود الاتصال بينهم فيتعرفون خديعة الوقيعة — حتى استردوا شجاعتهم ، وعادت إليهم نفوسهم ، واستشعر الندم من أثر فيه الدس منهم(٢) ، وطلب إعادة التحقيق ليثبت أن ما قاله لم يكن يعبر عن الحقيقة وإنما أملته الأعصاب المريضة من التعذيب ، الخائفة من الإرهاب والتهديد فى لحظة « الضعف البشرى(٣) » .

ولكن المستعمر استطاع أن يحقق مأربه فى زعماء الثورة ، فقد بعث سوء حظ المصريين إليه عفواً ودون قصد بالوسيلة . ذلك أن بعض البريطانيين من أصدقاء زعماء الثورة ، وعلى رأسهم مستر « بلنت » بَدَا لهم أن يوكلوا محامياً للدفاع عنهم ، بعد أن امتنع المحامون الوطنيون خوفا من انتقام السلطة الرجعية . وقد يكون بلنت مخلصا فيما فعل ، ولكن فكرته أتاحت للاستعمار

---

(١) أنظر : بردولى ص٣٧، ١٩٦ .
(٢) أنظر : بردولى ص١٤٦، ٢١٨ .
(٣) أنظر : مصر للمصريين ج٧ص ١٦٥ — ١٧٩ محضر استجواب أحمد رفعت ؛ وبردولى ص٢٠٣ — ٢٢٧، ٢٣٨ — ٢٥٤ .

فرصة يمد على ضوئها مخططا يخدم أغراضه فى البلاد . فقد استطاع المحامى الإنجليزى « برودلى » أن يعيد الأمل المفقود فى الحياة إلى قلوب الزعماء ، ولكنه صوره لهم أملا انتزع انتزاعاً من بين أنياب السلطات المصرية بفضل السلطة البريطانية . ودبت الروح ثانية فى الزعماء وكانوا قد حسبوا أنهم لن يخرجوا من السجن إلا إلى القبر ، ومع كل خطوة من الأمل ومع كل حل لمشكلة كان « برودلى » يصب فى آذان الزعماء أن انجلترا هى التى تريد العدالة والإنصاف وتريد لهم الحياة ، أما السلطات المصرية فقد خبروا بأنفسهم وسائل تعذيبها وعرفوا مقدار العدالة فى تحقيقاتها والمصير الذى تريده لهم .

والمصريون بطبيعتهم ذوو عرفان بالجميل ، فأخذ عرابى وهو رئيس الزعماء يغرق فى الثناء على انجلترا وعلى عدالتها وإنسانياتها ، ولقبها « بحامية الحريات » ، وتمادى فى التبجيل والاعتراف بالجميل لحكومتها وشعبها . وطلب « برودلى » منه أن يثبت ذلك كتابة ، فكتب لجريدة « التيمس البريطانية[1] » ، وللورد دوفرين[2] مبعوث الاحتلال الذى جاء ليضع أسسه وسياسته الطويلة الأمد ، و « تشارلز ويلسون » مندوب السلطات البريطانية فى محاكمة الثوار[3] ، وحتى « اسير إدوارد ماليت »[4] قنصل بريطانيا العام عدو الحركة الوطنية ومستشار توفيق — يشكر لهم جميعاً ما أدوه للسجناء وما قدمته لهم بريطانيا من الجميل الذى لاينسى ، وكانت هذه الخطابات تنشر فى الصحف المحلية والأجنبية فيقرأها المصريون ويعجبون ! وخدمت النيات الطيبة وطبيعة عرابى

---

(١) نص الخطاب فى برودلى ص ٣٤٨ .
(٢) نص الخطاب فى برودلى ص ٣٥١ .
(٣) نص الخطاب فى المصدر السابق.
(٤) نص الخطاب فى المصدر السابق.

الساذجة مخطط الاستعمار ، فقد حولت كتاباته مؤقتاً عن انجلترا - أم الحريات - تيار الكراهية المندفع نحوها من المصريين والمسلمين لاغتصابها أرض مصر الإسلامية ، واعترفوا لها بالجميل لأنها أنقذت زعماء الثورة من المقصلة ووهبتهم الحياة ! !

وأصبح برودلى حلقة الاتصال بين السجناء ، وعرفوا عن طريقة دنيا ما وراء الأسوار وهى تدور فى فلك آخر : حفلات ومهرجانات « بدخول الفاتحين » ! ، واستعراض توفيق لجيوش الاحتلال البريطانى فى ميدان عابدين ترفرف عليه أعلام النصر البريطانية ! ومكافآت ونياشين للخائنين ! وهدايا تقدم لقائد الاحتلال « على إنقاذه البلاد من غوائل الفئة العاصية » ! بينما السجون تغص بألوف الأحرار من المواطنين. وأيقن الزعماء أن الرجعية لا تأتمر بهم وحدهم ، بل بمقدرات الشعب ومستقبل الوطن ، وحسبوا - كما وعدهم برودلى - أن السلطات البريطانية سوف توفر لهم محاكمة عادلة علنية محررة من الضغط والخوف والإرهاب فعزموا ، وقد عادت الثقة إلى نفوسهم ، أن يظهروا للعالم أجمع كيف تآمرت الرجعية والاستعمار على شعب مصر المحب للسلام . وبدأوا بروح جديدة يعدون مذكرات الدفاع ليعلنوا للملأ وللرأى العام العالمى أنهم قاموا بثورة وطنية أيدتها طوائف الأمة ليخلصوها من ربقة الظلم ، واستبداد الحكام الأتراك ، وتحكم النفوذ الأجنبى ، وقادوا الوطن إلى « حرب مقدسة » أقرها السلطان ، والخديو ، والجمعية العمومية الوطنية ، ومجلس الوزراء ، والشعب . وبعثوا إلى أسرهم لتسلم محاميهم أوراقهم الخاصة التى تثبت خيانة توفيق ، وفيها فتاوى شيوخ الأزهر بمروقة من الدين ، وعرائض العمد والأعيان ومشايخ البلاد تؤيد الزعماء فى مطالب الأمة وحرب الانجليز . ويقول « برودلى » بعد أن

اطلع على الأوراق والوثائق : « إنها أكثر مما يلزم لنفى تهمة العصيان عن الزعماء ، وإنها لتثبت أن الزعماء كانوا يقودون خمسة ملايين ثائر من الأهالى ، وذلك معناه أن الأمة كلها كانت من خلف الثورة[1] ».

وراود الأمل نفوس الثوار والشعب فى أن العدالة لو أخذت مجراها الطبيعى فسيظهر للناس أن الزعماء لم يفعلوا إلا ما فرضه عليهم واجبهم الوطنى والشرعى، وما حتمته مسئوليتهم تجاه الدين والأمة وهم وكلاؤها ، ومن ثم فسوف تتداعى التهم ويبرأ المتهمون . وأشار البارودى إلى هذ الأمل فى بيتين كأنهما لوحة مصورة فقال :

ألا قُلْ لقومٍ شامتين تربَّصوا   تَهزُّمَ شرٍ بالمنيـــةِ كارثِ
أرى ستر خطبٍ قد ترفَّعَ وانبرت   تلوحُ لهم منه وجوهُ الحوادثِ

ولكن الحكومة الإنجليزية التى أعلنت من قبل فى المؤتمرات الدولية[2] عصيان الجنود المصريين ، ووسمت الحركة كلها « تمرداً عسكرياً» وأرسلت لقمعها حملة أنفقت عليها ملايين الجنيهات ، لم تكن لتترك الثوار يعلنون على العالم شرعية الحرب ووقوف الأمة خلفهم فى الثورة ضد الطغيان والنفوذ الأوروبى ، ثم تطلق عرابياً وزملاءه بعد ذلك مبرئين من كل جريرة ، وإلا اظهر للعالم كله دور الخديعة وأسلوب الغش الذى اتخذته ذريعة لاحتلال مصر[3] . ومن ثم « بعثت الحكومة البريطانية بتعلياتها فى ١٣ أكتوبر إلى وكيلها فى مصر بألا تدور فى المحاكمة مناقشات ، أو تدلى بشهادات حول الدوافع السياسية

---

(١) برودلى ص١٧٨؛ تفصيلات محتويات أوراق الزعماء أنظر: المصدر السابق ص ١٦٥ — ١٧٨.

(٢) مؤتمر الآستانة المنعقد فى ١٨٨٢/٦/٢٣ وحضره أعضاء من انجلترا وفرنسا وألمانيا والنمسا والروسيا وإيطاليا .

(٣) برودلى ص ٣٠٧ .

الثورة ، أو الأسباب التى تبرر ما قام به الثوار من تهم ، وإنما يقتصر على ما يثبت أو ينفى هذه التهم[1] ».

وفزعت تركيا هى الأخرى من محاكمة الزعماء محاكمة علنية فذلك بالضرورة يمس سمعة السلطان ويظهر للعالم نفاقه وخداعه ، فقد كان يؤيد الثورة بخطاباته ويبارك الحرب ضد الخديو والإنجليز بدعواته ، بينما يمد يده لتوفيق ويمده بحملة تثبت عرشه وتؤيد موقفه ضد الثوار ، ويستجيب لتهديدات انجلترا فيصم عرابياً بالعصيان[2] . وأحس توفيق بكرسى الخديوية يتأرجح من تحته بعد أن استطاع « برودلى » محامى الزعماء أن يحصل من الآستانة على وثائق تثبت أن توفيقاً كان يطعن الإنجليز فى رسائل منه إلى الآستانة ، وأنه كان يتخذهم أداة لعودة سلطانه إليه ثم يتنكر لهم ، وحين عرف أنه لاملجأ له من السلطان أو الشعب ألقى زمامه إلى الإنجليز وأدار ظهره للسلطان والأمة معاً[3] . ورغبت الحكومة المصرية ألا تنشر قذارات السياسة وفضائحها على الملأ ، وألحت على السلطات البريطانية — وقد أصبح بيدها الحل والعقد — فى أن تتخلص من كابوس الزعماء سواء بقتلهم أو نفيهم من البلاد خشية الرأى العام الذى بدأ يفيق من صدمة الهزيمة ليرى ماحل به[4] . ونتيجة لذلك كله أصبحت محاكمة الزعماء « شبحاً » تود كل الجهات أن تتخلص منه ، وكان لابد من « تسوية » الموقف .

وجاءت « اليد الفولاذية المغطاة بقفاز من حرير[5] » بالتسوية التى تتفق

(١) المصدر السابق ص ٤٥ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٠٨ .
(٣) برودلى ص ٣٠٨ .
(٤) المصدر السابق ص ٤٤، ٣٠٨ — ٣٠٩ .
(٥) لورد دوفرين ؛ أنظر : برودلى ص ٣١١ .

ومخطط الاحتلال وتبرر وجود جيوشه فى مصر ، وهى تقضى باستبعاد جميع التهم الموجهة إلى الثوار عدا « تهمة العصيان » ، ومن ثم ينقذون من الموت ويحكم عليهم بالنفى إلى جزيرة سيلان . ويقول برودلى : « وحملت مشروع التسوية إلى الزعماء وشرحته لهم فى كلمات قليلة ، غير أن الاقتراح نزل عليهم نزول الصاعقة فقد كان الأمل يراودهم فى أن يسمعوا أوربا والعالم قصة الثورة عن طريق المحاكمة العلنية ، وكانوا يتوقون إلى أن يروا متهميهم وجهاً لوجه فى مجال المحاكمة ، ويرجون أن ينير الضوء الذى يلقونه على الأحداث الوطنية فى دفاعهم الطريق إلى إصلاح لم يستطيعوا أن يحققوه بأنفسهم[1] » . ولكن برودلى أشعرهم بأن « اليد العليا » قد اقترحت ولا يمكن لأحد أن يقف فى سبيل التنفيذ[2] ، فإن هم صمموا على رفض مقترحها فسيترك الإنجليز مصيرهم للسلطات المصرية تسلط عليهم ضباع الحقد وأفاعى الانتقام فتمزقهم أربا وتنشفى بشنقهم فى ميدان عابدين . . وانتهى الأمل إلى سراب ! !

وويل للمغلوب الضعيف ! منطقه دائماً واه غير مسموع وليس أمامه إلا التسليم بمنطق المنتصر ، ومن ثم قبل الزعماء « التسوية » ، وحكم على البارودى والستة الكبار معه بالإعدام[3] ، ثم استبدل بالإعدام النفى المؤبد إلى جزيرة سيلان ، وجردوا من جميع الرتب والألقاب[4] ، وصودرت أموالهم وما يمتلكون[5] .

---

(١) أنظر تفصيلات المناقشة بين برودلى والزعماء فى برودلى ص ٣٢٠ — ٣٢٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٢١ .

(٣) أحمد عرابى ، عبد العال حلمى ، على فهمى ، طلبه عصمت ، محمود فهمى ، يعقوب سامى .

(٤) الوقائع المصرية فى ٢٤/١٢/١٨٨٢ .

(٥) الوقائع المصرية فى ١٤/١٢/١٨٨٢ ، حدد بعد ذلك للمنفيين مرتبات شهرية ليعيشوا منها ، وكان مرتب عرابى ٥٥ جنيها وكل من رفاقه ٣٨ جنيها استرلينيا .

كان البارودى أكثر الزعماء مصاباً ، فهو وحده بينهم الذى يملك الضياع الواسعة والقصور العديدة ، ولكنه لم يأس على شىء منها وقدمها قرباناً للوطن وفداء فى سبيل الدفاع عن الحرية والمبدأ ، ولم يشك أمره وظالمه إلا إلى الله فيقول :

يا ناصر الحقِّ على الباطل خذْ لى بحقِّى من يدَىْ ماطِلى[1]
جارَ عَلَى ضعْفِي بسُلطانه وَمَا رثَى للدمع الهاطِلِ
أخرجنى عمَّا حوته يدى من كسْبِىَ الحرِّ بلاَ ناطِلِ[2]
من غير ماذنب سوى منطقٍ ذى رَوْنَقٍ كالصَّارم القَاطِلِ[3]
أتْلُو به الحقَّ وأرمى به نَحْرَ العِدَا فى الرَهَجِ السَّاطِلِ[4]
فإنْ أَكُنْ جُرِّدتُ من ثروتى ففضل ربِّى حِليَةُ العَاطِلِ[5]

عادت إلى البارودى نفسه الشجاعة بعد أن لفظت « الضعف البشرى » الذى ألم بها حينا ، وتبرأت من الشعور الطارىء الذى راودها تحت ضغط المحنة واليأس ، وارتفعت به روحه ثانية إلى الدرجات العلا من مواقف البطولة المعنوية . وطربت ربة الشعر لعودة الروح إلى شاعرها ، وناولته قيثارتها فى ظلمة السجن ليرد على صحف الرجعية التى تقطرت الأقلام فيها بسموم التشفى ،[6] ، وليعزف عليها نشيد « عودة الروح » فيعلن للناس أنه عاد . . عاد كما عرفوه ينتصر للرشاد على الغىِّ وللعدل على البغى والطغيان . . عاد أبىَّ النفس كريمها

---

(١) الماطل هنا معناه الظالم .
(٢) بلا ناطل : بلا شىء .
(٣) القاطل : القاطع .
(٤) الرهج الساطل : الغبار المرتفع .
(٥) الرجل العاطل من المال : الخالى منه .
(٦) انظر جريدة الأهرام فى شهرى نوفمبر وديسمبر ١٨٨٢ .

لايقبل المذلة ولا الضيم . . عاد ليبعثها شعواء على أعدائه وأعداء الوطن ثانية فيقول :

كلُّ صَعْبٍ سوَى المذلّةِ سهلُ ... وحياةُ الـكريم فى الضَّيم قَتْلُ
ليس يَقْوَى أمرؤٌ على الذُّل مالَمْ ... يكُ فيه من صِبْغَةِ اللّوم دَخلُ (١)
إنَّ مُرَّ الحِمامَ أعذبُ وِرْداً ... من حَياةٍ فيها شَقاء وذُلُّ
أنا رَاضٍ بتَركِ مَالِى وَأَهْـلِى ... فالعفافُ الثَّراء والناسُ أَهْـلُ
لا يلُمنِى على الحُفِيظَة قَــومٌ ... غَرَّهُم منظرُ الحياةِ فضــلُّوا
ألِفُوا الضيمَ خَشْيَةَ الموْتِ والضَّـ ... يمُ لعَمْرِى فَجْعٌ خَسِيسٌ وَثكْلُ
كَيفَ لا أَنصرُ الرَّشَادَ على الغَيْـ ... ـىِ وعَقْلِى مَعِى والنَّفسُ فَضْـلُ
إنَّما المرء باللســـانِ وبالقلـ ... ـبِ فإنْ خابَ منهما فَهْو فَسْلُ (٢)

لم يستطع مصطفى رياض وزير الداخلية فى وزارة الاحتلال — وقد أنعم قلبه بالحقد والـكراهية لزعماء الثورة منذ طردوه من الوزارة يوم « الزحف المقدس » — أن يتحمل الصدمة وهو يرى أعداءه يفلتون من تحت يده بعد أن نصب لهم المشانق وأعد لـكل منهم ميتة يشفى بها نفسه المريضة ، وخاب فأله فى أن يرضى شيطان التشفى الذى ينزغ فى قلبه ، « فقدم استقالته احتجاجاً

---

(١) الصبغة : النوع ؛ الدخل : العيب أو الريبة .

(٢) الفسـل : الضعيف الذى لا مروءة له ولا حيـلة . هـذه الأبيات لم يسبق نشرها وهى من القوافى التى نشرها الإمام من الديوان غير أنه كتب على المخطوطة (ج) « لا تطبع » ومن ثم أسقطها من قافية اللام فى طبعته والقصـيدة تحت عنوان « وقال يهجو » وهى ٣٢ بيتا وذكرت فى المخطـوطة (ج) ص ٢٢٥ — ٢٢٦ ولم تذكر هذه القصيدة فى المخطوطة (س) .

على تخفيف الحكم[1] » . وآلم البارودى السجين ، الموتور بالهزيمة ، والمصاب فى ماله ، والمحكوم عليه بالنفى من وطنه خسة رياض وكراهيته المريرة — وهو فى مركز القوة — للذين غلبوا على أمرهم وهم فى مركز الضعف . وتقطرت حفيظة البارودى وبغضه لرياض ألوانًا من الذم اللاذع ، وسمًا ناقعًا من الهجاء المقذع، فرسم صورة أخرى لرياض أقبح من أخت لها سبقت[2]، وخلدها مجللة بالعار فى قوله :

إنَّ مُلْكاً فيه (رياض) وزيراً ... لمباحٌ للخائنينَ وَبِلُّ[3]

أهوجٌ أحمقٌ شقيٌ لئيمٌ ... أغتمٌ أبلهٌ زنيمٌ عتلُّ[4]

صغُرَتْ رأسُهُ وأفرطَ فى الطو ... لِ شواهُ وعنقُهُ فهو صعْلُ[5]

أبرزتْ قدرةُ الطبيعةِ منهُ ... شكلَ لؤمٍ إنْ كانَ للؤمِ شكلُ

كُن كما شئتَ يا (رياضُ) وما شا ... ءتْ رجالٌ فأنتَ للؤمِ أهلُ

ليسَ تُغنِى الألقابُ عن كرمِ الأصـ ... ـلِ فمجدُ الفتى عفافٌ وعقلُ

إنَّ بيتَ (الوزّان) [لَمْ]يزنوا شيـ ... ـئًا ولكنْ فيهم على ذاكَ ثِقْلُ[6]

كثُرُوا عِدَّةً ولو أحصنَ البا ... بَ أبوهم عن الزُّناةِ لَقَلُّوا

---

(١) خلال حرب الاحتلال أقال الخديو وزارة إسماعيل راغب وتشكلت وزارة برئاسة محمد شريف فى ٢٠/٨/١٨٨٢ لتكون أكثر تجاوبا مع المحتل الغاصب ، وكان مصطفى رياض وزيرا للداخلية فيها واستقال فى ١٠/١٢/١٨٨٢.

(٢) وهى القصيدة التى هجا بها رياضا عقب الاستقالة من نظارة الجهادية .

(٣) البل : الحلال المسموح به .

(٤) الأغتم : الذى لا يفصح فى كلامه ؛ الزنيم : الدعى اللئيم ؛ العتل : الأكول الجافى الغليظ .

(٥) الشوى : اليدان والرجلان والأطراف ؛ والصعل : الدقيق الرأس .

(٦) الذر : الهباء المنتشر فى الهواء ؛ أو جمع ذرة : الأجزاء المتناهية فى الصغر ؛ وآده . أثقله .

لو عَزونَا كلَّ أمرىء لأبيــــه ... منْ فِراخ (الوزانِ) لمْ يبقَ نسلُ

كلُّ وغدٍ أهْدَى إلى اللـؤم ِ مِنْ مَا ... زِ ، ولـكنْ من الحِمارِ أضَــلُّ

قد تغذَّى باللُّؤم ِ إذْ هوَ طفــلٌ ... وتمادَى فى الغَىِّ إذْ هُوَ كَهْلُ

كيفَ لا تَشـمـلُ الدَّناءةُ قوماً ... نشأُوا فى الصِّغارِ حِينَ اسْتَهَلوا

كنتُ لاَ أُحسنُ الهِجاءَ ولـكن ... علَّمتنى صــــفاتُهم كيفَ أتلُوا[1]

كلُّ شىء يفْنَى ، ولـكن هِجـائِى ... فيكَ باقٍ ما عاقَب السَّيفَ صَقْلُ[2]

---

(١) الوزان : لقب أسرة مصطفى رياض فهوابن اسماعيل الوزان بن أحمد الوزان ابن حسن الوزان المتوفى عام (١٧٩٠ م). فى المخطوطة (ج) لا يزنوا وما أثبتناه هو الصواب وزنا وإعراباً .

(٢) هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهى من القصيدة السابقة .

الفصل الخامس

البارودى فى المنفى

لم أقتـــرفْ زَلةً تقضى عَلَيّ بما ‌ ‌ ‌ ‌ أصْبحتُ فيه ، فماذا الوَيلُ والحَرَبُ ؟

فهل دفاعِيَ عن دينى وعن وطَنى ‌ ‌ ‌ ‌ ذنبٌ أُدَانُ به ظلماً وأغـــتربُ ؟

فلا يظنُّ بِىَ الحُسادُ مَنْـــدمةً ‌ ‌ ‌ ‌ فإننى صـــابرٌ فى الله مُحْتسِبُ

أثريتُ مجداً ، فلم أعبأ بما سَلَبَتْ ‌ ‌ ‌ ‌ أيدِى الحوادثِ منى ، فهو مُكْتَسَبُ

* * *

يا نديمَىَّ فى سَرَنْديبَ كُـفَّـــا ‌ ‌ ‌ ‌ عن مَلامِى ، وخلِّيـــانى لِمَا بِى

كيف لا أندبُ الشابَ ؟ وقد أصْبَ ‌ ‌ ‌ ‌ حْتُ كهلاً فى مِحْنَةٍ وَاغْـتراب

أَخْلَقَ الشيبُ جِدَّتى ، وكسَانى ‌ ‌ ‌ ‌ خِلْعَةً مِنْهُ رثَّةَ الجلبَـــابِ

لم تَدَعْ صولةُ الحَـــوَادِثِ مِنِّى ‌ ‌ ‌ ‌ غيرَ أشلاء هِمَّةٍ فى ثيـــابِ

البارودى

فى كولومبو بسرنديب

رحلة الفراق الحزينة :

تحت جنح الليل ، وفى سياج من السرية الكاملة ، حاول الخديو وحكومته أن يخفوا عارهم وهم يخرجون الزعماء المنفيين من الوطن ، فأخذوهم فى الظلام خلسة إلى قطار أطفئت أنواره فى ثكنات قصر النيل[1] . وأسرع بهم القطار تحت الحراسة المشددة إلى ميناء السويس ، ومايكادون ينقلون على عجل إلى الباخرة الإنجليزية مربوتس (مريوط) المنتظرة فى المرفأ حتى تنطلق بهم فى الثامن والعشرين من ديسمبر ١٨٨٢ بعيداً عن الوطن ، ليزول « الشبح » الذى كان يجثم على صدر الاستعمار والرجعيـة ، ويذكرهم بجريمتهم المشتركة فى خنق شعب كان يبغى الحرية واحتلال أمة كانت تريد الاستقلال .

وحانت ساعة الفراق ، ووقف البارودى يلقى نظرة الوداع على الوطن الحبيب ، وحيداً إلا من آلامه التى ينفطر منهـا فؤاده[2] ، حسيراً على آمال مصر التى تحطمت معها آماله ، ملتاعاً لفراق الأهل والولد ، محزوناً لبعده عن موطنه وملاعب الصبا ومغانى الشباب ، والباخرة ترفع مراسيها لتأخذ طريقها إلى المنفى البعيد . ويسجل البارودى فى لوحة « الوداع » الخالدة مشاعره المختلطة

---

(١) مكانها الآن مبنى الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى العربى وفندق هلتون ومبنى جامعة الدول العربية جوار كوبرى قصر النيل بالقاهرة .

(٢) لم يصطحب البارودى فى منفاه سوى خادمه الأسـود « كافور » وكما تقول معلومات الأسرة إنه لم يصطحب زوجته عديلة يكن لسببين: الأول أن أمها «قادن أفنـدى ست الشراكسة» كانت فى مرض الموت وكانت قد فقدت أولادها جميعا عدا عـديلة ،فطلبت منهـا أن تبقى إلى جوارها وليس لها سواها ، والثانى : أن زوجته كانت تأمل إن هى بقيت فى القاهرة أن تستغل قرابتها من أسرة محمد على وخاصة من «خوشيار خانم» أم اسماعيل « وأنجه هانم » زوجة إبراهيم فتنجح فى إعادة زوجها إلى الوطن واستصدار عفو عنه،ومن ثم بقيت مع أولادها وكانوا صغاراً وهم محمد،وسمية ، وسميرة ،وسرية،وستيرة .

فى إطار حزين وقد جمل ألوانها من دموعه ، وظلالهـا من آلامه ، ولـكنه لايستسلم فيهـا إلى النهـالك بل يتلمس له الـكبرياء مخرجا للجزع والدموع ، وتمتزج فيها انفعالاته المختلفة ، فبينا اليأس يجثم بكآبته على جانب من جوانب الصورة يضىء شعاع الأمل جانبها الآخر . وتخرج قصيدة « محا البين » فنـاً جديداً لمبدع يعـانى « الألم العبقرى » وفيها يقول :

محا البينُ ما أبقت عيونُ المَهَا مِنِّ ... فشِبْتُ ولم أقضِ اللُّبانةَ من سِـــنى [١]

عناء ، ويأس ، واشـتياقٌ ، وغربة ... أَلَا شَدَّ ما ألقاه فى الدَّهر من غَبْن

ولمَّا وقفنا للوَدَاع وأسْــبلَتْ ... مدامعُنا فوق التَّرائِبُ كالمُزْنِ [٢]

أهبتُ بصبرى أن يعودَ فعزَّنى ... وناديتُ حلمى أن يثوبَ فلم يُغن

ولم تمضِ إلاَّ خـطْرَة ثم أقلعَتْ ... بناَ عن شُطُوطِ الحىِّ أجنحةُ السُّفنِ [٣]

فـكم مهجةٍ من زَفْرة الوجدِ فى لظى ... وكم مقلةٍ من غَزْرة الدَّمع فى دَجْنِ [٤]

وما كُـنتُ جرَّبتُ النَّوى قبلَ هذه ... فلمَّا دهَتْنى كدتُ أقضِى مِنَ الحُزْنِ

ولـكِنَّنى راجعتُ حـــلمى وردَّنى ... إلى الحزم رأىٌ لا يحُومُ عَلَى أَفْنِ

فَيَا قلبُ صَبراً إن جَزِعْتَ فربَّماَ ... جرَتْ سنحاً طيرُ الحوادث باليُمنِ [٥]

---

(١) لم أقض لبانتى : لم أقضى حاجتى.

(٢) الترائب جمع تريبة : أعلى الصدر ؛ والمزن : السحاب ذو الماء .

(٣) الخطرة هنا كناية عن اللحظة القصيرة ، وهـذا البيت روى فى المنـار مجلد ٧ جزء ٢١ عام ١٩٠٥ص٨٢٨ (وما هى إلا خطرة) ، وما ذكر هنا رواية الديوان فى المخطوطتين .

(٤) الدجن : المطر الـكثير .

(٥) سنح الطير: مر من المياسر إلى الميامن والعرب تتيمن بالسانح وهو كناية عن جريان الأحداث بما يبدل العسر يسرا . وهذه الأبيات من الجزء الذى لم ينشر من الديوان وهى من قصيدة عدد أبياتها ٥٥ بيتاً ، المخطوطة (ج) ص٢٧٤ — ٢٧٦ المخطوطة (س)ص٢٦٨ — ٢٧٠ ،وقد نشرت المنار فى عددها ٢١ من المجلد ٧ عام ١٩٠٥ من هذه القصيدة اثنين وعشرين بيتا منها هذه الأبيات.

وتتدفق على مشاعر البارودى ذكريات الأحداث فيتمثل ما حل بالوطن من ظلم الرجعية وغدر الاستعمار فلا يجد لنفسه مقاماً فيه ، ويهتف بقوله :

وكيف مُقَامى بين أرضٍ أَرَى بها ... مِنَ الظُّلمِ ما أخنَى عَلى الدَّار والسَّكْنِ
فَسَمعُ أنينِ الجَوْرِ قدْ شَاكَ مَسْمَعِى ... ورؤيةُ وَجهِ الغَدْرِ حلَّ عُرَى جَفْنى
وَصعبٌ عَلى ذِى اللُّبِّ رِئْمانِ ذِلَّةٍ ... يظل بها فى قومهِ واهِىَ المَتْنِ[1]
إذَا المرء لم يرمِ الهَنَاةَ بِمِثْلِها ... تخطَّى إليه الخوفُ من جَانِبِ الأمنِ[2]
فَلاَ تعترفْ بالذُّلِّ خيفةَ نقمَةٍ ... فَعَيشُ الفَتَى فى الذُّلِّ أَدْهَى من السَّجْنِ
وَكُن رجلاً إنْ سِيمَ خسفاً رمتْ بهِ ... حَمِيَّتُهُ بينَ الصَّوارِمِ واللُّدْنِ
فلا خيرَ فى الدنيا إذا المرء لم يعشْ ... مهيباً تراهُ العينُ كالنَّارِ فى دَغْنِ[3]
وَلا تَرهبِ الأَخطَارَ فى طَلَبِ العُلاَ ... فمن هَابَ شوكَ النَّخلِ عادَ وَلَمْ يَجْنِ
فإنْ لم تجدْ فى المدْنِ ما شِئْتَ من قِرَى ... فأَصْحِرْ فإنَّ البِيدَ خيرٌ من المُدْنِ
وأىُّ حياةٍ لامْرِئٍ بينَ بلدةٍ ... يَظَلُّ بها بينَ العَوائِنِ وَالدَّخْنِ[4]
لَعمرى لَكُوخٌ من ثُمَامٍ بِتَلْعَةٍ ... أحبُّ إلى قلبى من البيْتِ ذِى السَّكْنِ[5]
وَمَا قلتُ إلاَّ بعد علمٍ أجدَّ لِى ... يقيناً نَفَى عنِّى مراجعةَ الظَّنِّ
فقد ذقتُ طعمَ الدَّهر حتى لفظتُه ... وعاشرتُ حتَّى قلتُ لابنِ أَبى دَعْنِى
وإنِّى وإن طالَ المَطَالُ لواثقٌ ... برحمةِ رَبِّى فهو ذُو الطَّوْلِ وَالمَنِّ[6]

---

(١) الرئمان : الحب والألفة . وذلة جاءت فى المخطوطة (ج) زلة ص٢٧٥.

(٢) الهناة : الداهية . (٣) الدغن : الظلام.

(٤) العوائن جمع عثان : الدخان أو الغبار ؛ والدخن : الدخان .

(٥) ثمام واحدته ثمامة : النبت القصير لا يطول أو كوخ من قش ؛ والتلعة : ما علا من الأرض ؛ والبيت ذو السكن : ما له سقيفة أو ظلة فوق باب الدار.

(٦) المطال : الغيبة. وهذه الأبيات مما لم يسبق نشره من قصيدة «محا البين» ومعها ١٩ بيتاً أخرى .

وما إن خرجت الباخرة إلى المحيط حتى فاجأتها العواصف والأعاصير وأخذها الموج من كل مكان ، وكأن « نبتيون » (NEPTUNE[١]) غضب من ظلم الإنسان الذى سوغ له منطقه أن ينفى الأحرار من الديار بينما تنعم فيها الرجعية والاستعمار ، أو كأنه أراد أن يشغل المنفيين عن التفكير فى النكبة وفيما خلفوه وراءهم وما هم مقدمون عليه ، فسلط جنوده يقذفون سفينتهم بالموج والأعاصير ، ويصيبهم « بدوار البحر » ويشل منهم التفكير .

ويقص علينا البارودى قصة « رحلة الفراق الحزينة » بنثره الفنى فيقول[٢] .

« إنى لما أفضت بى غوائل الزمن ، إلى مفارقة الأهل والوطن ، وحقَّت كلمة الوداع ، وأنصت كل مجيب وداع ، سارت بأشباحنا الفُلك ، بتقدير من له الملك ، فلما توسطنا لُجّة اليَم ، وغشينا ضبابة الهم ، أخذ البحر يهدر ويموج ، والريح تعصف وتروج[٣] ، والدّجن يبرق ويرعد[٤] ، والموت يقرب ويبعد ، والفُلك بين صعود وهبوط ، والناس بين رجاء وقنوط . فشخصت الأبصار ، وغابت الأنصار ، وأقبل الفزع ، واستولى الجزع ، وشغلت الدموع المحاجر ، وبلغت القلوب الحناجر . هنالك دعا ربَّهم الغافلون ، وكف أذيالَهم الرافلون ، فلا ترى إلا ناكس الطرف ، لاينبِس بحرف ، كأنما أظلتهم الرجفة ، أو غشيتهم الرجْفة[٥] ، فهم لفرط الحيرة خمود ، تحسبهم أيقاظاً وهم رقود ، فلم

---

(١) إله البحر والملاحة عند الرومان الأقدمين وصوروه وبيده حربة مثلثة الأسنة دليلا على أن من يتسلط على البحر يتسلط على العالم (ميتولوجيا) .

(٢) جزء من كتابه « قيد الأوابد » والكتاب لم ينشر ولايعرف مستقره ، وقد ساق على الجارم ومحمد شفيق معروف فى مطلع نشرتهما لديوان البارودى جزءاً من هذا الكتاب نموذجا من خطه ونثره الفنى ج ١ ص٤٣ — ٤٤ .

(٣) تروج : تضطرب . (٤) الدجن . السحاب الممطر .

(٥) الرجفة : رجفة يوم القيامة ؛ والوجفة : الهلع .

يزل يتخبطنا اليم ، ويأخذ بأكظامنا[1] الغم ، حتى كادت الأنفس تزهق ، وأظفار المنيـة ترهق[2] ، ونحن فى وعاء[3] ، لانملك غير الدعاء ، ولبثنا على ذلك ثلاثا ، لانجد فيها غياثا . وكيف لنا بالخلاص ، ولات حين مناص . فبعد لأيٍ ما سكنت فَوْرة الريح ، وهدأت ثورة ابن بريح[4] ، وتجلت بنورها السماء ، واصطلح الماء والهواء ، فقرت الأنفس فى الصدور ، وتنفس كل مصدور ، ولم يبق إلا سوق الحديث ، من قديم وحديث ، والفلك يمخر البحر بجُؤْجُؤه ، ونحن من الشهر فى دُؤْدُؤه[5] » .

وتمضى « مريوتس » بالمنفيين إلى مصيرهم الجديد فتصل ميناء « كولومبو » عاصمة جزيرة سرنديب[6] الجديدة فى ٩ يناير ١٨٨٣ . وكانت أنباء الزعماء المصريين قد سبقتهم إليها فاستقبلتهم الجزيرة استقبالا حافلا ، واحتفى بهم المسلمون من أهلها احتفاء كبيراً[7] ، وأعدت لهم حكومة سيلان أربع دور لسكناهم نزل البارودى وخادمه مع محمود فهمى وأسرته فى واحدة منها[8] .

---

(١) أكظام جمع كظم : ضيق النفس وأصله من كظم الغيظ أى حبسه .

(٢) ترهق : تلحق بنا وتدركنا . (٣) المراد بالوعاء السفينة .

(٤) ابن بريح : الغراب والعرب تتشاءم بصوته ، وهنا كناية عن زئير العاصفة .

(٥) الجؤجؤ : الصدر ؛ والدؤدؤ : آخر الشىء .

(٦) سرنديب وتعرف الآن بسيلان تقع على المحيط الهندى جنوب شرق الهنـد ، وتشتهر بجمال الطبيعة فيها من سهول وجبال وغابات ، وهى قرب خط الاستواء . ومن أشهر مدنها كولومبو وجافنا وكاندى و وكالوتارا ، ومن أشهر جبالها (آدم) ويقول المسلمون من أهلها إنه الجبل الذى هبط عليه آدم من الجنة . وبالجزيرة عدد من المسلمين من أصل عربى وهندى دخلوها كتجار فى القرنين ١٢، ١٣ واستعمرتها بريطانيا عام ١٧٩٥ وجلت عنها سنة ١٩٤٨ .

(٧) تعداد المسلمين بها وقتئذ حسب تقدير عرابى نحو ٢٥٠٠ ألف مسلم .

(٨) مذكرات عرابى ج ٢ ص ٦١ ؛ والبحر الزاخر ج ١ ص ٢٣٤ .

من ظلمة النفى والألم تفجر نور الشعر :

طوح القدر بالبارودى إلى منفاه ، وانتهى به إلى « كولومبو » عاصمة سرنديب فبدت له أول عهده بها :

منازلُ لم تألف بها النفسُ مألفاً على أن فيها كلّ ماتشتهى النفسُ
ولا عيبَ فيها غير أنْ ليس لى بها أنيسٌ ، وفقْد الخلّ فى غربةٍ حبسُ
وكيف يطيبُ العيشُ فى ظل بلدةٍ خلاء من الألاّف ليسَ بها أنس؟[١]

ويصف البارودى أحاسيسه المشبوبة وأشجانه الحزينة أول أيامه فى « كولومبو » فيقول : « دخلتها مشبوب الأنين ، على الأهل والبنين ، لا أستطيع لما عرانى دفعاً ، ولا أملك لنفسى ضراً ولا نفعاً ، وما ظنك بمن غاب عنه السمير ، والتاع بالفُرقة منه الضمير ، فهو بين هموم ناصبة ، وأحزان واصبة[٢] ، وأشجان يهلك لها الصبر ، ومرارة يحلو عندها الصبر[٣] ، إن نطق فبصوت لايدركه السمع ، أو نظر فبعين قد ملأها الدمع :

غريبٌ تخطاه الأساةُ فما له سوى عبرات المقلتين طبيبُ
وما أسفى أنى غريبٌ عن الحمى ولكنّنى بينَ الأنامِ غريبُ[٤]

وتستقبل البارودى أولى لياليه فى المنفى بصرصر من الرياح عاتية ، وكأنها تنوح على الغريب الشريد ، وبسماء كالح وجهها واصطك ركامها ، قد انهالت تبكى

---

(١) هذه الأبيات لم تذكر فى ديوان البارودى وإنما ذكرت فى كتاب « قيد الأوابد » .
(٢) الناصبة : المتعبة ؛ والواصبة : المؤلمة.
(٣) الصبرالثانية : مايبيعه العطار.
(٤) هذان البيتان لم يذكرا فى ديوان البارودىوإنما ذكرا فى كتاب « قيد الأوابد » .

معه على فراق الأهل والصحب والولد ، وبالصواعق ترعـد وتبرق غاضبة للظلم الذى حاق بالأحرار ، والبارودى قد جفاه النوم وهو يرقب الفجر بصير نافد .
« فلما رقّت أنفاس النسيم ، وحسر الصبح عن محياه الوسيم ... صحتُ بغلامى «كافور» ، فأقبل يرف كالصَّيفور[1] ... فقلت له : ما هذا الطرب وقد أودى الأرب ؟ فقال : أنظر يامولاى إلى السماء ، والنبت والماء ، تجد منظراً وسيما ، ومسرحاً قسيما ، أزهار ترف ، وغدران تشف ، ومربع يفتن العقول بروائه ، ونسيم يشفى الأسقام بدوائه ، فقم لعلك تستريح ، فقد سكن القطر والريح .
فلم يضحك لقوله سِنِّى ، وعلمت أنه ليس منى ، وين يذهب اللهو بقلب قد عفّى رسمه ، ولم يبق فى الشغاف إلا وسمه ؟ بل كيف يطرب الغريب أو يخف إلى الصبْوة الحريب[2] ؟ هيهات ! ... تالله ما بعد الوطن دار ، ولا فى غير الـكعبة مدار ، ولـكن من لم يجد حرا كأ سكن ، ومن أعجزته الحيلة ركن[3] » .

وفى المنفى يبدأ الطور المظلم من حياة البارودى ، اقتات فيه الألم ، ومضع اليأس ، وكرع اللوعة ، واجتر الذكريات . كان يطوى على ذلك كله جوانحه ثم يخرج ليعيش بين الناس والرفاق بنفس تـكسوها القوة وكأن الأحداث لم تنـل منها . ومن ظلمة النفى تفجر النور فى حياة الفن والشعر والقصيد ، أمـدها الألم العبقرى بنمير من شحنات العاطفة فألهمت الشاعر الآيات البينات ، وقدحت اللوعة زناد شاعريته فأورت لنـا القصائد الخالدات ، وأثارته الذكريات فغنى لأيامـه الخاليات ، ولازمته ربة الشعر لاتفارقه بعد أن أصبح متفرغا لها فى منفاه يسجل

---

(١) الصيفور : طائر .

(٢) الحريب : المسلوب ماله وأهله .

(٣) من كتاب قيد الأوابد ، مقدمة الديوان (الجارم) ج ١ ص ٤٤ — ٤٥ .

على قيثارتها خطوات الزمن الوئيدة الثقيلة وهى تدب إليه بأحداثها فتغير من كل شىء فيه إلا شرفه وكرامته . ولئن كان قول البارودى :

فانظر لِقَولى تجد نفسى مُصَوَّرةً في صَفحتيه فقَولِى خطُّ تمثالِى

صادقاً فى حياته الأولى ، فهــو أكثر صدقاً فى حياة المنفى ، ذلك لأن شعره كان سلواه وكان متنفس همه حين ثقلت وطأة الاغتراب على الرفاق فطارت منهم الألباب ، وروع اليأس قلوبهم فرضت منهم النفوس ، فلم يجـد له ملجأ من كل هذه الآلام والأحزان سوى ربة الشعر يهرع إليها فيترنم وإياها بهمومه، ويستعين بأنغامها على التصبر إن أعوزته الوسيلة إلى الصبر ، ويتخذ منها رسولا إلى النائين عنه بمصر من الأهل والأحباب والولد والصحاب .

كانت ربة الشعر مع البـارودى مثـال الوفاء وله نعم العزاء ، وقّعت له ألحاناً من الحزن مختلفة الألوان ، وألهمته أبلغ آياتها لينشدها فى ظلمته العاطفيـة بمنفـاه ، فأصبح كبلبل الظلماء يردف تغريداً بتغريد ، ويقول شعراً هو أنس المحزون وعزاء الثاكل وسلوة العاشق . شعراً يلهم الصبر على المكاره والجلد على الشدائد والأمل فى الله ، ويصعد مع أبيـــاته كربة الهم وحرقة الآلام . يعضه الحنين إلى الأهل فيشكو النوى ، ويبين له طيف الوطن فى أروع صورة فيرسمه فى أجمل عبارة ويتوسل إليه ويدعوه ، ولـكن الوطن لايستجيب لدعائه فيحز الأسى فى نفسه ويتوجع ، وتراجعـــه شركسيته ، ويثور فى عروقه دم المماليك فيعود إلى الفخر . وتتوالى عليه رسل الموت تخبره بوفاة الأهل والأصدقاء فيرثى ويبكى ويسلم أمره لله . ويلفه الأسى والألم ، ويحيط به اليأس فلا يجـد ملجأ من ذلك كله إلا فى التوجه بكليته إلى الزهد ولـكنه لايعثر فيه على الشفاء ، فما زالت جراح نفسه تهجمــه بالألم فيثور ويبلغ بثورته أقصى مداه ، ولـكنهـا

ثورة أشبه بصحوة الموت قبل أن يستسلم للقضاء وقد دب إليه الشيب والمرض والعجز فضعف حتى أصبح « أشلاء همة فى ثياب » ، وغدا « لا يستطيع الثوب يسحبه » ، وأمسى يعد أكفانه من نسيج شعره ، وينشد رثاءه لنفسه ، وهو يظن أن أحداً لن يجود على الغريب البعيد برثاء .

وربة الشعر فى كل هذه الأطوار مسلمة إليه نفسها ، مسلسلة له قيادها ، مادة إليه قيثارتها تلهمه وتعزف له ، وتعينه فى هذا المنفى على أن يعيد إلى الشعر العربى جدّة لا تبلى ، ويزيل عنه الضعف وأوشاب الانحلال ، ويبعث فيه الروح التى كادت من ضعفه تهجره . وتنفث فى روعه ليجعل من آلامه وحسراته وثوراته ويأسه وآماله وحنينه ودموعه وضعفه نسيجاً رائعاً لثوب الشعر العربى الحديث ، ومصدراً لبعث جديد ، وأداة لنهضة اللغة السليمة والأدب الرفيع بعد أن لفتهما أكفان الانحطاط قرابة خمسة قرون .

وما إن يستقر البارودى فى منفاه حتى يزوره طيف ابنته « سميرة » فيهيج فى نفسه الشوق إلى أهله ، وينكأ جراح البعد والوحدة ، وتتداعى إليه الذكريات ، وينشد أولى قصائده فى مستقره الجديد يفرغ فيها ما يموج به صدره من الانفعالات والآلام فيقول :

تأوّب طيفٌ من « سميرةَ » زائرُ   وما الطيفُ إلا ما تُريه الخَواطِرُ

ألمّ ، ولم يلبث ، وسار ، وليتَه   أقام ، ولو طالتْ عَلَيّ الدياجِرُ

تُمثِّلها الذكرى لعينى ، كأننى   إليها على بُعْدٍ من الأرض ناظِرُ

فَيَا بُعْدَ ما بينى وبين أحبتى !   ويا قُرْبَ ما التفّتْ عليه الضّمائرُ !

ويُذَكِّرُهُ طيفُ سميرة بأخواتها فيقول فيهن :

عقيلةُ أتراب تَوَالَيْنَ حولها كما دار بالبدر النجومُ الزواهرُ
غوافِلُ لا يعرفن بؤسَ معيشةٍ ولا هنَّ بالبؤس المُلِمِّ شَوَاعِرُ
تعوَّدن خفضَ العيشِ فى ظِل والدٍ رحيمٍ ، وبيتٍ شيَّدته العناصِرُ

ثم يسترد قواه ولا يدع الضعف يستبد به ، ويسمو بنفسه فوق النكبة وفوق القوى التى تتآزر على حربه ، وينبرى للدفاع عن موقفه فى الثورة بما قام به وهو فى الحكم من إصلاح، ويستهين بما لاقى فى سبيل وطنه من عذاب وما قدمه من تضحية ويعزف ذلك على قيثارة الشعر فيقول :

عَلَىَّ طلابُ العزِّ من مُستقرِّه ولا ذنب لى إنْ عارضَتنِى المقادرُ
فَمَاذَا عسى الأعداء أن يتقوَّلوا عَلَىَّ ، وعِرْضِى ناصحُ الجيْبِ وافرُ؟
ملكتُ عُقابَ المُلك وهْى كسيرةٌ وغادَرتها فى وكْرها وَهى طائرُ
ولو رمتُ ما رام امرؤٌ بخيانةٍ لأصبحَ لى قسطٌ من المال غامرُ
ولكن أبتْ نفسى الكريمةُ سَوْأَةً تُعابُ بها ، والدهرُ فيه المَعايرُ
فَلاَ غَرْوَ أَنْ حُزْتُ المكارم عارياً فقد يشهدُ السيفُ الوغَى وهو حَاسِرُ

ويحمل البارودى طائر الفخر إلى سماوات همته البعيدة وفروسيته الشجاعة حتى ليكاد المرء يحسبه نسى حاضره وما هو فيه ، وإذا بالواقع يفجؤه فيتطامن إليه ويقول :

فإن كنتُ قد أصبحتُ فَلَّ رزيَّةٍ تقاسَمها فى الأهل بادٍ وحاضرُ(1)
فكم بطلٍ فلَّ الزمانُ شباتَه وكم سيدٍ دارَت عليه الدَّوائرُ

---

(1) فل : منهزم ؛ والرزية : المصيبة .

فلا يشمتُ الأعداء بى ، فلربّما وصلتُ لما أرجوه ممّا أحاذرُ
فقد يستقيمُ الأمرُ بعدَ اعوجاجه وتنهضُ بالمرء الجدودُ العَوَاثِرُ
وسوف يَبين الحقُّ يوماً لناظر وتنزو بعَوْرَاء الحقُود السرائرُ
وما هى إلا غمرةٌ ، ثم تنجلى غيابَتُها ، والله من شاء ناصرُ
فقد حَاطنى فى ظلمةِ الحبس ، بعدَمَا ترامَت بأفلاذِ القلُوبِ الحناجرُ

حملة التشهير :

وتهب رياح السموم على البارودى ورفاقه من صحف القاهرة المأجورة ، فقد أطلقت الرجعية والاستعمار أقلامهما المسمومة فى « حملة تشهير » على زعماء الثورة ، تشوه سمعتهم ، وتلصق بهم التهم ، وتحاول أن تبث الشبهات فى نفوس الشعب حول صلتهم بالثورة ، وتعزوها إلى « مآرب شخصية ومنافع ذاتية » ، وتشكك فى وطنية الزعماء ، وفى إخلاصهم للأمة يوم قادوها إلى الثورة ثم إلى الحرب . وكانت التهم التى وجهتها الأقلام المسعورة المأجورة إلى البارودى أنه لم ينضم إلى الثورة إلا طمعاً فى الملك ، وأملا فى أن « يثب إلى العرش » بعد خلع توفيق . وتتألم مشاعر العانى للمحاولة الدنيئة التى تسعى لتشويه الذكرى وهى كل ما بقى له فى الوطن ، ويرد على متهميه بمطولة يسجل فيها للأجيال « قصة الثورة » ، ويحدد مكانه منها ، فيقول :

ألا ، أيها الزّارى علىَّ بجهله ولم يدر أنى درّةٌ فى المفارقِ
تعزَّ عن العلياء باللؤْم ، واعتزل فإن العُلا ليسَتْ بلَغْوِ المناطقِ
فما أنَا ممَّن تقبلُ الضيمَ نفسُهُ ويرضى بما يرضى به كلُّ مائقِ (١)

---

(١) المائق . الأحمق الغبي.

يقولُ أُناس ، إننى ثُرت خالعاً ... وتلكَ هَنَاتٌ لم تـكن من خلائِقى[1]

ولـكنّنى ناديتُ بالعـدل طالباً ... رضا اللهِ ،واستنهضتُ أهلَ الحقائقِ

أمرتُ بمعروفٍ ،وأنـكرتُ منكراً ... وذلك حكمٌ فى رقاب الخلائقِ

فإن كانَ عصياناً قيامى ، فإننى ... أردتُ بعصيانى إطاعةَ خالِقى

وهل دعوةُ الشُّورى عَلَىَّ غَضَاضةٌ ... وفيها لِمَنْ يبغى الُهدى كلُّ فارقِ ؟

بَلَى ، إنّها فرضٌ من الله واجبٌ ... على كلِّ حَىٍ من مَسوقٍ وسَائقِ

ثم يذكر موقفه من توفيق ورياض واستبدادهما فى الحـكم ، ومؤمرات الغدر التى أرادت أن تقتل الثورة فى مهدها فيقول :

على أنّنى لم آلُ نصـــحًا لمعشر ... أبى غدرُهم أن يقبلوا قولَ صادقِ

رَأَوْا أن يسوسوا الناسَ قهراً ،فأسرعوا ... إلى نقض ما شادَته أَيْدِى الوثائقِ

ويمضى البارودى فيبين للناس والتاريخ كيف قامت الثورة الوطنية تحارب الظلم والطغيان ، وكيف وقفت الأمة صفاً واحداً من وراء زعماء الثورة تؤيدهم فيقول :

فلما استمر الظلمُ قامت عصابةٌ ... من الجند تسعَى تحت ظلِّ الخوافقِ

وشايَعَهم أهلُ البلاد ، فأقبلُوا ... إليهم سراعاً بين آتٍ وَلاحقِ

يرُومون من مولَى البلاد نفاذَ ما ... تألاَّه من وعْد إلى النَّاس صادقِ

فهذَا هُو الحقُّ المُبين ، فلا تسلْ ... سِواىَ ، فإنى عالمٌ بالحقَائقِ

وإذا كانت الحقائق كلها تشير إلى البارودى حين نصبته الثورة مستشاراً لها ثم زعيما من زعمائها ، لم ينضم إليها لتحقيق مأرب يراوده ، أو ليتخذها

---

(١) المراد بالخلع هنا خلع توفيق ليخلفه فى الملك .

سلماً للوصول إلى مطامعه ، فإننا لانستطيع أن نبرئه براءة كاملة من تطلعه إلى الملك فى فترة خاصة من حياته هى فترة شبابه . وفى يقينى أن البارودى فى الطور الأول من شبابه ، وهو يعمل ياوراً لإسماعيل وكبيراً لياوران توفيق وهو ولى للعهد[1] ، كان يرى نفسه بما ملكت من شجاعة ورأى أحق بالملك من هؤلاء الذين يجلسون على دسته تستعبدهم لذاتهم ، ويستشرى الفساد فيهم ، ويستولى على عقولهم الأفن والخبل ، ويقودون البلاد إلى هاوية الإفلاس والسقوط فى براثن الاستعمار ؛ ومن ثم راوده طموح الشباب وأحلامه ، وتمنى ملك مصر ليقود البلاد إلى حياة أفضل يسود فيها العدل والمساواة والشورى. كانت أمانى الشباب وأحلام الفتوة ؛ لكنه لم يكن يملك من الوسائل والإمكانيات ما يحققها ، فظلت فى حدود نفسه وعواطفه لا تخرج إلى الوجود إلا فى شعره . ثم فاق من هذه الأحلام ، وتكفكف عن تلك الأمانى حين بدأت الثورة الوطنية تخرج من حيز التفكير والتدبير إلى الوجود الفعلى كقوة فى عالم الأمة وانضم إليها . ولما وجد البارودى أنه لا يملك من مقومات الزعامة الشعبية ما يملكه أحمد عرابى ، ألقى إليه بزمامها وبايعه بالزعامة ، وقبل أن يكون الرجل الثانى فى التنظيم الثورى وهو الوزير ثم رئيس الوزراء .

وفى أعقاب ثورة نوفمبر سنة ١٨٨١ حين ترددت فى الآفاق فكرة خلع توفيق وتوليه خديو آخر ، وجرت مراسلات بين الثوار والآستانة ، ورشح « حليم باشا » لخديوية مصر ، وافق البارودى وأخذ يروج للفكرة مادام فى توليته صلاح لمصر وإنقاذ لها من ربقة الظلم والنفوذ الأجنبى[2] . وخلال

---

(١) فيما بين ١٨٦٣ — ١٨٧٥ وكانت سن البارودى ما بين ٢٤ إلى ٣٦ سنة.

(٢) انظر : مصر للمصريين ج ٧ ص ١١٦ ، ١٣٦ محضر استجواب محمود فهمى وعثمان فوزى؛ وانظر أيضا : مذكراتى فى نصف قرن ج ١ ص ١٤٥ ؛ والتاريخ السرى ص ٢١٩ .

الأزمة الدستورية التى انتهت باستقالة وزارة شريف (فبراير ١٨٨٢) ، وحين وقف الخديو وشريف فى صف المراقبين المـاليين ضد مجلس النواب ، وتجاوبت الأصداء بالتخلص من الأسرة الدخيلة كلهـا ، واتجهت الأنظـار إلى البارودى ليكون خلفاً لتوفيق عزف عن المنصب وزهد فيه حفاظا على وحد الصف الوطنى ، فهناك من هو أحق بالملك منه إن كان ثمـة تغيير . وذهب البارودى إلى عرابى — كما يقول عرابى نفسه — « ثم أقسم لى أنه مستعد لأن يضحى بحياته ويجود بآخر قطرة من دمه فى سبيلى وسبيل الوطن ، وأن يجرد حسامه وينادى باسمى خديويا لمصر[1] » .

وكان البارودى أول من فـكر فى قلب نظام الحـكم فى مصر وتغييره إلى جمهورية مستقلة عن تركيا حيادية كسويسرا[2] ، وآمن بأن ذلك أفضل أنواع الحـكم فى بلد كمصر . وأصبحت الفـكرة عقيدة يدعولها ، وأملا يـكرس حياته من أجله ليتحقق قبل أن يموت[3] ؛ ومن ثم لم يـكن ذلك الأمل هو الوثوب إلى العرش كما ادعته « حملات التشهير » ـ وانقاد لهـا بعض المؤرخين ـ لتشكك فى إخلاص الرجل ، ولتحيطه بظلال من التهم فتحطم مجـده الوطنى .

وقد اعترف للبارودى زملاء الجهاد ورجال الحزب الوطنى وزعماء الثورة بالفضل على الثورة ، وبأن الحركة الوطنية تدين له بالـكثير ، وما داخلتهم ريبة ولاطاف بهم خاطر من شك فيما ألصقته به أقلام التشهير التى انطلقت مسعورة تلطخ سمعته وسمعة الزعماء جميعا . يقول عنه عبـد الله النديم : « وقام محمود سامى بما بيض تاريخه الجليل ، وحفظ له الذ كر الجميل ، فله اليد البيضاء أيام التأسيس ، ممـا

---

(١) كشف الستار ج ١ ص ٢٧٢ . (٢) التاريخ السرى ص ٢٥٥ .
(٣) المصدر السابق .

أتاه من كل أمر نفيس ، فطالما سهر الليالى الطوال ، وتحمل الحول والأثقال ، وحارب رياضا وحيداً ، وظاهر الخديو فريدا ، وبذل جهده فى منع التخالف ، وجمع الأجناد على التحالف ، ورضى أن يكون قائدا تحت الإدارة ، وأغمض عن كونه رئيس الوزارة [1] »

ويقول عنه أحد الصحفيين الذين خالطوا رجال الثورة وعاشوا معهم الفترة العصيبة من الجهاد الوطنى ، وعرفوا البارودى عن قرب [2] : « ظهر لى أننا كنا مخطئين فى تقدير محمود باشا سامى ، فإنى تحادثت معه كثيراً وسألت عنه حتى من أعدائه ، فعلمت أنه كان من زعماء الحركة الوطنية من عهد إسماعيل، وقد كابد كثيراً من المشاق لأجل آرائه ، ولكنه لم يتزعزع . وكثيرون من الحزب الوطنى مثل عبد الله النديم ومحمد عبده بل وعرابى نفسه يعترفون بأنهم مدينون له بمساعدته لهم وولائه للحركة الوطنية . وقد أغراه إسماعيل أن يترك الحزب وعرض عليه المال ولكنه رفض . وهو ينفق الآن جميع إيراده الضخم على الحزب ، ومنزله أشبه بقافلة حطت رحالها فى الطريق . أما حياته الشخصية فحياة فيلسوف ، لا ينفق شيئاً على نفسه ، وهو قانع راض بما يأتى به القدر ، وليس البارودى رجلا جاهلا فهو متضلع فى الآداب العربية . . . وكراهية الأتراك له دليل على وطنيته » .

ولم يخف إخلاص البارودى للثورة ومبادئها عن الوطنيين أو الأجانب على السواء ، ومن الذين خابروه عن قرب وكونوا الرأى عنه « بلنت » الصديق البريطانى للزعماء ويقول عنه : « محمود سامى كان دستوريا متحمسا ومصلحا ووطنيا

---

(١) مذكرات عبد الله النديم السياسة ص٧٥ .

(٢) لويس صابونجى مراسل بلنت من خطاب له إلى بلنت فى ١١ يونيو سنة ١٨٨٢ ، أنظر : التاريخ السرى ص٢٤٣ .

صادقا . أما من حيث مواهبه فقد كان أسمى بكثير من عرابى ؛ بل كان من أعظم الناس علماً وتهذيباً فى مصر ، فقد كان متبحراً فى آداب اللغتين التركية والعربية ، كما أنه كان حجة فى تاريخ مصر ، وهذا كله فضلا عن مواهبه الشعرية العظيمة الممتازة ... وقد كان الدور الذى قام به فى الثورة الوطنية دور إخلاص لمبادئه الدستورية وللحركة الوطنية ، وقد دفع بسبب إخلاصه ثمنا غاليا فإنه كان غنيا ومن ثم تعرض لخسارة كبرى بعد الهزيمة »[1] .

من ذلك كله نستطيع أن نؤكد أن البارودى لم يتخذ الثورة مطية لأغراضه . والبارودى نفسه قد حدد آماله وأمانيه حين بلغها بعد أن ذاق فى سبيلها المشاق وضيع فى تحقيقها شبابه ، وذلك يوم قدم الدستور لمجلس النواب فوافق المجلس عليه فى ٨ فبراير سنة ١٨٨٢ . وحسب البارودى أنه قد أدى رسالته لوطنه ، وأن الشعب بدأ يحكم نفسه بنفسه بعد ألوف السنين فقال :

سعيتُ فأدركتُ المنى ، غيرَ أننى   أضعْتُ شبابى فى سبيل طِلابى

ويعود البارودى إلى « حملة التشهير » ، فيرد على افتراءاتها بقوة فى مطولة ثانية يثبت فيها ويؤكد أن ثورته كانت دفاعاً عن دينه ووطنه ، خالصة لوجه الله والوطن فيقول فيها :

فَهل دفاعِيَ عن دينى وعن وطَنى   ذنبٌ أُدان به ظلماً وأُغتربُ ؟

فلا يظنَّ بِيَ الحسَّادُ مَنْدَمَةً   فإننى صابرٌ فى اللهِ مُحْتَسِبُ

أثريتُ مجداً، فلم أعبأ بما سَلَبتْ   أيدِى الحوادثِ منِّى، فَهْوَ مُكْتَسَبُ

---

(١) التاريخ السرى ص ١٠٥ – ١٠٦ .

وما أُبالى ونفسى غيرُ خاطئةٍ ... إذا تخرّص أقوامٌ وإنْ كَذَبُوا
هَا إنّها فِرْيَةٌ ، قد كان باءَ بِهَا ... فى ثَوْب يُوسفَ مِنْ قبلى دمٌ كذبُ

ويوجه سهام هجائه إلى صدور أعدائه الذين دفعهم التشفى والحقد إلى تشويه جهاده ويفخر عليهم فى مطولة ثالثة يقول فيها :

فَلاَ يَسرُّ عُـدَاتِى ما بُليتُ به ... فسوفَ نَفْنَى ويَبقَى ذِكْرَى الحسن(1)
ظنُّوا ابتعَادىَ إعقالاً لمنْقَبتِى ... وذَاكَ عزٌّ لها لَوْ أَنهم فَطِنُوا(2)
فإنْ أَكنْ سِرتُ عنْ أهلى وعنْ وطنِى ... فالنَّاسُ أهلِى وكلُّ الأرض لِى وَطنُ
لاَ يطمسُ الجهلُ ما أثقبتُ من شرفٍ ... وكيفَ يَحجُبُ نُورَ الجَوْنَةِ الدَّخَنُ(3)
فَلْيشغَبِ الدَّهرُ ، أو تسكُنْ نوَافِرُهُ ... فلَسْتُ منهُ عَلَى ما فَاتَ أحتَزِنُ(4)
غَنيتُ عمَّا يهينُ النفسَ من عرَضٍ ... فمَا عَلَىَّ لِحَىٍّ فى الوَرَى مِنَنُ

ثم يذكر رجال الحكم الرجعى فى مصر وما عرفه عنهم من غدر وحسد وخداع حين زاملهم وعمل معهم ، فيصليهم بجحيم من ذمه تسود بها صفحات تاريخهم فيقول :

لكنَّنى بينَ قومٍ لا خَلاَقَ لهم ... إنْ عاقَدُوا غدرُوا، أو عَاسَرُوا رهنُوا(5)
يُخفُون من حَسدٍ ما فى نُفُوسهمُ ... ويُظهرون خِداعًا غيرَ ما بَطَنُوا
يَا لَلْحُماةِ ! أمَا فى النَّاس مِنْ رَجل ... وَارِى الضَّمِيرِ لَه عقـلٌ به يَزِنُ

---

(١) عداة جمع عاد : المعتدى والمعادى؛ نفنى: فى المخطوطة جـ (فسوف يفنوا) وهو خطأ إعرابى ، وإذا قلنا يفنون ينكسر الوزن .

(٢) إعقالا لمنقبتى : حبسا لكريم أفعالى.

(٣) ما أثقبت من شرف: ما اشتهر من شرفى؛ والجونة :الشمس عند مغيبها لأنها تسود حين تغيب؛ والدخن : الدخان .

(٤) يشغب : يهيج الشر.

(٥) عاسر: عامل بالشدة؛ ورهن رهونا :صار هزيلا.

أكُلُّ خلٍ أراهُ لاَ وَفَـاء لَهُ   وكلُّ قلبٍ على الأيّام مُضطَغنُ
تغيّر الناسُ عما كنتُ أعهدُه   فاليومَ لا أدبٌ يُغنِي ولا فِطَنُ[1]
فالخيرُ منقبضٌ ، والشرُّ منبسطٌ   والجهلُ منتشرٌ ، والعـلمُ مُندفِنُ
لَمْ تاقَ منهُم سَلِيمًا فى مَوَدَّتهِ   كأنَّ كلَّ إمرىء فى قَلبِه دَخَنُ[2]
طَوَاهُمُ الغِلُّ طىَّ القِدِّ وانتَشَرَتْ   بالغَدرِ بينهمُ الأحقَادُ والدِّمَنُ[3]
فَلاَ صديقَ يُراعِى غيبَ صَاحبِه   ولا رفيقَ على الأسْرَار يُؤتَمَنُ
بلوتُهم فسئمتُ العيشَ ، وانصرفَتْ   نفسى عن النَّاس حتّى ليسَ لى شَجَنُ
فإنْ يكنْ فاتَنِى ماكنتُ أملِكهُ   فالبعدُ عنهم لما أتلفتُهُ ثمنُ
كَفَى بحربِ النّوى سِلْمًا نجوتُ بهِ   ورُبَّ مخشـيةٍ فى طيّها أَمَنُ[4]

وحملة أخرى تشنها أقلام الكراهية والتشفى تنال من البارودى وزوجته وتحاول الوقيعة بينهما ، فتخترع القصص والأكاذيب حول افتتان البارودى فى منفاه بغادات سرنديب وقاماتهن السمهرية وسمرتهن المغرية وعيونهن النجل ، ونسيانه زوجته التى تركها خلفه تمضغ ألم الفرقة وتقتات عذاب البعد ، وتحمل له الحب والوفاء[5] . وتمعن الحملة فى إثارة أشجان البارودى فى غربته وزيادة آلامه فتشيع أن « زوجته تتخذ الإجراءات القانونية لطلب الطلاق[6] » . وأغاب

---

(١) الفطن جمع فطنة : هى الحذق والفهم.   (٢) الدخن : الفساد .

(٣) الدمن : الحقد القديم الثابت فى الصدر.

(٤) هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهى من قصيدة عنوانها « وقال وهو بسرنديب يتشوق الى الوطن ويذكر أعداءه » وهى ٥٠ بيتا ومن الجزء المخطوط فى الديوان ؛ المخطوطة (س) ص ٢٧٠ — ٢٧٣ ؛ والمخطوطة (ج) ص٢٧٦ — ٢٧٩ .   (٥) يذكر برودلى أن زوجة البارودى من يوم أن قبض عليه هجرت الوثيرمن الفراش وخفض العيش ولينه، وصارت تنام على الأرض كما ينام، وتلبس الخشن من الثياب وتأكل مالا تستسيغه النفس لتشارك زوجها حزنه وآلامه ومصابه . أنظر : برودلى ص٨٨٢.

(٦) أنظر : برودلى ص ٢٨١ — ٢٨٢.

الظن أن أغانى الشوق وتباريح الغرام التى غناها البارودى فى سنواته الثلاث الأولى بسرنديب — وما أكثرها — كانت رسائل لزوجته بالقاهرة، فقد امتلأت بشحنات من العاطفة القوية وبعهودالوفاء ومواثيق الإخلاص . ولعل البارودى توهم أن « حملة التشهير » وجدت أذنا من زوجته ، والبعد دائما يجسم الأوهام ويزيد من ضخامة الهواجس ، وظنها غضبت منه فكتب إليها :

يا غاضبين علينا هَلْ إلى عِدَّةٍ بالوصلِ يوم أُناغِى فيه إقبالى
غبتُمْ ، فأظلمَ يومى بعد فُرقتكم وسَاء صنعُ اللَّيالى بعْدَ إجمالى
قد كنتُ أحسَبنى منكم على ثِقَةٍ حتى مُنيتُ بما لم يجْرِ فى بَالى
لم أجنِ فى الحُب ذنباً أستحق به عتْبًا ، ولكنها تحريفُ أقوالِ
ومن أطاعَ رُوَاةَ السوء نفَّرهُ عن الحبيب سَماعُ القِيلِ والقَالِ

الوحيد العانى ومواكب الأحزان :

وتأتى البارودى وصحبه أخبار المقاومة السرية التى ينظم المصريين حركاتها ضد الاحتلال وضد الذين ناصروه من عناصر الرجعية ، فتعود إليه ثقته فى الشعب ، ويراوده الأمل فى ثورة عاصفة ترده وصحبه إلى الوطن . ويدق البارودى طبول الاستنفار إلى المقاومة وحمل السلاح ، ويدعو الأمة إلى ثورة على توفيق وبطانته والاستعمار وعملائه ، ويبث الحمية الوطنية فى نفوس المصريين ليردوا الظلم والعدوان الذى يجثم على صدورهم . وتمتد الحمية إليه وهو « الفارس الأسير » فيعلن أنه لا يخضع للقهر ولا يستكين لسطوة البطش حتى ولو كان مقيد الساق مشدود الوثاق ، وينذر بأن يوم المعركة لا بد مقبل ، وسوف يلعب فيه بالقنا ويحكم الطعان ليقتلع الاستبداد والمستبدين ، ويهتف للشعب من وراء المحيط :

أَبى الدهرُ إلا أن يَسُودَ وضيعُه ... ويملكَ أعناقَ المطالبِ وغدُه
تداعَت لِدركِ الثأرِ فينا ثُمَالُهُ ... ونامت على طُول الوتيرة أسدُهُ
فحتّام نَسرى فى دَيَاجير مِحنةٍ ... يضيقُ بها عن صُحبة السيف غِمدُهُ
إذا المرء لم يدفَع يد الجَوْر إن سطت ... عليه ، فلا يأسف إذا ضاعَ مجدُهُ
ومَنْ ذلّ خوفَ الموتِ ، كانت حياتُه ... أضرّ عليـــــه مِنْ حِمَامٍ يؤُدُّهُ[1]
وأقتـــــلُ داء رؤيةُ العين ظالمًا ... يُسيء ، ويُتْلَى فى المحافِلِ حَمْدُهُ
عفاء على الدنيا إذا المرء لم يعِشْ ... بها بطلاً يَحْمِى الحقيقةَ شدُّهُ[2]
مِنَ العار أن يرضى الفتى بمذلَّةٍ ... وفى السيف ما يَكْفِى لِأمرٍ يُعِدُّهُ
وإنى امرؤٌ لا أستكين لصَوْلَةٍ ... وإنْ شدّ ساقى دونَ مسعاىَ قِدُّهُ[3]
ولا بدّ مِنْ يومٍ تَلاَعبُ بالقَنا ... أسودُ الوغى فيه ، وتمرحُ جُردُهُ[4]
تُدَبِّرُ أحكامَ الطِّعَـــانِ كُهولُهُ ... وتملكُ تصريفَ الأعنة مُرْدُهُ
قلوبُ الرِّجَالِ المستبدةِ أكْلُهُ ... وفيضُ الدماء المســـتهلةِ وِرْدُهُ
أُحمِّلُ صدرَ النَّصلِ فيه سَرِيرةً ... تُعَدُّ لأمرٍ لايُحَـــاوَلُ رَدُّهُ
فإمَّا حياةٌ مثلُ ما تَشْتَهِى العُلاَ ... وإما ردًى يَشفِى من الدَّاءِ وَفْدُهُ

ولـكن انتظار الفارس للثورة يطول ، فقـد اكتشفت حركات المقاومة السرية ، وضربها المستعمر وعملاؤه ضربة قاضية أخمدت أنفاسها إلى حين ، فيناديهم البارودى ويسألهم النصرة ويستنجزهم الوعد ويهتف :

---

(١) يؤده : يدهاه وينزل به .
(٢) الشد : العدو والمراد هنا الحملة فى الحرب .
(٣) القد : سير من جلد يقيد به الأسير .
(٤) تلاعب : تتلاعب .

فيامَسْرَاةَ الحِمَى ! ما بالُ نُصرتِكُم ضاقت عَلَيَّ ؟ وأنتم سادةٌ نُجُبُ
أضعتُمونى وكانت لى بكم ثِقةٌ مَتَى خفرتُم زِمَامَ العَهدِ ياعَرَبُ ؟

وتمر الأعوام ثقيلة الخطى على الزعماء فى المنفى فتضيق صدورهم بالاغتراب ، وينال المناخ الاستوائى منهم فتعتل أبدانهم وتهاجمهم الأمراض ، وتشغل الحياة الأهل والصحاب فتقل الرسائل إليهم فيظنون أن النسيان قد جر ذيوله عليهم ، ويتمثلون الأبدية فى النفى فتهلع نفوسهم ، ويجثم عليهم غول الفراغ فتتأثر معنوياتهم ، وتدب الفرقة بينهم ويقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، وتستشرى الخصومة حتى يقع بينهم الشقاق [1] . ويعتزلهم البارودى ومنازعاتهم وهو يعلم أنها محنة الأعصاب المشدودة أرهقتها الغربة والفراغ ، ويسكن البارودى وحده فى منزل على ربة عالية بمنأى عن المتخاصمين فتزيد الوحدة من آلامه ويطول به السهاد ، وتهجمه الذكريات وبتلافت حوله فلا يجد من يؤنسه إلا خادمه الأسود « كافورا » ، فيلم به طائف من الحسرة على نفسه يصورها فى قوله :

خَليليَّ هل طَالَ الدُّجى ، أم تَقَيَّدتْ كواكبُه ، أم ضلَّ عن نَهْجه الغدُ ؟
أبِيتُ حزيناً فى سرنديبَ ساهراً طِوَالَ الليالى ، والخَلِيُّون هُجَّدُ
إذا خطَرَتْ من نَحْوِ حُلوانَ نسْمةٌ نَزَتْ بين قلبى شُعلةٌ تتوقَّدُ
وما كنتُ أخشى أن أعيشَ بغربةٍ يُعَلِّلُنى فيهـا خَوَيْدِمُ أسْـوَدُ!

ويقضى البارودى أولى لياليه فى مستقره الجديد عليلا يعالج ما يلقاه من لوعة وحده ، وتنتابه الآلام وكأنها أنياب حيات تنهشه ، ويدور بعينيه

---

(١) أنظر تفاصيل النزاع فى البحر الزاخر جـ١ ص٢٣٤ـ٢٣٩ .

فلا يجد من يخفف عنه أوصابه وأحزانه ، ثم يرى سيفه معلقا وقد علاه الصدأ فى غمده فتهيج ذكرياته ويقول :

أدورُ بعيْنِى لا أرى وجهَ صاحبٍ — يَرِيعُ لصوتى ، أوْ يَرِقُّ لما أبْدِى
فبِتُّ كأنى بين أنيابِ حيَّةٍ — من الرقْط ، أو فى بُرْثُنَىْ أسَدٍ وَرْدِ (١)
ولا صاحبٌ غيرُ الحسامِ مَنُوطَةٌ — حَمَائِلُه مِنِّى على عاتقٍ صَلْدِ
أقولُ له والجَفْن يكْسُو نِجَادَه — دموعًا كمُرْفَضِّ الجُمَانِ من العِقْدِ
لقد كنتَ لى عونًا على الدهرِ مرَّةً — فمالى أراكَ اليومَ مُنْثَلِمَ الحَدِّ ؟

ويمضى البارودى فى مناجاة سيفه بكلمات تنضح مرارة وألما وتفيض صورها بثه على نفسه وقد كان الفارس الذى يهز السيف فتهابه الأبطال ، وإذا بالسيف كهام منثلم الحد كفارسه . وتزين له ربة الشعر أن شفاءه من عذابه فى العودة إلى الوطن وفى نظرة إلى « روضة المقياس » مغنى الشباب ومرتع الصبى ، وتتداعى الذكريات ويتموج اللحن الصادق مع موجات العاطفة والذكرى ، فينسى الأسى والألم ، ثم تطير به نفسه إلى الفخر بسجاياه وفروسيته وقريضه . وكذلك الشعر الصادق يعبر عن خلجات النفس فى نبضها بالانفعالات المختلفة ، وكثيرا ما تختلط هذه الانفعالات حتى لتبدو فى بعض الأحيان وكأنها متناقضة أو متضاربة ، وهكذا النفس البشرية حين تموج فيها العواطف المختلفة .

وتمضى الأيام وتزداد آلام الغربة عند البارودى وتشمل الوحدة وقودها ، وترثى ربة الشعر للوحيد العانى ، وتخشى عليه كتمان مابه من عذاب وألم فتسعفه

---

(١) الرقط جمع رقطاء : الحية السوداء بها نقط أبيض ؛ و البرثن : المخلب ؛ والأسد الورد : الجرىء .

وتعزف له الألحان ليغني ويصعد في غنائه البركان الذي تنطوي عليه نفسه فتستريح ، وتتخير له فيما تتخير لحن « العزلة على قمة الجبل » فيرسمها لوحة من أروع درره تنبض بالحركة والحياة وفيها يقول :

أبيتُ منفرداً في رأس شاهقةٍ مثلَ القُطامي فوقَ المربأ العالي[١]
إذا تلفَّتُّ لم أُبصر سوَى صُورٍ في الذهن يَرسمها نقَّاشُ آمالِي
تهفو بِيَ الريحُ أحياناً ، ويلحفني بردُ الطِّلال بِبُرْدٍ منه أسمالِ[٢]
فَفي السماء غيومٌ ذاتُ أروقة وفي الفضاء سيولٌ ذاتُ أوشالِ[٣]
كأن قوسَ الغمامِ الغرِّ قنطرةٌ معقودةٌ فوق طامي الماء سيالِ[٤]
إذا الشعاعُ تراءى خلفها نشرت بدائعاً ذاتَ ألوانٍ وأشكالِ
فهو تراني وبُرْدي بالندى لثقٌ لحلتي فرخَ طير بين أدغالِ[٥]
غالَ الرَّدى أبويه فهْوَ منقطعٌ في جوف غَيْنَاء لا راعٍ ولا والِ[٦]
لا يستطيع انطلاقا من غيابته كأنما هو معقول بعقّالِ
فذاك مثلي ، ولم أظلم ، وربَّتَما فضلتهُ بجوَى حزنٍ وإعوالِ
شوقٌ ، ونأي ، وتبريح ، ومَعْتَبةٌ يا لَلْحمية من غدري وإهمالِي !

ثم تتخير له ربة الشعر لحن « ليلة الذكريات » فيغنيه في مطولة مطلعها :

هَلْ من طبيبٍ لداء الحبِّ أوْرَاقِي ؟ يَشْفِي عَليلاً أخَا حَزنٍ وإيراقِ

---

(١) القطامي : الصقر ؛ المربأ : المكان الذي يقف فيه من يرقب.
(٢) الطلال : المطر ؛ والبرد : كساء أسود من صوف ؛ أسمال : الثوب الخلق البالي.
(٣) الأوشال جمع وشل : الماء القليل يتحلب من جبل.
(٤) الغمام الغر : الأبيض. (٥) لثق : مبتل.
(٦) الجوف : الوادي ؛ والغيناء : الخضراء.

يذكر فيها الحزن الذى براه والأشواق التى رعت كبده ، ونجوم الليل التى يرعاها وكأنما شدت إليها عيونه ، وتطوف به ذكريات الوطن فيدعو الله ألا تمسه بائقة ، ويهفو إلى نسمة من جو مصر العبق حمى قومه ومنبت آدابه وأعراقه ، ويتمنى أن يعود إليها ولو عاش بها فقيراً معدماً ، ويصور اللهفة إليها فى قوله :

أصبُوا إليها على بُعدٍ ، ويعجبنى أنى أعيشَ بها فى ثَوْبِ إملاقِ

ويقبل عام ١٨٨٥ وتزحف معه على البارودى مواكب الأحزان فيتخطف الموت زوجته بالقاهرة وتعتصر المنون شبابها ولما تتجاوز السابعة والثلاثين ، وكان قد أمرضها الحزن وهرى كبدها الأسى وفتت مرارتها الألم منذ فراق الزوج الحبيب [1] ، فلقيت ربها شهيدة الحب والوفاء ، ولم تكن قد أخبرته فى رسائلها بأمر هذا المرض حتى لا تضيف إلى عذاب الغربة عذاب الفجيعة والتألم من أجلها [2] . ويفجأ البارودى الناعى بالخبر فينزل عليه نزول الصاعقة ويكاد يودى به ، وتدركه ربة الشعر بقيثارتها تنشد له « نشيد الرثاء » حتى لا يبخع نفسه على أثرها وفيه يصف نفسه حين وافاه الخبر فيقول :

وَرَدَ البريدُ بغير ما أمَّلتُه تَعِسَ البريدُ ، وشاهَ وجهُ الحَادِى

فسقطتُ مغشيًّا علىَّ كأنما نَهَشَتْ صميمَ القلبِ حَيَّةُ وادِى

وَيْلُمِّه رُزءًا أطارَ نَعِيُّهُ بالقلبِ شُعلةَ مارجٍ وقَّادِ [3]

قد أظلمتْ منه العيونُ ، كأنَّما كَحَلَ البكاءُ جفونها بِقَتادِ

---

(١) تقول مذكرات الأسرة الخاصة إن عديلة زوجة البارودى ولدت عام ١٨٤٨ ومرضت باليرقان أو المرض الأصفر وبالكبد والمرارة بعد نفى زوجها حزنا عليه. (٢) مذكرات الأسرة .

(٣) المارج : النار لا دخان لها.

ويطحن البارودى الأسى واللوعة لفراق رفيقة حياته ، ويكاد الحزن على فقدها يقضى عليه ويسحقه ويوهن عزمه ويحطم عوده كما يقول :

أبلَتْنِيَ الحَسَراتُ حتّى لم يكَدْ جِسْمِي يلُوحُ لأعينِ العُوّاد
أستنجِدُ الزفراتِ وهْى لوافحٌ وأُسفّهُ العَبَرَاتِ وهْىَ بَوَادِى
لا لوعتى تَدعُ الفُؤادَ ، ولا يَدِى تقْوَى على ردِّ الحبيبِ الغَادى

وتتمثل له زوجته فيتحدث إليها وكأنه يناجيها أو يناغيها ، ثم يتألم من تصورها فى جوف القبر المعتم ، ويتمنى لو أن هناك فداء فيفديها بنفسه فيقول :

أسَليلةَ القمرين ! أىُّ فجيعةٍ حلّت لفقدكِ بيْنَ هذَا النَّادِى ؟
أعزِزْ علىّ بأن أراكِ رهينةً فى جوفِ أغبرَ قاتِمِ الأسْدَادِ
أوْ أن تَبِينِى عَنْ قرارةِ منزلٍ كنتِ الضياء له بكلِّ سَوادِ
لو كان هذا الدّهرُ يَقْبَل فديةً بالنفس عنكِ ؛ لكنتُ أولَ فَادِى

ويعتب البارودى على الدهر ويستنكر منه فجيعته فى حليلته وقد كانت عدته فى الحياة ، ويفكر فى بناته الغريرات ثم يسائل الدهر إن كان مغاضبا له ومحاربا ، أفلا رق لصغيراته وقد تركن محترقات القلوب باكيات العيون وحيدات لا يرعاهن أحد فيقول :

يا دهرُ فيم فجعتَنى بحليلةٍ ؟ كانت خُلاصةَ عُدّتى وعَتادِى
إن كنتَ لم ترحَمْ ضَنَاىَ لبُعْدها أفلاَ رحمتَ من الأسى أولادى ؟
أفردْتَهُنّ ، فلم ينمْنَ توَجعاً قَرْحَى العيون رواجفَ الأكْبادِ
ألقيْنَ درَّ عقودهن ، وصُغْنَ مِنْ درِّ الدموع قلائدَ الأجْيادِ

يبكين من وَلَهٍ فِرَاقَ حفيَّـــــةٍ   كانت لهنَّ كثيرةَ الإسعادِ
فخُدُودهن من الدموع نَدِيَّةٌ   وقلوبُهن من الهموم صوَادِي

ومطولة البارودى التى يبكى فيها زوجتـه الحبيبة ويندبها على البعد من نادر الشعر العربى ، فقليـلا مارثى الشعراء العرب زوجاتهم ، ذلك لأن رثاء النساء لم يكن مألوفا فى البيئة العربية . ورثاء البارودى لزوجته من الشعر الذى يسميه الغربيون بشعر « العلاقة العائلية الباطنة » ، وقد استطاع البارودى أن يصور الحزن الحقيقى على الحبيبة الفقيدة ، حتى ليكاد المرء يحس لهفة الشاعر وقد وهن عزمه فى عباراته ، ويشعر بجمرات الحزن فى كلماته ، ويرى الدموع مدرارا على وسادته . ولم ينس البارودى فى موقف البكاء والرثاء لزوجته أن يرضى كرامتها وهى المرأة والحبيبة — فيؤكد حبه ووفاءه لها وحدها فى قوله :

لا تَحْسبِينى ماتُ عنكِ مع الهوى   هيهاتَ ، ما تَرْكُ الوفَاءِ بِعَادِى[1]

والحزن فى القصيدة حزن عميق جدير بأن يعد نموذجا فى الشعر العربى للعاطفـة الصادقة بين الزوج وزوجه ، ومثـلا للعلاقة القـوية التى مزجت بين روحيهما وحياتيهما ، حتى لتخال كلا منهما شطر الآخر وجزءا منه لا يشتهى الحياة بدونه ، ويكاد يقضى أحدهما إن قضى الآخر ، كما يقول البارودى مناجيا ومؤملا لقياها يوم القيامة :

هيهاتَ بعدَكِ أن تقرَّ جوانحى   أسفاً لبُعدِكِ ، أو يلينَ مِهادِى
وَلَـهِى عليكِ مُصاحبٌ لمَسِيرتى   والدمعُ فيك مُلازمٌ لوِسَادِى
فإذا انتبهتُ فأنتِ أولُ ذكرتى   وإذا أوَيْتُ فأنتِ آخرُ زادِى

---

(١) العاد : جمع عادة أى ليس من عادته ولا من طباعه عدم الوفاء .

أمسيتُ بعدَكِ عِبْرَةً لذَوِى الأسَى　　فى يومِ كلِّ مُصيبةٍ وحِدَادِ
متَخَشِّعاً أمشِى الضَّراءَ ، كأنَّنى　　أخشى الفُجاءة من صِيَالِ أعادِى[1]
مَا بَيْنَ حُزن باطنٍ أكلَ الحشَا　　بلَهِيبِ سوْرَته وسُقْمٍ بَادِى
قد كِدْتُ أقضى حسرةً لو لم أكن　　متوقعاً لُقيـاكِ يومَ معَادِى

وتعصف النازلة بالبارودى فتمرضه مرضاً شديداً ويظل طريح الفراش شهرين أعيى فيهما نطس الأطباء ، فلم يكن ليستجيب جسمه لتطبيب وروحه يلفها الأسى ويطحنها الألم ، « ولما أعيته العلة ، وأخطأته التملة ، دعاه الطبيب إلى ترك الحاضرة ، والتوقل فى بعض الهضاب الناضرة[2] » ، ويخرج البارودى بعد أن عادت إليه بعض عافيته سائحا فى أنحاء الجزيرة ، يتنقل بين جبالها ووديانها ويزور « كاندى » عاصمتها القديمة وغيرها من البلاد ، فيرى « أيكات مغنة ، وأطياراً مرنة ، ودوحات تكاد تمس السماء ، وتصرف عن أدراجه العماء[3] ، والنسيم يتدرج ، والعبير يتأرج ، والطير بين رنيم وصفير ، والريح بين شهيق وزفير[4] » . ولكنه لا يجد فى التغيير راحة لنفسه ، ولا فى السياحة سلوانا لمصابه ، بل رأى فى كل شىء ألما يذكره بآلامه ، وحزنا يشاطره حسراته كما يقول : « بيد أنى لم أجد فى تلك المناظر ، مسلاة للقلب والناظر ، ولا فى أغاريد البلابل ، ما يشفى لوعة البلابل[5] ، ولا ألهتنى ذات الطوق ، عما أجده من التوق ، ولا أنستنى نسمات الأصائل ، ما انقطع من حرمات الوصائل ، بل حسبت قطرات المزن ، دموعا أسالتها زفرات الحزن ، وتوهمت أن كل نوارة ، نحلة من

---

(١) أمشى الضراء : أمشى مستخفيا.　　(٢) التوقل : الصعود والسير فى المرتفعات.
(٣) العماء : السحاب الكثيف .
(٤) من كتاب « قيد الاوابد » ، نظر : مقدمة الديوان « الجارم » ص ٤٧ .
(٥) البلابل : آلام النفس وعذاباتها .

الرواء سوارة [١] ، وخيل إلى أن حمرة الجلنار ، جمرة ساطعة من النار . . . ورأيت من الجداول أساود [٢] تنهش ، ومن الأزهار عيونا تجهش [٣] ».

ولا يترك القدر البارودى يفيق من صدمة وفاة زوجته حتى يلاحقه بصدمة أخرى ، فينشب الموت أظفاره فى شباب ابنته « ستيرة » [٤] ، ويأتى نعيها إلى الأب المنكوب فى المنفى ، فلا يجد فى قلبه موضعا لمزيد من الآلام ، ولا فى مقلتيه فضلة من دموع ، ويستنجد بشعره يسكب فيه بثه وحزنه ويندب به بنته فيعصاه القريض ، ولا تجود عليه ربة الشعر بغير بيتين اثنين فيقول :

فزِعتُ إلى الدموع فلم تُجبنى وفَقْدُ الدمع عنـد الحزن دَاء
وما قصَّرتُ فى جزعٍ ، ولـكنْ إذا غلبَ الأسى ذهَبَ البكاء

ويدرك يعقوب سامى أن رئيسه السابق ، وزميله فى الاغتراب ، وشريك النكبة يكاد يودى به الأسى ، ويوشك الحزن أن يقضى عليه ؛ فيحاول — فى غفلة من الزمن وفى هدنة من مواكب الأحزان — أن يأسو جراحه ويخفف من نكباته وآلامه ، فيزوجه بابنته « أمينة » أواخر عام ١٨٨٥ [٥].

وتتحمل الزوجة الصغيرة [٦] مسئوليتها بشجاعة ، فتبذل من ذات نفسها ومن قلبها الكثير للزوج العانى الكسير . فتمنحه الرفقة المؤنسة والحب الصادق ، وتعطيه الأهل والولد ، وتتمكن من أن تنفذ إلى ظلمة نفسه فتضىء بعض جوانبها وتخفف عنه بعض ما تحمل ، ولكنها لم تستطع أن تعيد إليه ابتسامته وقد ضاعت إلى الأبد ، ولم تتمكن من أن ترد إليه نفسه وقد ذهبت حسرات .

---

(١) النحلة السوارة : شديدة الصولة سريعة الوثوب.
(٢) أساود : جمع أسود وهو الثعبان . (٣) تجهش : تتهيأ للبكاء . المصدر السابق ص ٤٩ .
(٤) معلومات الأسرة . ستيرة : عفيفة . (٥) مذكرات الأسرة الخاصة .
(٦) تزوجت به وعمرها ١٩ سنة .

وسريعاً ما تتجدد على البارودى مواكب الأحزان ، وتنقضى فترة الهدنة التى عقدتها معه الأيام ، فيأتيه البريد تباعاً من مصر يحمل إليه الناعى موت الصحب والأخلاء . وتكر صولة الأحداث على أهله وأترابه فتسكنهم القبور وهو ناء بعيد .

وتوافيه الأنباء عام ١٨٧٨ بنعى صديقه أحمد فارس الشدياق[1] اللغوى الشاعر ، فيؤبنه تأبينا حارا ويرثيه بقصيدة حزينة مطلعها :

متى يشتفى هذا الفؤادُ المفجّع وفى كلِّ يوم راحلٌ ليس يرجعُ

وفى عام ١٨٨٩ يغتال الردى صديقه الكاتب الشاعر « عبد الله فكرى » خدن شبابه ، ورفيق ندواته الأدبية ، ووزيره للمعارف فى وزارة الثورة . ثم يقفى على آثاره فى نفس العام بالعالم الأديب الشيخ « حسين المرصفى » ، أستاذ البارودى ومفقهه ومرشده[2] إلى الطريقة المثلى فى تنمية الذوق الأدبى والموهبة الشعرية ، وقرأ معه الكثير من دواوين مشاهير الشعراء ، وهداه إلى حفظ الكثير منها واستثبات الجميل من معانيها ونقد شريفها من خسيسها ووقفه على صوابها وخطئها[3] ، وذاع شعره فى كتابه « الوسيلة الأدبية » بين البلاد العربية ولما يزل البارودى فى شبابه ، وأشاد به فيها فجعله بين شعراء عصره نسيج وحده ذا طبع بالغ نقاؤه وذهن متناه ذكاؤه[4] ، ووضعه فى مصاف فحول الشعراء الأمراء كأبى فراس والشريف الرضى والطغرائى ، ونبه إلى « ما تميز به شعره وأضرابه من الشعراء الأمراء ، من آثار عزة النفس ، ومن براعة ومتانة وتخير للألفاظ برعاية ما هو أوفق بالأدب ، أو أليق بالمدح ، أو أوقع فى الزجر ، أو أجلب للعطف والرضى ، أو أدخل فى

---

(١) عالم أديب ولد بلبنان وتأدب فى مصر وتنقل بين الشرق والغرب واعتنق الدين الإسلامى بتونس ومات بالقسطنطينية . وكان يصدر جريدة « الجوائب » وله مؤلفات لغوية وأدبية كثيرة .

(٢) أنظر : القصيدة التى كتبها إليه من حرب الروسيا ، الوسيلة الأدبية ج٢ ص ٥٠١ .

(٣) الوسيلة الأدبية ج ٢ ص ٤٨٤ .

(٤) المصدر السابق .

النصحة ، أو أنسب بالغزل ، أو أهيج للحماس [1] » . ويحزن البارودي على صديقيه حتى يمضه الحزن ، ويبكيهما حتى تتقرح مقلتاه ، ويبكي معهما عمره الضائع ووطنه المحتل . وموت الأتراب والأخدان يدخل في روع المرء قرب النهاية ، وينظر البارودي إلى نفسه ليرى ما فعلت به صولة الحوادث ، فيجد أنها تخطفت أهله وأحباءه ، وأصابته بمحنة الحزن الدائم والاغتراب المضني ، ثم أردفت كل ذلك بالشيب والكبر ، فانهدّ منه الجسد ، ونالت من سمعه وبصره وقوته الأيام ، ولم تدع منه غير « أشلاء همة في ثياب » ، فيرثي نفسه وهو يرثي صاحبيه ، ويرسم صورة هذا الطور من عمره بريشة فنان مبدع خلق من الألفاظ ألوانا لريشته وأحال أحزانه ظلالا لصورته فيقول :

أَخْلَقَ الشيبُ جِدَّتي ، وكساني ... خِلعةً منه رَثّةَ الجِلبابِ

ولوَى شعْرَ حاجبيَّ على عَيْـ ... ـنَيَّ حتى أطَلَّ كالهُدّابِ [2]

لا أرى الشيء حين يسْنَح إلاَّ ... كخيالٍ كأنني في ضَبابِ

وإذا ما دُعِيتُ حِرْتُ ، كأني ... أسمعُ الصوتَ من وراء حجابِ

كلما رمتُ نهضَةً أقعدَتْني ... وَنيةٌ لا تُقِلُّها أعصابي [3]

لم تَدَع صولةُ الحوادث منِّي ... غيرَ أشلاءِ همّةٍ في ثيابِ

فجعتْني بوالديَّ وأهلي ... ثم أنحتْ تَكُرُّ في أترابي

كلَّ يومٍ يزولُ عنِّي حبيبٌ ... يالقلبي من فُرقة الأحبابِ !

أينَ مني حسينٌ؟ بل أينَ عبدُ اللَّـ ... ـه ؟ ربُّ الكمالِ والآدابِ

مَضَيا غيرَ ذُكْرَةٍ ، وبقاءُ الذِّ ... كْرِ فخرٌ يدومُ للأعقابِ

(١) المصدر السابق ص ٥٠٢ . (٢) الهداب مفرد أهداب : خمل الثوب .
(٣) الونى : الضعف ، والونية اسم مرة منه ؛ وتقلها : تحتملها .

فى كاندى بسرنديب

بعد ثمانى سنوات فى المنفى

وتهد المحن من البارودى قوته ، ويدب الضعف والوهن فى جسده ، وتمتد ظلمه حظه إلى عينيه فتصاب قرنيتيه برشح يأخذ نورهما شيئاً فشيئاً ، ويقرر الأطباء عدم ملاءمة جو « كولومبو » لصحته ، فينزح هو وأسرته الجديدة إلى « كاندى » عام ١٨٩٠[1] وقد بلغ من العمر إحدى وخمسين سنة . ومناخ كاندى قريب من مناخ مصر زمن الربيع ، وهى مدينة مقامة على واد ذى ثلاث شعب بين ثلاثة[2] جبال ، وتمتاز بجمال الطبيعة ، وفى منتصفها بحيرة عظيمة تنصب فيها وفود الماء معجلة ، وعلى حافتيها أشجار مختلفة الأنواع والألوان ، وفى المدينة حديقة للنباتات تسمى « حديقة سراديفيا » على نهر سراديفيا الكبير[3] .

وتصف كريمتا البارودى[4] دارهما فى كاندى فيقولان : « اختار والدنا منزلا منفردا على ربوة عالية يدور الصاعد إليه حول المرتفع حتى يصل إلى أسواره ، وكانت تحيط به حديقة ذات أشجار مثمرة وأزهار جميلة ، أما محراب الباشا وهو حجرة مكتبه التى قضى فيها أكثر وقته فكانت على شمال الداخل إلى الدار ، وتتصل بالشرفة الكبرى التى تحيط بالمنزل ، وكانت منطقة حراما لا يدخلها سواه . ويقف على أول الطريق إلى الدار جندى بريطانى شاكى السلاح ، وكأنه كان هناك

---

(١) البحر الزاخر ج ١ ص ٢٣٥ ، وكاندى على بعد ٧٣ ميلا من كولومبو.

(٢) مذكرات عرابى ١٨٠ — ١٨١ .

(٣) المصدر السابق . أطلق البارودى على الحديقة اسم « روضة برديفيا » .

(٤) فاطمة ومشيرة وهما على قيد الحياة . من حديث لهما معى فى مارس ١٩٦٦ .

لينغص على الباشا حياته ويذكره طوال الوقت بأنه غريب فى هذه الديار وأسير الذين يحتلون بلاده .

ويسترد البارودى بعض عافيته فى كاندى ، وتستجيب روحه لجمال الطبيعة فيها حتى ليخيل إليه أنه تسلى عما يعانيه من عذاب كما يقول : « فلما حللت بواديها ، ومررت فى بواديها ، تلاهيت عما أجده من الحرقة ، وأتجرعه من مرارة الفرقة [1] » . ويصف البارودى شعوره المختلط عليه فيها فيقول :

رعياً لها من بلدةٍ لَوْ أنَّ لِى ... فيهاَ أخاً يرعى ذِمَامَ إخائى

ضنَّت بها نَفْسِى كما سمحتْ بها ... فانظرْ لقربِ ضَنَانتِى وسَخَائِى

ومن العجَائِبِ أنّنى منْ غُربتى ... ونعيمِهَا فى شدَّةٍ ورخاءِ [2]

ويطمئن بالبارودى المقام فى كاندى فيجوبها يستمتع بجمالها الأخاذ وطبيعتها الساحرة ثم يصف مايراه نثرا وشعرا ، ويصور بحيرة المدينة بنثره الفنى فيقول :

« وأدَّانى المسير إلى ربوة ، تدعو الحليم إلى الصبوة . فأشرأبت بى إلى عين [3] ، أشد صفاء من العين ، قد انفجرت بسلسال الصباح ، أو كلسان المصباح [4] ، فى بركة تزرى بالهالة عند استوائها [5] ، وتزهو على الوذيلة بحسن روائها [6] ، قد افترت عن ثغر حصبائها ، وتكسرت فى مهب أصبائها [7] ، وأحاطت بها أفنان الشجر ، إحاطة الأهداب بالبصر ، وانبعثت منها جداول

---

(١) من نبذة ذكرت مع مقدمة الديوان « الجارم » ص ٤٦ من كتاب « قيد الأوابد » .

(٢) هذه الأبيات لم تذكر فى الديوان وإنما ذكرت فى « قيد الأوابد » .

(٣) سيل الماء .

(٤) السنان : الضوء على الاستعارة .

(٥) الهالة : دارة القمر .

(٦) الوذيلة : المرآة .

(٧) الأصباء : جمع صبا وهى ريح شرقية لينة .

كذوب اللُّجين ، تتلوى فى جريتها تلوى الأين[1] ... فهى تجرى بين غيضه ملتفة ، وأشجار مصطفة ، إذا لا عبتها أنفاس الشّمال[2] ، مالت إلى اليمين والشِّمال ، وإن عبثت بها ريح الجَنوب ، كادت تمس الأرض بالجنوب[3] » .

ويصف البارودى حديقه النباتات فى قصيدتين : ينظم الأولى بعد أن قضى بالحديقة مع رفاق كرام وصحبة مؤنسة يوما وليلة ، فتعود إليه ذكريات الصبا وينسى همومه مؤقتا ، ويسأله الخلان « وصف حسن يومهم » فينطلق البارودى يصور الحديقة تصويرا حسيا منظورا فى لوحة بديعة تكاد تسمع فى جوانبها شدو القمرى ورنة الطير ، وترى طيور الماء فيها جماعات كركب عجال ضمهن طريق :

إذا أبصرَتْ زُرْقَ الموارد رفرفت   عليها : فطافٍ فوقَهـــا وغَرِيق[4]

ويعنون الثانية بقوله « وقال يصف روضة ردينيا[5] فى جزيرة سرنديب وهى إحدى جنان الدنيا » ويقول فيها[6] :

ومسرحٍ لسوامِ العَيْنِ ليسَ لهُ   فى عالم الظَّن تقـــديرٌ ولا شَبَهُ

باكرتُه سُحرة ، والشمسُ ناعسةٌ   فى خدرهَا ، وحمامُ الأيكِ منتبهُ[7]

وللغَمَائِم بينَ الأُفقِ منسحِبٌ   وللنسَائِمِ نحـــو الروضِ متَّجهُ

والجوُّ فى حُلة دكْناء مازجَهَـــا   خيطٌ من الفجر يبدو ثم يَشْتَبهُ

---

(١) الأين : الحية .   (٢) الشمال : الريح الشمالية .   (٣) الجنوب : جمع جنب .

(٤) القصيدة فى الديوان — الجارم — ج ٢ ص ٣٢٨ ـ ٣٢٣

(٥) مساحتها ٦٠٠ فدان أنظر تفصيلات عنها فى مذكرات عرابى ج٢ ص ١٨١ .

(٦) هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهى من الجزء المخطوط من الديوان من قصيدة ١٥ بيتاً : المخطوطة (س) ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣

(٧) السحرة : السحر الأعلى .

فالنُّورُ منقبض ، والظلُّ منبسطٌ والطيرُ منشرحٌ ، والجوُّ مُدَّلهُ[1]
مناظرٌ لو رأى « بِهزادُ » صورتَها لا عتادَهُ من تمادِى الحَيْرَةِ البَلَهُ[2]
كأنمـــا الدَّوحُ قصرٌ والحمامُ به سِربٌ من الغيدِ بالألحانِ تَبتَدِهُ[3]
طوراً تغنّى ، وأحياناً[4] تنوح ، فما ذاكَ الغِناءِ وهـذا النَّوحُ والوَلَهُ
شارفتُ ساحتَها فى فتيةٍ ألِفُوا صدقَ الوداد فلم تعرض لهم شُبَهُ
موقَّرون كرامٌ لا يَخفُّ بهم طيشٌ ، ولم يجرِ فى أخلاقهم سَفَهُ

لم يفترحنين البارودى إلى الوطن لحظة طوال أعوام النفى ، ولم تخف وطأة آلامه يوما من أيام محنة الاغتراب ، ولكنا نلاحظ بعد انتقاله إلى « كاندى » تطورا فى معنوياته ، وتغيرا فى مواجهته النفسية للأمور ، فقد بدأ يتطامن للدهر ويستسلم لصولة الأحداث كما نجده فى قوله :

طالَ شوْقى إلى الديارِ ، ولكن أين مِنْ مصرَ مَن أقام بكَنْدِى ؟
لو سِوَى الدهرِ رامَ غَبْنِى لأصحَرْ تُ مُشيحاً بالنَّصل فوق سَمَنْدِ[5]
لستُ أقوى على الزمان ، وإن كنـ تُ أَفلُّ العِدَا بقوة زَنْدِى

ويظهر ذلك أكثر ما يظهر بعد أن فشلت الوساطة التى قام بها « سير وليم جريجورى » كاتم أسرار ملكة بريطانيا ، وصديق الزعماء منذ سنوات الثورة ، وحاكم سيلان السابق ، وكان قد زارهم فى سيلان[6] ورأى مافعلته الغربة والمناخ

---

(١) المدلة : المتحير المندهش . (٢) بهزاد : كمال الدين أستاذ (١٤٥٠ — ١٥٣٧) ولد فى هراه وهو أشهر مصورى الفرس وخطاطيهم وفنانيهم .

(٣) تبتده : ترتجل . (٤) فى المخطوطة (ج) وأحيان . (٥) السمند : الفرس (فارسية) .

(٦) عام ١٨٩١ ، وله أملاك بسيلان أنظر : البحر الزاخر ج ١ ص ٢٣٢ .

الاستوائى بأصدقائه القدامى ، فحاول أن يساعدهم بنفوذه ، ويسعى فى عودتهم إلى الوطن أو نقلهم إلى قبرص « لموافقة هوائها لهواء مصر مراعاة لصحتهم[1] » بعد أن قرر الأطباء أن مناخ سرنديب لا يناسبهم . ولـكن الحـكومة المصرية وعلى أريكتها « توفيق » ورأس وزارتها « رياض » ، خشيت على نفسها إن عاد الزعماء أن تعود للشعب يقظته ، ويثور على الظلم والاستعمار من جديد ، وهى تود أن يظل « العملاق » فى ركوده ونومته مستسلما لجلاديه من قبل الاحتلال .

وكتب رياض إلى الحـكومة البريطانية : « إن الحـكومة المصرية لا تقبل فى الحال ولا فى الاستقبال عودة المنفيين ما دام الخديو الحالى موجودا على الأريكة المصرية ، لأن عودتهم تسبب الضرر والاختلال فى إدارة الحـكومة والارتباك والفساد بين الشعب[2] » .

وذهب رفض الحـكومة المصرية عودة الزعماء ببقية الأمل الذى ظل كشعاع الضوء ينير ظلمة منفاهم ، وأصبحوا فى ظلام مطبق من اليأس والعذاب . ويقول عرابى حين عرف فشل الوساطة : « فصبرنا على النفس وفى الحلق شجى ، وفى العين قذى » : أما البارودى فيتلقى الخبر فى صبر ظاهر وجلد مصطنع ، ثم يجأر إلى قيثارة شعره ينشدها آلامه ويأسه وينوح لها قائلا :

ويلاهُ من حاجةٍ فى النفس هَامَ بها	قلبى ، وقصَّر عن إدراكها بَاعِى
أسعَى لهـا وَهْىَ منى غيرُ دَانيةٍ	وكيف يبلغُ شأوَ الـكوكَبِ الساعى ؟

---

(١) مذكرات عرابى ج٢ ص ١٧٦ .

(٢) البحر الزاخر ج ١ ص ٢٣٨ ، أنظر أيضاً مذكرات عرابى ج٢ ص ١٧٦ — ١٧٧ .

ويشتد به الشوق فى مواجهة اليأس حتى يصبح مناه فى جرعة من ماء النيل يبل بها صداه ، وضجعة فوق برد الرمل بالقاع ، ونسمة من الوطن يملأ بها صدره . وتحمل إليه ريا الأزاهير وشميم الخلد ، ثم يسائل نفسه : أقضى الأمر فلا عودة إلى الوطن ولا اجتماع بأهل الود والصحاب ؟

وتتداعى على البارودى الذكريات ، فيذكر أيامه الخاليات وقد كان منها فى بلهنيه ممتعا بين غلمانه وأتباعه ، ويذكر ندواته الأدبية والشعراء يقرون له فيها بالإمامه ، ثم يقارن بين ذلك كله وبين حاضره فيقول :

فاليومَ أصبحتُ لا سهمى بذى صَرَدٍ ... إذا رميتُ ، ولا سيفى بقطّاعِ [1]

أبيتُ فى قُنَّة قَنْوَاء قد بلغت ... هامَ السِّماكِ ، وفَاتَتْهُ بأبْوَاعِ

أظلُّ فيها غريبَ الدار مبتئساً ... نابِى المضاجعِ من همٍّ وأوجاعِ

يظنُّنى من يرانى ضاحكاً جَذِلاً ... أنِّى خلىٌّ ، وهمِّى بينَ أضلاعِى

ولاَ ، وَرَبِّكَ ما وجدِى بمندرسٍ ... على البِعَادِ ولا صَبْرِى بمطواعِ

أكُفُّ غربَ دموعى وهْىَ جاريةٌ ... خوفَ الرقيبِ وقلبِى جِدُّ مُلْتَاعِ

ويذهب اليأس ، بما بقى من عافية البارودى ويضعف من معنوياته فيحاول أن يسبغ على نفسه الرضا والطمأنينة فى راحة ضميره ، فيمضى يفتش فى تاريخه وأعماله فلا يجد فيها ما يقلق ضميره أو يزرى به ، فيصور ذلك فى قوله :

أصبحت لا أستطيع الثوبَ أسحبُهُ ... وقد أكون وضافى الدرعِ سربالى

---

(١) صرد : نافذ الحد .

ولا تكادُ يدى تجرى شباً قلمى   وكان طوعَ بنانى كلُّ عسَّالِ[1]
فإنْ يكن جفَّ عودى بعد نضرته   فالدهرُ مصدرُ إدبارٍ وإقبالِ
عَلامَ أجزعُ والأيامُ تشهدُ لى   بصدق ما كان من وَسمِى وإغفالى
راجعتُ فهرسَ آثارى فماَ لمحت   بَصيرتى فيهِ ما يُزرى بأعمالى

ويشغل البارودى نفسه بتعليم اللغة الإنجليزية حتى « يبرع فيها قراءة وكتابة ، ويترجم منها جملة موضوعات إلى اللغة العربية ، ويعلم بعض المسلمين من أهل سرنديب اللغة العربية قراءة وكتابة ليعرفوا لغة دينهم الحنيف . ويقرأ لهم الكتب الدينية ليثقفهم ويبصرهم فيه ، ويؤم المسلمين فى صلاة الجمعة ويعتلى المنابر فى مساجد المدينة[2] » . ويعطى لأولاده وبناته الجزء الأكبر من اهتمامه وقد رزق فى سرنديب بقمرية[3] ، وفاطمة[4] ، وزينب[5] ، ومشيرة[6] ومحمد أشرف[7] وإبراهيم كمال[8] . واستقدم للفتيات[9] مدرسة كان أبوها قسيسا انجليزيا فى كنيسة المدينة ، فعلمتهم اللغة الانجليزية ، ودربت الفتيات على التطريز والحركات التوقيعية والموسيقى ، ولم يسجل البارودى أولاده فى سجل مواليد سيلان المحتلة لكيلا يعدوا من الرعايا البريطانيين .

تيار الزهد فى حياة البارودى :

ونلاحظ تطوراً آخر فى حياة البارودى النفسية بعد انتقاله إلى كاندى ، ذلك

---

(١) الشبا : الطرف ؛ العسال : الرمح المهتز .
(٢) مراثى الشعراء ص ١٩ .
(٣) توفيت فى أغسطس سنة ١٩٣٩ .
(٤) ما زالت على قيد الحياة .
(٥) توفيت فى يناير ١٩٦٥ .
(٦) ما زالت على قيد الحياة .
(٧) توفى فى يناير سنة ١٥٩ .
(٨) توفى فى مارس ١٩٣٣ .
(٩) كان الأولاد الذكور صغاراً حين عاد البارودى إلى مصر فى عام ١٨٩٩ .

ن عاطفته الدينية أخذت تقوى وتنمو ، فخطب فى المساجد أيام الجمع ، ووعظ الناس فيها ، وقرأ لهم الكتب الدينية ، وزهد فى متاع الدنيا ، واتجه إلى ربه يطلب وجهه ويلوذ بكنفه وحماه ، عسى أن يرفع عنه الضر والمحن التى تكاثرت عليه ، ويخفف الخطوب التى أناخت بكلكلها على حياته فيقول :

إلاَمَ يهفو بحلمك الطربُ ؟ أبعدَ خمسين فى الصِّبا أربُ ؟
هيهاتَ ، ولّى الشبابُ، واقتربت ساعةُ وردٍ ، دَنَا بِهَا القَرَبُ [(١)]
فليس دونَ الحِمام مُبتَعدٌ وليس نحوَ الحياةِ مُقْتَرَبُ
كلُّ امرئٍ سائرٌ لمنزلةٍ ليس له عن فِنَائِها هربُ

وتُظهر القصيدة تسلط فكرة الموت على البارودى ، ويخرج من هذا التفكير بفلسفة الزهد التى تجعل العاقل من يكف نفسه عن اللهو ودواعيه ، ويخلص روحه لربه ويتوب إليه قبل المندمة ، ويعتاد الخير ويجود بما حوت يداه .

ويستغرقه البحث فى تعاقب الزمان وفى الموت وموقف الإنسان منهما ، ويبحث فى الذين خلوا من قبل وكيف حصدتهم يد المنون فى قصيدته التى يبدؤها بقوله :

أىُّ شىء يبقَى على الحَدَثَان والمَنَايا خصيمةُ الحيوانِ
قَدْ بلونا كَيْدَ الزّمانِ ولَكِنْ شَغَلَتْنَا عنهُ ضُرُوبُ الأمانى
فَذَاكَ لايزَال يَجْرِى عَلَى النّا سِ بضَرْبَيْنِ مِنْ عُلاً وَهَوَانِ
كَيفَ يرجُو الإنْسَانُ فيه خُلُوداً بعد ماقَدْ مَضَى أبو الإنْسَانِ

---

(١) القرب : سير الليل لورد الغد ، والمراد هنا سير الزمن وذهاب معظم العمر .

ثم يطلب التفكير فيمن سبقه من الأمم ويضرب الأمثلة ببناة الأهرام فيقـول :

أينَ من كانَ قبلنا مُنذُ دَارتْ ... كرةُ الأرضِ وهْىَ ذَاتُ دُخَانِ ؟

أممٌ أخلَدت إلىَ الدهْرِ حيناً ... ثمّ ضاعتْ فى لُجّةِ النِّسْيانِ

حصدتها يدُ المنُون فصارت ... خبراً فى الوُجود بعدَ عِيانِ

فترسّمْ مَعَالمَ الأرضِ واسألْ ... فعسَى أنْ يُجيبَكَ الهرمانِ

بَقِيَتْ بعدَ صَانِعيهاَ فكانَتْ ... أثراً ناطقاً بغير لِسَانِ

سَوْفَ يبلَى من بَعْدِ حين ويُمْحَا ... ذِكْرُ هرْميسَ مِنْ سِجلِّ الزّمانِ (١)

ويسوقه البحث والتفكير إلى فلسفة الزهد فيدعو لها بقوله :

إنّما هذه الحياةُ غرورٌ ... تنقَضى بالشقَاءِ والحِرمَانِ

ليسَ فيهَا سوَى خيالاتِ وهْمٍ ... تعتريهاَ قرائحُ الأذهانِ

خطَراتٌ قدْ ضمّنوهَا كلاماً ... فلسفيّاً لم يقْتَرِنْ بِعَمان

كلُّ حىّ يظُنُّ أمراً، ولكنْ ... أيْنَ منهُ مَحجّةُ البُرهَانِ

قَدْ عرفْنا ما كانَ منّا قريباً ... وجَهِلْنَا ما لا ترى العينانِ

فدَعِ القوْلَ فى التفلسُفِ، واخْضَعْ ... لجلالِ المُهيمِنِ الديّانِ

أنَا يادَهْرُ عَالمٌ بمصيرى ... فيكَ ، لكنّنى جَمُوحُ العِنانِ

---

(١) هرميس : الإسم اليونانى للإله المصرى « طوت » إله الكتابة والعلوم ، ويقال إنه خاف على العلم أن يضيع فبنى البرابى وصور فيها ما عرف لعهده من الصناعات وآلاتها وصناعها حرصاً منه على تخليدها لمن بعده .

قَدْ تمادَيتُ فى الغَوايةِ حتى كبحَ الدَّهرُ شِرَّتِى وَثَنانى[1]

ويجأر البارودى إلى الله ويستغيث به ليقيله من عثرته ، ويشكو إليه طول شوقه لوطنه ، ويسأله أن يحل وثاقه ويفك أسره فيقول فى قصيدة أخرى .

سَلْ مَالِكَ المُلْكِ فهو الآمِرُ النَّاهِى ولا تَخَفْ عَادِيًا فالحُكْمُ للهِ
هُو الَّذِى يُنعِشُ المظلومَ إنْ عَلِقَتْ بِهِ الرَّزَايا وَيجزِى كلَّ تيَّاهِ
فاسْجُد لَهُ ، واقترِبْ تبلغ بطَاعتهِ ماشئتَ فى الدهر مِنْ عزٍّ ومِنْ جاهِ
يارب قدْ طالَ بِى شوقى إلى وَطَنى فاحْلُل وَثَاقِى ، وأَلحِقْنى بأشباهِى
وامنُن علىَّ بفضـلٍ منكَ يعصِمنى من كلِّ سوءٍ ، فإنِّى عاجزٌ واهِى
هَذَا دُعَائِى،وحسْبِى أنتَ مِنْ حكَمٍ يعنُو لَهُ كلُّ شَاهٍ أوشَهنشَاهِ[2]

ويقوى الزهد عند البارودى ويشتد حتى يكاد يصل به إلى أعتاب التصوف، ويحس بنور الحكمة يغمر قلبه بعد أن وهب نفسه لله ، ويشعر من شدة وجده أنه فى حبه الإلهى أمة وحده كما يقول :

دِينى الحنيفُ وربِّىَ اللهُ وشهادَتى أنْ ليسَ إلاَّ هُو
لاَ جاهَ لِى إلاَّ بطاعَتـهِ ولَنعـم عُقبَى الطَّاعة الجَاهُ
أنَا خَاشِعٌ لجلاَلِ قُدْرَته مُتقلِّبُ الجنبينِ أوَّاهُ

---

(١) هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهى من الجزء المخطوط من الديوان والقصيدة بعنوان « وقال فى الزهد » وعدد أبياتها ٢٤ بيتـا . وهى مكررة بنصها فى المخطوطة (ج) ص ٢٩٥ — ٢٩١ ، وص ٢٩٧ — ٢٩٨ ؛ ومكررة أيضاً فى المخطوطة (س) ص ٢٨٤ — ٢٨٥ وص ٢٩١ — ٢٨٢ .

(٢) شاه كلمة فارسية معناها ملك ؛ وشاهنشاه : لقب الملوك الساسانيين . هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهى مقطوعة عنوانهـا « وقال فى الاستغاثة » وهى من الجزء المخطوط من الديوان ؛ المخطوطة (س) ص ٢٩٨ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٣٠٤ .

فأضالِعى للوجـدِ نارُ غضاً وَمحَاجِرى بالدّمع أمواهُ[1]
زَهَتِ القـلوبُ بنُورِ حكمَتهِ وتعطّرتْ بالذِّكر أفواهُ
أنَا أمَّةٌ وَحْدِى عَلَى سَرَف فِى حُبِّـهِ والنّاس أشباهُ
إنْ تَاهَ غيْرِى بالزّمان فَلِى قلبٌ بذِكرِ الله تيّـاهُ[2]

ويتوسل إلى الله بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم فى قصيدة « ياصارم اللحظ مَن أغراك بالمهج[3] ؟ » ،وهى من أعذب ألحانه وأسلسها ، يشكو فيهـا بثه وحزنه ، ويحن شوقا لزيارة مقام الرسول ، ولـكن ضعف الحيـلة وقيود النفى تقف به عن صلة الآمال فيقول :

هو النبىّ الذى لولا هـــــدايتـه لـكان أعـــلم من فى الأرض كالهَمَجِ
هاجتْ بذكراهُ نفسى ، فاَنْدَستْ وَلَهًا وَأىُّ صبٍّ بذِكرِ الشّوقِ لم يَهـِجِ ؟
فـا احتِيَالى ؟ ونفسِى غيرُ صَابرةٍ على البِعَـادِ وَهىً غـــيرُ منْفرجِ
لا أستطيعُ براحًا إن همَمْتُ ، ولا أقوى على دَفْع ما بالنفس من حِوَجِ
فهـل إلى صِـلَةِ الآمالِ من سَبَبٍ ؟ أمْ هل إلى ضِيقَةِ الأحْزانِ من فرجِ ؟
يارب بالمصطفى هبْ لى — وإنعظُمت جرائمى — رحمةً تغنى عن الحُجَجِ
ولا تَـكلْنى إلى نفْسِى فإنَّ يَـدِى مغلولةٌ ، وصباحى عـــيرُ منْبلِج
لم يبقَ لى أملٌ إلا إليـكَ ، فـلا تقطَع رجائى ، فقد أشفقتُ من حَرَجى

(١) أضالع : جمع أضلع مثل أكرعوأكارع فهى جمع الجمع . وهى فى المخطوطة (ج) فاصالعى .

(٢) هذه المقطوعة لم يسبق نشرها ، وهى من الجـزء المخطوط من الديوان .المخطوطة (س) ص ٢٩٨ — ٢٩٩ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٣٠٤ — ٣٠٥ .

(٣) القصيدة فى الديوان (الجارم) ج ١ ص ١٠٠ — ١٠٤ تحت عنوان « وقال يمدح النبى صلى الله عليه وسلم » .

وينظم البارودى فى الرسول ملحمته التى سماها « كشف الغُمّة فى مدح سيد الأمة[1] » وهى ٤٤٧ بيتاً . ويقول فى مقدمتها « فهذه قصيدة ضمنتها سيرة النبى صلى الله عليه وسلم من حين مولده الكريم إلى يوم انتقاله إلى جوار ربه ، وقد بنيتها على « سيرة ابن هشام » ، وسميتها « كشف الغُمّة فى مدح سيد الأمة » ، ورغبتى إلى الله أن تكون لى ذريعة أُمُتُّ بها يوم المعاد ، وسلّما إلى النجاه من هول المحشر ؛ اللهم فحقق رغبتى إليك ، واكسها بفضلك رونق القبول ، آمين » . ويستهلها بقوله :

يارائدَ البرقِ يَمّمْ دارةَ العَلَمِ وَاحْدُ الغمامَ إلى حَيٍّ بذى سلَمِ[2]

وَإنْ مررتَ على الرّوحاءِ فَامْرِ لَهَا أخلافَ ساريةٍ هتّانةِ الدّيَمِ[3]

والقصيدة على وزن « نهج البردة » للبوصيرى ، ولو أن البارودى لم يثبت أنه قد قصد معارضتها . وهى تختلف فى النسق عن « نهج البردة » ، ذلك أن « كشف الغمة » سايرت الحوادث فى حياة الرسول وفقاً لما قصه ابن هشام فى سيرته ، ومن ثم ففيها عنصر الترتيب المقيد لانطلاق العواطف . أما البوصيرى فقد أطاع خواطره الطارئة ، وقدم بعض الحوادث على بعض ، فتكلم عن الرسول وعن معجزاته مثلا قبل أن يذكر ميلاده .

والترتيب الذى سار عليه البارودى ليس ميزة فنية ، فقد قيد انطلاق عواطفه ووجدانه ، وحدد فنيته فى إطار مرسوم ، ففترت العاطفة الشعرية فى أكثر

---

(١) طبعت بمطبعة الجريدة — بسراى البارودى بغيط العدة بمصر سنة ١٣٢٧ هـ — ١٩٠٩م وقد صححها وفسر بعض غريبها كاتب يد الناظم فى سنيه الأخيرة ياقوت المرسى .

(٢) الدارة : أخص من الدار ؛ والعلم اسم جبل بالحجاز ؛ وذو سلم : موضع بالحجاز .

(٣) الروحاء : موضع بين مكة والمدينة ؛وامر لها: استدر لها؛السارية: السحابة الكثيرة المطر .

القصيدة وأصبحت « منظومة تاريخيـة » كتلك المنظومات التى تعرف بالمتون .
ونحس حرارة العاطفة فى القصـيدة عند ما يناجى البارودى وجدانه فيتشوق إلى الرسول ، أو يصف ما أضناه من الخطوب ، وما زرىٰ به من النفى والإقامة فى بلد مثل جوف العَيْر يعبـد أهله الصنم ، يعيش فيها مع القلق يقتات الألم ويطحنه العذاب ، إذا تلفت حوله لم يجد سوى خياله ولم يسمع غير أصداء نفسه كما قال :

تَـكَاءَدَتْنِى خطوبٌ لو رَمَيْتُ بهـا   مَنَاكِبَ الأرض لم تَثبُت على قَدَمِ(١)
فى بلدةٍ مثـلِ جَوف العَيْر استُ أرى   فيهَا سوى أممٍ تَحنُو عَلَى صَنمِ(٢)
لا أستقـرُّ بهـا إلا على قـلَقٍ   ولا ألذُّ بهـا إلا على أَلَمِ
إذَا تلفتُّ حولى لم أجـد أثراً   إلا خيَـالِى ، ولم أسمَعْ سوى كلمِى

وينتسب البارودى فيها إلى الرسول تأسيا — وهو الشركسى فى المنابع الأولى — بسلمان الفارسى(٣) ، ويجعـل حب الرسول صلة تغنى عن القرابة والنسب فيقول :

ياسيدَ الـكون عفواً إن أثِمتُ فـلِى   بحبـكم صـلةٌ تُغنى عن الرَّحِـمِ
كفى بسَلمانَ لى فخراً إذا انتسبَتْ   نَفْسى لـكُم مِثلَهُ فى زُمرَةِ الحشَمِ

---

(١) تكاءدتنى : شقت على وأضنتنى .

(٢) جوف العير : واد خال من السكان ، وذلك كناية عن خلو سرنديب من أسرته وأحبابه . وجاء التشبيه بجوف العير فى شعر أمرىء القيس ، كما جاء فى المثل : أخلى من جوف العير ، وأخلى من جوف حمار .

(٣) من مشاهير الصحابة ، قيل إنه كان ابن دهقان فى قرية جيان من أعمـال أصبهان رحل إلى الشام ثم إلى وادى القرى وأسلم ، وهو الذى أشار على الرسول بحفر الخندق فى غزوة الأحزاب — توفى عام ٦٥٥ م (٣٤ هـ) .

ولا ندعى أن محنة النفى هى التى وجهت البارودى هذه الوجهة الدينية ، أو سارت به فى تيار الزهد ، فشعر الزهد ظهر فى شباب البارودى كما ظهر فى شيخوخته ، وقال فيه قبل النفى كما قال بعده ، غير أن النفى نمّى هذا الاتجاه وقواه عنده . ومن قصائد الزهد التى قالها فى شبابه وحدد تاريخها (١٨٧٤) تلك التى يقول فيها :

ما أطيبَ العيشَ لولا أنهُ فانِى تبلَى النفوسُ ولا يبلَى الجديدَانِ
قد كنتُ فى غِرةٍ حتى إذا انقشعتْ أبقَتْ تباريحَ لا تنفكُّ تغشانِى
إنّ الثلاثينَ والخمسَ التى عَرضت ثنتْ قُواى ، وفلّت غرب أشجانِى
يانفسُ لا تذهبِى يأساً بما كَسَبَتْ يدَاكِ ، فالله ذُو منٍّ وغُفرانِ
يعفو عن الذنبِ حتى يستوى كَرَماً لديهِ ذُو العمل المبرُور وَالجانِى

ويمضى البارودى فى القصيدة يفكر فى الله وفى قدرته ، وفى آثاره المبدعة التى دلت عليه من الأفلاك والشمس والقمر والغيث والنبات ، ثم يتصدى للأضاليل التى ابتدعها أهل الشك والضلال فيصفها بالبهتان وبأنها أساطير مجردة كما يقول :

هُو الذى جَعَلَ الأفلاكَ دائرةً وَصوّر الخلقَ منْ إنْسٍ ومن جانِ
وقدّر الشمس تجرى فى مَنَازِلها والنجمَ والقمرَ السارى بِحُسْبانِ
وأرسلَ الغيثَ إرسالاً برَحمتِهِ وأنبتَ الأرضَ من حبٍّ ورَيْحانِ
سُبْحانهُ جلّ عن وصفٍ يحيطُ بهِ وكيفَ يُدرِكُ وصفَ الدّائمِ الفَانِى
لقد تفرّدَ فى لَاهوتِ قُدرتِهِ فمالَه أبداً فى مُلكِهِ ثانِى

وإنما نحن نُنطريه كما سبقت به الإرادة من وصف وتبيان
كلٌّ يقولُ على مقدار فطنتِهِ واللهُ أعلمُ بالقاصِى وبالدّانى
تباركَ اللهُ عما قيــل وابتدِعت فى ذاته من أضاليــل وبُهتانِ
قد لفّقُوها أساطيراً محــبّرةً بحكمــة ذاتِ أشكالٍ وألوانِ
كأنهم قد أصابُوا طُرفــةً عجبا أوجاءهُم نبــأُ صدقٌ ببرهانِ[1]

وفى ديوان البارودى من شعر الزهد غير ما ذكر أكثر من تسع قصائد[2] قالها قبل النفى ، ومن أشهرها قصيدته التى يقول فيها :

كلُّ حىٍّ سيموت ليس فى الدنيا ثبُوتُ
حركاتٌ سوف تفنَى ثمَّ يتلوها خفُوتُ
أيها السادِرُ قلْ لى أين ذاكَ الجبرُوتُ
ليت شِعرى ، أهمُودٌ ما أراه أمْ قُنُوتُ
إنما الدنيــا خيالٌ باطلٌ سوف يفُوتُ
ليس للإنسانِ فيها غيرَ تقوَى اللهِ قُوتُ

ويتجه التيار الدينى بالبارودى إلى البحث عن أصل الإنسان وتطوره ثم منتهاه فلا يجده إلا حسّاً مهيناً فى أوله وفى آخره كما يقول :

---

(١) هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهى من قصيدة بعنوان « وقال فى الزهد » وعدد أبياتها ٢٤ بيتاً ، وهى من الجزء المخطوط من الديوان ؛ المخطوطة (س) ص ٢٩٢ — ٢٩٣ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٢٩٨ — ٩٩٩ .

(٢) أنظر الديوان (الجارم) جـ ١ ص ٩٦ و ١٢٦ و ٢٢٧ و ٢٥٤ و ٢٥٦ و جـ ٢ ص ١١٠ و ١٢٣ و ١٢٥ و ٣٤٧ .

أوّلُ النفْس نطفةٌ أخلصتها | شهوةٌ صاغها مِزاجٌ دفينُ
قذفتها إلى البُطونِ ظُهورٌ | وحوتْها بعدَ الظهورِ بطونُ
ثمّ أرسى بها هُبوطٌ يليه | حركاتٌ من بعدهنّ سُكُونُ
فهْىَ طوراً تكُونُ فى عالم الغيـ | ـبِ ، وطوراً فى مثلِ ذاكَ تكُونُ
مُبتدَاهَا ومنتهاها سواءٌ | وهْىَ مابينَ ذاكَ حسٌّ مَهينُ
فعلامَ البكاءُ فى إثرِ دَارٍ | بالرّزايا فناؤُها مشحُونُ
تتفانى الرجالُ حِرصاً عليهَا | وَهْوَ حرصٌ أدّى إليه الجنونُ
حَارَ فيها أرسطاليسُ قِدْماً | ونعاهَا الحكيمُ أفلاطونُ[١]

وفى عام ١٨٩٦ زار جزيرة سرنديب (سيلان) ولى عهد انجلترا[٢] ، وكان ضمن برنامج زيارته مقابلة لزعماء الثورة المصرية الذين نفتهم حكومته إلى تلك الجزيرة . وأعد عرابى — نيابة عن زملائه — مذكرة يقدمها لولى العهد يشرح فيها ظروفه وظروف زملائه الصحية — ، ويلتمس التوسط لدى الحكومة كى تعيدهم إلى مصر . ومنع البارودى ، وهو فى كاندى ، مرضه أو تمارضه من حضور المقابلة ، وحتى لا يستغل عدم حضوره استغلالا سيئاً طلب إليه زملاؤه أن ينظم قصيدة ترحب بولى العهد نيابة عنه ويقدمها عرابى مع المذكرة . وبعد إلحاح منهم كتب قصيدته الرائية التى يبدؤها بقوله :

بناظركَ الفتّانِ آمنتُ بالسِّحر | وهل بعدَ إيمان الصبابة من كُفْرُ[٣]

---

(١) هذه المقطوعة لم يسبق نشرها ، وهى من الجزء المخطوط من الديوان : المخطوطة (س) ص ٢٨٦ ، والمخطوطة (ج) ص ٢٩٢ .

(٢) اعتلى عرش انجلترا باسم جورج الخامس عام ١٩١٠ .

(٣) مذكرات الأسرة ومعلوماتها . وعنوان القصيدة فى المخطوطة (ج) « وقال فى تشريف الملك جورج الخامس » ثم ضرب بالقلم على ما بعد وقال . وجاءت القصيدة فى طبعتى الإمام والجارم عنوانها « وقال » فقط .

والقصيدة تدلنا على شخصية البارودى المترفعة ونفسه الأبية وكبرياء الوطنية فيه . فبالرغم من مركز القوة الذى يتحكم فيه ولى عهد انجلترا ومركز الضعف الذى يعانى منه الأسير المنفى ، وبالرغم مما يقاسى البارودى من عذاب النفى وألم البعد من الأهل والوطن وما يعانيه من وهن الشيخوخة وضعف الصحة ، لم ينب به قلمه فيطلب فى القصيدة العفو من ولى عهد انجلترا ، ولم يذل كبرياؤه لينزاف إلى من طرده من وطنه ، ولم يرتكب زلة وطنية فيمدح ممثل الاحتلال البغيض ؛ بل كتب القصيدة من علياء إبائه ومن قمة كبريائه ، ففخر بنفسه التى ملكها من كل سوء وبرأيه الصائب ومنطقه الذى لم يصدر عنه ما يستوجب الاعتذار ؛ وكأنه بذلك يعلن أن ثورته الوطنية لم تكن ذنبا يوجب الاعتذار أو التماس العفو . ثم يتخذ البارودى من نفسه وهو السياسى المجرب أستاذاً لولى العهد ، فيعلمه حصيلة تجاربه ويقلده وصاياه ويمنحه دروس الحياة ، فى الخصومة ، والمعاملة ، والمساواة بين الناس ، والاعتدال بين شد الطموح والمغالاة فيه وبين سقوط الهمة . ويخاطبه بخطاب يحس ذواقو اللغة العربية فى مطلعه رنة الخصومة ونغمة العداء فيقول :

فيا ابنَ أبى — والناسُ أبناء واحدٍ — تقلَّدْ وَصَاتى ، فَهْى لؤلؤةُ الفِكرِ

إذا شئتَ أن تحيا سعيداً فلا تكنْ لدُوداً ، ولا تدفعْ يدَ اللِّين بالقَسْرِ

وكن وسطاً لامُشرئباً إلى السُّهَا ولا قانعاً يبغى التزلف بالصُّغْرِ

ولا تعترف بالذلِّ فى طلب الغِنَى فإن الغنى فى الذُّل شرٌّ من الفقْرِ

ودارِ الَّذى ترجو وتخشى ودادَه وكنْ من موداتِ القلوب على حِذْرِ

ويمضى البارودى فى تلقين ولى العهد دروسه ثم يختم قصيدته بقوله :

فهـذه وصاتى ، فاحتفظها تفزْ بمـا   تمنيتَ من نَيْلِ السّعادة فى الدهرِ
فإنى امرؤٌ جربتُ دُهرى ، وزادنى   به خبرةً صـبرى على الحُلوِ وَ المُرِّ
تدبَّرْ مقالى إنْ جهلتَ خليقتى   لتعـرفنى ، فالسيفُ يُعرَفُ بالأثرِ

والذى لايدعو إلى الشك أن حياة البارودى مليئة بالتجارب الذاتية وخبرات الحياة العامة من رحـلات وحروب ونشاط سيـاسى على مستوى السرية تارة والعلنية تارة أخرى ، والتقلب فى مسرات النعيم وبؤس الوحدة والنفى ، وتعاور النجاح والفشل عليه ، وقد أتاح له كل ذلك مصدراً ثراً من التجارب كان يغترف منها فى شعره فتأتى طبيعية بدون تـكلف ، وتتداخل فى قصائده وكأنما ينظمها عفو الخاطر . وأكثر قصائد البارودى لا تخلو من الحـكم التى استخلصها من حياته كما يستخلص الشهد من الزهر .

مراسلات البارودى فى المنفى :

وتظل توافى البارودى مدة النفى رسـائل الأهل والصحاب وذوى الأدب والعرفان من مصر وغيرها[1] لما بينهم وبينه من الصلة الروحية[2] ، فـكانت تؤنس وحشته حيناً وتذكى الشوق والحنين فى قلبه أكثر الأحايين . وكتب إليه الأدباء والعلماء من شتى البلاد العربية والإسلامية يخطبون وده ، ويستنشدون

---

(١) كان يكتب إليه ممن وصل إليه علمنا ألفريد سكاون بلنت ، وسير وليم جريجورى ، ولويس صابونجى ، وأحمد فارس الشدياق ، وبرودلى المحامى ، وبعض علماء الهند وشـعرائها من خارج مصر وقد كانت بعض رسائله إلى بلنت وبرودلى بعد السنوات الأولى من النفى بالإنجليزية .

(٢) مقدمة مراثى الشعراء ص ١٩ .

شعره ، ويواسونه فى محنته . ومن هؤلاء عالم أديب من الهند يدعى « عليا » كتب إلى البارودى شعراً يمدحه به ويتألف نفسه ، فيجيبه البارودى فى مطولة يستهلها بقوله :

قليلٌ بآداب المـــــــودّة مَنْ بَقِى ... فَمَنْ لى بخِلٍّ أصطفيه وأكتفى

يشكر له مودته واحتفاءه . ولا يستطيع البارودى أن يتحرر من انفعالاته وعذابه فتنضج بها القصيدة ، وتحيطها بجو من مشاعر الألم والأسى التى يعيش فيها كما يقول :

أَحِنُّ إلى أهلى ، وأذكُرُ جيرَتِى ... وأشتاقُ خِـلاّنى ، وأصبو لمألَفِى

فلا أنا أَسْلُو عن هوايَ فأَنتَهِى ... ولا أنا أَلْقَى من أحِبُّ فأَشْتَفِي

وكان الأمير « شكيب أرسلان » صبياً ناشئاً إبان الثورة العرابية ، ورآه الشيخ محمد عبده — أثناء منفاه ببيروت عقب الهزيمة — تلميذاً فى مدرسة الحكمة أواخر عام ١٨٨٦[١] ، وسمعه ينشد الشعر فشجعه وأثنى عليه ، ثم وجهه إلى شعر البارودى فى الوسيلة الأدبية فطالعه وحفظه وأعجب به قلبه[٢] وكان شكيب الشاعر الناشئ يتلفت حوله يبحث عن المثل فى معاصريه من الشعراء ليحتذيه ، وما إن هداه الشيخ محمد عبده إلى « إمام الشعر » ورائد الشعراء فى عصره حتى وجد ضالته ، وبدأ يتخذه أستاذاً ومثلا ، يغترف من بحره ويشرب من دنه ، ويسير على نهجه فى جزالة العبارة ومتانة التركيب وفصاحة اللفظ وفى الولع بالنسق القديم ومحاكاته لفظاً ومعنى . ويقول شكيب : « فلما

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ٤٠٠ .

(٢) أحمد الشرباصى : أمير البيان شكيب أرسلان جـ ١ ص ٢٥٢ .

قرأنا شعر محمود سامى سكرنا بأدبه ، ورقصنا على قصبه ، وبعث لنا نشأة روحية لم نعهدها فى أنفسنا من قبل أن عرفناه ، وعلمنا أن فى المعاصرين من قدر أن يضارع الأولين ، وأن يسامى بنفسه أنفاسهم . وكنا من قبل محمود سامى نظن الأولين غاية لاتدرك . . . وبقى فينا هذا الاعتقاد إلى أن ظفرنا بشعر محمود سامى وحفظنا جميع قصائده التى فى « الوسيلة الأدبية » لا نخرم منها بيتاً واحداً ، وكان حفظنا لها من أقوى عوامل الشعر فينا . . . ولذلك كنت أنا أرانى خريجاً فى الشعر لمحمود سامى البارودى[(١)] » .

ويكتب شكيب إلى صحابه بالقاهرة ويزورهم ليزودوه بقصائد البارودى التى لم تنشر ، وكلما قرأ له ازداد إيماناً بأن الرجل « مملكة عربية » ، ويعمق الشيخ محمد عبده هذا الإيمان فى نفس الشاعر الناشىء[(٢)] . ويشتد عود شكيب ويذيع صيته فى ناديه وقومه ، ويخطر له أن يتصل بأستاذه فى منفاه ، وأن يغترف من المنهل نفسه ولكنه يحجم من الرهبة كما يقول :

وقد طَالَمَا حدَّثتُ نفسى وعاقِنِى   تردُّدُها ما بين أُحْجِمْ وأُقْدِمِ

فقد كان يعرف قدر البارودى ومنزلته بين الشعراء فيزداد له هيبة وتعظيما ، وأخذ شكيب ينشد الوسيلة « يتحكك بها بهذا الشاعر الكبير[(٣)] » ، ليرضى نزعة الطموح فى نفسه ، فقد كان يرى أن شهرة البارودى سوف تأخذ بيده إن عقدت الصلة بينهما[(٤)] ، ثم اهتدى إلى الحيلة فأخذ يستشهد بشعر البارودى فى مقالاته التى كان ينشرها فى صحيفة « الأهرام » خلال العقد الأخير من القرن

---

(١) شكيب أرسلان : شوقى أو صداقة أربعين عاماً (١٩٣٦)ص ١٠١ — ١٠٤ .

(٢) المصدر السابق .   (٣) ديوان الأمير شكيب أرسلان (١٩٣٥) ص ٥

(٤) أمير البيان جـ ١ ص ٢٥٣ .

الماضى ، ونوه باسم البارودى أكثر من مرة ، ولقبه « بأمير الشعراء[١] » ، والبارودى فى المنفى أعرضت عنه الدنيا بعد إقبال .

وقرأ البارودى فى جريدة الأهرام ما يكتب شكيب ، فوجد عنده الأصالة الفنية والأداء الكامل ، وقرأ له شعراً يرفعه إلى مصاف المجيدين من الشعراء ، فرد عليه البارودى بقصيدة يقدم لها فى ديوانه بقوله : « وكان الأمير شكيب أرسلان ذكر أبياتاً لصاحب هذا الديوان فى بعض مقالاته الأدبية التى كان يراسل بها جريدة الأهرام ، وأثنى على قائلها من غير أن يصرح باسمه ، ثم أورد له بعد ذلك أبياتاً فى مقالة أخرى نوه فيها باسمه ، فقال يشكره على ذلك وأرسل إليه بهذه الأبيات[٢] » : ويكتب البارودى مقطوعة من سبعة أبيات مطلعها :

أَشَدتَ بذكرى بَادئًا ومُعَقبًا　　وأمسكتُ لَمْ أهمِسُ ولم أتــكلَّـمِ

ثم يعقب عليها بقوله : هذه أبيات تفطرت بهـا القريحة بعد العقم ، وتنفست لها الطبيعة بعد معاناة السقم ، جعلتها شكراً لما قرأته فى الأهرام ، من عواطف البر والإكرام ، ولولا أنى فى مـكان حريد ، وقد حان وقت البريد ، لأطلت عنان الثناء ، وملأت صدر الإناء ، ولسوف أفى بذمة الوعد ، إن أضاء نجم السعد ، فاقبل منى على عدواء الدار ، سلاما على جناح البدار[٣] » . ويهتبل شـكيب أرسلان الفرصة ، ويسارع فينظم مطولة تبلغ أربعين بيتاً من نفس الوزن والروى تفيض بمدح البارودى وتمجيـده ، ويبعث بهـا مرفقة برسالة رقيقة إلى أستاذه بسرنديب . ويطرب الشاعر الـكبير للقصيدة ويهتز لرقة الرسالة ، ويتلقاها — كما يقول

---

(١) شوق أو صداقة أربعين عاما ص ١٠٥ .

(٢) المخطوطة (س) ص ٢٣٧ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٢٤٢ .

(٣) المخطوطة (س) ص ٢٣٨ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٢٤٣ .

فى رسالته إلى شكيب فى ٢٨ ذى القعدة ١٣١٥ هـ (٨٩٧) — « بيد ترعد فرحا وفؤاد يهتز مرحا . . . كيف لا وقد أضاءت علىّ غيابة الوحشة ، وسرت عنى ضبابة الحسرة [1] » .

وينجز البارودى ماوعد فيكتب إلى شكيب قصيدة ثانية ، ثم يمتد حبل المراسلات الشعرية بينهما ، وشكيب قابض على الفرصة لا تفلت منه ، ولاينى فى كل قصائده عن إثارة الكرم النفسى عند البارودى فيطوقه بجميل المدح والتمجيد ، ويضعه فى المكان الأسمى من مملكة الشعر ، فيرد البارودى مدحا بمدح وتمجيداً بتمجيد . وينشر شكيب الرسائل فى المجلات الأدبية ويقرأها الناس ، ويتحرك سهم شكيب إلى أعلا ويخرج صيته من الإقليمية المحدودة إلى صعيد العالم العربى والإسلامى كله . ويعترف شكيب بالجميل فيعلن « أن للبارودى إمامه فى الشعر » [2] . ويشعر البارودى — على البعد — أن شكيباً يتفق معه فى المنهج والمشرب ، وأنه يترسم خطاه فى المنحى والأسلوب ، ويحس فى رسائله حرارة الإخلاص فى الود فتقوى الصلة بينهما ، وينطلق البارودى معه على سجيته ، وتظل ربة الشعر تطير بينهما بالرسائل إلى مابعد عودة البارودى من منفاه .

وهناك صديق العمر ورفيق الجهاد « الشيخ محمد عبده » تبادل مع البارودى الرسائل فى المنفى . وعلاقة البارودى بالأستاذ الإمام علاقة تضرب فى بطون السنوات ، بدأت فى مجالس الأدب التى كانت تعقد بدار البارودى فى الستينيات من القرن الماضى ، وكان يؤمها شعراء العصر وأدباؤه ، ثم امتدت إلى مجالس جمال الدين

---

(١) شوقى أو صداقة أربعين عاما ص ١٠٦ . (٢) المصدر السابق ص ١٠٤ .

وندواته فى السبعينيات من ذلك القرن[1] ، وتحولت إلى أخوة فى « المحفل الماسونى العربى » ، واقترح البارودى على مصطفى رياض رئيس الوزراء حين أراد النهوض بجريدة « الوقائع المصرية » أن يعين لها الشيخ محمد عبده محرراً (١٨٨٠) . وشارك الشيخ محمد عبده صديقه البارودى وهو وزير الأوقاف فى الدراسة والبحث فى حجج الأوقاف وفى بطون كتب التاريخ لتحقيق نسبه ، وبعد أن تم البحث كتبه الشيخ محمد عبده فى وثيقة النسب بخط يده وأرفقها بنبذة عن تاريخ صديقه الوزير حتى عام ١٨٨١[2] . وجمعت بينهما الحركة الوطنية زميلى جهاد ، وكان البارودى والشيخ محمد عبده من العناصر المعتدلة التى حاولت أن تقوم بمهمة « صمام الأمان » عندما تطير النفوس مع الأحداث . وحين تولى البارودى نظارة الجهادية ثم رئاسة النظار كان يبعث الشيخ محمد عبده برسائله ووساطاته ومشورته لزعماء الحركة من العسكريين[3] .

وفرقت الهزيمة بين الصديقين فنفى البارودى إلى سيلان نفياً مؤبدا ، ونفى محمد عبده إلى بيروت لثلاث سنوات ، ولكن حبل الود ظل متصلا بينهما بالرسائل . وفى ديوان البارودى قصيدتان يقال إنه بعثهما رسالتين ضمن رسائله من منفاة إلى محمد عبده بعد عودته إلى مصر[4] ، ولم يصرح فى الأولى باسمه بل حاول أن يعميه خوفا عليه من غضب الخديو ونقمة رياض ، يقول فيها بعد أن ذكر شوقه إلى الوطن ووصف النيل وحنينه إليه :

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام حـ ١ ص ٤٦ .

(٢) نشرتها مجلة المنار مجلد ٧ جزء ٢٠ فى ١٩٠٤/١٢/٢٣ .

(٣) مصر للمصريين جـ٨ ص ٧٠ محضر استجواب محمود سامى البارودى .

(٤) معلومات الأسرة .

لى به صـاحبٌ علىَّ عزيزٌ مثلُ ما عِندَهُ من الشَّوق عِندى
أعناه ، غـيرَ أنَّ فؤادى من إسَـارِ النَّوَى مُحاطٌ بجُنْدِ
فاهْدِ منى له تحيـةَ صِدْقٍ وتلطَّفْ بحالَتى يا (أفندى) ![1]

والرسالة الثانية قصيدة رقيقة تفيض حنيناً وشوقا إلى الوطن وتضيق بصحبة أهل سرنديب ، ويصرح فيها بأول اسم صديقه محمد عبده ، ويبدؤها بقوله :

وَاطـولَ شـوقى إليـكَ يا وطنُ وَإن عـرَتـنِى بحُبِّـكَ المِحَن
أنتَ المُـنَى ، والحديثُ إن أقبلَ الصُّبـ ـحُ ، وهمِّى إنْ رَنَّقَ الوَسَـنُ[2]
امتَ أبالِى ، وقد سَلِمْتَ على الدهـ ـر ، إذَا ما أصابَنِى الحَـزَنُ

ويمضى فيذكر ضياعه فى المنفى وهمومه من بعد فرقة صحابه ، ويشكو لصديقه الوحشة وهو يعيش بين أهل الجزيرة مجبراً ، فنفسه لا تسيغ مصادقتهم ، وروحه لا تألفهم أو ترتاح إليهم ، فيهتف بأهل وده بالقاهرة :

ليتَ بريدَ الحمـامِ يُخبرنى عَن أهـلِ ودِّى ، فَلِى بهم شجَنُ
أصبحتُ مِنْ بَعـدِهم بمضيعَةٍ تـكثر فيهـا الهُمُـومُ والإحنُ
بينَ أناسٍ إذَا وزَنتهُمُـوا بالذرِّ عنـدَ البَـلاءِ ما وَزَنُوا[3]
لاَ فى مُدَاراتهم[4] إذا صَـدقُوا ربحٌ ، ولا فى فِراقهـمْ غبَنُ
شُعْثٌ عـراةٌ كأنهـم خَرجـوا من نَفَق الأرض بَعْـدمَا دُفِنُوا
لا يُحسنون المقال إنْ نطقوا جهلاً ، ولا يفقهون إن أذنوا[5]
أرَى بهـم وحشـةً إذا حَضرُوا وطيبَ أنـس إذَا هُمُ ظَعَـنوا

---

(١) وكلمة أفندى فى مقابل (شيخ) تعمية بالضد . معلومات الاسرة . (٢) رنق الوسن : غشى النوم .
(٣) الذر : الهباء المنتشر فى الهواء . (٤) فى المخطوطة (ج) مواراتهم .
(٥) أذنوا : استمعوا .

ثم يخلص من الصحبة الموحشة إلى تمنى العودة إلى صحبه وصديقه «محمد»، وتتداعى عليه ذكريات صداقتهما، فيذكر له بيانه ولسانه وحجاه، ويحمد له نصرته، ثم يضعه فى المقام اللائق به فيقول :

وكَيفَ بالمُقامِ فى بَلَدٍ ... مَالى بها صاحبٌ ولا سَكَنُ
فهلْ إلى عودةٍ ألُمُّ بها ... شملى، وألقى «محمدا» سَنَن[1]
ذاكَ الصّديقُ الّذى وَثِقْتُ بِهِ ... فَهْوَ بِشُكْرِى ومِدْحَتى قَمَنُ[2]
عَاشرتُه حقبةً فأَنجَدنى ... منه الحِجاَ والبيانُ والأَسَنُ
وَهو إلى اليوم بعدَ ما علِقت ... بى الرّزايا مَخِيّلٌ هُتُنُ[3]
يَنصُرنى حيثُ لا يَكادُهمُ ... بِنَحْنى ودّه ولا خَتَنُ[4]
قد كان ظنى يُسيء بالناس لولا ... هُ، وفردٌ يَحْيَى به الزّمنُ
فَهو لدَى المعضلات مستندٌ ... وعند فَقْد الرّجاء مؤْتَمَنُ
لو كانَ يعلُوا السماء ذُو شرف ... لكانَ بالنّيِّرات يَقْترن[5]

وكان البارودى — كما يقول شكيب أرسلان — «من أحب الناس إلى قلب الشيخ محمد عبده، فلم أعلم أنه كان يذكر أحدا من أقرانه بعاطفة حب كما كان يذكر محمود سامى رحمهما الله، وكان يتأوه على غربته ونكبته ما لا يتأوهه على أحد. ومرة كنا راجعين من إحدى السهرات فى القاهرة (١٨٩٠) فمررنا أمام دار فيحاء فوقف ونظر إليها طويلا ثم قال : هذا بيت صاحبنا، وتنهد عند هذه الكلمة تنهدا عميقا، فسألته : دار من ؟ فقال: دار محمود سامى. وكأنه تنهد لا على غربة محمود سامى فحسب بل على غربة مصر كلها واحتلال

---

(١) السنن : الطريقة . (٢) قمن: جدير وخليق به . (٣) المخيلة : السحابة التى تحسبها ماطرة ؛ الهتن جمع هاتن : المطر المتتابع . (٤) الختن : كل ما كان من قبل المرأة .

(٥) هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهى من الجزء المخطوط من الديوان والقصيدة بعنوان «وقال وهو بسرنديب يتشوق إلى الوطن ويذكر صديقا له» وعدد أبياتها ٢٧ بيتا؛ المخطوطة (س) ص ٢٧٦ـ٢٧٨؛ والمخطوطة (ج) ص ٢٨٢ـ٢٨٤ .

الأجنبي لها[1] » . ومنذ عاد محمد عبده من منفاه وهو يحاول ما وسعه الجهد لدى أصدقائه من أهل الحكم فى عودة البارودى إلى الوطن . ولكن مسعاه لم يكلل أول أمره بنجاح .

العودة من المنفى :

وفى عيد الفطر من عام ١٣١٤ (١٨٩٧) بعث البارودى بتحية مقتضبة فى أربعة أبيات إلى الخديو عباس الثانى ، وأعجب ما فى الأبيات أنها لم تحمل استعطافا لفك الأسر أو رجاء للعودة ، وإنما دعا له فى بيتين وشكره على عدالته بين الناس فى البيتين الآخرين . ولعل البارودى أراد بهذه التحية أن يذكّر الخديو الجديد بالمنفيين من الزعماء . والمقطوعة توحى بأن البارودى قد احتفظ بكل كرامته ، وحسنا فعل ، فقد أصم عباس أذنيه ، وقد أصبح بعد الفترة الأولى من حكمه يضارع أباه فى رجعيته واستسلامه للاحتلال ، وفى نقمته على العناصر المتحررة من الوطنيين . ويصاب البارودى بخيبة أمل أخرى فيهتف :

نَشَدتُ المنَى عودًا وقد كنتُ بدْأَةً ... مطافَ أناسٍ ينشُدُون الأمانيا

فإنْ لَم أنلْ منها نصيبًا فإنَّنى ... أرى اليأسَ عن بعْضِ المطَالبِ كَافِيَا

وَمَا الذى تُجدى عَلَىَّ فضائلى ... إذَا كنَّ فى عين العدُوِّ مَسَاوِيَا

فَلاَ اخْضَرَّ ساقُ البقلِ إنْ بتُّ طَاوِيًا ... ولا أنهلَّ ماءُ المُزْنِ إنْ مِتُّ صَادِيًا[2]

والبيت الأخير يدل على الحالة النفسية التعسة التى كان يمر بها البارودى بعد خيبة أمله فنقم على الدنيا جميعها .

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٤١٠ من نبذة بقلم شكيب . أرسلان من سيرة محمد عبده .

(٢) هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهى من الجزء المخطوط من الديوان وقصيدتها بعنوان « قال فى ذكر الشوق إلى الوطن » وأبياتها ٣٤ بيتا ؛ المخطوطة (س) ص ٣٠٨ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٣١٤ .

ويمتد النفى والاغتراب بالبارودى حتى يبلغ الستين من عمره فيبلغ به اليأس مداه ويلف روحه بأكفانه ويحيط بها من كل جانب إحاطة القبور بالموتى ، وتطفأ شموع الآمال كلها فى قلبه وفى عينيه ، ويصاب بشعور « اللامبالاة » ، فيصبح نعيم الحياة عنــده وشقاؤها سواء ، ويلفظ مآربه منها بعد أن عنعت عليه ، ثم يرمى عبء ذلك كله على ظالمه فيقول :

أبعد ستين لى حاجٌ فأطلبهــا ؟ هيهاتَ ! ما لامرىء بعد الصِّبا حاجُ

لا أحفِلُ الطيرَ إنْ غنّت، وإن نعبت سِيّان عنـدىَ صفّارٌ وشحّاجُ[1]

يستعظمون من الحجّاج صـولته وكلُّ قوم بهم للظلم حَجّــاجُ

ومع الستين (١٨٩٩) تهاجم البارودى العلة والمرض ، ويعود الارتشاح إلى قرنيتيه بقوة تهدد عينيه بالظلام الأبدى ، فيفزع البارودى ويصيبه الهلع من أن يعيش رهين المحبسين ، محبس النفى والأسر ومحبس العمى ، ويضاعف له الهلع العذاب حتى ليتمنى الموت خلاصا منه فيقول :

مَتَى ينقضى عمرُ الحياة فتنقضى مآربُ كانت علّــةً للمظالمِ

تساوتْ نفوسُ الخلْقِ فى الشرِّ فاستعذ بربِّ البرايا من جهولٍ وعالمِ

ولو عرفوا ما أنكروه لأيقنـوا بأنّ نعيم الدهر خـدعةُ حالمِ

تأملْ رُويدا يا ابنَ ودّى فهل ترَى على صَفحات الأرض غيرَ معالمِ ؟

يظُنُّ عليلُ القوم فى الطِّبِّ بُرأهُ ولم يدرِأنَّ الطبَّ ليسَ بسالمِ

فطِرْ للسُّها ، أو فاتّخِذْ لكَ سُلّماً لترْقىَ إلى أبراجِهِ بالسَّلالمِ

وكيفَ تنالُ النفسُ فى الدَّهر عيشةً تلذُّ بها ، والدّهرُ غيرُ مسالمِ[2]

---

(١) الصفار : الكثير الصفير وهو للطيور ؛ والشحاج : الغراب الكثير النعاب .

(٢) هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهى مقطوعة من الجزء المخطوط من الديوان ؛ المخطوطة (س) ص ٢٤٨ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٢٥٣ .

وتقرر جمعية الأطباء (القمسيون) بسرنديب – بعد أن اشتدت وطأة المرض على البارودى – ضرورة عودته إلى وطنه لمعالجته فى المناخ الذى ولد وشب فيه ، وأشارت إلى أنه سيصاب بالعمى لا محالة إن ظل بالجزيرة ، وقد يدركه ما أدرك إخوانا له من قبل ، وكان قد توفى من رفاق النفى بالجزيرة عبد العال حلمى (١٨٩١) ومحمود فهمى (١٨٩٤) لعدم ملاءمة مناخ البلاد الاستوائى لصحتهم .

ويجزع صحب البارودى وأهله بالقاهرة ويخافون أن يدركه القضاء فى مرضه وهو بسرنديب ، فيلحون عليه أن يتقدم بملتمس إلى الخديو عباس ليسمح له بالعودة إلى مصر للاستشفاء ، ويلقى الشيخ محمد عبده بكل ثقله ومساعيه لينقذ صديقه العانى الغريب وقد دبت إليه نذر الفناء[1] ، وتتكلل المساعى بالنجاح ويسمح للبارودى بالعودة . ورد الله الغريب المعذب إلى وطنه ، وعاد البلبل الصداح إلى روضه ، وفك الله إسار العانى ، وبلّ شوقه وصداه بعد طول اغتراب وبعد نفى امتد سبعة عشر عاما !

أقلعت السفينة من ميناء كولومبو أول سبتمبر سنة ١٨٩٩ وتقول ابنته فاطمة وكانت وقت العودة فى الثامنة من عمرها :

« وجفا النوم عينى الباشا طوال الرحلة وهجر قمرته وصار يتنقل فى أبهاء الباخرة لا يقر له قرار ، وكان شارد الذهن لا يسمعنا حين نتحدث إليه وكأنه بعيد عنا ، ولزم الصمت لا يشارك فى حديث ، وكنا صغارا لا ندرك ما هو فيه من المعاناة والشوق . ولم يكن شوقنا – وقد ولدنا جميعا فى سيلان – من طبيعة الشوق الذى يكابده « الباشا » ، وكنا قد سمعنا من أبى وأمى

(١) معلومات الأسرة .

الكثير عن وطننا مصر فأحببناها على البعد ، ومن ثم كان شوقنا إليها شوق للستطلع المجهول الجميل الذى يملأ علينا أفكارنا وأسماعنا » . وتصل السفينة إلى ميناء السويس صباح ١٢ سبتمبر ١٨٩٩ بالأسير العائد وأهله « فيقف على ظهر السفينة مستقبلا مصر وهو قابض على سور السفينة والدموع تنهمر من مآقيه ، ولا يجرؤ أحد منا أو من مستقبليه من أخواتنا وإخوتنا أو الأهل والصحاب أن يقترب منه فيقطع عليه لحظة اللقاء مع وطنه الحبيب[1] » .

(١) من حديثها إلى فى مارس ١٩٦٦ .

الفصل السادس

بعد العودة من المنفى

هذى الجزيرةُ فانظر ، هل ترى أحدًا ... ينأى به الخوف ، أو يدنو به الطمعُ
كانت منازلَ أملاك ، إذا صدعوا ... بالأمر كادت قلوبُ الناس تنصدعُ
عاثوا بها حِقْبَةً ، حتى إذا نهضت ... طيرُ الحوادث من أوكارها وقعوا
زالوا ، فما بكت الدُّنيا لفرقتهم ... ولا تعطلت الأعيادُ والجُمَعُ

* * *

ألاَ قَاتَلَ اللهُ الحَيَاةَ فإنَّهـا ... إلى الموتِ أدْنَى من فمٍ لبَنانِ
إذَا ما بنـانَا الدَّهرُ ظلَّتْ صروفُهُ ... تهدِّمُنا ، والدَّهرُ أغدرُ بَانِ
إذَا مَا الأبُ الأعلى مَضَى لِسَبِيلِهِ ... فمَا لبنيه بالْبَقَاءِ يَدَانِ

البارودى

الزعيم العـــائد

اللقاء بعد الغيبة :

تواكب المواطنون ومن بقى من رفقاء الجهاد إلى دار البـارودى لتحية الزعيم العائد ، وتوافد عليه عشاق الأدب والشعراء وأهل الفـكر والعلماء لتهنئته بالعودة ، وقد كانت أوبته إليهم عيدا نشر البشر فى محيطهم فتسابقوا إليه ، يعيد حبل الود من كان على معرفة به قبل النفى ، ويعقد أواصر الصلة معه أبناء الجيل الجديد ممن سمعوا عنه وعرفوه قبل رؤيته من خـلال شعره وجهاده ، وكلهم لهفة وشوق إلى سماع قيثارة الشعر تعزف « لحن اللقاء » . وغنى البارودى لوطنه ومواطنيه « أنشودة العودة » وقال قصيدته المشهورة التى يستهلها بقوله :

أبابِلُ رَأْىَ العينِ أَمْ هذه مصرُ   فإنى أرى فيها عيوناً هى السِّحْرُ

ويمضى البارودى فيتغزل فى فاتنات مصر وهو لا يقصد إلا التغزل فى فاتنته الكبرى وعاشقته التى تيمته سبعة عشر عاما غاب فيها عن ربوعها فيقول :

رضيتُ من الدنيا بحبك عالماً   بأن جنونى فى هواك هو الفخرُ

ثم يعرج على العناصر الرجعية التى تمالىء المستعمر وتمـكن له فى احتلال البلاد وقد شوهوا الثورة بافتراءاتهم وحملات التشهير التى شنوها على قياداتها ، ثم أفزعتهم عودة زعمائها وملأهم الخوف من أن تتجمع الأمة حولهم من جديد ، فيطلبون الحجر على ألسنتهم وأقلامهم ، فيقول البارودى فيهم :

إذا ما أتيتُ الحىَّ فارَتْ بغيظها   قلوبُ رجال حَشْوُ آماقِها الغَدرُ

يظنونَ بى شراً ، ولستُ بأهله   وظنُّ الفتى من غيرِ بَيِّنَةٍ وِزْرُ

وماذا عليهم إنْ ترنّم شاعرٌ بقافيةٍ لا عيبَ فيها ولا نُكْرُ ؟
أَفِي الحقِّ أن تبكي الحمائمُ شجوَها ويُبْلَى فلا يبكي على نفسه حُرٌّ ؟!

وتستقبل الصحف ذات الصبغة الوطنية الزعيم العائد استقبالا حافلا ، فيكتب محرر المؤيد : « عاد محمود سامى باشا البارودى إلى القاهرة عائداً من منفاه ، والله أعلم بمقدار ما خامر قلوب أهله وأصدقائه من الفرح ، بل وما خامر قلبه وامتزج بكل حواسه منه عندما وطئت أقدامه تراب النيل بعد أن بلغ به اليأس منتهاه . وقصدت داره ، ولم أكن قد رأيته من قبل ، فإذا هو رجل ربعة يميل إلى الطول قليلا ، نحيف الجسم كأنما هو ناقه من مرض طويل ، كث اللحية أبيض العارضين مختلط شعر الرأس مع صلع خفيف ، وقد وضع على عينيه نظارة سوداء تلطيفا لأشعة الضياء . . . وسألته عن صحته فقال : إنه كان قد أصيب قبل ثلاثة أشهر بمرض أشبه بالحمى الخبيثة ، وكاد يقع منه فى اليأس حتى منّ الله عليه بالشفاء ، ولكن الذى يكدر صفوه وينغص عليه طيب الحياة ما ألم ببصره ، وعند ذلك رفع النظارة عن عينيه فإذا بغشاوتين باديتين عليهما . ثم سألته عن رفاقه فى جزيرة سيلان وهم عرابى ويعقوب سامى وعلى فهمى فقال : إن صحتهم جميعا سيئة وتتدهور يوما بعد يوم ، فعسى الله أن يفك الكرب عنهم ويشملهم بعطفه فيعودوا إلى الديار ، وكان كلما استطرد الحديث عاد إلى ذكرى آلامه التى عاناها فى منفاه وخاصة بعد أن أصيبت عيناه فقال : ما أشد ما كنت فيه من الأكدار والأحزان وحيدا لا إنسان تود الحديث إليه ، ولا أنيس تلذ محاضرته أو تطيب معاشرته . وكان لى من مطالعة الكتب والصحف خير ما يتسلى به المرء فى وحدته ويأنس إليه مثلى فى غربته ، فلما أصاب بصرى ما أصابه فقدت كل لذة فى الحياة[1] » .

---

(١) على يوسف : المؤيد فى ١١/ ٩ / ١٨٩٩ ؛ أنظر أيضاً : الهلال ١٥ سبتمبر ١٨٩٩ السنة ٧ عدد ٢٤ .

وتجد الصحف الوطنية وصحاب البارودى إبّان العودة حرجا فى ذكر رتبه مع اسمه ، وهم يكتبون عنه أو يتحدثون إليه ، فى عصر يعبد الألقاب ولما تعد إليه ألقابه وكانت بعض الصحف تكتب جوار اسمه لقب « باشا » بين قوسين وبعضها الآخر يكتب اسمه مجرداً من كل لقب . ويسخر البارودى من مهزلة الألقاب كلها ويقول :

منحتُكَ ألقابَ العُلاَ فَادْعُنِى باسْمِى ... فَمَـا تَخفِضُ الألقابُ حرًّا ولا تُسْمِى

إذا كَانَ عُقبانُ الجديدِ إلى بِلًى ... فلا فرقَ ما بينَ الحَديثِ إلى الرَّسْمِ[1]

تفلسفَ قومٌ فى المَقَال ومَا دَرَوْا ... جريرةَ ما أبقَوْا على الدَّهْرِ من وَسْمِ

ولَوْ رَاجعُوا هذه النفوسَ لعالَجُوا ... بِتَرْكِ الخطايا مُعضلَ الدَّاءِ بالحَسْمِ

بَرَتْنى تَباريحُ الحياةِ فلم تَدَعْ ... لدىَّ سِوَى روحٍ تَرددُ فى جِسْمِ

يقولون « محمودٌ » ، ويا لَيْتَ أنَّنِى ... كما زَعَمُوا، أوْ لَيْتَ لِى طَالَعًا كاسمِى[2]

وينصح البارودى أطباؤه بسكنى حلوان علّ هواءها الجاف ومياهها المعدنية تبله من مرضه وترد له ما زاغ من البصر ، فيقيم فى دار تجاور دار الشاعر «أحمد شوقى» ويلتقى شباب الشعر بشيخوخته . ويصف شوقى جاره نزيل حلوان فيقول : «منكوب كريم اجتمع لشهوات الدهر فيه ما تفرق فى البرامكة ، من جاه يطويه ، ونعيم يذويه ، وولد يرديه ، ونور يطفيه ، وحسب وضاح يخفيه ، وحكم بالأمس نافذ يحكم فيه . جاورته بحلوان الشهور الطوال يشد بيتينا طنب ، وينتظم دارينا جدار ، فإذا الجار كريم ، وإذا الشاعر عظيم[3] » .

---

(١) عقبان : عاقبة ؛ والرسم : ما كان لا حقا بالأرض من آثار الديار .

(٢) هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهى من قصيدة عدد أبياتها ١٤ بيتا وهى من الجزء المخطوط من الديوان ؛ المخطوطة (س) ص ٢٤٧ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٢٥٢ . (٣) من رسالة أحمد شوقى الى الدكتور محمد صبرى عام ١٩٢٣ ؛ أنظر : الشوقيات المجهولة لمحمد صبرى (١٩٦٢) ج ٢ ص ١٧٥ .

وتتوافد على البارودى مواكب الذكريات فى حلوان ، فقد كانت مرتع لهوه ومغنى هواه . وتسعفه ربة الشعر فتعزف لذكرى الهوى والشباب على صحته وعافيته تعودان إليه ، ويطرب البارودى وتسكره الذكريات فيحيي حلوان وفاتناتها بمطولة يستهلها بقوله :

طربتُ ، ولولا الحلمُ أدركنى الجهلُ وعاودنى ما كان من شِرَّتى قبلُ
فرحتُ كأنى خامرتْنِى سَبِيئَةٌ من الراح من يَعْلَق بها الدَّهرَ لا يَسْلُو

ويمضى البارودى فيصف الخمر وأنواعها وأفاعيلها بشاربيها ، فيعيد إلى الأذهان خبرته فى الخمريات أيام الصبا والفتوة ، ومن الخمر ينتقل إلى التشبيب والغزل فيقول :

وما كنتُ أدرى والشبابُ مطيةٌ إلى الجهل أن العشقَ يعقبه الخبلُ
رمى اللهُ هاتيك العيونَ بما رمت وحاسبها حُسبان من حُكمه العدل
فقد تركتنى ساهيَ العقلِ سادِرًا إلى الغَيِّ لا عَقدٌ لدىَّ ولا حلُّ

ثم يحيي فاتنات حلوان وكان له معهن فى الشباب شأن أى شأن فيضفى عليهن من الحسن والدل الكثير ، ثم يتحدث عن صاحبة النظرة السكرى التى تشبه من سلبته قلبه فى شبابه ، ولا يجد الشاعر وقد هدمه المرض والشيخوخة دواعى الفخر أمام فاتناته غير الفخر بقومه وآبائه ، وحين يرد ذكرهم على لسان البارودى يتملكه الزهو بهم ، وتركبه جركسيته فينسى كل شىء إلا فضل أجداده على الدنيا ، فيفيض فى التغنى بشجاعتهم وأمجادهم ، ثم يصل مجده بمجدهم وشجاعته بشجاعتهم فيقول :

تَلُوحُ عليه من أبيه وجَدِّه مخائلُ ساوى بينها الفرعُ والأصلُ
إذا صال روَّى السيفُ حرَّ غليلِه وإن قالَ أورَى زندَه المنطقُ الفصلُ

ويطير به طائر الفخر فيذكر فضله فيما مضى والدنيا مقبلة عليه والسلطة تسعى بين يديه ، أما بعد ذهاب الدنيا فله الفضل بالذكر الحسن فيقول :

لنا الفضلُ فيما قد مضى وهْوَ قائمٌ لدينا ، وفيما بعد ذَاكَ لنا الفضلُ

ويسعى معارف البارودى ممن لهم صلة بالسراى لدى الخديو كى يعيد إليه أملاكه المصادرة ورتبه المجرد منها ، حتى يقضى مابقى له من أعوام مكرماً موفور الرزق غير مضيق عليه فى وطنه . ويتململ « الخديو الصغير » بأن البارودى جحد فضله عليه فلم يأت ليشكره على عفوه عنه ، وينصح البارودى معارفه وصحبه بأن يفعل ، ولكنه يأبى حتى يُطلب ، ويستدعيه الخديو لمقابلته ، وكانت الظلمة قد غشيت عينيه ، فيشترط أن يصطحبه صديقه محمد عبده ولا أحد سواه[1] ليأخذ بيده فى هذا اللقاء . وبعد المقابلة يدفع البارودى الجزية ، ويقدم ثمن حريته وعودته من المنفى لعباس ، فينظم مقطوعة من ثمانية أبيات « يشكره فيها على ما أولاه من حسن الرضا[2] » .

وفى ١٧ مايو ١٩٠٠ يعيد الخديو إلى البارودى ألقابه وأملاكه الموقوفة ، فتقبل الدنيا عليه بعض الإقبال وتهادنه بعد نفورها الطويل ، ويعترف البارودى لعباس بالجميل فيشكره ويمدحه فى قصيدة أخرى . على أن البارودى لم يسقه معروف عباس إلى أن يصبح شاعر بلاط يمدحه فى المناسبات كما يفعل شعراء العصر من أمثال شوقى وعلى الليثى وغيرهما ، فذلك لم يكن ديدنة ولا طبعه . ولعل للبارودى بعض العذر حين مدح سليل الرجعية والخيانة رداً لجميله ، فقد كان عباس وقتذاك يقف فى الصف الوطنى ضد الاستعمار ، وكان يضع يده فى يد مصطفى كامل قبل أن ينقلب على عقبيه بعد حادث الجيش عام ١٩٠٦ ويعود

---

(١) معلومات الأسرة ، وكان بين الخديو والشيخ محمد عبده جفوة أدت إلى القطيعة بينهما .

(٢) الديوان (الجارم) ج ١ ص ١٥ .

إلى سيرة أسرته ويصبح العميل الخانع للاستعمار . وفى يقينى أن البـارودى لو عاش حتى رأى هذا التحول فى عباس لما حدثته نفسه بمدحه . ومع ذلك فقصائده الثلاث فيه خالية من الروح الشعرية التى امتاز بها البـارودى ، وهى من الشعر الفاتر الذى ظهر فيه التكلف والافتسار ، ولعـل مشاعر الرجل قد عصمته حين دعاها للقول سيما وأن ماقاله البارودى فيه لم يكن انبعاثا ذاتيا ، بل قياما بالواجب نحو من عفا عنه ورده إلى وطنه الحبيب وأعاد إليه أملاكه وألقابه .

الندوة الأدبية الثانية :

ويعود البارودى من حلوان إلى داره « بغيط المدة » بباب الخلق فى صيف عام ١٩٠١ فتصبح الدار منتدى الأدباء والشعراء وذوى المكانة ، يأتونه فيأنسون إليه ويأتنس بهم ، ويستمتعون بحديثه ويستمع إلى إنشادهم وإنشائهم ومناقشاتهم ، ويرى فى مجالستهم مايأسو جراحه التى أدمت قلبه طوال سنوات النفى العجاف . وكان من أشهر رواد ندوته إسماعيل صبرى ، وأحمد شوقى ، وخليل مطران ، وحفنى ناصف ، وحافظ ابراهيم ، ومحمد ابراهيم هلال [١] ، وحامد خلوصى ، وحسن حمدى [٢] ، وعبد المحسن الكاظمى [٣] ، ومصطفى صادق الرافعى [٤] من الشعراء ، والشيخ محمد عبـده ، ومحمد رشيد رضا من العلمـاء [٥] ، وغيرهم من أهل الفن والفـكر والعلم وعشاق الأدب والشعر . وفى هذه الندوة أخذت مدرسة النهضة للشعر العربى ترمى قواعدها ، وتمـد ينابيعهـا إلى الأمة العربية كلها ، وتحول الشعر من الوقوف على أبواب البلاط إلى الشعب يعالج قضايا الساعة ويقرأه الجميع . ويلتقى فى الندوة الزعيم بالرواد والأستاذ بالحواريين ، وكلهم يرنون إليه ويقتبسون

---

(١) طاهر الطناحى : الهلال السنة ٣٨ جـ ٤ ١٩٣٠ . (٢) المجلة المصرية فى ٥/١٠/١٩٠٠ .
(٣) الرسالة عدد ٤٣٧ نوفمبر ١٩٤١ . (٤) المقتطف مجلد ٣٠ جزء ٣ مارس ١٩٠٥ .
(٥) المنار مجلد ٧ جزء ٢٠ ديسمبر ١٩٠٤ .

منه ، فقد كان البارودى زعيم النهضة الشعرية التى تحملهم على جناحها فيقرون له بالفضل . مهد لهم الطريق فأنقذ الشعر من أدرانه وأوشابه العثمانيـة ، وأخذ بيده من عثرة الأساليب الركيكة ، ونفخ فيه من شاعريته فبعثـه من مرقده ورد إليه الروح العربية السليمة وبث فيه الحياة : حيـاة نفسه ، وروح عصره وقومه ، فحال بين الشعر وبين التمادى فى السقوط الذى كان يهوى إلى دركه . وقدم للأمة العربية شعراً ملك عليها القلوب والأسماع بجزالته ونصاعته وبهجـة الديباجة فيه ، تنبعث منه الروح العربية الخالدة ، وتظهر فيه الشخصية القوميـة البـارزة والشخصية الفردية المستكملة لحريتها ، وتتمثل فيـه أحاسيسه ومشاعره ، فيصبح منطلقا له ولطفه المختلفة ، ومتنفساً لمشاعر أمته المتباينة فى فترات التحول الـكبير من الاستبداد إلى الثورة ثم إلى الهزيمة والاحتلال .

ويتردد إسماعيل صبرى على ندوة البارودى ، وكان من أقرب الشعراء إلى قلب الشاعر الـكبير . ويصطحب معـه فى زورة له عبـده الحامولى المغنى[١] ، وكان قد سبقهم إلى الندوة الملحن محمد عثمان ، « ويقول البارودى لإسماعيل صبرى : لماذا لم تنظموا دوراً بمناسبة الاحتلال وأحداث وادى النيل ؟ فيقول صبرى : ننظم ياباشا ، فيرد البارودى وأنت قاعد الآن . وينظم فى الحال إسماعيل صبرى دور :

شُفْنَا وَعِشْـــنَا سنين　　　ومِنْ عاشْ يْشُوف العَجَبْ
شِربْنا الضَّنـــا والأنين　　　جعلناهْ لرُوحنا طَـــرَبْ
وغِيرنا تملَّكْ وِصَـــال　　　واحنا نصيبنـــا خَيالْ
كِدَا العَدْل يامنصفين

---

(١) ١٨٤٥ — ١٩٠١ .

وسلم الدور لعبده الحامولي فسلمه بدوره لمحمد عثمان لتلحينه ، وتغناه بعد ذلك عبده وكبار الملحنين[1] » .

وينتظم أحمد شوقي في سلك رواد الندوة ويكتب عن البارودي في جلساتها فيقول : « ما سمعته من مرة عرض شعره على جلسائه ، ولا رأيته إلا سقيما من الحياء كلما عرض شعره عليه . . . سأله مرة إسماعيل صبري : هل له مذكرات عن الثورة ؟ فقال لا . قال : وما منعك ؟ قال علمي بأن الغضب في طباعي وخوفي من أن يملكني عند بعض الذكريات فيبغي القلم على الرجال . فقال حامد خلوصي ، وكان ممن ضم المجلس ، صدقت ، ألست القائل (وتغضب في شروى نقير ونشتد) ؟ فتبسم رحمه الله »[2] . ويسأله آخر في ذلك فيقول : « إن الكلام في هذا الموضوع قد يتناول أشخاصا صاروا في ذمة التاريخ ، وليس من المروءة أن يتكلم عن شخص لا يستطيع الدفاع عن نفسه[3] » .

ويقص علينا خليل مطران قصة اللقاء بينه وبين أستاذه فيقول : « أدركته بعدعودته من المنفى صيف عام ١٩٠٠ ، وزرته مع صديقه الكاتب الشاعر محمد إبراهيم هلال ، ودخلنا عليه وهو في صدر مجلسه ، فحيانا بذلك اللطف الذي كان لا يفارقه ولا تثبت معه الكلفة . وكان لي معه بعد ذلك ود عهد . واتفق أن جئته ذات يوم ، ما بيننا ثالث ، فتطارحنا الشعر ، وتباحثنا فيه ،

---

(١) الشوقيات المجهولة ج ٢ ص ٤٦ ، وبقية الدور :

تمام الجميل إنجاز   وصدق المعاهدة شرف
ومن يتبع الرفق فاز   حتى بفضله اعترف
سلامي عليك يا زمان   زمان الهنا والأمان
بفضل الأحبة العزاز

(٢) من رسالة كتبها أحمد شوقي إلى الدكتور محمد صبري عام ١٩٢٣ ؛ أنظر : الشوقيات المجهولة ج ٢ ص ١٧٥ .

(٣) طاهر الطناحي : الهلال السنة ٣٨ عدد فبراير ١٩٣٠ .

ثم اقترحت عليه بيتين يرتجلهما ، فاستوى يفكر ، استوى ساكنا ساجيا مسندا ظهره إلى الحائط . وفكر غير منقبض المحيا ولا معنت الملامح . متهللة سماحة وجهه اللامع بأنوار الزوال ، بين باج لحيته البيضاء المستديرة ، وقتم الناظرتين السوداويتين اللتين تحجبان عينيه ، مرت بى وبه دقيقة ، وهو متمكن من تأمله ، وأنا مسترسل مع خاطر أخطرته فى قلبى رؤية الرجل على هذه الحال ، فخيل لى أننى لدى تمثال من تلك التماثيل التى أقامها صناع اليونان لبعض المتقدمين من حكمائهم . وتبدلت فى ذهنى الناظرتان بالظلين اللذين يحيطان بالعيون المطبقة فى تلك التماثيل وعاد إلى وهمى استطراقا قوة ماأبدعوه فى تلك الأنصاب ، حتى أعاروا بإتقانهم أعلام الإنسان بارقة من بوارق الألوهية .

«وبينما أنا مستغرق الحواس بتلك الذكرى ، إذ تحرك الرجل تحرك من يه نج معنى مستعصيا ، ، فتنبهت تنبه دهشة كأنى بالتمثال وقد تحرك . وفى تلك الوهلة تصورت لأول مرة أن الرجل — وذلك رسمه وتلك بشرته البيضاء — ليس بعربى النبعة ، وقضيت عجبا لآية البيان التى تنتفى عندها فروق الأصول والفروع والأمكنة والأزمان [1]» .

وتتوطد الصداقة بين الشاعرين ، ويخص البارودى « المجلة المصرية » و « الجوائب المصرية » من بعدها — وهما لخليل مطران — بقصائده [2] . ويزهو مطران بنشر شعر البارودى ويفخر ، ويحتفى بكل قصيدة ينشرها احتفاء خاصا ، ويقدم لها بما يناسب مقام البارودى الشاعر . ومما نشر فى « المجلة المصرية » قصيدة عنون لها مطران بقوله « الجليل من القايل » ، ثم قدم لها بقوله : « أتحفنا

(١) المجلة المصرية : عدد ١٤ عام ١٩٠٩ .

(٢) أنظر : المجلة المصرية سنة ١ اعداد ٦ ، ١٠ ، ١٣ ، ١٤ عام ١٩٠٠ .

سعادة الشاعر العظيم العربى المبين محمود باشا سامى البارودى بهذه الأبيات يصف بها عصفورا على شجرة . وهو موضوع قليل بذاته سما به فكره إلى أعلى طبقات الخيال ، وراق لفظه حتى لارقة بعده فى نظم ولا إبداع فى مقال . وكأن بسعادته أراد أن يرى الناس آية من آيات اقتداره فى استخراج مثل هذا القول العظيم من ذلك الموضع العقيم[1] » . وهى القصيدة التى يستهلها يقوله :

وَنَبْأَةٍ أطلقت عينىَّ من سِنَةٍ كانت حِبَالَةَ طيفٍ زارنى سَحَرَا

ويعجب خليل مطران بعد أن زادت معرفته بأستاذه ، وبعد أن لازمه واطلع على حياته فى بيته وأصبح من المقربين إلى روحه « من أن هذا الوزير الذى اقتدح زناد تلك الفتنة المستطيرة ، لم يكن مع شجاعته وإقدامه اللذين بلغا به أقصى مبالغهما فى مواطن القتال إلا رجل سكينة ووداعة وحلم ، وقلما كان رجل أرق منه قلبا على ذويه ، وأحفظ عهداً لمحبيه . ولعل إصابته بكريمته هى التى قاصت من كبده ، وأودت بجسده . ثم إن العارف بحوادث حياته لا يكاد يصدق أنه هو الرجل الذى كان ديدنه فى سنواته الأخيرة أن يجمع أطفاله وهم غلامان وأربع فتيات[2] ، فيجعل لهم مكانا خصيصا من البيت لتلقى العلوم واللغات بضروبها على أساتذة يحضرون فى مواعيد كأنهم فى مدرسة قانونية ، فيرعى سيرهم كل يوم ثم يمتحنهم كل أسبوع مرة ، ثم يمتحنهم آخر كل شهر ، ويوزع عليهم المكافآت » . ويمضى مطران فيقول : « على أن هذا البر إنما كان إحدى شمائله وفضائله ، فإن أريد بعض التعداد فالجودة مع الجود ، والكياسة مع لطف الحس ، والصفح مع المقدرة ، والإيناس مع علو

---

(١) المجلة المصرية السنة الأولى عدد ١٣ عام ١٩٠٠ .

(٢) قرية وفاطمة وزينب ومشيرة ومحمد أشرف وإبراهيم كمال ، وكلهم من مواليد سيلان .

النفس وشرف الطبع[1] » .

وكان البارودى بينه وبين نفسه يؤثر بالود حافظا على شوقى ولا يظهر ذلك لأى منهما ـ كما تقول ابنته مشيرة[2] ـ « فكان إذا أتى نبأ قدوم شوقى إليه تغضن وجهه للحظات قصيرة فنعرف أنه لا يسر للقائه ، وخاصة فى فترة تهجمه فى الصحف على عرابى والثورة العرابية إبان عودة عرابى من منفاه (٢٩/ ٩/ ١٩٠١)[3] . وكان شوقى كثيرا ما يأتى إلى الباشا يطلب المطلع لقصائده . وإذا ما جاء حافظ كانت تنفرج أساريره ويسرع للقائه » .

وزاره حافظ ذات يوم من أكتوبر عام ١٩٠٠ ، وكان حافظ فى ذلك الحين سىء الحال بعد عودته من السودان وإحالته إلى الاستيداع ، فأنشد قصيدة دالية نظمها فى البارودى وأشاد فيها بمناقبه ، وبدأها بقوله :

تعمدت قَتْلى فى الهوى وتَعمَّدا ... فما أَثِمتْ عينى ولا لحظه اعتدى

كلانا له عذرٌ ، فعذرى شبيبتى ... وعذرُك أنى هِجت سيفاً مجردا

ثم خاطب البارودى بعد أبيات فقال :

أميرَ القوافى إن لى مُستهامةً ... بمدح ، ومن لى فيك أن أبلغ المدى

أَعِرنىْ لمدحيك اليراعَ الذى به ... تخط ، وأقرضنى القريض المسددا

واستطرد فى مدح البارودى إلى أن قال :

أتيتُ ولى نفسٌ أطالت جِدالها ... سيقضى عليها كَرْبُها اليومَ أو غدا

فإن لم تدارِكها بفضل فقد أتت ... تودعُ مولاها وتستقبلُ الرّدى

---

(١) الجوائب المصرية عدد ٥٧٢ فى ١٥ / ١٢ /١٩٠٤ .

(٢) من حديثها الى فى مارس ١٩٦٦ .

(٣) انظر : صحيفتى اللواء والمؤيد فى شهرى سبتمبر وأكتوبر ١٩٠١ .

قال خليل مطران : « فلما سمـع البارودى هذين البيتين بكى بكاء حاراً ، وناشد حافظا أن يحذفهما من القصيدة . ونهض من مكانه ، ثم عاد وبيـده ظرف به أربعون جنيها ناوله حافظا ، وهى قيمة ما كان مقررا للبارودى وقتئذ من معاش . ثم قال لحافظ : إنى أبـكى ، لأنى عشت إلى زمن يقدم فيه مثلى إلى مثلك هذا المبلغ الضئيل[1] ». وكأن البارودى بعد أن خرج حافظ قد استشعر اللوم من الصديق الثالث[2] لأنه جاد بكل مرتبه دون أن يبقى لنفسه أو لأسرته شيئا ، ولم تـكن أملاكه المصادرة قد ردت إليه فيقول البارودى :

لا تَعذلَنّ على وَفرٍ سمحتُ بِهِ   للمُعْتَفِينَ فإنّى ما جدُ الشِّيَمِ[3]

إن لَمْ يكن للفتى جودٌ يسدُّ به   مَفَاقِرَ الصَّحْبِ فالمَثْرَاةُ كَالْعَدَمِ[4]

فَإن يَكُن قَلّ مالى بعدَ وفرته   فإنّ مالِىَ لا يقْوى على الكَرَمِ[5]

وحين أصدر حافظ الجزء الأول من ديوانه عام ١٩٠١ [6] قرظه البـارودى بقصيدة أشاد فيها بفضله فى دوحة القصيد واستهلها بقوله :

هيهاتَ ، ليس لحافظٍ من مُشبه   فى القول غيرُ سَمِيِّه الشـــيرازى

وكان من أصدقائه وعشاق أدبه ورواد ندوته الشاعر الناثر محمد إبراهيم هلال ،

---

(١) أنظر : حياة مطران لطاهر الطناحى (١٩٦٥) ص ١٩٧ — ١٩٨ ، وقد وفى حافظ للبارودى بحذف البيتين من القصيدة ولم ينشرها فى الديوان ولا فى الصحف .

(٢) هو خليل مطران : معلومات الأسرة .

(٣) المعتفون : طالبو الفضل أو الرزق .   (٤) يقال مثراة المال : مكثرة له .

(٥) هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهى من الجزء المخطوط من الديوان ؛ المخطوطة (س) ص٢٠٨ ؛ والمخطوطة (ج) ق ٢٦٤ .   (٦) المنار مجلد ٤ ص ٤٧١ عام ١٩٠١ .

وحين أجريت للبارودى جراحة فى عينيه ولم تفلح فى أن ترد إليهما النور ، كتب له قصيدة يهون عليه المصاب فيها ومطلعها :

بالمَجْدِ ما لكَ يا «مَحْمُودُ» من ألَمِ ... وبالمَكَارِمِ ما حُمِلْتَ من سَقَمِ

مَاذَا يريدُ زمانُ السُّوءِ من رَجُلٍ ... ممنَّعِ الجاهِ بين السَّيفِ والقَلمِ؟

فرد عليه البارودى بقوله :

سَبقْتَ بالفضل فَاسمع ما وَحَاهُ فَمِى ... فأنتَ أولى بهذا الدُّر من كلمى [1]

أبا هِلالٍ لقد صَادفتَ منتجَعاً ... بين الجَوارح فَانْزِله وَلاَ تَرِمِ [2]

إنَّ المودَّةَ إنْ صحَّت غَدتْ نسباً ... بينَ الأباعد تُغنيهم عن الرَّحِمِ

فثقْ بذمَّةِ عهد فيك صادقةٍ ... فليسَ كلُّ خايلٍ صادقَ الذِّمَمِ [3]

ومن رواد ندوة البارودى الأدبية الشاعر العراقى المهاجر عبد المحسن الكاظمى [4] .

وكان من مريدى مدرسة البارودى ومن الناهجين على منوالها . اتصل به عن قرب ، ووصل البارودى غربته بالود ، فكان الكاظمى يلازمه ملازمة الظل ، ويقول عنه بعد معرفة وتجربة : « عرفت أن المروءة المصرية تمثلت لعينى فى

---

(١) وحى إليه كلاما : كلمه سراً أو كلمة بما يخفيه عن غيره . (٢) لا ترم : لا تبرح المكان .

(٣) نشر هذه الأبيات الأربعة طاهر الطناحى فى الهلال السنة ٣٨ جزء ٤ أول فبراير سنة ١٩٣٠ .
وفى الديوان غير البارودى بيتا فى المقطوعة وهو البيت الثانى فجعله « يارائد الود قد صادفت... الخ وزاد عليها ثلاثة أبيات هى :

أوليتَنى منكَ فضلاً قد ملكتَ به ... قَلْبى فهاكَ يدى فى الوُدِّ فاحْتكِم

واعذُرْ إذا لم أجدْ فى القَولِ متَّسعاً ... فالمرء لا يبلغ الأفلاك بالهمَمِ

لا زلتَ ترفل فى أثوابِ عافيةٍ ... مُوشية بطِرَازِ الحَمْدِ والنِّعَمِ

أنظر : المخطوطة (س) ص ٢٥٦ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٢٦٢ والبيت الأخير روى فى المخطوطين « لازلت ترفل فى الأثواب عافية » .

(٤) هاجر إلى مصر عام ١٨٩٩ وهو فى التاسعة والعشرين من عمره وظل بها حتى توفى عام ١٩٣٥

شخصيتين كريمتين : الأولى شخصية الشيخ محمد عبده ، والثانية محمود سامى البارودى . وكان البارودى على ألسنتنا وألسنة عارفيه يتمتع بلقب الأمير ، وقد كان أميراً فى جميع شمائله الذاتية [١] » . ويحكى الكاظمى قصة حادث وقع للبارودى بسببه ، وكان كلما ذكره تألم وتوجع ، فيقول : « كنت أسكن فى حارة « قرمز » بحى الجمالية . وكان مسكنى بغرفة صغيرة فوق السطح ، والسلم إليها مهدم الدرجات ليس له سور ، وكان البارودى يرى من أدب الإمارة أن يرد الزيارة لكل غريب ، وكنت يومئذ من الغرباء ، فقد كنت حديث العهد بالقدوم من العراق ، وفى إحدى الزيارات تخوف البارودى من ذلك السلم لضعف بصره ، فاعتمد على الحائط فنفذ فى كمه مسمار ومزقه أشنع تمزيق وآذى يده . وما ذكرت ذلك الحادث إلا تألمت لما كان يعانى الأمير فى سبيل الوفاء والمروءة [٢] » .

ويحكى الكاظمى لأحد أصدقائه [٣] نادرة حدثت للبارودى تفوق الصور الشعرية فيقول : « كان البارودى يعرف مصيره بعد انهزام الجيش المصرى وقرار التسليم ، فاستدعى أحد أصدقائه من أعيان الغربية ، وأخبره أن فى خزانته كثيرا من الذخائر الذهبية تتوارثها الأسرة جيلا بعد جيل ، وأنه يخشى أن تصير الذخائر من غنائم المنتصرين ، ثم فوّق بصره إلى ذلك الصديق وقال : هذه الذخائر وديعتى عندك فإن مت فهى لك مال حلال ، وإن نجوت أو نفيت وأرادت لى الأقدار أن أرجع إلى مصر حيا فالنصف لى والنصف لك ، وبعد

---

(١) الرسالة السنة ٩ عدد ٤٣٧ نوفمبر ١٩٤١ .

(٢) روى الكاظمى هذه القصة لزكى مبارك ؛ أنظر : الرسالة السنة ٩ عدد ٤٣٧ نوفمبر ١٩٤١ .

(٣) هو محمود فهمى النقراشى (١٨٨٦ — ١٩٤٨) وكان قبل اشتغاله بالسياسة وتقلده منصب رئيس الوزراء يعمل مدرسا ويعشق الأدب والأدباء وقد حكى القصة بدوره لزكى مبارك عام ١٩٣١ .

سبعة عشر عاما عاد البارودى من منفاه وطلب نصيبه من الودائع الذهبية ، فأنكرها ذلك الصديق ، وأظهر استغرابه من أن يكون للبارودى عنده ودائع وقد خرج من مصر وهو حريب سليب ! ومرض الصديق الغادر بعد شهور فصار مرض الموت ، فتجشم الشيخ محمد عبده مشقة الانتقال إليه ليعظه بأن الدنيا لا تغنى عن الآخرة ، وأن من واجبه أن يرد الأمانة إلى أهلها ، فاعترف المحتضر بعشرة آلاف جنيه لاغير وهو ينتظر أن يقبلها البارودى بالحمد والثناء وكان فى عسرة لم ترد إليه أملاكه بعد . وجاء الشيخ محمد عبده بصرة ثقيلة فيها الجنيهات الذهبية وهو يرجو أن يكون فى تلك الصرة عزاء الأمير عن بلواه بذلك العقوق وما إن وضع الصرة أمامه حتى نظر إليها الأمير نظرة الليث الشبعان إلى الثمر المعطوب ، وصاح : لن آخذ درهما من هذه الألوف ، ويجب أن ترد حالا إلى سارقها قبل أن يموت ، لتكوى بها جنوبه وجلوده فى جهنم ، وله الويل إن وقع بصرى عليه يوم الحساب أمام العادل الديان ! ونسى الشيخ محمد عبده تعبه ومشقته ، وطرب لإيمان البارودى وعظمته وإبائه وقال : إن مصر بخير دائما ، وستظل أكرم المنابت لأحرار الرجال[1] » .

وشيع البارودى صديقه الغادر وماله المسلوب بقصيدة عنونت لها « الجوائب المصرية » وهى تنشرها[2] بقولها: « وقال طردا فى واقعة حال جرت له مع صديق » ، وفيها يقول :

وصاحبٍ رعيت دهراً ودّه ... ولم أباين نهجَه وقصدَهُ
وطالما أرغمتُ فيه ضدّه ... وذُدت عنه ما يعوق وكدّهُ
حتى إذا ما الدهر أورَى زندَه ... صعّر لى بعد الصّفاء خدّهُ

---

(١) الرسالة عدد ٤٣٨ السنة التاسعة نوفمبر ١٩٤١ . (٢) فى ١٥/١٢/١٩٠٤ .

وَجازَ فى بَعْضِ الأمور حدَّه   فـــــلم أحاول ردعَهُ وَرَدَّهُ
ولو أردتُ أن أفـلَّ حَدَّه   لقلتُ فيه ما يحزُّ جِلدَهُ[1]

ويحج إلى ندوة البارودى فيمن يحج من الأدباء الشبان مصطفى صادق الرافعى لينعم بصحبة أمير القوافى وينشده شعره ، ويسمع البارودى من الشاعر الناشىء ، ويبذل له من التشجيع ما يشد من أزره ويأخذ بيده ، ويدفعه إلى أن يجمع شعره فى ديوان يصدره ، ويقرظ البارودى ديوان الرافعى عام ١٩٠٢ بأربعة أبيات يجعلها صاحبه فى صدره . ويحدثنا الرافعى عن مجالسه مع البارودى فيقول : « كنت ذات عشية عنده فرأيت إلى جانبه جزءاً من ديوان مهيار الديلمى ، فتناولته وجعلت أقرأ قصيدة كان قد علّم ما اختاره منها فسألنى أن أعرفه رأيى فيما اختاره ، فـلم أذكر له غير بيت واحد فخم المعنى ، ولم تـكن القصيدة مما يضىء فيه ذهن مهيار فضحك وأثنى »[2] .

وفى مجلس آخر مع البارودى يسأله الرافعى أن يوقفه على شىء من حديث شعره فيقول : « إن عنـترة يقول (هل غادر الشعراء من متردم ؟) وهذا عيب علينا ، ولذلك شرعت فى نقض قصيدته ، ثم أنشد أبياتاً مطلعها : (كم غادر الشعراء من متردم) ، وفيها يقول فى وصف مصر :

هى جَنَّةُ الحسن ألّتى زهراتُها   حورُ المها وهَزَارُ أيـكَتِها فَمِى[3]

والقصيدة التى أشار إليها الرافعى من عيون شعر البارودى ، وأغلب الظن أنه أراد فى أخريات أيامه أن يضع نفسه فى مكانه الصحيح من التاريخ والشعر بهذه القصيدة ، فجعلها وصفاً لمقـدراته فى الشعر وفى الوطن وفى الحروب وفى

(١) مناسبة القصيدة من معلومات الأسرة .
(٢) المقتطف مجلد ٣٠ جزء ٣ مارس ١٩٠٥ .   (٣) المصدر السابق .

المعالى والشدائد فهو المتأخر الذى فاق المتقدمين ، وعبقرى الشعر الذى يأتى على رأس كل عصر ليحيي أنفاس القريض ، والفارس الذى يعلو ناصية العلا بشرفه وفضله وشجاعته ، وفيها يقول :

كم غادَرَ الشعراء مِن متردَّم ... ولَربَّ تالٍ بزَّ شأْوَ مُقدَّمِ (١)

فى كلِّ عصرٍ عبقريٌّ لا يَنِى ... يَفْرِى الفَرِيَّ بكلِّ قولٍ مُحكمِ (٢)

وكفاكَ بى رجلاً إذا اعتقِلَ النُّهَى ... بالصَّمت أو رَعفَ السِّنانَ بعَنْدَمِ (٣)

أحييتُ أنفاسَ القَرِيض بمَنطِقِى ... وصرعتُ فُرسانَ المَجَاجِ بلَهذَمِى

وفَرعتُ ناصيةَ العُلى بفَضَائلٍ ... هُنَّ الكَوَاكبُ فى النَّهارِ المُظْلِمِ (٤)

ويمضى البارودى فى القصيدة فيطلب — إن كان هناك من يجهل مكانته — أن تُسأل عنه مصر لتعلن عن شرفه ومحتده وعزه التليد ، وهى ولا شك أعرف الناس به ، فقد نشأ يرشف من غديرها ويطعم من نبتها ، وينشق نسيمها ، وهو جزء منها ، دمه من نيلها ، وجسمه من ترابها ، وروحه من هوائها ، وبها أهله وأحبته ، وأعظم أجداده تحت ثراها ، فهى دار الكرامة عنده وجنة الحسن زهراتها حور المها وهو طائرها الغرد وبلبلها الصداح . وينتقل البارودى إلى الفخر ببيانه وسيفه فيقول :

وفجرتُ يَنبوعَ البيانِ بمَنْطِقِى ... عذبٍ رويتُ به غليلَ الحُوَّمِ (٥)

(١) متردم : الأصل فيه الموضع الذى يرقع أو الكلام الذى يلفق وهو هنا ترك الشعراء السابقون معانى كثيرة للقول فيها .

(٢) لا ينى : لا يزال ؛ يفرى الفرى : معناه هنا يخلق الخلق الجديد .

(٣) اعتقل النهى : حبس العقل ؛ السنان : نصل الرمح ؛ والعندم : الدم .

(٤) فرع ناصية العلا : علاها شرفا . (٥) الحوم : العطاش .

ولكم أثرتُ غيابةً من قسْطَلٍ ... بمُهنَّدِي وحللْتُ عقدةَ مُبرَمِ (١)

أختالُ طوراً فوقَ ذِرْوةِ منبرٍ ... وأكُرُّ طوراً فوق مُهرٍ شَيظَمِ (٢)

حتى ربأْتُ من المعالِي هضبةً ... شمّاء تزلقُ أخمُصَ المُتسنّمِ

ثم يتحدث البارودى عن موهبته الشعرية وملكته الفنية التى نشأت فى طبعه أصيله خلاقة ليست مقلدة لأحد من السابقين ، فكان خلقاً وحده يهفو إلى شعره أبو نواس ويطرب له مسلم بن الوليد . ثم يحدد دوره فى الشعر العربى وريادته لنهضة جديدة، فقد قوم الشعر بعد اعوجاج ، وأخذ بيده بعد أن كاد الفساد والصنعة تقضيان عليه ، وفتح فيه مجالات لم يكن يعرفها أبناء عصره من الشعراء كما يقول :

ذللتُ منه غوارباً لا تُمتطَى ... وخصمْتُ منه موارداً لم تُخطَمِ

ويعود البارودى إلى الفخر بمحامده ويدل على الدنيا بنفسه وآبائه فيقول :

أدركتُ ناصيةَ المحامدِ والعُلا ... وشأوتُ فيها كلَّ أصيدَ مُسنمِ (٣)

فأنا ابنُ نفسِي إنْ فخرت وإن أكن ... لِأعزَّ مِنْ سَلَفِ الأكارمِ انتمِي

ثم يخلص البارودى من ذلك كله إلى الطبيعة وجمالها على طريقة العرب القدامى حين يريدون الانتقال من معنى إلى معنى آخر فيقول :

هـذا وربَّتَ لذَّةٍ باشرْتُها ... فى ظِلِّ أخضَرَ بالعَرارِ مُنَمْنَمِ (٤)

ويستطرد فى وصف المظاهر الطبيعية المختلفة من نسيم يحرك الوشى بأنامله ،

---

(١) غيابة من قسطل: ما استتر من الغبار تثيره الحرب .

(٢) فى المخطوطة (ج) فوق نهرشيظم؛ والشيظم :الطويل الجسيم الفتى من الخيل .

(٣) فى المخطوطة (ج) «قاصية المحامد»؛شأوت :سبقت ؛ الأصيد : الرجل الذى يرفع رأسه كبراء أو الملك لأنه لايلتفت من زهو يميناً وشمالا ؛ مسنم : عظيم مرتفع الشأن .

(٤) العرار : النرجس البرى ؛منمنم:موشى ومرقش أوملتف مجتمع.

والمزن الفياض ، والجداول المنسابة كالحيات ، والرياض الموشح منها والمؤزر ، والزهور مايشبه الدنانير منها وما يشبه الدراهم وقد عبقت بالروائح وكأن قدراً من عنبر تركت مفتوحة فيها . وقاد البارودى الخيالُ إلى دنياه فترة فنعم بها وأفاض فيها فأسعدنا معه ، ثم تنبه إلى واقعه وما قاده الزمان إليه فتطامن وانتقل فجأة من جمال الطبيعة وخيالها ليقول :

والمرء طوعَ يدِ الزَّمان يقُودُهُ قودَ الجنيبِ لغـاية لم تُعلَمِ(١)
فلَكٌ يـدور وأنجمٌ لا تأتلى تبدُو وتغربُ فى فضَاءِ معتِمِ(٢)
فدَعِ الخفىَّ وخذْ لنفسكَ حقَّهَا مما بدا لك فهو أهنأ مَغْنَمِ
لاَ يستطيعُ المرء يبلغُ مَا نأى عنهُ ولو صعَـدَ السَّماءَ بِسُلَّمِ

وهنا تضطرب عواطف البارودى وتقبل عليه الانفعالات المختلفة تترى ، فبينما هو يحدد موقفه من الحياة وإقباله عليها أول أمره واستمتاعه بها فى ظل الحرية إذا بها تتحول إلى غصة وعذاب حين ناخ الظلم على البلاد فيقول :

إنَّ الحياةَ شـهيةٌ ما لم تكُنْ غرضاً لإمرةِ ظالمٍ لمْ يرحمِ

وينفر البارودى من أن يقر فى الأذهان أنه يتشهى الدنيا على حساب كرامته ، فينفى هذا الظن عن نفسه ، ويقوده ذلك إلى الفخر بأيامه وهو يقود الأبطال فى الحرب إلى النصر ، ثم يعـود إلى الرضا بالقضاء وكأنه يحكى الأثر القائل : « لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع » فيقول :

لا أرتَضِى عيشَ الجبَانِ ولاَ أرَى فضلاً لِذى حَسَبٍ إذَا لم يُقدِمِ

(١) الجنيب : كل طائع منقاد . (٢) لا تأتلى : لاتلبث طويلا ولا تبطىء .

ولربَّ ملحمَـةٍ سريتُ قِناعها عن وجهِ نصرٍ بالغبــارِ ملثم[1]
لو كانَ للإنسان عـــلمٌ بالذى فى الغيب لم يفرح ولم يتندمِ
فدَعِ الأمـورَ إلى مُدبرٍ شأنِها وَارغبْ عن الدُّنيا بنفسِكَ تَسْلمِ[2]

وفى جلسة ثالثة للرافعى مع البارودى يسأله عن رأيه فى المفاضلة بين أبى تمام والمتنبى ، وكان البارودى يقدم أبا تمام على المتنبى ، فيقول الشاعر الناشىء : « إن الذى ذكره نقاد الكلام أن المعانى المخترعة ثلاثة بعد أن عدها بعضهم ثلاثين ، والمتنبى وإن كان قد افتضح فى سرقاته إلا أن له ما ليس لأبى تمام ، وذلك فى بعض معانيه ، على أن كليهما قد تعثر فى ألفاظ كثيرة . فيقول البارودى : ولكن شعر أبى تمام أجزل صنعة وأوضح وأتم[3] » .

والبارودى فى ندوته لم يكن يفاضل بين شاعر وآخر من شعراء العصر ، أو يقدم أحدا منهم على غيره ، وذلك اتقاء ماقد يصيب بعضهم من غضاضة وحرج ، وكان يقربهم جميعا إليه ، ويسمع منهم ، فإن نصح أو نقدَ فعلى انفراد ، وكان كل منهم يظن أنه الأثير لديه . وقد حدث أن عزمت الحكومة على أن تقيم مهرجانا للشعر بمناسبة عيد جلوس عباس ، ودعت إليه كبار الشعراء لإلقاء القصائد فيه ، وأعدت ميداليات وجوائز للفائزين[4] ، واختارت للتحكيم محمود سامى البارودى والشيخ محمد عبده وإسماعيل صبرى والشاعر العراقى عبد المحسن الكاظمى ، ولكن البارودى اعتذر « بحجة أن الحكم بين الشعراء من أصعب الأمور »[5] .

---

(١) سرى : كشف .

(٢) هذه القصيدة لم يسبق نشرها وهى من الجزء المخطوط من الديوان وهى ٥٤ بيتا ؛ المخطوطة (س) ص ٢٥١ — ٢٥٣ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٢٥٧ — ٢٥٩ . والرافعى لم ينشر منها فى المقتطف سوى بيت ونصف بيت ؛ أنظر : المقتطف مجلد ٣٠ جزء ٣ مارس ١٩٠٥ .

(٣) المقتطف المجلد ٣٠ ج ٣ مارس ١٩٠٥ . (٤) الهلال مجلد ٣٨ فبراير ١٩٣٠ .

(٥) المصدر السابق . واعتذر الشيخ محمد عبده وإسماعيل صبرى عن التحكيم فى الحفل عقب اعتذار البارودى .

وتسعد مصر وهى ترى ابنها العائد يملأ جوها الأدبى حياة ونشاطا ، ويمد مريديه الشعراء بروح من عنده فتقوم حركة شعرية كبيرة تنتشر من مصر لتملأ الآفاق العربية ، ويسير الشعراء على نهجها ويقبسون من ضوئها حتى يعم النور .

ويؤم ندوة البارودى الشيخ محمد رشيد رضا — محرر « المنار » وتلميذ الشيخ محمد عبده — وكان يتذاكر معه فى شئون الإصلاح فيجده على نفس الطريق ، ويوافقه فيما تكتب المنار من رسائل فى إصلاح حال المسلمين (١) ، ويكتب عنه رشيد رضا فيقول « كان أدبه النفسى أعلى من أدبه اللسانى ، وقد خانه فى نكبته كل صلة بالناس ما عدا هذه الصلة الأدبية ، فلم يف بعهده ويرعى حقوق وده من انتفعوا بجاهه ورفده ، ولكن وفى له الأدباء والشعراء ووده الفضلاء والعلماء الذين تجمعه بهم الصلة الروحية والمشاكلة الطبيعية ، فكانوا يكاتبونه فى غيبته ، ويغشون ناديه بعد عودته ، وكان أشدهم له وفاء الأستاذ الإمام (محمد عبده) ، ومثله من يقوم بحقوق الصداقة حق القيام (٢) » .

ويحضر ندوته من الشباب مصطفى كامل ، ويكتب عنه فى جريدة اللواء :(٣)
« عاد محمود سامى باشا إلى مصر تقدمه رحمة المصريين ، ويعلم العقلاء أنه أعظم القوم مصابا ، وأكبرهم خسارة ، أصيب فى ثروته الواسعة وفى جاهه الرفيع ، وأهله الكرام وأصدقائه العقلاء ... وهو وإن فقد كل ذلك فله من نسبته إلى الأدب ، وكونه من آحاد الشعراء فى هذا العصر ما يقوم ببعض العوض ، ويصون قدره . . . ومع هذا كله لم يعلم أحد أنه اشتكى الفقر وهو الذى عرف الغنى ، أو حنّ إلى رتبه ونياشينه وهو الذى بلغ من المعالى ماتشتهى النفس العالية . وكذلك النفوس الكبار تتعب فى مرادها الأقدار » .

---

(١) الجوانب المصرية عدد ٥٧٢ فى ١٥/١٢/١٩٠٤ .
(٢) المصدر السابق . (٣) اللواء فى ٥/١٠/١٩٠١ .

ما قبـــل النهاية

الذكريات :

ويضنى البارودى ويعذبه مايراه على جسد وطنه الحبيب من جروح الاحتلال وقروحه . ويمر « بقصر الجزيرة » ، وقد قضى فيه ردحا من شبابه يوم أن كان يازرا لإسماعيل ، فيشهد ما فعلت به يد الزمان وما فعلت بقومه ووطنه ، فيؤلمه الوقع وتمضه الذكرى ويذرف دمعة الرثاء على القصر ، وكأنه يبكى الماضى جميعه والوطن ومصابه فيقول :[1] .

هل بالحِمى عن سرير المُلكِ من يزَعُ ... هيهاتَ ، قد ذهب لمتبوعُ والتبع

هذى «الجزيرةُ» فانظر، هل ترى أحداً ... ينأى به الخوف ، أو يدنو به الطمعُ ؟

كانت منازلَ أملاكٍ ، إذ صدعوا ... بالأمر كادت قلوبُ الناسِ تنخلعُ

عاشوا بها حِقبةً ، حتى إذا نهضتْ ... طيرُ الحوادثِ من أوكارها وقَعُوا !

والقصيدة من أقوى أشعار البارودى ، ومحور قوتها هو « الذكرى » ، وهى دمعة رثاء على الحال التى آلت إليها البلاد ، ورؤيته المحتل جاثما على صدرها . ولا ريب أن الألم الصامت كان فى فؤاده كالجمر تحت الرماد ، فلم يصرح به فى شعره ، وأشد الآلام ما كان مكتوما ، والقصيدة تدل على أن البارودى كان ثاقب الفكر لا تصرفه الظواهر عن رؤية المكنون من البواطن ، فلم تغره الرفاهية المادية التى غرت بعض العرابيين بعد رجوعهم من المنفى ، فتوهموا

---

(١) نشرت المنار القصيدة فى عددها ٢١ من المجلد ٧ يناير ١٩٠٥ وقالت: « ومر بقصر الجزيرة بعد عودته من سيلان فتذكر أيام إسماعيل ونظم معتبرا ومذكرا وهى من آخر مانظم ».

أن أغراضهم تحققت ، ولم تغره مظاهر العدل الأجنبي المنظم فى الظاهر ، ولكنه أزاح الستار عن ذلك الظلم الأجنبي المنظم فى الباطن الذى يضؤل بجانبه كل ظلم .

ونسى الشاعر مجده وفخره ودنياه حين هاجمه إحساس من وراء حجب الغيب بأن نجمه قد أوشك على الغروب كما أفلت نجوم قبله ، فاستسلم للقضاء وأذعن للقدر ، ورثى نفسه فيمن رثى حين قال :

زالُوا فما بكَتِ الدنيا لفُرقتهم ولا تعطلت الأعيادُ والجُمَعُ

والبيت يصف سنة الدهر ودولاب الأيام وهو يسير لا يعطله شيء ، يأتى الناس ويذهبون دون أن يلقى الدهر عليهم نظرة أو لفتة أو يغير من نظامه ، فالموت يحصد والعجلة تسير . وفى القصيدة آثار من تأمل من أحس بدنو الأجل يستعرض فيها الماضى ويبكيه بدموع الفناء .

ولا تترك الأقدار معذبها العانى يقضى ما بقى له من أيام هادئا يأسو جراحه ويبرئ الآلام التى أضنته سبعة عشر عاما ، أو يهنأ بالعودة إلى وطنه بين أهله وبنيه وصحبه ، بل تأبى إلا التمادى فى ملاحقته بنوبها وأرزائها ، فينشب الموت أظفاره فى أحدى بناته ليلة زفاف أخت لها [1] ، ويعقد المصاب لسانه وتفزع الفاثبة جفانه ، وتتحجر منه المآقى وينضب معين الدموع فلا يستطيع بكاء ابنته . ويبكى له صحبه ومريدوه ، ويواسيه برثائها حافظ وشوقى وشكيب أرسلان وخليل مطران [2] وغيرهم من الشعراء ! ثم يتلو المصاب مصاب آخر يفقد فيه ابنة أخرى بين يديه ، « فقلصت المصائب كبده ، وأودت بجسده ، وقضت

(١) عام ١٩٠٢.

(٢) أنظر: دواوين هؤلاء الشعراء؛ والمجلة المصرية سنة ٢ عدد ١٩ مارس ١٩٠٢.

على البقية الباقية من نور عينيه [(١)] ».

ويموت صديقه على رفاعة الطهطاوى [(٢)] فى يوليو عام ١٩٠٣ فيندبه بمطولة يستهلها بقوله :

نعاء عليه [(٣)] أيها الثقلان فقد أقصدته أسهم الحدثان
مضى وأقمنا بعده فى مآتم على الفضل نبكيه بأحمر قان

ويمضى البارودى فى رثائه فيذكر فضل « على رفاعة على العلوم والمعارف ، ومآثره التى أبقت ذكره بين الناس ، والذكر للإنسان عمر ثان فيقول :

تخلى عن الدنيا وأبقى مآثراً يقر لها بالفضل كل لسان
فإن يك أودى فهو حى بفضله ومن كان مذكوراً فليس بفان

ثم ينثنى إلى تعديد الجوانب الخلقية فيه والقيم الإنسانية لديه ومعايير الصداقة عنده ، ويحاول البارودى أن يتعزى عن الفجيعة بالسلوان ، أو لعله يرى ملامح آخرته قريبة دانية فيسلى نفسه بأن الموت حتم لازب على الإنسان ، وشريعة جرت عليه منذ مضى الأب الأول « آدم » فيقول :

وأى امرىء يبقى ، ودون بقائه نهار وليل بالردى يفدان
ألا قاتل الله الحياة فإنها إلى الموت أدنى من فم لبنان
إذا ما بنانا الدهر ظلت صروفه تهدمنا والدهر أغدر بان
تخادعنا الدنيا فنلهو ولم نخل بأن الردى حتم على الحيوان

(١) الجوائب المصرية عدد ٥٧٢ فى ١٩٠٤/١٢/١٥ ؛ أنظر أيضا اللواء فى ١٩٠٤/١٢/١٣ .
(٢) كان سكرتيراً لمجلس النواب على عهد وزارة البارودى ثم وكيلا لوزارة المعارف .
(٣) فى المخطوطة (ج) (عليها) ؛ ونعاء : اسم فعل أمر مبنى على الكسر بمعنى (انع) أى أظهر وبلغ خبر وفاته .

إذا ما الأبُ الأعْلَى مضى لسبيلِهِ فما لبنيهِ بالبقـــاء يَدانِ

ثم يشير البارودى إلى اتصال فضل على رفاعة وعلمه بفضل أبيه « رفاعة رافع الطهطاوى » وعلمه ، ذلك الذى حمل مشعل النهضة العلمية والفكرية والتعليمية فى البلاد فيقول :

فأنت ابنُ من أحْيَى البلادَ بعلمِهِ وأبقَى له ذكراً بكُلِّ مكانِ

أفَـادَ بَنى الأوْطَانِ فضْلاً سَموْا بِهِ إلىَ هَضَبَاتٍ فى العُـلاَ وقِنَـانِ

وأنْتَ ابنُه ، والفـرعُ يتبـعُ أصْلَهُ ومَا منـكُما إلا جَـوَادُ رِهَانِ

فَيا رَحمـةَ اللهِ اسْتَهِلِّى عَليهِمَـا بسَجْلينِ الرِّضْوانِ ينهملانِ [1]

آخر أعمال البارودى :

منذ عاد البارودى إلى الوطن من منفاه وفى يده سفر خلوده . . ديوان شعره ، أخذ ينقحه ويعده للطبع[2] ، ويملى على كاتبيه — الشيخ ياقوت المرسى والشيخ عطيه حسنين — بعد أن كف بصره فى أيامه الأخيرة ماشاء من تغيير وتنقيح[3] . وأصول الديوان تشهد بالجهد الكبير الذى بذله البارودى فى هـــذا التنقيح وفى الإعـداد والمعاودة ، فهناك أبيات حذفها من بعض القصائد ، وأبيات أخرى غيّرها كلها أو بعضها ، وإضافات جديدة ألحقها بقصائد قيلت من قبل ، وكلمات

(١) السجل : النصيب أو الدلو. هذه القصيدة لم يسبق نشرها وهى من الجزء المخطوط من الديوان وقد ذكرها تحت عنوان « وقال يرثى المرحوم على باشا رفاعة » وهى ٢٩ بيتا ؛ المخطوطة (س) ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣ ؛ والمخطوطة (ج) ٢٨٨ ـ ٢٨٩ .

(٢) لم ينشر الديوان كاملا حتى الآن وكانت أول نشرة له هى التى طبعت عام ١٩٠٩ ـ ١٩١٦ وقام بنشرها محمود الإمام حتى آخر قافية اللام .

(٣) أنظر : مراثى الشعراء ص ٦ ، ٢٣ .

وفقرات لم ترقه فاستبدل بها غيرها ، وتفسيرات كثيرة أثبتها فى هامش الديوان لمعانى الكلمات الغامضة أو غير المتداولة . وذلك كله دليل على حبه الكبير لشعره وإيمانه به ، وشهيد على صدق عقيدته فى أن العبقرية مجهود متصل فى سبيل الكمال . وظل يرتب الديوان حسب قوافيه حتى أكمله آية لمجده وتراثا للأجيال من بعده فى ٥٣١٣ بيتاً غير قصيدة « كشف الغمة فى مدح سيد الأمة » وعدد أبياتها ٤٤٧ بيتاً ، وغير المقطوعات الشعرية التى جاءت فى ثنايا كتاباته النثرية .

وكذلك شغل البارودى نفسه أواخر سنى عمره « بمختاراته[١] » ، فقد « رأى أن يتحف الأدباء من أهل عصره بمجموعة يختارها من شعر فحول الشعراء المولدين لتكون عوناً للناشئين على طبع ملكة البلاغة فى النفس ، فاختار ثلاثين ديواناً وانتخب منها مارق لفظه ودق معناه وخلا من الحشو والتعقيد . . . ورتب أسماء الشعراء على حسب أزمنتهم لا على حسب مكانتهم[٢] » . وبدأهم « بشار بن برد » رائد الشعر العباسى ، وزعيم المحدثين المجيدين من الشعراء (ت ١٦٧ هـ) وانتهى بهم إلى « ابن عنين » المتوفى فى عام ٦٣٠ هـ ، « ووضع البارودى تعليقاً لمختاراته يفسر به الألفاظ الغريبة والمعانى المغلقة[٣] » .

وكأن القضاء كان ينتظر البارودى حتى يفرغ من تنقيح سفر خلوده ، وينتهى من إعداد تمثال عبقريته الخالد . . ديوانه ، ثم سلط عليه المرض فى منتصف عام ١٩٠٤[٤] ، واستعصى على الطب الشفاء . ويلتف صحبه ومريدوه من حوله يودون لو يستطيعون دفع الردى عنه ، وتحمل الضر بدله ، وينصتون

---

(١) طبعتها زوجته أمينة يعقوب سامى بعد وفاته ١٩٠٩ – ١٩١١ فى أربعة أجزاء وقام بتصحيحها كاتب يد المنتخب فى سنيه الأخيرة الفقير اليه تعالى ياقوت المرسى (مطبعة الجريدة بسراى البارودى بمصر).

(٢) مراثى الشعراء ص ٢٢ . (٣) مراثى الشعراء ص ٢٣ .

(٤) جريدة اللواء فى ١٩٠٤/١٢/١٣ .

وكلهم آذان إلى آخر مايقول ، وقد بدت لهم ملامح النهاية ، وفى صحوة الموت وعلى فراش المرض الأخير يستجمع البارودى مابقى له من قوة ويضم إليه قيثارة الشعر يودعها ويغنى عليها « اللحن الأخير[1] » فيقول :

أنا مصدرُ الكَلِمِ النَّوادى — بين الحواضِرِ والبَوادِى
أنا فارسٌ ، أنا شاعرٌ — فى كل مَلْحَمةٍ ، ونادِى
فإذا ركبتُ فإننى — زيدُ الفوارسِ فى الجِلادِ[2]
وإذا نطقتُ فإننى — قسُّ بنُ ساعِدة الإيادِى[3]
هذا ، وذلك دَيْدَنى — فى كلِّ مُعْضِلةٍ نــآدِ[4]

وكأنه بآخر أبياته يعلن مقدرات نفسه وهو ذاهب إلى الأبدية ، ثم يردف الحديث عن نفسه بحديث عن وطنه فيقول لعوّاده المقربين إليه : « هل سمعتم بإنسان شكر الله على العمى ؟ أنا ذلك الشاكر . فقد جنبنى الله رؤية الاحتلال وقد ضرب بجرانه على بلادى[5] » .

نهاية شاعر وزعيم :

وفى أصيل يوم الإثنين الثانى عشر من ديسمبر ١٩٠٤ وقفت ربة الشعر حزينة كئيبة تعزف لحنها الجنائزى الأخير ، وحين أسلم البارودى روحه إلى بارئها حطمت قيثارتها وودعته وداعها الأخير بعد رفقة دامت قرابة نصف قرن

---

(١) ذكر خليل مطران أن هذه الأبيات آخر ما قاله البارودى على فراش المرض فى رمضان ١٢٢٣ (نوفمبر ١٩٠٤) وقد توفى فى ديسمبر ١٩٠٤ ؛ أنظر : الجوائب المصرية ١٤/١٢/١٩٠٤ .

(٢) زيد الفوارس: هو ابن حصين بن ضرار الضبى ، فارس جاهلى مشهور يضرب به المثل فى الشجاعة.

(٣) قس بن ساعدة الإيادى : من أشهر خطباء العرب فى الجاهلية . (٤) النآد : الداهية .

(٥) اللواء فى ١٤/١٠/١٩٠٤ .

رد إليها الشباب والقوة ، ووصلها بالمجد القديم ورفعها إلى مكانة أخواتها اللاتى عزفن لشعراء العربية المجيدين فى عصورها الذهبية .

وتهتز مصر من الأسى والفجيعة وقد فقدت فى البارودى ابنا من أعز أبنائها ، ورائدا لنهضة أصيلة فى الشعر ، وفنانا بعث الروح فى الأدب العربى كله ، ومجاهدا ثائرا حاول أن يخلص وطنه من ظلم الاستبداد ويمنحها الحرية والاستقلال ، فلما أخفق قدم من شبابه وحريته وماله ونور عينيه فداء على مذبح التضحية الوطنية . وتنعى الصحافة[1] إلى العالم العربى شاعره الكبير ، « وتشارك مصر فى أساها لفقده الأمة العربية كلها من الشام إلى بغداد ، ومن الجزيرة إلى تونس[2] » . وكان أهل الأدب أكثر الجميع مصابا وألما ، « لأنهم يعرفون قدره ، وقد نسى مقامه السياسى عند من كان على رأيه ومن كان مخالفا له ، لأن علة المناصب عرض يطرأ فيكون له حكمه ، ويزول فيمحى رسمه ، ولا يذكر الإنسان إلا بصفاته وأعماله[3] » .

وخرج مشهده فى الثانية من بعد ظهر الثلاثاء ١٣ ديسمبر ١٩٠٤ من داره بباب الخلق ، وأم المصلين عليه الأستاذ الإمام محمد عبده[4] ، وجاء الناس من كل صوب وحدب يودعون البارودى الوداع الأخير ويشيعون جثمانه ، يتقدمهم عشاق فنه وشعره ، وعارفو فضله وجهاده الوطنى ، وتلاميذه ومريدوه من الشعراء[5] . ويصف خليل مطران هذا المشهد فيقول : « خرجنا نمشى وراء نعشه المحفوف

---

(١) أنظر الجوائب المصرية ، واللواء ، والمنار ، والمؤيد والمقطم والصاعقة من ١٣/١٢/١٩٠٤ الى ٢٠ فبراير ١٩٠٥ . (٢) من رثاء الجوائب المصرية فى ١٥/١٢/١٩٠٤ . (٣) من رثاء المنار ق ٢٣/١٢/١٩٠٤ . (٤) المقطم والمؤيد ١٤/١٢/١٩٠٤ ؛ والمنار ٢٣/١٢/١٩٠٤ ، ويقول صاحب المنار إنه لم ير الشيخ محمد عبده صلى على ميت غير البارودى إلا مأموما .

(٥) لم يشيع الشاعر أحمد شوقى رفات البارودى !

بالإجلال ونحن ننظر ذات اليمين وذات الشمال، فلا نرى بين الجمهور إلا كل مهتز العطف للشعر، متطلع النفس إلى الحلال من السحر. والجميع قد نسوا منه الوزير رب الدولة، والفارس صاحب الصولة وإنما بكوا ذلك الخلق الجليل في ذلك الخلق الجميل، وذكروا الشاعر »[1].

ويتلفت الخليل حوله فلا يجد بين المشيعين — على كثرتهم — رجال الحكم ومحترفي السياسة، ذلك لأن الخوف من الخديو والمستعمر قد أذلهم فامتنعوا عن الخروج جبناً، وكيف يخرجون لتشييع رفات رئيس سابق للوزراء علت كلمته يوما كلمة صاحب التاج وهدده بالعزل، وقاوم بالسلاح المستعمر الغاصب؟! ويرثي مطران الأخلاق وهو يرثي البارودي ويودعه فيقول: « وخير لمثله أن يعتاض في المشيعين بالكتاب والشعراء والمحبين من وزراء لم يعرفوا الوزارة حرة كما عرفها، ومحافظين ومديرين لم يألفوا الأحكام شريفة كما ألفها[2] ». ثم يصف مطران اللحظات الأخيرة لموكب البارودي في الحياة الدنيا وجثمانه يسعى إلى دار الفناء ويقترب من مثواه الأخير فيقول: « فلما أفضينا إلى قرافة الإمام، وقد آذنت الشمس بالغروب، وكمد الأفق إلى الشحوب، جزنا مدينة تباب، مرفوعة القباب، على الوحشة والخراب، فسما بنا الطرف إلى السماء وإذا هلال لها يشرف على أهلة القبور، كأنه توقيع في صحيفة الفضاء على سر من أسرار المقدور، بخاتم أخفته الظلمة ودل على طرف منه النور، ومررنا على التأمل سيرنا بين تلك الحفر، الجامعة للعبر، الماحية للزمان، الناسخة للمكان، حتى أفضينا إلى مستقر الفقيد فألقي به في أخدود الأرض، ضئيلا ما أبقاه الضنى من ذلك الجسم الذي أصابته الحروب، وقليلا ما تركه الموت من ذلك الظل المأمول الموهوب... عليه

---

(١) الجوائب المصرية في ١٩٠٤/١٢/١٥. (٢) المصدر السابق.

أثر من آثار الجاه القديم والبأس العظيم والمنفى الأليم . ولـكن يبدو على محياه شفق تخلف عن ذكاء الفكر ، وتلوح بين ملامحه مواقع الوحى والشعر . كذلك أودعناه فى القبر » !!

وأسلمه مشيعوه إلى مثواه ، وتركوه من خلفهم إلى لقاء قريب ، فقـد تواعد الشعراء والأدباء وصحب البارودى ومريدوه على أن يجتمعوا على قبره فى ذكرى الأربعين[1] ، ليرثيه الشعراء ويندبه الأدباء ويودعه عشاق فنـه الوداع الأخير . « وفى صباح هذا اليوم توافد جمهور كبير من الشعراء والأدباء على اختلاف الطبقات والمراتب عربا وإفرنجـا إلى مدفن البارودى بالإمام الشافعى ، والتفوا حول الضريح نائبا بعضهم عن مصر وبعضهم عن الشام[2] » . وتقـدم الشعراء والخطباء تباعا يقدمون إلى الجدث الطاهر تحية الفناء إلى البقاء ، « ونبهوا الأصداء النائمة حوله فى بهو السكون الخالد بتعديد مآثره وترديد ذكراه ، وقالوا للنسيان تنح قليلا ، وللسلوان لاحسنت اليوم وإن كنت جميـلا ، وكلهم على استيحاء إليه بما يبكون به شعره من الشعر ، وما هم بمتهجمين عليه فقد خلدت له أقواله جميل الذكر[3] » . وأدى الشعراء والأدباء حق الوفاء للرائد الذى ذهب وأحيوا سنة لم تسبق إلا لشاعر المعرة من شعراء العربية .

---

(١) دعا إلى الاحتفال بهذه الذكرى خليل مطران فى مجلة الجوائب المصرية فى عدد ١٥/١٢/١٩٠٤ والأعداد التالية . (٢) الجوائب المصرية ٢٠/١/١٩٠٥ .

(٣) المصدر السابق . القصائد والخطب التى قيلت فى هذه الذكرى فى جريدة الجوائب المصرية عدد ٢٠/١/١٩٠٥ وما بعده وقد جمعها خليل مطران فى كتاب « مراثى الشعراء » . والشعراء والأدباء الذين رثوا البارودى على قبره هم: خليل مطران، حافظ ابراهيم، إلياس فياض، محمد ابراهيم هلال، إمام العبد، حفنى ناصف، أخنوخ فانوس، عبد الفتاح بيهم ، عطيه حسنين ، حسن حمدى ، يوسف أحمد يكن ، حسن وهبى، نسيب أرسلان، الشيخ طنطاوى الجوهرى، ولم يحضر هذه الذكرى أحمد شوقى أو إسماعيل صبرى=

وعاد الراثون والمعزون أدراجهم إلى الحياة وتركوا البارودى لقبره يمنحه مالم تمنحه دنياه ، تلك التى صافته قليلا فصافح الثريا ، وعادته كثيراً فأضنته حتى أكل الشقاء أكثر عمره ، وليمنحه الثرى راحة لجسده بعد طول عذاب ، ويحنو على روحه بعد أن قست عليها الآلام « فإن كريماً من تضم الصفائح » !!

= أو على الايتى ولم ينشر أحد منهم رثاءه فى الصحف وقد أشارت الصاعقة فى عددها ١٩٠٥/١/٢٣ إلى أن شوقى نظم قصيدة فى رثاء البارودى لكنها لم تنشر سوى مطلعها وهو :

هذا ثرى مصر فنم بسلام   كم روعتك حوادث الأيام

ولم تنشر هذه القصيدة فى ديوان شوقى .

الفصل التاسع

إمام التطور في الشعر العربي الحديث

كَمْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ   وَلَرُبَّ تَالٍ بَزَّ شَأْوَ مُقَدَّمِ

فِي كُلِّ عَصْرٍ عَبْقَرِيٌّ لَا يَنِي   يَفْرِي الفَرِيَّ بِكُلِّ قَوْلٍ مُحْكَمِ

أَحْيَيْتُ أَنْفَاسَ القَرِيضِ بِمَنْطِقِي   وَصَرَعْتُ فُرْسَانَ العَجَاجِ بِلَهْذَمِي

وَفَجَرْتُ يَنْبُوعَ البَيَانِ بِمَنْطِقٍ   عَذْبٍ رَوَيْتُ بِهِ غَلِيلَ الحُوَّمِ

نَشَأَتْ بِطَبْعِي لِلْقَرِيضِ بَدَائِعٌ   لَيْسَتْ بِنِحْلَةِ شَاعِرٍ مُتَقَدِّمِ

قَوَّمْتُهُ بَعْدَ اعْوِجَاجِ قَنَاتِهِ   وَالرُّمْحُ لَيْسَ يَرُوقُ غَيْرَ مُقَوَّمِ

ذَلَّلْتُ مِنْهُ غَوَارِبًا لَا تُمْتَطَى   وَخَطَمْتُ مِنْهُ مَوَارِفًا لَمْ تُخْطَمِ

شِعْرٌ جَمَعْتُ بِهِ ضُرُوبَ مَحَاسِنٍ   لَمْ تَجْتَمِعْ قَبْلِي لِحَيٍّ مُلْهَمِ

البارودي

الفجر الصادق للشعر العربي الحديث

عصر مضى :

كان الشعر العربي يعاني أزمة الضعف والانحلال منذ احتل العثمانيون البلاد العربية ، فقد زحفت مع جيوشهم على البلاد أجناد الجهل وظلمة الفقر الذهني والمادي ، واعتصروا ما تغله من طيبات الرزق ، ونزحوا مافيها من تراث وعلماء . وكان العثمانيون قد رأوا قوة المصريين في قدرتهم على التكيف مع الأزمات ، وتطلعهم إلى مصادر جديدة للثقافة إذا حرموا من ثقافتهم الأصيلة . والثقافة عدو الاستعمار الأول ، فأراد الأتراك أن تظل مصر خاضعة راكدة ، ومن ثم ضربوا بسور من العزلة على مصر والبلاد العربية ، ومنعوا اتصالها بالعالم ، وقصروا صلتها على القسطنطينية وحتى هذه لم تكن الصلة بها فكرية ، بل كانت محدودة في خلع الوالي وجباية الضرائب وإرسال الشكايات .

وكانت تركيا بهذه العزلة الفكرية تريد للشعب العربي الجهالة وعماية الفكر حتى يسلس قياده وتلين عريكته ، وتظل بلاده المزرعة التي تنتج المحصول لمالكها كي توفر له العيش المترف والاستمتاع بالحياة . وكان يدفعهم إلى ذلك أيضاً « مركب النقص » الذي يحس به الأتراك تجـــاه العرب ، فعلى الرغم من أنهم كانوا السادة والمتحكمين في مصائر العرب وبلادهم إلا أنهم أحسوا نحوهم وفي قرارة نفوسهم برهبة خفيـة ونقص في الدرجة الدينية ، فالعرب أهل الدين الذي يعتنقه السادة الأتراك ، وأهل اللغة التي لابد وأن يتعلمها المستعمرون ليصلّوا بها ويقرأوا بها القرآن ، والعرب بعد كل ذلك أفضل منهم عند الله ، لأنهم « خير أمة أخرجت للناس » ، ويزيد هذا الشعور من حنق التركي وحقده

فيزداد فى إذلال العرب ، وسومهم سوء العذاب ، وسلبهم باسم الدين حقهم فى الحرية السياسية والمعرفة والحياة !

والواقع أن الأتراك العثمانيين كانت فيهم لفحة من الهمجية والوحشية ، ولم يكن لهم اتجاه فكرى أو ثقافى ، فقد بنوا دولتهم على القوة الحربية ، وحين استقر بهم المقام فى القسطنطينية وجدوا أنفسهم وقد احتلوا عاصمة الثقافة والفكر للعالم الغربى كله ، وكان لا بد لهم أن يملأوا الفراغ الذى خلفه هرب الغربيين من وجههم بثقافتهم وتراثهم . بحثوا فى ماضيهم فلم يجدوا علماً ولا أدباً ، فأرادوا أن يستبدلوا بثقافتهم البدائية الثقافة الإسلامية والعربية ، لكنهم كانوا غير أصلاء فيها ، ومن ثم فقد استوردوا العلماء واستولوا على التراث الإسلامى والعربى ليجعلوا عاصمتهم منارة الثقافة الإسلامية . وأرادوا أن يتبنوا هذه الثقافةَ ليتحول مركز الإشعاع الفكرى والدينى للإسلام ـ بجانب السيطرة السياسية ـ إلى الآستانة . وتغلبت طبيعتهم الغشوم وغباؤهم العقلى وفقرهم الثقافى فلم يفلح هذا التبنى ، ولم تتقدم الحركة الفكرية بل تدهورت إلى الضعف والتخلف ، ومن ثم أصابهم مس من جنون الكراهية والعداء لكل منارة علم فى البلاد العربية ، فأطفأوا مصابيح الفكر والثقافة فيها ، ولم يبق منها إلا ذبالة ضئيلة ترتعش من الضعف فى الأزهر .

وتحالفت الجهالة والعزلة وخمود الروح القومية على الأمة العربية ، والصلة أقوى ماتكون بين الحياة العقلية والقومية وبين الأدب والفن ؛ ومن ثم فقد أصيب الأدب بالضعف والركود والانحطاط . وليس معنى ذلك أن الشعر قد توقف قوله أو انعدم ، وإنما الذى انعدم حقيقة هو الخلق الجديد والابتكار فيه ، وأصبحت مواهب الشعراء مقصورة على ترديد بعض القصائد المشهورة والموروثة من العهود القريبة ، يحاولون تقليدها أو الوزن على نسقها أو تشطيرها وتخميسها أو معارضتها

فتخرج ممسوخا لا روح فيها خالية من العاطفة والجمال . وطبيعى أن يكون هذا التقليد صدى للنفوس التى خرج منها ، فقد كانت مجدبة قاحلة تعيش على التافه من القديم وتجتر ما خلفه لها السابقون . نفوس أصابها العقم ، وأرواح منيت بالجمود ، وعقول جفت كل الينابيع التى تمدها بالحياة المتجددة .

وإذا كانت الحملة الفرنسية قد هزت المصريين إلى الأعماق ، وأيقظتهم من التخدير الذى أصاب عقولهم وأرواحهم من طول ما رزحوا تحت الظلم والاستبداد ، وإذا كانت قد جاءتهم بزاد جديد لطاقاتهم الثورية الكامنة فيهم من لمحات عن العلوم الحديثة التى طورتها أوروبا ، وإذا كان هذا الزاد قد حمل فى طياته ثقة بالنفس ، وآفاقا جديدة تشد خيال الحركة المتحفزة للشعب المصرى ، فإن المأساة الكبرى جاءت على يد «محمد على» حين وجه اليقظة إلى تنفيذ مخطط يحقق له أطماعا فردية ، فجعلها فى اتجاه يؤثر فى عقول الناس ولا يؤثر فى عواطفهم ، وحصرهم فى سجن الاستبداد والقهر وحرمهم من الحرية الفردية والحرية القومية ، ومن ثم بقى الأدب والفن على صورته السالفة فى العصور العثمانية ينبع من التكلف ويسير فى أخاديد الصنعة ، ويعيش فى سراديب الضعف والتهالك . وظل الشعراء يسلكون نفس الدروب الملتوية الضيقة التى سلكها أسلافهم ومعاصروهم فى البلاد العربية من أمثال الشيخ إسماعيل الخشاب والشيخ حسن العطار والشيخ شهاب الدين والسيد على الدرويش ، ينشدون شعرا فقد روحه العربى الخالص ، وغدا جسما يخلو من الحياة . فقد أحالته الصنعة والتكلف حيلا بديعية ، واضطرابا والتواء أشبه بالأحاجى والألغاز ، وظلا مطموسا لصاحبه على أوزان البحور الشعرية ، وأصبح المثل الأعلى للشاعر هو قدرته على تكبيل شعره بأكبر عدد من أغلال الصنعة التى تكتم أنفاس الخصائص الفنية وتذهب بروح الشعر ومعناه .

ثم خلف من بعدهم جيل تولى زعامته « محمود صفوت الساعاتى » وقد أخذ لواء الشعر من السيد على الدرويش ، وانضوى إليه معاصروه من أمثال على الليثى وعلى أبو النصر وعبد الله النديم وصالح مجدى ومحمد النجارى وعبد الهادى الإبيارى وغيرهم . « وقصارى ما يكون من أبرعهم شعراً وأبدعهم صنعة إذا نفض رأسه وزاد فى حركة قلبه وضرب على جبهته بكلتا يديه أن يعطس ببيت فيه نكتة من البديع أكثر ما تكون من نحو حسن الأخذ والتضمين والاقتباس »[1] . فالشاعر كما كانوا يفهمونه لم يزد عن أنه نديم فى المحافل يلقى جميع سامعيه ، ويعاشرهم ويضحكهم بالملح والأحاديث ، ومن ثم فكل من كان يفهم النكتة فى المجلس ويحسن ردها ، ويحفظ النادرة ويتأنق فى سردها ، ويروى الأخبار ، وينشد الأشعار فهو شاعر مجيد ، ذلك لأن ذوق العصر الذى عاش فى الظلمة الفكرية والسياسية قيّم الشاعرية على أنها اللباقة وذرابة اللسان ، وهى قبل شىء صناعة كلام وتنميق ألفاظ ، وبراعة فى المساجلة والإفحام[2] .

وما زالت مساجلات الشعراء ونوادرهم فى ذلك العصر يرويها السمّار وتسجلها كتب الأدب ، ومن ذلك ما حدث لعبدالله النديم حين تحامل عليه بعض الأدباء واقترح أحدهم أن ينشىء قصيدة يعارض بها دالية المتنبى المشهورة ومطلعها :

أقلٌّ فعالى بَلْهَ أكثرهُ مَجْـــدُ وذا الجدُّ فيه نِلْتُ أو لم أنل جدُّ

وزعم أنه لا يتأتى لأديب شاعر أن يعارض فى هذه القصيدة قوله :

ومِنْ نَكَدِ الدنيا على الحرِّ أن يَرَى عدوًّا له ما مِنْ صداقتــه بدُّ

فغضب النديم وانتفض وقبل التحدى ، وانتحى جانباً وأنشأ قصـيدة دالية ومطلعها :

---

(١) مصطفى صادق الرافعى : المقتطف مجلد ٣٠ مارس ١٩٠٥ . (٢) أنظر : عباس العقاد : شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ص ٢٢ .

سيوفُ الثَّنا تصدًا ومِقْوَلِيَ الغِمْدُ   ومَنْ سار فى نَصْرى تَكَفَّلَهُ الحمدُ

إلى أن قال معارضاً ذلك البيت الذى ظنه المتحدى معجزاً :

ومِنْ عَجَبِ الأيام شَهمٌ لها حِجا   يعارضه غِرٌ ويُفْحِمُه وَغْـدُ

ومن غُرَرِ الأخلاقِ أن تُهْدَرُ الدِّما   لتُحْفَظَ أعراضٌ تَكَفَّلَها المجدُ

وفرق كبير بين الثرى والثريا ، وبين شعر عزفته الموهبة النادرة وشعر نظم ليواجه التحدى ويظهر المهارة والمقدرة .

وكان للشيخ على الليثى فى ذلك العصر باع طويل فى مجال النادرة ، ومن ذلك نادرته مع « المهردار » ناظر الخاصة بقصر إسماعيل ، فقد أراد ناظر الخاصة أن يوزع الحجرات على رجال المعية السنية فاحتار فيما يضع عنواناً لحجرة شاعرى الخديوى : الشيخ على الليثى والشيخ على أبو النصر ، وأخيرا كتب على باب حجرتهما من باب المداعبة : « إنما نطعمكم لوجه الله » . وشاعت المداعبة بين رجال القصر حتى وصلت إسماعيل ، فأسرها على الليثى فى نفسه ، وبينما هم جميعاً فى مجلس الشراب وكان عامراً بالمقربين إلى الخديو من علية القوم سنحت الفرصة لعلى الليثى ، فقال للخديو : عندى يا مولاى قصة قصيرة جديرة بأن أحكيها فى هذا المقام ، وأذن له فقال :

لنا طاحونة فى البلد   لكن تِقيلهْ ع الحمار

علِّقْت فيها الطُّرْرْ عِصِى   علقت فيها « المهردار »

وانفجر المجلس بالضحك وغضب المهردار ولكن إسماعيل قال : دقة بدقة . وانتقم الشيخ على الليثى خير انتقام وصارت نادرة « المهردار » نادرة الموسم تروى فى المجالس الخاصة والعامة .

ومن هاتين القصتين وغيرهما كثير يمكن أن ندرك الدوافع إلى قول الشعر عنـد أدباء ذلك العصر ، فالشعر فى أغلب الأحيان لم يكن تصويراً لعاطفة أو تعبيراً عن تجربة ، بل كانت غايته إظهار الجدارة وإفحام الخصم أو سوق النادرة . أما طموح الشعراء فقد تحدد فى معارضة القصائد الموروثة المشهورة وتشطيرها أو تقليدها . ولم يكن الشاعر منهم يتصور الشعر إلا أنه نظم لمعان معادة معروفة ، وكل ماله من فضل هو حشد ألوان البديع وأغلاله ، وتكديس لصفوف المحسنات من جناس وطباق وازدواج وتورية ، والسير بأوائل الأبيات على نسق الأبجدية ، أو نظم القصيدة من حروف معجمة أو مهملة ، أو يستخرج من آخر شطر فيها تاريخاً بحساب الجُمَّل ، إلى غير ذلك من أنواع البديع التى لا تحصى . ولم يكن ذلك إلا الفساد فى الشعر وفى الذوق ، وإلا الضعف فى القرائح والملكات ، فقد تحول الشعر إلى طلاسم من حسابات وأرقام تصرف القارىء عن الشعر إلى محاولة حلها والخروج من مآزقها ، وتصرف الشاعر عن الانطلاق الطبيعى فى التعبير عن العواطف والشعور تعبيراً يجد القارىء فيه الروح التى أصدر عنها الشاعر — إلى إظهار ذكائه ومهارته فى عرض كلامه على مقاييس العروض ومحسنات البديع التى تعلمها ليكون شاعراً ، نخرج صناعة خالية من الشعور ونظماً لا روح فيه ، معمى بكل معجز ملغز .

ولم يكن لدى الشاعر منهم معنى مبتكر أو عبارة جميلة تعوض هذا الضعف أو تخفى تلك العيوب ، فذلك أمر لم يكلفوا أنفسهم مشقة البحث عنه ، أو أنه مرتبة لم تستطع عقولهم الفارغة وثقافتهم الضحلة أن تصل إليها فى ذلك الحين . ولو أننا أردنا أن نرجع المسببات إلى أسبابها لوجدنا أنهم يمثلون عصرهم الذى ناخت عليه

الجهالة وفساد الذوق ، فكانت العقول التى تعيش فى ذلك العصر ترضيها مثل هذه الأشعار وتطمئن إلى هذا النحو من الأدب ، تقبل عليه الخاصة تفك رموزه دون إلقاء بال إلى معنى أو فكرة ، فهو أدب لفظى أولى أن تقاس أطوال جمله وزواياه ، وتنصرف عنه العامة إلى أزجالهم ومواويلهم وإلى قصصهم الشعبى .

وفجر جديد:

ويطلع البارودى على أدباء عصره فى الستينيات من القرن التاسع عشر طلوع الفجر الجديد ، ولم تكن الدلالات السابقة أو المعاصرة تشير إلى مجىء هذه القمة التى انبثقت شامخة وكأنها خرجت من أعماق خمسة قرون من التاريخ فريدة ليس معها قمة واحدة تدانيها أو تساميها . ووقع شعره من النفوس موقع الماء من ذى الغلة الصادى ، شريف المعنى ، مشرق الديباجة ، قوى الأسر ، رصين العبارة ، جزل التراكيب . أو كما يقول البارودى نفسه :

فألقِ إليه السمعَ ينبئك أنه ... هو الشعرُ ، لا ما يدّعى الملأ الغمْرُ

يزيدُ على الإنشاد حسناً ، كأننى ... نفثْتُ به سحراً ، وليس به سحرُ

وظهرت فى شعر البارودى ميزات واضحة دفعت به إلى الصدارة بين الشعراء ذلك أنه وثب بالعبارة الشعرية وثبة قوية عبر قرون طويلة من الركاكة والضعف إلى مصادرها الأولى من صحة التركيب وجزالة اللفظ ومتانة العبارة ، وارتفع بها من حمأة الابتذال والإسفاف ، ورجع بها إلى أساليبها الرصينة القديمة ، وخلصها من كلف البديع وأثقاله ، وأعاد إليها ديباجتها القوية ، وردها إلى مجدها التليد ، وخلع عن شعره كل العقد التى كان يحجل فيها الشعراء من قبله ، ونفخ فيه روحا جديدة من الأصالة [1] بعثت فيه الحياة وجعلت الشعر والشعراء

---

(١) د. شوقى ضيف : شوقى شاعر العصر الحديث ١٩٦٢ ص ٤٦ .

يلقون بأزمتهم بين يديه ، وفى ذلك يقول البارودى :

وبراحتى قلمٌ ، إذا حركتهُ رَوِيَت به الأفهامُ وهى حِرارُ
غَرِدٌ إذا ما جال فوق صحيفةٍ سجدت لحسن صَرِيره الأوتارُ
ألقى الكلامُ إلىَّ ثِنْىَ عِنَانِهِ وتفاخرت بِكلامِىَ الأشعارُ

وكان الإحساس الذى يلح على البارودى أنه جارى الشعراء الفحول فلحق بهم ، وسابقهم فى مضمار القصيد فلم يتخلف عنهم ، بل سبق بعضهم ، ولو أن الزمان تقدم به لاعترف بفضله مشاهير الشعراء ، ولأقر بنبوغه وعبقريته إمراء القصيد . وليس بضاره أنه بعث فى زمن لا يقدر الناس فيه الشعر بل لايفهمونه ، فقد أقر بفضله العالم العربى كله ، وفى ذلك يقول :

ملكتُ مقاليدَ الكلامِ ، وحكمةً لهـا كوكبٌ فخمُ الضياءِ منيرُ
فلو كنتُ فى عَصْر الكلام الذى انقضى لباءَ بِفَضْلى « جرولٌ » و « جريرُ »
ولو كنتُ أدركتُ النُّواسىَّ لم يقل (أجارةَ بيتَيْنَا أبوكِ غيورُ)
وما ضرَّنى أنى تأخرتُ عنهمُ وفَضْلىَ بين العالمين شهيرُ
فياربَّما أخْلى من السبقِ أولٌ وبذّ الجيادَ السَّابقاتِ أخيرُ

وانفجر النبع الطبيعى من نفس البارودى ، وتدفق من عواطفه شعره وفنه ، وقد أخرجه من حيز المعانى المحفوظة المعروفة إلى فسحة واسعة من التعبير عن العواطف ، وعن العصر وأحداثه ، ملتزما ما وضعه حدوداً للشعر الجيد ، فقد جعل « خير الكلام ما ائتلفت ألفاظه ، وائتلقت معانيه، وكان قريب المأخذ ، بعيد المرمى ، سليما من وصمة التكلف ، بريئا من عشوة التعسف ، غنيا عن مراجعة الفكرة ، فهذه صفة الشعر الجيد ، فمن آتاه الله منه حظا ، وكان كريم الشمائل ، طاهر النفس ، فقد ملك أعنة القلوب ونال مودة

النفوس ، وصار بين قومه كالغرة فى الجواد الأدهم ، والبــدر فى الظلام الأيهم[1] » . وقد أوتى البارودى من كل ذلك النصيب الأوفى ، والحظ الموفور . وفى ذلك يقول :

ترنم بأشعارى ، ودع كلَّ منطقٍ ... فما بعدَ قولى مِنْ بَلاغٍ لِمفْلقِ
هو العسلُ الماذِىُّ طوْراً ، وتارةً ... يثورُ الشَّجا منهُ مكانَ المخنَّقِ[2]
يغنىَّ به شادٍ ، ويحْـدُو ركَابَهُ ... به كلُّ حادٍ بين بَيْدَاء سَمْلَقِ[3]
فطوراً تراهُ زهرةً بينَ مجلسٍ ... وطوراً تراه لَهْـذَماً بين فَيْلَقِ
وما كلَـفِى بالشِّعرِ إلاَّ لأنه ... منَارٌ لسارٍ ، أوْ نَكالٌ لأحمقِ
عَلِقْتُ به طفلاً ، وشبتُ ولم يزل ... شديداً بأهداب الـكلام تعلُّقى
بلغتُ بشعرى ما أردتُ ، فلم أَدَعْ ... بدائـع فى أكمامها لم تُفتَّقِ
فهذا غيرُ الشِّعر ، فاقْصِد حِيَاضَهُ ... لِتَرْوَى ، وهذا مُرْتَقَى الفضْل فارْتَقِ

واهتدى البارودى بفطرته السليمة إلى الطريق الطبيعية التى سلكها من قبله فحول الشعراء ، وقـد كانوا يقرءون ويستظهرون شعر النـابهين ممن سبقهم أو عاصرهم من الشعراء حتى تتكون سليقتهم ، ثم يحاولون فهم مقاصـده وتبين مواقع الجمال فيه ، ويأخذون أنفسهم بروايتـه حتى تتمثل ذاكرتهم الألفاظ والتراكيب ؛ ومن ثم وحين يأتيهم الدفق الشعرى يسيل على ألسنتهم القـول دون عناء ، ودون حاجة إلى جهد وإعداد وترتيب ، ففى الذاكرة رصيد ضخم من الألحان والأنغام والصور والتراكيب . والبـارودى شاعر استظهر الـكثير من شعر الأقدمين « وقرأ المئـات من قصائد الجـاهلين والمخضرمين ، وفحول

(١) البارودى من مقدمته لديوانه . (٢) المخنق : الحلق . (٣) السملق : القفر .

المحدثين ... ولانعرف أحداً بين أبناء جيل البارودى أو أبناء الجيل الذى تلاه قرأ أكثر مما قرأ من دواوين العرب، واستفادت صياغته من هذه القراءة أكثر مما استفاد[1] ». وتسربت العروبة مما قرأ وحفظ إلى ينابيع نفسه، وتمثلها تمثلا عميقاً أعادت فيه للعربية سليقتها القديمة بكل خصائصها اللفظية ومميزات التركيب فيها، وواتاه الدفق الشعرى كذلك دون عنـاء، وسال على لسانه القول دون حاجه إلى جهد وترتيب كما يقول :

نزل الكلامُ إلىّ من شُرفاتِه ... وتمثلت بحـديثىَ الآفاقُ

فاسمع، فما كلُّ الـكلامِ بطيبٍ ... ولِكل قولٍ فى السماعِ مَذَاقُ

ويشير حسين المرصفى[2] أستاذ البارودى وقارىء دواوين الشعراء معه إلى ذلك بقوله[3] : « إنه لما بلغ سن التعقل وجد من طبعه ميلا إلى قراءة الشعر وعمله فكان يستمع إلى بعض من له دراية وهو يقرأ بعض الدواوين، أو يقرأ بحضرته حتى تصور فى برهة يسيرة هيئات التراكيب العربية، ومواقع المرفوعات منها والمنصوبات والمخفوضات حسب ما تقضيه المعانى والتعلقات المختلفـة، فصار يقرأ ولايكاد يلحن ... ثم استقل بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من العرب وغيرهم حتى حفظ الـكثير منها دون كلفة، واستثبت جميع معانيهـا ناقداً شريفها من خسيسها، واقفاً على صوابها وخطئها، مدركاً ما كان ينبغى وما لاينبغى وفق مقام الـكلام » . ولعل قراءة البـارودى بحضرة المرصفى على هذا النسق من الدراسة الأدبية دون التعرض لدراسة قواعد النحو والصرف والعروض معه من كتاب، هى التى دعت المرصفى إلى أن يقول فى كتابه الوسيلة الأدبية :

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ص ١٢٦ .

(٢) فى الوسيلة الأدبية ج٢ ص ٤٧٤ . (٣) المقتطف مارس ١٩٠٥ .

« محمود سامى البارودى لم يقرأ كتابا فى فن من فنون العربية » ؛ لأن الواقع يثبت غير ذلك ، فقد قرأ البارودى فى دراسته الخاصة لعلوم المرحلة الابتدائية وفى المدرسة المفروزة — كما سبق أن أشرنا — بعض كتب النحو والصرف ، وإن كانت قراءة استظهار لا تنمى السليقة أو تفيد فى تقويم اللسان .

ومن شعر البارودى نفسه نستدل على أنه درس العروض وعرفه ليتقى مآخذ الشعر ويتجنب الوقوع فى الزلل ، لكنه لم يتعلم العروض أولا ليقول الشعر شأن العروضين فى عصره ، بل قال الشعر ثم التمس العروض ليتقن صنعته . ويدل على دراسته للعروض معرفته بمصطلحاته فى قوله :

لم تُبن قافيةٌ فيه على خَلَلٍ   كلا ولم تختلفْ فى وَضْعِها الجُمَلُ

فلا سنادٌ ولا حشوٌ ولا قلقٌ   ولا سقوطٌ ولا سهوٌ ولا عِلَلُ

ولا يعرف هذه المصطلحات العروضية إلا دارس لعلم العروض .

ونأى البارودى بنفسه عن أن يبدأ بداءة معاصرين ، فقد كانوا يأخذون من الطبقات الدنيا ، فينشأ الشاعر مثلها إذا كان موفقا ، أو يكون أدنى منها بحكم الطبع ، ولكن البارودى كان من صفاء الطبع والفطرة ونقاء الذهن وكمال الاستعداد ونصيحة أهل البصر بحيث وجد السبيل فابتدر الغاية ، وصوب سهمه إلى النجم ، واتخذ مثله من الشعراء الفحول . وفى ذلك يقول[١] .

مَضَى حسنٌ فى حَلْبة الشِّعر سابقًا   وأدرك لمْ يُسْبَق ولم يألُ مُسْلِمُ[٢]

---

(١) هذه الأبيات لم يسبق نشرها ؛ المخطوطة (س) ص ٢٤٤ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٢٤٩ .

(٢) حسن : أبو الحسن بن هانئ ؛ ومسلم : مسلم بن الوليد الأنصارى (صريع الغوانى) .

وَباراهُما الطَّائىُّ فاعترفَتْ لهُ ... شهودُ المعانى بالَّتى هى أَحْكَمُ[١]

وأبدعَ فى القولِ الوليدُ فَشِعْرُه ... عَلَى ما تراهُ العينُ وَشْىٌ منمنَمُ[٢]

وأدركَ فى الأمثالِ أحمدُ غايةً ... تَبِزُّ الخطَى ما بعْدَها مُتَقَدَّمُ[٣]

وَسِرتُ عَلَى آثارِهِم، ولَربَّمَـا ... سَبقْتُ إلى أَشْياءَ واللهُ أعلَمُ[٤]

ولم يكن سيره على آثارهم تقليدا لهم بالمعنى السيء ، بل أراد أن يجاريهم فى ميادينهم ليرد إلى الشعر جزالته ونصاعته ورصانته ، أما بعد ذلك فشخصيته فى شعره قوية بارزة ، شخصية تستكمل حريتها ، ولا تظهر باهتة فى ظل الأقدمين .

ولم تتكون قريحة البارودى الشعرية على الطريقة التى كانت سائدة فى عصره بين الشعراء العروضيين ، فقد كانوا ينظمون القصائد ويخوضون فى الشعر لأنهم كانوا يعتبرون النظم حقا أو واجبا على كل من تعلم العروض ودرس البيان والبديع وما إليهما من أصول الصناعة ، وهم كانوا يتعلمون هذه الأصول ويطبقون ما تعلموه فيما نظموه ، فكانت دواوينهم أشبه شيء بكراسات التطبيق فى معاهد التعليم ، بل كانوا يعتبرون الناظم وهو على غير علم بالعروض داخلا فيما لا يعنيه متطفلا على غير فنه[٥] . وإنما الشعر عند البارودى فيض تتفجر به مشاعره ، وينساب طبيعيا من عواطفه إلى أسلة لسانه فيترجمه تراكيب وصورا ، ويتدفق تدفق ضوء الصباح المشرق يفصل عن ذاته فيدل عليها ويشير إلى ملامحها وتنعكس فى مرآته صورة من حياته يتجلى فيها طابعه الخاص ،

---

(١) الطائى : أبو تمام حبيب بن أوس الطائى . (٢) الوليد : أبو عبادة بن عبيد البحترى .
(٣) أحمد : أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي . (٤) والله أعلم : فى المخطوطة (ج) الله أعلم
(٥) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ص ٨ — ٩ .

وتمتزج المرآة بالصورة امتزاج الروح بالجسد ، ويصبح طابع الشخصية ممثلا للشاعر في شعره . ولعل البارودى أشار إلى ذلك فى قوله :

أنا ابنُ قولى وحَسبى فى الفَخَار به وأنْ غَدوتُ كريمَ العمِّ والخَالِ
ولى من الشعر آياتٌ مفصلـةٌ تلوحُ فى دُجنةِ الأيّام كالخَالِ
فانظرْ لقولى تجدْ نفسى مصورةً فى صفحتيه فقولى خطُّ تمثالى

وشعر البارودى لم يكن من جهـد الصناعة أو من معاناة البديع وحيله وضروبه وألوانه ، بل كان صادرا عن طبع فنى أصيل . وكانت فى قرارة نفسه عين كامنة مالبثت أن وجدت منفذاً حتى تفجرت بالنور والجمال ، وظلت تفيض ولا تنضب وكلما استثارها أسعفته وأقبلت عليه كما يقول :

ويا طالمـا رُمتُ القَوافِى فأقبلَتْ سراعاً ، فلا أرْوَى ذَكَرْتُ ولا حُزْوَى
فَلاَ يحذُونَّ الناسُ حَذْو بلا غَنِيً فأقربُ مافى شأوهَا الغايةُ القُصْوَى

فطبيعة البارودى الأصيلة هى التى حركته لقول الشعر فينزع من قلبه وعواطفه ويجرى فيه نبضه وخفقانه ويفصل من دمه وشعوره وأعصابه وأفكاره فيمنحنا الفن والحق والجمال ، وإلى ذلك يشير :

أقولُ بطبعٍ لستُ أحتاجُ بعدَه إلى المنهل المطروق والمنهج الوَعْرِ
إذا جاشَ طبعى فاضَ بالدُّرِّ منطقى ولا عجبٌ فالدرُّ ينشأ فى البَحْر

وهو بذلك يعبر عن جوهر شعره وأساس مجده ، وتجد طبيعته الشاعرة فى الحياة وفى الحرب وفى العواطف وفى المتعة والألم ما يساعد نموها ويغذيها فى أطوارها المختلفة ، فيخرج شعره متين اللفظ رقيق الحاشية يتحدث إلى القلب

والروح . وقد أحس البارودى بكل ذلك وعبر عنه تعبيراً واضحاً فى قوله : « إن الشعر لمعة خيالية يتألق وميضها فى سماوة الفكر ، فتنبعث أشعتها إلى صحيفة القلب ، فيفيض بلألائها نوراً يتصل خيطه بأسلة اللسان ، فينفث بألوان من الحكمة ينبلج بها الحالك ويهتدى بها السالك [1] » ، أو كما يقول :

والشِّعر ديوانُ أخلاقٍ يلوحُ به ... ما خطَّهُ الفكرُ من بَحْثٍ وتَنقِيرِ
كمْ شادَ مجداً ، وكم أَوْدى بمنقبةٍ ... رَفْعاً وخفضاً بمَرْجُوٍ ومَحْذُورِ

وينأى البارودى بشعره عن أن يتخذه سبباً لمرضاة حاكم أو سبيلا إلى غاية عند أمير ، فلم يمدح به أحداً طلباً لمعروفه ، أو يقف به مع شعراء البلاط ينتظر الإذن بالإنشاد ، بل كان يرتفع بنفسه وشعره عن مقام الأمارة نفسه ، وفيه وراثة من مجد يبلغ به السماكين . وقد كان شعراء عصره يسخرون أشعارهم لمديح الحكام والأغنياء ، بل لم يكونوا يفهمون الشعر إلا أنه وسيلة للارتزاق فنادموا به ذوى اليسار والجاه ، وتهالكوا على الأبواب برقعهم وقصائدهم ، وانحطت مرتبة الشاعر حتى احتسب مع المرتزقة الذين يُطْعَمُون لوجه الله . والذين عَيّروا البارودى من أبناء طبقته لقوله الشعر ، إنما عيروه لأنه نزل فى نظرهم إلى هذه الطبقة المتكسبة من الندمان . وكان مبدأ البارودى واضحاً فى ذلك فقد قرر أنه يقول الشعر « لا تذرعاً إلى وجه أنتويه ، ولا تطلعاً إلى غنم أحتويه ، وإنما هى أغراض حركتنى ، وإباء جمح بى ، وغرام سال على قلبى ، فلم أتمالك أن أهبت ، فحركت به جرمى ، أو هتفت فسريت به عن نفسى [2] » .

---

(١) البارودى : مقدمة الديوان .

(٢) المصدر السابق.

وكان البارودى يجعل الشعر والشعراء على ضوء هذا المبدأ فريقين : فريق ارتفع بنفسه وارتفع به شعره ، وفريق نزل بالشعر إلى مواطن الزراية ، وفى ذلك يقول :

الشعرُ زينُ المرء مالم يكن وسيلةً للمــدح والذامِ
قد طالمَا عزَّ به معشرٌ وربمـا أزرَى بأقـوامِ
فاجعلْهُ ما شئت من حكمة أو عظـة أو حسبٍ نامِ
واهتفْ به من قبـلِ تسريحه فالسَّهمُ منسوبٌ إلى الرامى[1]

لم تكن جزالة العبارة وبهجة الديباجة ورصانة التراكيب هى كل الجديد الذى جاء به البارودى ، بل من الجديد الذى شد الأسماع لشعره ، ودعا إلى الإعجاب به معالجته الأدب التصويرى ، فعدســة عينيه اللاقطة تصور الواقع فى بساطة وسلاسـة وقوة تحس معها بإرسال النفس على سجيتها ، لأنه لا يتعمق ولا يعمد إلى التعقيد أو الغموض ولا يتكلف الاستعارات أو السير فى أخاديد البديع ودروب الصناعة ، وإنما يرسل نفسه على سجيتها إرسالا فيصور ماهو أمامه ، ويعبر عن عواطفه كما يريد أن يعبر الناس فلا يستطيعون . واعتماد البارودى على حواسه فى شعره صفة بارزة فيه وخاصة المنظور الذى ظل يزداد وضوحا مع الأيام ، وتزداد فيه الحركة والحياة بنوع خاص ، وهو حين يسجل الصور بألفاظه الموسيقية ، لم يكن يسجلها فى صمتها وسكونها على عادة عشاق الطبيعة الصامتة ، بل فى نشاطها وتحركها حتى ليخيل لقارىء شعره وسامعه أن الحياة تنبض فى كل جزء تقع عليه العين وتحيط به الباصرة .

---

(١) هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهى من الجزء المخطوط من الديوان ؛ المخطوطة (س) ص ٢٥٨ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٢٦٣ — ٢٦٤ .

وخرج شعر البارودى ينبىء أن ضعف الشعراء وقصورهم على طوال خمسة قرون لم يكن راجعا إلى قصور ذاتى فى اللغة ، وإنما يرجع إلى الجهل بها وعدم التزود بأساليبها الناصعة الشفافة التى لا تحجب معنى من المعانى ، فاللغة العربية ليست جامدة ولا محصورة فى متاهات البديع ، بل تلك كانت مرحلة عارضة ، تعرضت لها فى محنتها وضعفها حين تطورت الثقافة العربية فى العصور العثمانية إلى ثقافة الشكل والمظهر بعد أن اختفى منها الجوهر من إنتاج العقل والشعور ، ولو رجع الشعراء إلى مصادر الثقافة العربية الأصيلة لوجدوا فيها الحياة والقوة والجمال العقلى والفنى .

والبارودى كان على علم بالمسئولية التى ألقاها قدر الأدب العربى على عاتقه، وكان على بينة من أنه الرائد لنهضة ترد إلى الشعر العربى مقدراته وكان على بصيرة كاملة بأنه الملهم الذى وكل إليه إحياء القريض من الجمود الذى خيم عليه القرون الطوال ، والمعجز الذى عليه أن ينفخ فى الصور ليبعث الشعر العربى من مرقده . وفى ذلك يقول آخر أيامه :

أَحييتُ أنفاسَ القَريض بمَنْطقى ... وصَرعت فُرسَان العَجَاج بلَهْذَمِى

وفَجرتُ ينبوع البيَان بمَنْطِقٍ ... عذبٍ رويتُ به غَليلَ الحُوَّمِ (١)

نشـأَتْ بطبْعى للقَريض بدائعٌ ... ليستْ بنحلَةِ شـاعرٍ متقَـدِّمِ (٢)

يَصبُو بهَا الحكَمىُّ صبوةَ عاشقٍ ... وتَخِفُّ من طَرب عريكَةُ مُسْلِمِ (٣)

قومْتُهُ بعـد اعْوجَاج قَنَاتِـهِ ... والرمحُ ليسَ يَروق غيرَ مُقَوَّمِ

---

(١) الحوم : العطاش . (٢) النحلة : الدعوى .

(٣) الحكمى : أبو نواس ، الحسن بن هانىء بن عبد الله بن صباح (١٤٥ — ١٩٩ هـ) ومسلم : مسلم بن الوليد الأنصارى (صريع الغوانى) شاعر عباسى (٧٤٧ — ٨٢٣ م) .

فِقَرٌ يكادُ السحر يبلغُ بعض مَـا ... فى طيِّها لَو كان غَيرَ مُحرَّمِ

مُتشَابِهُ الطَّرفينِ يُنْبِيء صَـدرُه ... عمَّا تلاحق ، فهْوَ بَادِى المَعْلَمِ

أَحكمتُ مَنطقه بلَهجةِ مُفْلقٍ ... يَقظِ البديهَةِ فى القَريضِ مُحكَّمِ (١)

يَبتَذُّ أهبةَ كلِّ فارس بُهْمَـةٍ ... ويزمُّ شِقْشِقةَ الفَنيقِ المُقرَمِ (٢)

ذَلَّتْ منه غَوارباً لا تُمتَطى ... وخَطَمتُ منه مَوارِفاً لم تُخْطَمِ (٣)

شعرٌ جمعتُ به ضُروبَ محَاسِنٍ ... لم تجتمعْ قَبلى لحىٍّ مُلْهَمِ

فَإذا نَسبتُ فَتنتُ كلَّ مقنَّعٍ ... وإذا نأَمتُ ذَعرتُ كلَّ ملثَّمِ (٤)

كالروْض تسمعُ منه نغمةَ بلبلٍ ... والغِيلُ تسمعُ منهُ زأرةَ ضَيْغَمِ (٥)

منابع الشاعرية عند البارودى:

ظهر البارودى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فى عالم الأدب العربى ظهور المعجزة التى لم يسبقها إرهاص ينبيء عنها ، فأثار عجب الناس واستثار إعجابهم ، ومن حقهم أن يعجبوا وأن يستثاروا ، فقد كان الشعر العربى فى عصره ولخمسة قرون سبقته يتردَّى — إلا القليل النادر — فى حمأة الجمود والانحطاط بعد أن أجدبت القرائح وضاقت الآفاق ، وهوت موضوعات الشعر إلى الدرك من التأخر الفنى ، فلم تعد تتجاوز الشخصى التافه أو المعانى الضئيلة

---

(١) المفلق : الحاذق . (٢) الشقشقة : شيء كالرئة يخرجه البعير من فيه إذا هاج ؛ يزم : يخطم ؛ والفنيق : الفحل المكرم لا يؤذى ولا يركب لكرامته ؛ المقرم : المعلم من أنفه.

(٣) الغارب : الكاهل أو ما بين الظهر والسنام . (٤) نأم : يقال نأم الأسد أى صوت .

(٥) الغيل : الأجمة أو موضع الأسد أو الشجر الكثير الملتف .

هذه الأبيات لم يسبق نشرها ، وهى من الجزء المخطوط من الديوان ومن قصيدة عدد أبياتها ٥٤ بيتاً ؛ المخطوطة (س) ص : ٢٥١ — ٢٥٣ ؛ والمخطوطة (ج) : ص : ٢٥٧ ـ ٢٥٩ .

كالتهنئة بمولود ، أو تولى منصب ، أو قطع سد الخليج ، أو رثاء صديق ، وبعد أن فسد الذوق لفوا ذلك كله بأكفان الصناعة ومحسنات البديع ، وبعد أن قل نصيب شعراء تلك العصور من الثقافة اجتروا معانى السابقين واعتدوا عليه بالمسخ والتشويه .

وكان شعراء عصر البارودى وشعراء خمسة قرون خلت قبله بين فئتين : « فئة كان حظها من التثقيف ما أفادته من تعليمها التقليدى الشكلى ، وما حفظته من الأدب المثقل بالزخرف والزينة مما ظهر أثره فى ضآلة المعانى التى كانوا يستعملونها فى نظمهم وفى تكرار بعض الصور المألوفة عند شعراء الصنعة البديعية ، ومن ثم أصبح كثير من النشاط الشعرى فى تلك المراحل نوعا من التسلية الفارغة والتظرف والتندر الشخصى ، وإظهار البراعة فى رصف الألفاظ دون كبير طائل ، وصرف الجهد وإظهار الحذق فى تأليف الأشعار التاريخية التى تخلد حادثة من الحوادث . وكان من أثر ذلك كله أن طبعت الصناعة الشعرية بطابع من التفاهة والسطحية يبدو فى تفكك بناء القصيدة ، والتجاء الشاعر فى تنقله من غرض لآخر فى قصيدته إلى أنواع من التخلص عديمة القيمة الفنية ، كما يبدو فى عدم الإحكام اللغوى وفى عامية الأسلوب فى كثير من الأحيان[1] » .

أما الفئة الأخرى فقد اتجهت وجهة القصص والملاحم الشعبية المتوارثة يحفظونها ويزيدون فيها ، أو يبتكرون فى فن الزجل والموال ، يلقونها بأنفسهم أو يلقنونها من ينشدها على مسامع الجمهور فى القهوات والموالد والاحتفالات الشعبية وفى بيوت العمد وأعيان الريف . وكانت العامة تنصرف إلى فن هذه

---

(١) محمد خلف الله أحمد : معالم التطور الحديث فى اللغة العربية وآدابها (١٩٦١) ج ١ ص ٨٩ .

الفئة لقلة حظها من الثقافة ومن معرفة المحسنات البديعية التى أثقل بها الشعر الفصيح .

وفى الوقت الذى نحس فيه بانفصال شعر الفئة الأولى عن المجتمع وعدم تعبيره عن الحياة العامة فى البيئة المصرية ، نجد الفن الأدبى للفئة الثانية نابعاً من مشكلات الشعب وآلامه ، يعبر فى صدق وإحساس عن الحياة المصرية وما فيها من آلام وقسوة وشكوى من الظلم وأمل فى الخلاص من الاستبداد والاستغلال ، ذلك لأن الموهوبين من الأدباء الذين لم يجدوا التقدير والتشجيع فى المدن والعواصم لجهل الأغنياء وأعجمية الحكام زحفوا إلى الأحياء الشعبية والقرى واضطروا أن ينزلوا إلى المستوى اللغوى الذى يفهمه العامة والفلاحون ، وكان لا بد لهؤلاء الأدباء من أن يعبروا عما يحسه جمهورهم حتى يجدوا لديه الكرم وحسن الاستماع .

وجاء البارودى إلى هذا العصر وكان من صفاء الفطرة ونقاء الذهن وكمال الاستعداد والثقافة بحيث وجد السبيل فابتدر الغاية ، وطلع على عالم الأدباء بشعر شريف الغرض موفق الروى متلائم النسج حسن العرض مطروح العبارة إلى حيث تثير القلوب ، فكان الملهم الذى بعثته السماء ليخرج الشعر العربى من ظلمات الهاوية ، ويبعثه من جديد ، ويرد إليه روحه المتجددة ، ويعيد إليه فطرته السليمة وبهجة الديباجة وصحة التركيب . جاء البارودى وقد رزق الموهبة العاتية الصالحة للتفجير تحمل فى ثناياها القوة والقدرة على الخلق والتغيير ، وأعطى الملكة التى تمتلك أزمة الشعر بحيث تصرفه كما تشاء له مشاعره وكما يشاء له خياله . أوتى البارودى هذه الموهبة منة من الله وجزءاً من وراثة ، جاءته من

خال له سبقه فى نظم القريض[1] ، وظلت هذه الموهبة تفيض عليه طوال حياته ولا تفارقه كما يقول خليل مطران :

« تسامحت يوماً بدالة الود فسألته : أية حال من أحوال حياتك كنت فيها أميل إلى الشعر وأكثر اشتغالا به ؟ فأجابنى : إن خطرات الشعر صحبتنى فى أيامى كلها ، ولم تفارقنى إلا فى أقلها[2] » .

وكانت موهبة البارودى واستعداده لقول الشعر كالعين التى تفجرت ثم أخذت تغذيها ينابيع وروافد تصب فيها ليظل فيضانها لا ينضب ، واتذكى الشاعرية وتثرى الملكة وتصقل الاستعداد ، وتمده برصيد غنى بالعواطف تارة وبالثروة اللغوية أخرى . وكان من أهم هذه الروافد والينابيع :

ثقافته : وقد عرفنا فى فصل سبق ثقافة البارودى المدرسية فى المرحلة الابتدائية والحربية[3] ، وعرفنا رصيده من الثقافة اللغوية والشرعية والمدنية ، وكذلك ولعه بقراءة أمهات الكتب العربية ودواوين فحول الشعراء من السابقين وحفظه المئات من عيون قصائدهم كما يقول شيخه حسين المرصفى « ثم استقل بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من العرب وغيرهم حتى حفظ الكثير منها دون كلفة ، واستثبت جميع معانيها[4] » ، ولم يكن البارودى يقتصر على قراءة الدواوين وحفظها بل كان يدرسها دراسة أدبية ، « ناقداً شريف معانيها من خسيسها ، واقفاً على صوابها وخطئها ، مدركاً ما كان ينبغى وفق مقام الكلام

---

(١) أنظر ص ٦٥ ـ ٦٦ من الكتاب .

(٢) الجوائب المصرية لخليل مطران عدد ١٥/١٢/١٩٠٤ .

(٣) أنظر ص ٥١ ـ ٥٨ من الكتاب . (٤) الوسيلة الأدبية جـ٢ ص٤٧٤ .

ومالا ينبغى[1] » . وبلغ فى قراءاته للشعراء العرب درجة لم يبلغها أحـد من معاصريه أو ممن جاء بعـده ، ومختاراته التى تقرب من أربعين ألف بيت لثلاثين من خيرة الشعراء العباسيين[2] تدل على أنه قارىء استقصى دوادين شعراء العربية ليختار هؤلاء الشعراء من بينهم ، ثم درس دواوينهم وما فيها من أبواب الشعر المشهورة . وقد كان وهو فى وزارة الأوقاف — صاحب الدعوة إلى جمع المخطوطات من المساجد والتكايا والزوايا والمدارس ، وجمعها فى مكان واحـد لتضم إلى دار الـكتب ، وذلك لشدة شغفه بجمع النادر من المخطوطات وقد أتاح له يساره أن يقتنى الـكثير منها فى فروع المعرفة المختلفة من مصر والآستانه[3] .

وكان للتاريخ فى نفسه المكانة التالية لدواوين الشعراء ، فقد كان يعيش فيه مع قومه وآبائه ، ويطير بجناح الخيال ليحيي حياتهم ، ويصل مجده بمجدهم وقد بلغوا السما كين ، ودانت لهم الدنيا ، وكان يضرب فى بطونه بحثا عن نسبه وتحقيقا لتاريخ آبائه حتى استثبت فقال :

نَمَانِى إلى العلياء فرعٌ تأثَّلَتْ   أُرومتُه فى المجدِ وافترَّ سَعْدُه

وبذلك تغذت قريحته منذ نضارتها بالثقافة التقليدية ، وبروائع الشعر العربى الكلاسيكى ، وعاش فى صحبة العلماء والأدباء والشوامخ من الشعراء ، وغنيت ذخيرة خياله الفنى بكل رائق معجب من الصور والأساليب ، وأصبح جزءاً من ثروته اللغوية والأدبية ، وامتزجت به حتى صارت القـدرة على التعبير الأصيل طبيعة فيه .

---

(١) المصدر السابق .   (٢) صدرت تحت عنوان « مختارات البارودى » فى ٤ أجزاء .
(٣) معالم التطور الحديث ص ١٠٠ .

وتكاملت سليقته العربية بنفس الطريقـة التى كان يصطنعها الشعراء فى العصور القديمة ، وتسربت العروبة الأصيلة إلى أعماقه فطغت على جركسيته ، ولم تترك منهـــا إلا ظلالا باهتة تطفو كلما احتد مزاجه أو راوده هاتف الفخر والإباء .

ولم تكن الثقافة العربية هى كل ثقافته فقد قرأ الآداب التركية والفارسية ففتحتا له بعد أن تعلمهما مصاريع أبوابهما الثقافية ، ووجد فى معرفة هاتين اللغتين متعة لعقله وثروة لفكره ، واطلع بهما على عالم أوسع يزيد من خبرات الحياة ومن آفاق المعرفة عنده ، ولقحت ثقافته العربية بهاتين الثقافتين فتأثر وتوهجت شاعريته المستكنة فى أعماقه ، وغنيت قريحته بأفكار اللغتين ومعانيهما ، وأصدرت شاعريته عن هذا التأثر فظهرت ملامح من الثقافتين فى شعره . وانضم إلى هذه الثقافات ثقافة التجربة والممارسة للحيـاة ، فى شبابه وحروبه ورحلاته إلى تركيا وأوربا وخارج البلاد ، وفى مجال السياسة وفى غمار الثورة ، ثم واتته الفرصة ليمضى سبعة عشر عاما فى المنـفى ، قضاها يقرأ . . . يقرأ كل ماوصلت إليه يده من كتب علمية وأدبيـة ولغوية ودينيـة ، ويتعلم مبادىء اللغة الإنجليزية ويترجم بعض موضوعاتها .

« والفتوة » من الروافد التى أثرت موهبة البارودى وأورت شاعريته ، وآثار البارودى وتاريخه وخلقه تشهد بأنه كان من أكابر « الفتيان » ، وفتوته فتوة أصيلة تأخذ وقودها من القلب والروح ، فهى التى أشقتـه بالجد ودفعتـه إلى الثورة على الظلم والاستبداد بعد أن شاك مسمعه أنين الجور ، وحل عرى جفنه رؤية وجه الغدر ، وهى التى أشقته بالناس وبالدنيا .

وقد مجدت فتوة البارودى « الفتوة المصرية » حين غنى بالحنين إلى روضة

للقياس ، وشدا بصبوات القلوب على شواطىء النيل ، وصدح بذلك فى عصر كان الغزل فيه فنا لا يليق بعظماء الرجال ، فكان بذلك أول شاعر فى العصر الحديث يجعل لشطآن النيل عند المحبين مكانا فى ضمير الوجود ، وليس هناك أطرب للنفس ولا أشد إسعادا لها من التغنى بأوطار الأرواح فى مثل معاهد الجيزة والجزيرة والروضة وشبرا وحلوان ، وهى مغان جهل جمالها الشعراء ، وندر فيهم من خرج إليها ليقف على سر الإبداع والطبيعة والجلال .

وفتوة البارودى هى التى جعلته فى حبه فتى فاتك الصبوات فى قدسية وجلال ، عرف فى الحب شريعة وجدانية فلم يتردد فى اعتناقها ولو كان رئيس وزراء ، ونظر إليه بعقلية « الفتى » فوجده جذوة روحية تصل صاحبها بسرائر الوجود وترفعه إلى أوج الخلود ، وليس نزوة شباب يطلب منها المتاب . وهى التى جعلته فى مجالس الشراب فارسا يستمتع بالصحاب والساقى والشراب قبل أن يناديه داعى الحرب فيذهب وقد لا يعود ، وينتهب اللذة مع وفر فى عرضه وطهارة فى خلقه قبل أن يصبح الطير الأضاميم لحده .

وننظر إلى صفحة أخلاق البارودى فنجدها أنصع صفحات « الفتوة » عنده ، صرامة فى الإرادة والعزيمة ، وحب للوفاء ، وبر بالعهد والوعد ، ورفق بالقريب والبعيد ، وعفة نفس ترتفع عن الريب ، وحب للعدل والإخاء ، وبغض للنميمة والغدر والمداهنة ، وكل مايشين النفس ويزرى بالفضيلة . وننظر إليه رجل سياسة وثورة فنراه « فتى » لايقبل أن يتنصل من تبعة الثورة فيتهم غيره لينجو بنفسه ويسلم من الأذى وينقذ أمواله الطائلة وأملاكه الواسعة ، وتأبى عليه فتوته أن يقف هذا الموقف البغيض ، وشارك إخوان المعركة وزملاء الجهاد ضراءهم بعد أن شاركهم سراءهم ، واستسلم لحكم القضاء فى سبيل الوفاء . وننظر إليه منفيا

حريداً فنجده « فتى » لايرضى أن يذل بالاستعطاف وطلب العفو ، ولا تسمح له نفسه أن يتوب عن الغطرسة أو ينزل عن كبريائه ، فيقول وهو فى عذاب النفى وألم الاغتراب .

عفاء على الدنيا إذا المرء لم يعش بها بطلاً يحمى الحقيقةَ شدُّهُ
وإنى امرؤ لا أستكين لصولةٍ وإن شدَّ ساقى دون مسعاى قَدُّهُ

ويصبح البارودى بفتوته العربية الأسطورة المصرية فى القرن التاسع عشر ، والفارس العربى فى العصر الحديث . ويعرف بالأمير عند صحبه ومعارفه ، فقد كانت الأريحيـة المصرية ملء برديه ، وكان بطبيعة نفسه من الأمراء بغض النظر عن مجده الموروث .

وثالث الينابيع التى صبت فى معين موهبة البارودى فغذتها وأورت شاعريته بلهيبها ، ميراثه من « العنصر الشركسى » ، ذلك الذى جعله حاد المزاج سريع الثورة والغضب متطرفا فى الحب والـكره ، فتورى موهبتـه كلما طارت به فورة شركسيته ، وهى التى مدت له فى آفاق الأمل فجعلته يربط مجده بأمجاد السالفين من آبائه فيصوب سهمه إلى الثريا ، ويرنو إلى المطلب الصعب ويهفو إلى مكان المجد من خديوية مصر ، وهى التى ملأت عطفيه شعورا بذاته حتى لتكاد ترى ضمير « الأنا » فى كل قصيدة بله فى كل بيت من شعره . وارتقى فى التعبير عن الشخصية حتى أبرز لنـا متاهات نفسه وأخرج لنا مكنون القدرات المستورة فى أعماقه من حس ، ولذة ، وغضب ، وبغض ، وحب ، وثورة ، وعذاب ، وألم .

فخر البارودى على الأقران بغار النصر الذى أحرزته فروسيته ، وتاه بما حشدته نفسه من شيم نبيلة تأبى الدنايا ، وعزمة ترد لهام الجيش وهو يمور ، وخلق كريم يزينه الوقار ، وحلم كريم يكظم به غيظه إلا عن الدنية ، وهمة صعدت به إلى الآفاق العلا . ومن الأنغام التى شدا بها وقد جمع فيها بواعث فخره قوله :

وَإِنِّى أمرؤٌ لولاَ الهوى ما وجدتَـنِى أدينُ لغير الله أو أرهبُ العُدْوى[1]

بَعيـدُ مَناطِ الهمِّ تُرهَبُ صولَـتِى إذَا مادجى خَطبٌ ، وبادِرَتى تُرْوَى[2]

لِسَانِى خَلُوبٌ فى الجدال ، وصارمى رَسوبٌ ، ورَأْيِى فى سَماءِ الضُّحى أَضْوَى[3]

وعِنْدِى إذَا مَا الحربُ ألقتْ قِناعهَا عزيمةُ ليثٍ ما تُهَرُّ وما تُعْوَى[4]

وحِلمُ كريمٍ يمـلأُ الغيظُ قلبَـه فيكْظمُه ، والحِلمُ أقربُ للتقْوَى

وَعفـةُ نفسٍ لا تُزَنُّ بريبَـةٍ وجودٌ به ظلّت عفاةُ النَّدى تُرْوَى[5]

وَلِى همـةٌ لولا العوائقُ مهَّدَت يدُ المجد فى أُفق السَّماءِ لهَا مثْوَى

بلغتُ بها بعضَ المُنَى غيرَ أنَّـنِى جديرٌ بأن أحْوِى بها كلما أهْوَى[6]

فإنْ سادَ غـيرى بالجُدودِ فإنَّـنى بهم وبفَضْلِى رِشتُ سهمِى فما أَشْوَى[7]

وليْسَ علوُّ النفس بالجَدِّ وحـدَه وليس كمالُ المرء فى شَرف المَأْوَى

إذَا حركَتنى نَحْوَ أرضٍ وتـيرةٌ ركِبتُ لها عَزمى وإنْ بعُدَ المَهْوَى[8]

فإن كانَ سوَّى الدَّهرُ بينى وبين مَنْ أَرَى مِنْ بَنِيهِ فى الحُظُوظِ فمَا سوَّى[9]

وإنِّى إذا مَا الخَطبُ أمقر طَعْمُهُ نَبذتُ به رأياً ألذَّ من السَّلْوَى[10]

أصبتُ كُلَى الأحداثِ حتى تركتُهَا عَلَى جمرات الغَيظ تَأْمُورُهَا يُشْوَى[11]

وَصُغْتُ مِنَ السِّحرِ الحَلاَلِ قَصَائداً تَظلُّ[12] بها نفسُ المُعيدِ لهَا نَشْوَى

---

(١) العدوى : الظلم . (٢) البادرة : الحدة ؛ تروى: تتثاقل (٣) اللسان الخلوب : الذى يفتن بلطف الكلام ؛ والصارم الرسوب : الذى يغيب فى الضريبة . (٤) ماتهر وما تعوى : ما تستضعف . (٥) لا تزن بريبة : لاتتهم بشك ؛ عفاة الندى : طالبوا الفضل أو الرزق .

(٦) أحوى : أمتلك وأحرزعن استحقاق وجدارة . (٧) راش سهمه : ألصق عليه الريش استعدادا للرمى ؛ فما أشوى : فما أخطأ . (٨) الوتيرة : الانتقام .

(٩) فى المخطوطة (ج) الحضوظ . (١٠) أمقر طعمه : صار مرا ؛ السلوى : العسل .

(١١) تأمورها : وعاؤها . (١٢) فى المخطوطة (ج) يظل.

فَمَا قَيَّدتْنِي لفظةٌ دونَ حكمـةٍ ولا عزّنِي قولٌ فملتُ إلى الدَّعْوَى

ويا طالمَا رمتُ القَوَافِي فأقبلَتْ سراعاً،فلا أرْوَى ذَكَرتُ ولا حُزْوَى[1]

فَلاَ يحذُونَّ النـاسُ حَذْوَ بلاغَتِي فأَقربُ مافى شأوها الغايةُ القُصْوَى[2]

ويفتن البارودى عنصر الشركسية فيه بالمجد والفخر أعنف الفتون ، حتى « تصبح آماله أوسع من رحاب مصر[3] » ، وحتى يصبح محمود الجلال كأنه على كل نفس فى الزمان أمير ، ويمتزج الفخر بروحه أو يصير خلاصة روحه العالية الوثابة . وليس بغريب أن يلازم الفخر شاعرنا البارودى طوال حياته ، فى قوتها وفى ضعفها ، فى مجدها ويوم أن وقع به طائره ، فقد كان الفارس الشاعر :

يختالُ طوراً فوقَ ذِرْوَةِ مِنْبَرٍ ويكر طوراً فوق مُهرٍ شَيْظَمِ

فإن فارقه سيفه فى ظلمة حياته ، فقد ظلت قيثارة الشعر تصادقه وتعزف له حتى يتسنم الذروة بين الشعراء فيقول :

أحكمتُ مَنطقَهُ بلَهجة مُغْلِقٍ يقظِ البَديهَةِ فى القَرِيضِ مُحكَّمِ

شِعرٌ جمعتُ به ضروبَ محاسنٍ لَمْ تَجْتمع قبـلى لِحِيٍّ مُلْهَمِ

ونمير آخر من الفخر والتيه يأتيه من تحدر الوراثة ، فقد كان آباؤه غُراً ميامين ، حكموا مصر ودانت لهم سوريا ، وكانت تتفزع الأفلاك حين يستل منهم سيد غرب سيفه ، والبارودى منهم والعود يتبع أصله ، ويصله بعليائهم فرع تأثلت أرومته فى المجد وبذلك يدركه من أطرافه فيقول :

---

(١) أروى : قرية بمرو أوماء بطريق مكة ؛ وحزوى : موضع

(٢) هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهى من الجزء المخطوط من الديوان من قصيدة عدد أبياتها ٣٦ بيتا عنون لها بقوله « وسأله بعض أصدقائه أن يوازن قصيدة البحترى التى أولها :

لنا أبداً بثٌّ نعانيه فى أروى وحُزوى، وكم أدنتك من لوعة حزوى »

المخطوطة (س) ص ٣٠١ – ٣٠٢ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٣٠٧ . ٣٠٨

(٣) المقتطف ١/٢/١٩٠٥ .

أدركتُ ناصيةَ المحامد والعُلاَ ... وشأوتُ فيها كلَّ أصْيَدَ مُشْئِمِ[1]

فأنا ابنُ نفسى إنْ فخرتُ وإنْ أكُنْ ... لِأعزَّ مِنْ سَلَفِ الأكارِمِ أنتمِى[2]

ولا نتجنى على الحقيقة إذا قلنا إن أكثر شعر البارودى كان فخراً ، وأن الفخر كان أبرز غرض فى شعره وخيره إجادة ، وكانت تسوقه فى أحيان كثيرة ريح التيه حتى تصل به إلى حد الغرور وذلك فى مثل قوله :

بلغتُ علاً لا يبلغُ النجمُ شأوَها ... إذا هُوَ لم يَنهض لها بقَوادِمِ

فأيةُ أرضٍ لم تَجُبْها سوابقى ... وغمرةِ بَأسٍ لم تَخُضْهَا صَوارِمِى

وما الليلُ إلا هبوةٌ من كتائبى ... ولا الشهب إلاَّ لمعةٌ من لهاذِمِى[3]

ومن جيد فخره بنفسه وجدوده الذين خاضوا الحروب وتسنموا ذروة المجد وحموا بسيوفهم الإسلام وبلاد المسلمين قوله :

فى قائمِ السَّيف إن عزَّ الرضى[4] حَكَمَ ... فالحكمُ للسيف إن لم تصدع[5] الكَلِمُ

تأبى لىَ الضيمَ نفسٌ حرةٌ ويدٌ ... أطاعها المرهفان السيفُ والقَلَمُ

وعَزْمَةٌ بعثتها همةٌ شَهَرَت ... بها على الدهر عَضْباً[6] ليس يَنثلِمُ

وفتيةٌ كأسُودِ الغابِ ليس لهم ... إلاّ الرماحُ إذا احمر الوغى أجَمُ

كالبرقِ إن عزموا ، والرعد إن صَدَمُوا ... والغيثِ إنْ رَحموا ، والسيلِ إن هَجَموا

---

(١) ناصية : فى ا لمخطوطة (ج) قاصية ؛ الأصيد : الذى يرفع رأسه كبراً .

(٢) هذه الأبيات الخمسة لم يسبق نشرها . المخطوطة (س) ص ٢٥٢ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٢٥٨

(٣) هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهى من قصيدة عنوانها « وقال يفتخر » وعدد أبياتها ١٢ بيتا ، المخطوطة (س) ص٢٤١ ؛ والمخطوطة(ج) ص٢٤٧ .

(٤) فى المخطوطة (ج) الرضا .　　(٥) « لم » . غير موجودة فى المخطوطة (ج)

(٦) « عضبا » . غير موجودة فى المخطوطة (ج) ومكانها فراغ .

إنْ حَارَبوا معْشراً[1] فى جَحْفل غَلبوا   أوْ خاصموا فئةً فى مَحْفِلٍ خَصَمُوا[2]

لا يرهَبُونَ المنايا أنْ تَلُمَّ بِهِم   كأن لُقْيَا المنايا عنـــدَهم حَرَمُ

مُرَفَّهُون حِســـانٌ فى مجالسهم   وفى الحُرُوبِ إذا لاقيتَهم بُهُمُ[3]

مِنْ كُلِّ أزْهَرَ كالدِّينــار غُرَّتُه   يَجْـلُو الـكريهةَ منه كوكبٌ ضَرِمُ[4]

ماتوا كراماً ، وأبقَوْا للعـلا أثراً   نالت به شَرَفَ الحـريةِ الأمَمُ[5]

ورافد رابع انساب فى موهبته فأغناها بالصور والعواطف والانفعال ، ذلك هو « الحرب » . فامتشاقه الحسام ليخوض المعارك فى كريت ، أو ليواجه الجيوش فى فجاج الأراضى البلغارية والروسية ، أو ليلقى العدو منفرداً فى معركة القصاصين قد أذكى شاعريته فأمدتنا بدرره الخالدة . « وحائية[6] » البارودى « ودااليته »[7] فى وصف الحرب الروسية ، «ودالية» أخرى[8] «ونونيته» فى وصف الحرب بجزيرة كريت[9] ما زالت كل قصيدة منهـا أعجوبة من عجـائب الشعر العربى فى ، ولو سمعهـا أبو فراس لسجد لهـا سجدة الإجـلال والإعجاب . وقصائده الأخرى فى الحرب تدلنا على أن روحه وشاعريته كانتا تتجاوبان معه فى المعارك فتمنحه الاقباس التى لا تصدر إلا عن الفرسان الصناديد ، وتظهر فروسيته حتى فى الهزيمة فلا يكون إلا آخر المنسحبين حين يكون الثبات أمام العدو تهوراً وجنوناً[10] .

---

(١) فى المخطوطة (جـ) معشر .

(٢) خصمه : غلبه فى الخصومة .   (٣) جم بهمة : الشجاع الذى يستبهم مأتاه على أقرانه .

(٤) الأزهر : المشرق الوجه ؛ كوكب ضرم : متوهج كالنار .

(٥) هذه الابيات لم يسبق نشرها هى من الجزء المخطوط من الديوان من قصيدة تحت عنوان « وقال يفتخر » وعدد أبياتها ١٨ بيتا ؛ المخطوطة (س) ص٢٥٨–٢٥٩ ؛ والمخطوطة (جـ) ص٢٦٤–٢٦٥ .

(٦) الديوان (الجارم) جا ص ١٠٦–١١٥ .   (٧) الديوان (الجارم) جا ص١٦١–١٧٦ .

(٨) المصدر السابق ص١٥٦–١٦١ .   (٩) الوسيلة الأدبية ص٤٩٦ .

(١٠) انظر : ص ٢٤٧ من الـكتاب .

وكانت الحرب عند البارودى سبيل المعالى وطريق المجد ، ومن ثم هام بها واشتاق إليها ، فهو المولع بالمجد والمفتون بالمعالى ، واستعذب فى سبيلها مذاق الموت وهو كريه ، وتلذذ بآلام القتال وهى مهلكة كما يقول :

وإنَّ التى يَشتاقُها القلبُ غادةٌ   لهـا الرمحُ قدٌّ والمهنَّدُ مِعصَمُ

إذا راسَلتْ كانت رسالةُ حبها   بضرب الظُّبَا توحى وبالطَّعن تُعجَمُ

لها مِنْ دماءِ الصِّيد فى حَومَةِ الوَغى   شرابٌ ، ومن هَامِ الفوارس مَطعَمُ

عَلِقْتُ بها ، وهْىَ المعَالى ، وقلَّما   يهيمُ بهـا إلاَّ الشجاعُ المصمِّمُ

هَوًى ليس فيـه للمَلامةِ مَسْلَكٌ   ولا لامرىءٍ ناجَى به النَّفسَ مأثمُ

تلذُّ به الآلامُ وهى مُبِيرَةٌ   ويحلُو به طعْمُ الرَّدَى وهْوَ علقَمُ

فمَنْ يَكُ بالبيض الكواعب مُغرَماً   فإنِّىَ بالبيض القَوَاضِبِ مغرمُ

أنا المرء لا يَثنيهِ عمـا يرومُه   نهيتُ العدا ، والشرُّ عريانُ أشأَمُ

أُغيرُ على الأبطال والصبحُ أشهَبُ   وآوى إلى الضِّيفَانِ والليل أدهَمُ

ويَصحبنى فى كلِّ روعٍ ثلاثةٌ   حسامٌ وطِرْفٌ أعوَجىٌّ ولَهذَمُ

ويَنصرنى فى كل جمعٍ ثلاثةٌ   لسانٌ وبُرهانٌ ورأىٌ مُحكَّمُ

فمـا أنا بالمغمور إن عَنَّ حادثٌ   ولا بالذى إن أشكلَ الأمرُ يُفحمُ [١]

وهو فى مواقعه ومعاركه لا ينسى مواقع هواه ومغانى صباه ، من ملاعب الجيزة والروضة والمقياس وحلوان ، ويتشوق لمصر بروح ندر أن يتحدث بمثلها

---

(١) هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهى من الجزء المخطوط من الديوان من قصيدة عدد أبياتها ٣١ بيتا . المخطوطة (س) ص٢٦٢ ؛ والمخطوطة (ج) ص٢٦٦ .

أحد من الشعراء الذين سبقوه إلى الحديث عن البعيد من معاهد وجدهم وملاعب صباهم ومغانى أوطانهم .

وخامس الروافد الذى أمد شاعريته بفيض لا ينفد من النور هو « مصر » تلك التى فتنته بحبها طوال حياته فتدله فيها حتى أصبحت « فاتنته الكبرى » وكانت له كما يقول :

بلدٌ[1] نشأت مع النّبات بأرضها ولَثَمْتُ ثغرَ غديرها المُتَبَسِّمِ
فنسيمُها روحى ، ومعدنُ تُرْبِها جسْمِى ، وكوثَرُ نيلها مَحْيَا دَمِى
هىَ جنةُ الحُسن الّتى زهراتُها حورُ المَهَا ، وهَزَارُ أيكَتِهَا فَمِى[2]

وقليلا ما نجد شاعراً عربياً تغنى بوطنه وغنى له كما فعل البارودى . كان يشتاق إلى مصر وهو منها قريب ، يستمتع بكل ما فيها ولا يمل المتعة ، ويصف جمالها وجناتها الفيحاء ورياضها الزاهرة ، وقطنها الملوز والمنور ونيلها الخالد فلا يمل الوصف ، ويتغنى بمعاهد الهوى على ضفاف النيل ولا يكف عن الغناء ، فيقول فى روضة المقياس على النيل :

ألا حَىِّ بالمقياس ربْعَ المعالِمِ وَقِلْ لهَا مِنَّا تحيةَ قَادمِ[3]
أحَاطَتْ بها للنِّيلِ من كلِّ جَانبٍ جداولُ تسقيه سُلافَ الغَمائمِ
تَدورُ مدارَ الطّوق من حيث تلتقى مسيراً وتنصلُ انسلالَ الأراقِمِ
إذا ضَاحكتها الشَّمس رَفتْ مُتونُها رفيفَ الثّنايا خلفَ حُمر المباسمِ
وَإنْ سلسلتها الريحُ أبدت سبائكاً مقدرةً كالوشم فوْقَ المَعاصمِ

---

(١) فى المخطوطة (ج) بلد . (٢) هذه الأبيات لم يسبق نشرها ؛ المخطوطة (س) ص١٠٢ ؛ والمخطوطة (ج) ص٢٥٧ . (٣) قل الأمر من قل قلا : احمل .

تجوسُ خلالَ الباسقاتِ وَتَنتهى ... إلى ساعدٍ فى غَمرة النيل سَاجِمِ [١]

تَرَى حَوْلَهَا الأشجارَ وَلْهى مُكِبَّةً ... عَلَى الْمَاء فِعلَ الصَّادياتِ الحوَائمِ [٢]

وَمَنبعِثَاتٍ فى الهَـــوَاءِ كأنَّها ... بيارقُ لَهْـوٍ ركِّزتْ فِى المَوَاسِمِ

مِنَ اللاء قد آلَيْنَ يشربْنَ ، أو تلى ... مَنَابتُها غورَ البِحَـارِ الخَضَارِمِ [٣]

إِذَا لاَعبت أعرافَهَا الريحُ خِلْتَهَا ... فَوارسُ تَعصُو بالسُّيوفِ الصَّوارِمِ [٤]

يلوحُ بهـا طلعٌ نضــيدٌ كأنَّه ... فـرائدُ سـاوَى بينهَا كفُّ نَاظِمِ

إِذَا ما أتى ميقاتُهـا وَتضرَّجَتْ ... حسبتَ عقيقاً فى صِحَافِ الـكمائِمِ [٥]

مَسَارحُ لَهوٍ لوْ رأى الشِّعْبُ حُسْنَهَا ... لَعـضَّ عَلَى مَا فَاتَهُ بالأبَاهِمِ [٦]

فإذا ما نأى عن «مصر» إلى حرب حن إليها والتاع لفراقها ، وبدت له خيالات معالمها ومغانيها بين لمعان الأسنة وضرب اللهاذم ، وذكره بها كل برق يبدو من ناحيتها ، وحملت إليه عبق شميمها الخالد كل شمـالية رخاء تسعى إليه من جهتها .

كانت فاتنة البارودى الكبرى في شبابه حيث عاش بين رحابها أجمل أيام عمره ، وكان فتى فاتك الصبوات وابن كأس ولذة ، شغف بها وبأمجادها القديمة القريبة التى تتصل به بسبب قريب ، وقد كان لأهله فيها سهم موفور حين رفعوا رايات النصر المصرية على الشام والأناضول ، ويوم صـدوا هجمات التتـار وألقوا

---

(١) ساجم : سائل منصب .   (٢) الصاديات الحوائم : العطاش .

(٣) غور البحار : قاعها ؛ والبحر الخضرم : كثير المـاء ؛ آلين يشربن : لا يشربن .

(٤) تعصو بالسيوف : تضرب بها .   (٥) الـكمائم : الأغلفة التى تحيط بالتمر أو الطلع فتستره ثم تنشق عنه .   (٦) هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهى من قصيدة عنوانها « وقال يصف روضة المقياس » وعدد أبياتها ٢٨ بيتا . (المخطوطة) (س) ص ٢٣٣ ؛ والمخطوطة (ج) ص٢٣٨ . والمراد بالشعب هنا شعب بوان . وهو موضع كثير الشجر والمياه فى بلاد العجم يعد من جنان الدنيا .

بالصليبيين فى البحر المتوسط وشغف بمجدها الموغل فى القدم ، فأنشد للفراعين وشاد بمجدهم ، وتغنى بآثارهم الخالدة وعلومهم التى بقيت شاهدة على حضارتهم، فكان أول من تصدى لتيار الكراهية التى غرسها فينا الوهم الدينى والتفسير الخاطىء لقصص الرسل ، حيث أخذ الفراعنة جميعاً على مر العصور بجريرة فرعون واحد لم يؤمن بموسى ! كان البارودى أول من حول تيار الكراهية عنهم ، واستبدل به تيار التقدير والإجلال لعلومهم ومآثرهم على الإنسانية ، ومن قوله فيهم :

فَانظر إلَى الهَرَمينِ المَاثلين تَجِدْ غرائباً لا تَراها النَّفسُ فى الحُلُمِ
صَرحان ما دَارت الأفلاكُ منذُ جرت على نَظيرِها فى الشَّكل والعِظَمِ
تضمَّنا حِكَماً بادتْ مصادرُها لكنَّها بقِيَت نقشاً على وَضَمِ [(١)]
فكم بهَا صورٌ كَادَتْ تُخاطِبُنَا جهراً بغير لسانٍ نَاطِقٍ وفَمِ
تَتلُو « لِهرْمِسَ » آياتٍ تَدل عَلَى فضلٍ عَميمٍ ومجْدٍ باذِخٍ القَدَمِ [(٢)]
آياتُ فخرٍ تَجَلِّي نورُها ، فغدت مذكورةً بلسان العُرب والعَجَمِ
ولاَح بينهما « بَلهِيبُ » متَّجهاً للشَّرق يلحظُ مجْرى النِّيلِ من أَمَمِ [(٣)]
كأنهُ رابضٌ للوثب منتظرٌ فَريسةً ، فَهْوَ يرعاها ولَمْ يَنَمِ
رمزٌ يدلُّ عَلَى أنَّ العُلُوم إذَا عَمَّت بعصرٍ نَزَتْ من وَهْدَةِ القِدَمِ [(٤)]

تغنى البارودى بذلك كله فأصبح شعره صورة للبيئة المصرية فى عصره ، تلك التى عاش فيها ونعم بها فأحبها وأغرم بهواها .

---

(١) الوضم : خشبة الجزار يقطع عليها اللحم . (٢) هرمس : الاسم اليونانى للاله المصرى « طوت » . (٣) بلهيب : أبو الهول . (٤) هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهى من قصيدة عدد أبياتها ٣٧ بيتا . المخطوطة (س) ص٢٢٤ ـ ٢٢٥ ، والمخطوطة (ج) ص٢٢٩ ـ ٢٣٠ .

وكانت « مصر » فاتنته الكبرى فى رجولته يوم ثار من أجلها وهى ترزح تحت نير الظلم وعبودية الاستبداد ، فنادى بالثورة ليخلصها من الإرهاق والفساد . ثم كانت فاتنته الكبرى يوم انضم إلى الثورة فى زحفها المقدس ، ويوم رفع راية العصيان فى وجه الرجعية وطلائع الاستعمار ، وخاض من أجلها غمار الحرب . وذاق الهزيمة وظلمة السجن والهوان ، فكان الرائد للشعر السياسى فى العصر الحديث ، والروح الناطقة بكل أحداث مصر فى الزمن الذى عاش فيه . وكانت فاتنته الكبرى هى سبب نكبته يوم قدم نفسه وماله وأهله قرباناً فى سبيل الدفاع عنها . وحين تنقل مصيرها من الخيط الأبيض إلى الخيط الأسود ولفتها أثواب الحداد على حريتها وضحاياها ، انتقل حظه من السعد إلى النحس معها ، وطوحت به الأقدار بعيداً عنها يعيش فى جحيم النفى والاغتراب سبعة عشر عاماً ، يتفطر قلبه أسى ولوعة لبعده عنها ، وتذوب مشاعره حنيناً إلى مصر فيبكى فرقتها بدموع الألم . ويتخطف الموت أهله وولده وصحبه على البعد ، ويموت على مرأى منه من لا تتحمل صحته الطقس الاستوائى من زملاء النفى ورفقاء الشقاء والغربة ، ويهجمه المرض فى المنفى فيخشى أن تكون النهاية قبل التلاقى ، وأن يموت غريب الدار والوطن فيتمنى القرب من وطنه ، ويكثر فى التغنى ولكن الأقدار تمعن فى الصد عنه ، ويظل يساوم فى تمنيه حتى يبلغ به الشوق إلى قطرة من ماء مصر وضجعة فوق ثراها ، فيقول :

يا حبَّذَا جُـرَعةٌ من مَاءِ محْنِيَةٍ وضجعةٌ فوقَ بَرْدِ الرمل بالقَاعِ

ويصب ذلك العـذاب والمعاناة والألم العبقرى فى معين موهبته فتضطرم بالأنغام الحزينة تعزفها له ربة الشعر ، فتخرج أقباساً تظـل خالدة على ضمير الزمن شاهدة على حب البارودى لمصر ، ومن عذب مناجاته لوطنه قوله :

وَأطولَ شوقى إليكَ يا وَطَنُ   وإنْ عَرتنى بحبِّكَ المِحَنُ
أنتَ المنى ، والحديثُ إنْ أقبل الصُّبـ   ـحُ ، وهَمِّى إنْ رنَّق الوَسَنُ[1]
فَكيفَ أنسـاكَ بالمغيبِ ، ولِى   فيـكَ فـؤادٌ بالودِّ مُرتَهَنُ
لستُ أبالى إنْ سلمتَ على الدَّهـ   ـرِ إذَا مَا أصَابنِى الحَزَنُ[2]

والرافد السادس الذى استثار شاعرية البارودى وفجر لها نميراً من الصور والأحاسيس فغنت وعلت الحمام الأغانى هو « الحب » . فقـد صاغ تجاربه العاطفية صوراً يصف فيها الجمال الذى يستمتع به والشعور الذى يخامر قلبه من سعادة وعذاب وهجر ووصال ، ويشدو بها على قيثارة شعره ويخرجها إلى الحياة فتبقى .

وقد تنقل قلب البارودى فى هوى الغيد الحسان وكابد الغرام الحقيقى مع أكثر من حبيبة فى سنوات شبابه ، فـكانت هنـاك « ظبية المقياس » و « مهاة شبرا » و « غزالة الجزيرة » و « ليلى حلوان » ، تصله واحـدة فيطرب ، وتمطله أخرى فيتعذب ، وتعرض ثالثة فيفديها بنفسه ، وترحل رابعة فيحيل رحيلها حلاوة الحب ألما والتياعاً . وإذا ما نعم بحلاوة الحب سال نغماً يتدفق سلاسة وجمالا ، وإذا عذبه الصد صـاغ الألم فى عواطف لاذعة تظهر لوعته وأساه . ونقرأ غزليات البارودى الحقيقية فتنفذ إلى قلوبنا ، وتصل إلى أعماقنا ، وتتجاوب معها مشاعرنا ، وتشركنا فى آلام نفسه وملذات قلبه لأنه يصور واقعاً تنبض به أحاسيسه ويذوب لها قلبه[3] .

---

(١) رنق النوم فى عينيه : غشيهما ؛ والوسن : ثقلة النوم .

(٢) هذه الأبيات لم يسبق نشرها وهى من الجزء المخطوط من الديوان من قصيدة تحت عنوان « وقال وهو بسرنديب يتشوق إلى الوطن ويذكر صديقاله » وهى ٢٧ بيتا . المخطوطة (س) ص٢٧٦ ـ ٢٧٧ ؛ والمخطوطة (ج) ص٢٨٢ ـ ٢٨٣ .

(٣) لمزيد من التفصيل عن حب البارودى وغزلياته أنظر ص ١٠١ ـ ١١٣ من الـكتاب .

مذهب البارودى فى الشعر :

كانت دواوين الفحول من الشعراء القدامى معين الثقافة الفنية التى نهل منها البارودى واغترف ، وكان شعرهم المثل الذى احتذاه ، والنمط الذى نسج على منواله . ومن الطبيعى وقد سلك البارودى الطريقة المثلى للثقافة الفنية فى الشعر — فقرأ الكثير ، وحفظ المئات من القصائد ، واستصفى لنفسه الجزل من تراكيبها ، والشهير من موضوعاتها ، والناصع من عباراتها وصورها ، والبديع من معانيها ، وما جرى على ألسنة شعرائها من خواطر وتشبيهات — أن يعود بالشعر العربى إلى فطرته السليمة ، ويخلصه من آفات الصناعة التى قتلت الروح والفنية فيه ، ويرد إليه تعبيره الصحيح ، وينسج خيوطه من خير ما لديه من رصيد . ومن الطبيعى أيضاً أن نجد العناصر القديمة فى اللفظ والمعنى تسرى فى شعر البارودى بقوة ، وكأنه يريد أن يردنا إلى الوراء أكثر من خمسة قرون ، أو يبعث القدامى من مراقدهم بشعره ليعيشوا فى بداوتهم بين الآرام والنياق والعين والظباء ، فتكون قصائده كما يقول :

حضريةُ الأنْسَابِ إلاّ أنها بدويةٌ فى الطبعِ والتركيبِ

ومن الطبيعى والأمر كذلك أن يكون البارودى فى شعره محافظاً — دون قصد — على النسق الموروث فى الشعر العربى ، ومن ثم يكون بما أوتى من موهبة عاتية ، وتمثل للقديم واحتذائه ، وظهوره منفرداً كالقمة بين شعراء عصره — إماماً « لمدرسة المحافظين » أو التقليديين فى الشعر العربى الحديث . وهى مدرسة تحافظ على عمود الشعر كما عرفه نقاد العرب حين « يحاولون شرف

المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، والإصابة فى الوصف ، ومن اجتماع هذه الأساليب الثلاثة كثرت سوائر الأمثال وشوارد الأبيات ، والمقاربة فى التشبيه ، والتحام أجزاء النظم والتآمها ، على تخير من لذيذ الوزن ، ومناسبة المستعار منه المستعار له ، ومشاكلة اللفظ بالمعنى ، وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما . فهذه سبعة أبواب هى عمود الشعر[1] » . وكذلك تتتبع المدرسة خطى السابقين فى نسق القصيدة والسير فيها ، والانتقال من غرض إلى غرض ، بحيث يفتتحون القصائد بالنسيب ، ويذكرون ما قطع الشاعر من مفاوز ، وما أنضى من ركائب ، وما تجشم من هول ، ثم يخرج إلى المقصود[2] . وتسير المدرسة على نهج الأولين من حيث انفراد كل بيت بإفادته فى تركيبه ، حتى كأنه كلام وحده مستقل عما قبله وما بعده ، وتستطرد الخروج من فن إلى فن ، ومن مقصود إلى مقصود بأن تواطىء الأول ومعانيه إلى أن يناسب المقصود الثانى ، ويبعد الكلام عن التنافر[3] . وهى أيضاً تعنى بالأسلوب عناية فائقة ، فالكلام فى رأيها لا يكون بليغاً عند العرب حتى يتضمن الجزالة ومتانة النسج والسهولة بحيث لا ينغلق معناه[4] . وهى تجعل الأسلوب مناط البلاغة كما يقرر عبد القاهر ، فليست البلاغة عنده فى اللفظ أو المعنى ولكنها فى الأسلوب ، وتفهم من الأسلوب أنه مجرى الكلام وسياقه . وليس بغريب بعد ذلك كله أن يكون فهم البارودى للشعر قريباً من فهم النقاد القدامى له ، فخير الكلام عنده « ما ائتلفت ألفاظه ، وائتلقت معانيه ، وكان قريب المأخذ ، بعيد المرمى ، سليماً من وصمة التكلف ،

---

(١) ديوان الحماسة شرح المرزوقى جـ١ ص٩ .

(٢) العمدة فى صناعة الشعر لابن رشيق جـ١ ص١٥٠ (القاهرة ١٩٠٧) .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص٣٢٦ (القاهرة ١٣٢٢هـ) .

(٤) كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى ص٤٣ (طبعة ٢ ـ ١٩٥٢) .

بريئاً من عشوة التعسف ، غنياً عن مراجعة الفكرة فهذه صفة الشعر الجيد [1] » .

فمذهب البارودى فى الشعر إذن هو مذهب الذى يعتز بروعة الأسلوب وجلال الصياغة الشعرية ويعقد لها السبق والأولوية ، وذلك لأنه تخير أرقى أساليب العربية وجاراها وسار على نمطها ، وفى بعض أحيانه وفى سبيل انتقاء اللفظ المؤتلف والبراءة من عشوة التعسف يضحى بالمعنى الجيد المؤتاق الذى قد يصيب الحز فيكون من معجزة البيان . ومن ثم فقد أخذ عليه بعض نقاد عصره أنه لم يبتكر معانى جديدة ، ولم يتخذ أساليب خاصة فى شعره ، وأنه كلف بالقدمة ، وانصرف إلى صناعة الشعر ، ولذلك كان صائد قواف وصانع قريض ، مع اعترافهم بحسن صنعته الشعرية وتألقه فى بهجة الديباجة وجمال السبك، فيقول عنه خليل مطران : « وإنه [البارودى] لشاعر وناهيك به من شاعر ، لا أبالغ فيه، إنه نسيج وحده ، ونادرة الزمان . على أن أحسن مافى شعره الصياغة، نها سما إلى منتهى الإجادة ، وبرز على المتقدمين فضلا عن المتأخرين ، ولو بحثت عن ديوان تجده كله عقوداً وحلى من أرق ما أملى الطبع ، وأدق ما طرز اليراع لما وجدته جملة وتفصيلا كديوانه .

« ومن هذا الكلف الشديد باللفظ والأسلوب التركيبي نشأ عنده أحياناً فتور عن الإغراب فى المعانى ، وحرص على المألوف من طريقة النظم ، ولكنهما لا ينقصان شيئاً من مزية قريضه . وسيجد الأدباء فى ديوانه وفى الكتاب الذى جمع فيه مختارات جماعةمن أكابر الشعراء المتقدمين ، أنه أهمل كل مالم يقع لفظه موقعاً حسناً من نفسه ، وإن جلّ معناه وسما مراده ، وبهذا كان نظمه غاية الغايات فى التصوير إتقانا وإحكاما ، وآية من الآيات فى التعبير رقة وانسجاما [2] » .

---

(١) البارودى فى مقدمة الديوان (الجارم) جا ص ٣.

(٢) الجوائب المصرية عدد ٥٧٢ فى ١٩٠٤/٢/١٥.

ويقول مطران بعد خمس سنوات من نقده السابق: « أما شعر البارودى فهو بجملته صناعة لا تنافس بقديم أو حديث مع ابتكار قليل وإحساس فياض . اختار له أحسن أساليب العرب ، وأفصح ألفاظهم ، وتغنى بها على وحى نفسه — ونفسه جارية النغمة وعاشقة الإيقاع — فأفتنّ حتى أنسى الفن ، وجوّد حتى أذهل عن المعنى .

« فمثل قارئه مثل سامع المنشد البارع ، لا يبتئس حين يلتبس عليه فهم الألفاظ إذا استمر النغم فى نظامه وإتقانه ، بل يستمر فى طربه ، ويترقى فيه ، إلى أن يخلق لنفسه شجونا حيث تفوته شجون الأقوال المنشدة . كان ذلك مذهبه فى الشعر ، وتلك غايته .

« ولا ننسى له فضلا جديراً بالذكر الخاص ، وهو أنه أول شعراء البعثة الحديثة ، بمعنى أنه أول من رد الديباجة إلى بهائها وصفائها القديمين ، وما أبزّ قريضة القريض جيله ، فإنك لتجد الواحدة من قصائده ذاهبة صعداً إلى عهد أرقى أزمنة العرب ، فهى كالجبال الشامخة وحولها القصائد الأخر كالأركان المقامة من حجارة أطلال بلا اختيار ولا نسق ولا هندام .

« والخلاصة أن المرحوم البارودى كان فى الطبقة الأولى بين الشعراء العرب ، وكان قلبه كلفا بالنغمة وذهنه منصرفا إلى الصناعة ، كما يدل على ذلك منظومه ، وكما يشير إليه اختياره من أقوال المتفوقين ، فإنه لم ينتق منها إلا كل ما حسن لفظاً ومعنى ، أو حسن لفظاً ، وأهمل ما حسن معناه دون مبناه — فشعره إنما هو شعر الصناعة والإيقاع [1] » .

ويرى مصطفى صادق الرافعى أن الله لو أعطى البارودى خيال حكيم مثل المتنبى لكان أشعر من سمعت أذن ، ثم يمضى فيقول :

« لم يكن شاعرنا كامل التصرف فى فنون المعانى وإن كان أشعر من جميع معاصريه

---

(١) المجلة المصرية لخليل مطران سنة ٣ عدد ١٤ (١٩٠٩) ص٤٢٩ ـ ٤٣١ .

بلا مراء ، غير أنه أتم ذلك النقص بما أتقن من جمال الصنعة وبديع الرواء ، فلو أنك جردت أكثر معانيه من ألفاظها ، وما أحاطها به من الصياغة لرأيت مالا ينفرد به ، بل ما ربما انفرد بغيره سواه . . .

« أما نمط البارودى فى النظم فهو غاية ما دارت له الألسنة : عذوبة تكاد ترشف ، وجزالة تلعب بالنفس ، وسلاسة يستريح فى ظلها القلب وتستنشق نسيمها الكبد ، فهو الغدير أعذب ما يسكن ، والمرآة أصفى ماتكون ، ولشدة رغبته فى ذلك النمط ، وانصرافه إليه بجملته جعله المرجع فى اختيار ما اختاره من شعر الشعراء فى مجموعاته التى سماها باسمه »(١) .

والذين حكموا على البارودى بأنه مقلد واستمد معانيه وصوره من القديم ، فى حكمهم كثير من الإجمال والعمومية التى تخفى الحقيقة وتسلك مسالك التجنى على البارودى ، ذلك أن البارودى لم يستمد كل صوره ومعانيه من القديم ، وحين فعل كان يراه الغاية التى هفا إليها فحول الشعراء القدامى فابتدرها ، وقد قال عنترة من قبله « هل غادر الشعراء من متردم ؟ » . وإذا كنا نرى العناصر القديمة فى اللفظ والمعنى تسرى فى كثير من شعر البارودى بقوة فذلك أمر طبيعى وهو يصدر عن الثقافة الشعرية القديمة التى اكتسبها فى فترة تكوينه ، وتمثلها حتى أصبحت جزءاً من نفسه ومن ذاكرته وتكوينه الفنى وبالتالى أصبحت ملكا له ، ولكن البارودى حين عرضها لم يعرضها — فى الأكثر الأعم — خالية من روحه وروح عصره ، بل صبغها صبغته وظهرت فيها شخصيته حتى ليخيل للمرء أنها نبته وخلقه .

ومن غير المعقول أن نطلب إلى البارودى أن يفصل ذاته عن الثقافة التى

---

(١) المقتطف مجلد ٣٠ جـ٣ مارس ١٩٠٥ .

غذت معين موهبته أو عن العصر الذى يعيش فيه ، أو أن نطلب إليه قطع الصلة بالأقدمين والمعاصرين وأن يبدأ من فراغ ، أو يثور فيكتسح القديم دفعة واحدة ويبدأ بشيء جديد لا رصيد له منه ، ولكننا نستطيع أن نطالبه بالتجديد وبالتوليد والابتكار ، وأن نرى شخصيته وتجاربه فى شعره ، وأن نرى أيضاً الخيط الذى يربطه بالقديم وبعصره وتراثه وثقافته . وليس استمداده من القديم إلا ذلك الخيط الذى نطالبه به ، وليس التجديد إلا ما نراه من شعره السياسى ووصف الآثار المصرية والبيئة المصرية والطبيعة المصرية ، وليس الابتكار إلا مثل الغناء بصبوات القلوب على شواطىء النيل فيجعل لضفافه ولمغانيه من الجيزة والجزيرة والروضة وشبرا وحلوان مكاناً فى ضمير الوجود وهى مغان جهل جمالها الشعراء ، فإن استعار لها الألوان والظلال من القديم فذلك طبيعى بل هو صدق فنى لأنه جزء من نفسه بعد أن أصبح التراث القديم جزءاً منه ، وليس التوليد إلا مثل ذلك المعنى الذى ولده من فخر الشريف الرضى بأبيه :

وقالوا عجيبٌ عجب مثلى بنفسه وأين على الأيام مثلُ أبى أبُ

ويأتى البارودى فيبزه فى معناه حين يقول :

إذا أنا لم أُعطِ المكارمَ حقَّها فلا عزَّنى خالٌ ولا ضمَّنى أبُ

أو المعنى الذى ولده من قول النابغة فى وصف المتجردة زوج النعمان :

سَقَطَ النصيفُ ولم تُرِد إسقاطَه فتناولَتْه واتَّقتنا باليدِ
بمخضب رخْصٍ كأن بنانَه عَنَمٌ يكاد من اللطافة يُعقدِ
نظرَتْ إليك بحاجة لم تقضِها نظر السقيم إلى وجوه العُوَّدِ

فيقول البارودى :

يخفضن من أبصارهن تخَتُّلا للنفس ، فعلَ الفاتنات العُبَّدِ
فإذا أصبْنَ أخا الشَّباب سلبْنَهُ ورمينَ مهجتَه بطرْفٍ أصْيَدِ
وإذا لمحْنَ أخا المشيبِ قَلَيْنَهُ وسترْنَ ضاحيةَ المحاسنِ باليدِ

وليس الخيط الذى يربطه بالماضى وتراثه إلا مثل الرمز بالقديم عن عواطفه وشعوره وأحاسيسه ، وكأنه يكشف به عن الموروث المجهول الـكامن فى حنايا نفوس أبناء عصره فيقول :

يا حبَّذا جُرْعةٌ من ماءِ مَحْنِيَةٍ وضجعةٌ فوق برْدِ الرمل بالقَاعِ (١)
ونسمةٌ كشَمِيمِ الخُلد قد حملت ريَّا الأزاهير من ميثٍ وأجْرَاعِ (٢)
ياهَلْ أرانِى بذاك الحىِّ مجتمعاً بأهلِ وُدِّىَ من قومى وأشْيَاعِى؟
وهل أسوقُ جوادى للطرادِ إلى صَيْدِ الجآذر فى خَضْراء مِمْرَاعِ ؟ (٣)

وغنى عن البيان أن البارودى قال ذلك فى المنفى ، لـكنه عبر عن شوقه لوطنه بصور موغلة فى البداوة ، والبارودى لم يستخدم هذه الصور الذات نفسها ، وإنما اتخذها رمزاً لمشاعره نحو الوطن فجاءت آية من الآيات تقرب الماضى الحبيب من النفوس المعاصرة وهى تهواه ، فبدت الصور أجمل من استعمالها أصالة لذاتها ، فقد استمدت من القديم جلاله وجماله الروحى الذى يأخذ بلب النفس العربية سواء فى عصرها القديم أو المتحضر أو فى المدنية ، لأنه يصادف هوى فى شعورنا المستتر فى أعماق كياننا نحو « الروح العربية الخالدة » .

---

(١) محنية الوادى : منعطفه .

(٢) شميم الخلد : المراد به هنا نسيم الجنة ؛ الميث : جمع ميثاء وهى الأرض الدمثة والرابية الطيبة ؛ والأجراع جمع جرع : الأرض الرملية بها بعض النبات .

(٣) الطراد : صيد الوحوش ؛ الجـآذر : أولاد البقر الوحشى ؛ ممراع : ذات أعشاب .

والبارودى استمد بعض معانيه وأخيلته وأنغامه من القدماء لكنه أضاء بها فى أكثر الأحيان جوانب حياته الحاضرة ، وصاغ بعضاً من تجاربه الخاصة وتجارب عصره صياغة شعرية قوية لا تقل روعة عن صياغة القدماء . «وهذا الشاعر العظيم وإن يكن قد تخير لشعره الثوب التقليدى ، إلا أنه قد نسج خيوطه من خير ما وصلت إليه لغة الشعر العربى من قوة وجمال ، واستطاع أن يخضع تلك اللغة التقليدية للتعبير عن أحاسيسه أو لوصف مشاهداته أو قص أحداث عصره بحيث يمكن القول أن هذه الدنان القديمة لم تزد شعره إلا قوة وجلالا »[1] .

ومع ذلك فلست من الذين يرون أن البارودى كان فى كل صوره ومعانيه القديمة مبتكراً أو مولداً أو رامزاً ، فقد أتى لنا بقصائد بدوية الروح والمبنى ، وحاكى فيها شعر البداوة وأفرط فى المحاكاة حتى ذكر الرسوم والأطلال والرعيان والقبائل ، وأتى بشعر جاهلى اللفظ والمعنى والوجه والزى لا يمت إلى العصر بصلة ، ولا يحمل بين طياته رمزاً يكون كالخيط بيننا وبين الماضى فنجد صداه فى قلوبنا ، وذلك مثل قصيدته التى عنون لها بقوله : « وقال على طريقة العرب » ، واستهلها بقوله :

ألا حىِّ من أسماء رسمَ المنازلِ وإنْ هى لم ترجِع بياناً لسائلِ
خلاءٌ تعفّتها الروامسُ ، والتقتْ عليها أهاضيبُ الغيوم الحوافلِ

إلى آخر القصيدة التى تمتلىء بالظباء والإبل ورعاتها ، والبهم والجمال السائمة .
والبارودى حين أنشد مثل هذه القصيدة لم ينشدها وهو مقتنع بأن ذلك هو الأسلوب الواجب اتباعه أو النهج الذى عليه أن يسلكه أو أن ذلك هو الغاية فى قول القصيد ، ولكنه أنشده امتحانا لشاعريته ، واختبارا لمقدرته فى محاكاة القدماء ، حتى فى وقوفهم

---

(١) د . محمد مندور : الشعر المصرى بعد شوقى جـ١ ص١ – ٢ (١٩٥٥).

على الأطلال والدمن وليس أمامه أطلال ولا دمن تهيج عواطفه أو تثير شاعريته ، فإذا نجح فى المحاكاة كان فى زعم نفسه شاعراً مثلهم وحلا على مستواهم . وذلك هو التقليد الخالى من الروح ومن العاطفة ، وأولى أن نسميه نظماً وصناعة .

وما كان البارودى يستطيع — ولو أراد — أن يتنكب عصره وهو ابنه ، أو يقطع كل خيط يصله بأدبه وشعرائه وهو يعيش بينهم ، ومن ثم نجده قد سلك سبيلهم فى « المعارضات » ، وقد كانوا يأتون بقصائد من سبقهم من الشعراء المتأخرين فينسجون على منوالها ، وتأتى قرائحهم المجدبة وذوقهم الفاسد وثقافتهم السطحية بمسخ يماثلها فى الروى والوزن ويقضى على ما فيها من معنى . ولكن البارودى حين سلك هذا السبيل اتخذ طريقاً غير طريق معاصريه انفردت به شخصيته ، فقد تخير قصائد فحول الشعراء القدامى وحاكاها فى الوزن والروى ، ولكنه سار بمعانى القصيدة وأغراضها إلى حيث يريد ، ودون تقيد بمعانى القصيدة المعارضة ، فإذا ما بدا له أن يعارض بعض معانى القصيدة — وذلك قليل — صاغها صياغة جديدة أو تناولها تناولا مختلفاً وولد فى المعنى ، وكان يسمو به فنه فيتفوق على المعنى الأصيل تارة ، وتارة أخرى لا يدرك الشأو ولكنه اجتهد .

ويدافع شكيب أرسلان عن معارضات البارودى[1] — وقد هاجمه من أجلها بعض النقاد — ويرى « أنه إنما اختار المعارضة فى بعض المظان ليعلم الناس شأوه مع من تقدمه . وليست المعارضة بشأن جديد ، بل كانت عند الماضين ، وقد استحسنوها ، ولم يحسبوها تقليداً ولا عدوها نسخة مجردة ، ولا صورة مطبقة ، وإنما كان ينظم الواحد منهم قصيدة فترن فى الآفاق فيعارضه شاعر آخر برنانة

(١) قامت معركة أدبية حول معارضات البارودى وحول أشعر شعراء العصر فى « مجلة سركيس » فى سنتها الثانية عام ١٩٠٦ ، وكان الرأى الآخر يزعم أن البارودى مقلد فى معارضاته لا مزية ولا فضل له ، وهيهات أن يلحق واحدا ممن عارضهم . أنظر : الأعداد ١٠ ، ١١ ، ١٢ من المجلة عام ١٩٠٦ .

أخرى من البحر والقافية كما يجارى الفارس فارساً فى مضمار . . . ومحمود سامى قد عارض وفاق من تقدمه ، وقال فى غير معارضة فأتى بالشعر الفحل الذى يعيى على الأوائل فضلا عن الأواخر ، وكل ذى مسكة يقدر أن يميز بين التقليد والتوليد [(١)] » .

والبارودى لم يعنون هذه القصائد بالمعارضات ، وإنما ذكر فى بعضها أنها على وزن وروى القصائد الأخرى ، ولم يشر فى بعضها الآخر إلى القصيدة التى نظم على منوالها ، ومن ثم فتسميتنا لقصائده « بالمعارضات » إنما هو تجوز وتوسع فى الاصطلاح نفسه . وقد عارض البارودى من الشعراء : المتنبى[(٢)] ، وابن النبيه[(٣)] ، وأبا نواس[(٤)] ، والنابغة الذبيانى[(٥)] ، والشريف الرضى[(٦)] ، وأبا فراس[(٧)] ، والبحترى[(٨)] ، وعنترة بن شداد [(٩)] .

وقد سار البارودى فى أكثر شعره — كما سبق — على النمط القديم فى تنوع الأغراض فى القصيدة الواحدة فلم يلتزم بوحدة الموضوع ، وكذلك نهج النهج القديم فى الاستهلال بالديار حيناً وبالتشبيب والخمر فى أكثر الأحايين ، حتى لقد بدا له أن يثور على الاستهلال بالديار والأطلال — كما ثار أبو نواس من قبله — ليستهل بالخمر فقال :

مَالِي وللدّار من لَيلى أُحيِيها وقد خلت من غَوانيها مَغَانيهَا

(١) مجلة سركيس عدد ١١ سنة ٢ أكتوبر ١٩٠٦ .
(٢) أنظر : الديوان (الجارم) جـ١ ص١١، ١٣٩ .
(٣) أنظر : الديوان (الجارم) جـ١ ص١١٥ .
(٤) أنظر : الديوان (الجارم) جـ٢ ص١٨ ؛ والوسيلة الأدبية جـ٢ ص٤٧٧ ـ ٤٨١ .
(٥) أنظر : الديوان (الجارم) جـ١ ص١٤٨ .
(٦) المصدر السابق جـ١ ص٣٨ . (٧) المصدر السابق جـ٢ ص٤٠ .
(٨) فى المخطوطة (س) ص٣٠٠ ـ ٣٠٢ ؛ والمخطوطة (ج) ص٣٠٦ ـ ٣٠٨ .
(٩) المخطوطة (س) ص٢٥١ ـ ٢٥٣ ؛ والمخطوطة (ج) ص٢٥٧ ـ ٢٥٩ .

دَعِ الدِّيارَ لقومٍ يكْلَفُونَ بها ... واعكُفْ على حانةٍ كالبدْرِ ساقيها
كم بيْنَ دائرةٍ أقوتْ معالمُها ... وبينَ عامرةٍ تزهُو بمن فيها[1]
هيهاتَ ما الدارُ تُشجينى بساحتِها ... وإنما الدارُ تُشجينى بمَنْ فيهَا
فَخلِّ هذا ، وخذ فى وَصْف غانيةٍ ... سَرَتْ بحُلوانَ فى قَلْبِى سَوَاريهَا[2]

وقد يكون هذا النمط التقليدى فى نظم القصيدة عيباً فى شعر المحدثين الذين اطلعوا على الآداب الغربية وعرفوا وحدة الموضوع وتماسكه ، بحيث تكون القصيدة بناء متكاملا لا يستقل البيت فيها عما قبله وما لحقه ؛ ولكن البارودى كان من عصر آخر ، لم يعرف ذلك الاتجاه الغربى ، وكان من مدرسة أخرى هى « مدرسة المحافظين » التى ترى الغاية فى المقدرة على الانتقال من موضوع إلى آخر مع حسن التخلص بتوطئه الأول ومعانيه بحيث يناسب المقصود الثانى ، وفى افتتاح القصائد قبل الخروج إلى الموضوع ، وبانفراد كل بيت حتى كأنه مستقل عما قبله وما بعده .

والبارودى ببصيرته واستمداده وتكوينه الفنى وجد — وهو ينهل من مناهل الشعراء المتقدمين — أن الشاعر العربى القديم كان ينتقل من معنى إلى معنى مما يشغله فى حياته من الناقة والسحب والمنازل والأحبة والرحلة وعرار الصحراء ونباتها ، ثم خلف من بعده خلف تكسبوا بالشعر واتخذوه مهنة فلم يغيروا من النسق القديم ، بل ساروا على النمط وزاوجوا بين التقاليد القديم والغرض النفعى الطارىء ، وكذلك تكونت مفاهيم النظم فى القصيدة العربية ، وتأصلت حتى أصبحت ظاهرة تقليدية ثابتة فى الشعر عند العرب ، ولم يستطع شعراء الثورة الفنية فى العصر العباسى أن يتخلصوا منها ، أو

---

(١) الدائرة : البالية المتهالكة ؛ أقوت : خلت .
(٢) هذه الأبيات مما لم ينشر من الديوان ؛ المخطوطة (س) ص ٢٩٦ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٣٠٢ .

بالأحرى لم يثوروا عليها ، ولم ينشدوا قصداً إلى الغرض دون استهلال ، أو يجعلوا القصيدة وحدة متماسكة دون انتقال من غرض إلى آخر ، مع أنهم ثاروا على محاكاة الأقدمين فى أغراضهم ومعانيهم ، وكل ما فعلوه أنهم استبدلوا مطالعاً بمطالع ، وهو تغيير اقتضاه العصر بحضارته وتطوره ، فاستبدلوا بالدمن القصور وبالناقة الخمر ، واعتقد البارودى أن ذلك هو المثل وتلك هى الغاية والمنهج فى نظم القصيد العربى . وفنية البارودى الصادقة جملتة يصدر عن المعين الذى لديه والمنهج الذى تعلمه من ثقافته الفنية ووقر فى إحساسه أنه السبيل .

وإذا أردنا أن نحكم على البارودى الحكم الصحيح فلابد من أن نحدد مكانته فى عصره ، وفى عالم الشعر العربى ، وفى محيط الأدب العالمى .

والبارودى بمقياس عصره الذى تردّى فيه الشعر العربى إلى حمأة الضعف والانحطاط هو دون ريب أو خلاف إمام مجدد ، « وصاحب الفضل الأول فى تجديد أسلوب الشعر وإنقاذه من الصناعة والتكلف العقيم ورده إلى صدق الفطرة وسلامة التعبير »[1] . وهو أيضاً قمة عالية لم يبلغ شأوها مثيل لها فى عصره ولخمسة قرون سبقته ، فقد خرج على الناس بثقافة أدبية لم يألفوها من شعرائهم ، وبأغراض لم يعرفوها عنهم ، وديباجة لم يسمعوها فى إنشادهم ، ورصانة انقطع عهدهم بها من أمد بعيد ، وبلاغة تأخذ بالنفس وتملك الأفئدة « فكان شعره فى عصره جديداً كله : كانت محاكاته الأقدمين جديدة ، وكانت معارضته إياهم جديدة ، وكانت رياضته القول على مثالهم جديدة[2] » . وأقر له عصره بما قسم له من تجديد فوضعه فى المقام الأول بين الأدباء وجعله

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم ص١٢ . (٢) د. محمد حسين هيكل : تقديم ديوان البارودى ، (الجارم) ج ١ ص ٣٠ .

« أشعر الشعراء » ، فيقول الشاعر شكيب أرسلان : « أشعر الشعراء عندى هو محمود سامى البارودى ثم شوقى ثم حافظ ، وهؤلاء الثلاثة فى هـذا العصر هم السابقون فى حلبة الشعر ، الفائقون فى إجادته ؛ بل هم أشبه بالثلاثة الماضين : أبى تمـام الشعر ، ومتنبيه ، وأبى عبادته ، بل هم اليـوم لات الشعر وعزاه ومناته ، والذى رجحت لهم على غيرهم بيدانه ، وأحب أن أشبه البارودى بأبى تمام فى علو نفسه وقوة ملـكته ومتانة أسلوبه »[1] .

والبارودى بالنسبة للشعر العربى عبر التاريخ باعث للقديم من مرقده ، مزق عنـه أكفانه التى احتوته مئات السنين ، وأزاح عنـه ذيول النسيان ، وتغنى بأنغامه القديمة الخالدة فى الأذهان والموروثة مع الزمن ، فسمع منه أبناء عصره وكأنهم يسمعون المتنبى والبحترى أو الشريف والنابغة أو عنترة بن شداد ، فطربوا لنشيده وأخذتهم النشوة من سمـاع قصيده ، ووصلهم بالمجـد الذى ظنوا أنهم فقدوه ، ونقلهم إلى حال يتوهمـون معها أنهم قاب قوسين من المكانة التى وصل إليها جـــــــدودهم السابقون . وعادت إليهم الثقة فى لغتهم — لغـة القرآن — وأيقنوا أن قوتها باقية على الزمن ، وأن العيب لم يكن فيها حين ظنوها قد احتضرت ، واكتشفوا أن العيب كامن فيهم ، وفى ثقافتهم التى قصروها على أساليب المتأخرين ، وفى أذواقهم التى أفسدتها الصناعة والتكلف ، وفى قرائحهم التى أجدبها فقد الشعور بالـكرامة القومية والإنسانية فى عصور الظلم والاستبداد التركى . وما وفق له البارودى من هـذا البعث لا يزال حتى اليوم يذكر له على أنه أعظم تطور حدث فى حياة الشعر العربى فى عصرنا الحديث .

---

(١) مجلة سركيس سنة ٢ عدد ١٣ نوفمبر ١٩٠٦ .

وإذا نظرنا إلى البارودى، من زاوية الأدب فى محيطه العالمى وجدناه قائد حركة تقليدية محافظة تقنع بالقديم فى أكثر أحايينها وتعيش فيه، وتسور نفسها بسور من الإقليمية حفاظاً على ما يسمى بالتقليد الموروث والتراث الخالد وخشية من أن يتناوله الزمن بالتغيير؛ تمشى القهقرى لتبحث فى الماضى عن الدرّ الذى ازدانت به مفارق الشعراء فى القديم لتحلى به قصيدها، بينما الأدب العالمى يسابق الزمن، يشعر بالإنسان ومشكلاته وآلامه ويتناول أغوار النفس البشرية وأسرار الطبيعة ويبحث عن مواقع الجمال ومثيرات الشجون ويستكشف حجب المستقبل باحثاً فيه عن الأمل للفرد وللإنسانية فيتغنى به وبذلك يسبق التجديد.

البارودى بين الكلاسيكية القديمة والجديدة:

ويعتبر البارودى إماماً للمدرسة الإتباعية (الكلاسيكية) فى الشعر الحديث، وهى المدرسة التى من أبرز سماتها الصياغة المتقنة، ومجاراة القدماء ومحاكاتهم، والتى تتمثل خصائصها فى الاعتراف بالقدماء على أنهم أنبياء الشعر ومن ثم لابد من متابعتهم والاستمداد من مناهلهم، وفى احترام القيود القديمة من القواعد النحوية والبلاغية والألفاظ والوزن، وفى عدم التعقيد فى الأسلوب، وفى تمثل أفكار القدماء وصورهم وعواطفهم أيضاً، لأن العاطفة فى نظرهم منشؤها الطبيعة، والطبيعة ثابتة لا تتغير، ومن ثم لا مجال لتغيير العواطف، فالأدب الكلاسيكى السليم هو ما التزم عواطف الأقدمين.

ومدرسة البارودى الكلاسيكية ظلت تسيطر على الذوق والعاطفة فى الشرق العربى قرابة قرن من الزمان، ومازالت هناك جمهرة من عشاق الأدب حتى الستينيات فى القرن العشرين يسجدون لها سجدة الإجلال. والذى لاشك فيه أن سيطرة هذه المدرسة طوال هذه الفترة لم يكن مصدرها جوهر الكلاسيكية

نفسه بقدر ما كان أثراً من رواسب العقل الباطن التى لا يمكن التخلص منها إلا بجهاد نفسى عنيف ، ذلك لأن كلاسيكية البارودى استمدت من القديم جلاله وفطرته التى تأخذ بلب النفوس العربية سواء فى عصورها القديمة أو فى عصرها الحديث ، ولأنها صادفت هوى فى جانبنا المستتر فى أعماق كياننا وهو « الروح العربية الخالدة » ، ولأنها أعادت إلى خيال أبناء العصر مجدهم القديم الذى ظنوا أنهم فقدوه إلى الأبد ، ونقلتهم إلى حال أشبه بأحلام اليقظة تأخذهم بعيداً عن حاضرهم الموحش الموغل فى الظلام ، وتنسيهم ما يقاسونه من عذاب ، وأمدت لهم فى الوهم فتخيلوا أن المجد السابق قاب قوسين أو أدنى منهم .

وفى شعر البارودى نجد الكلاسيكية بنوعيها : قديمها ، وهى التى جارت القدماء لفظاً ومعنى ، وجديدها ، وهى التى اتخذت قوالب القدماء فى الصياغة المتقنة واعتمدت على اللفظ وقوة رنينه الموسيقى ، ثم انبثقت معانيها من قلب الشاعر وعواطفه ومن تجاربه الذاتية وأحداث عصره . والكلاسيكية القديمة قليلة فى شعر البارودى ، وهى أكثر ما تكون وضوحاً فى شعر المرحلة الأولى من شبابه قبل أن يدخل غمار التجارب فى الحياة ، وقد كان أكثره محاكاة لقصائد الأقدمين من الشعراء ، ومن ذلك قصائده التى نشرت فى « الوسيلة الأدبية » يعارض بها قصائد أبى نواس ، والنابغة ، والشريف الرضى ، وأبى فراس ، وقصائد أخرى فى الديوان نظمها على غرار قصائد المتنبي وابن النبيه المصرى ، وكذلك القصائد التى « يروض فيها القول ، » أو « يقول فيها على طريقة العرب » ، أو « يروض القول فى بعض الأساليب » ، أو التى ينظمها دون أن تتصل به أو بعصره صراحة أو رمزاً .

ولا يتبادر إلى الذهن أن كل قصائد البارودى التى عارض فيها الشعراء القدامى

على هذا النمط من الكلاسيكية الضيقة ، فقد خرج عن هذا المفهوم قصائد ثلاث : قصيدته التى عارض فيها قصيدة « المتنبى » :

أودُّ من الأيام مالا توَدُّه   وأشكو إليها بيننا وهى جندُهُ

والتى يستهلها البارودى بقوله :

رَضِيتُ من الدُّنيا بما لاَ أودُّهُ   وأىُّ امرئ يقْوَى على الدَّهْرِ زَنْدُهُ؟[١]

فقد قالها وهو بسرنديب « وعرض فيها بذكر المظالم على عهد الحكومة الاستبدادية فى مصر[٢] » . وقصيدته التى عارض فيها قصيدة البحترى :

لنا أبداً بثٌّ نعانيه فى أرْوَى   وحُزْوى، وكم أدْنتك من لوعةٍ حُزوى

واستهلها بقوله :

أقِلاَّ ملاَمِى فى هَوَى الشَّادِنِ الأَحْوَى   فَقَلْبِى على حَمْلِ المَلاَمَةِ لا يَقْوَى[٣]

كَفَى بالهَوى شُغلا عن اللَّوْمِ بامرئ   بَراهُ الضَّنَى واستمطَرتْ عَيْنَهُ البَلْوى[٤]

فقد قالها فى شبابه وهو يعمل ياوراً لإسماعيل ورأى الفساد قد استشرى فى دست الحكم وبين حاشية الخديو ، فهجاه وهجاهم ثم قارن نفسه بإسماعيل فى قوله :

فإنْ سَادَ غَيْرِى بالجُدُودِ فإنَّنى   بِهِمو بِفَضْلِى رِشْتُ سَهْمِى فَمَا أَشْوَى[٥]

ولَيسَ عَلوُّ النَّفس بالجَدِّ وحْدَهُ   وليسَ كَمالُ المرء فى شَرف المَأْوَى

---

(١) القصيدة كاملة فى الديوان (الجارم) جـ١ ص١٣٩ .

(٢) المصدر السابق والديوان المخطوط .

(٣) الشادن : ولد الظبية ؛ الأحوى : الأحمر إلى سواد أو المائل القلب عن جدارة وحق .

(٤) هذه القصيدة من الجزء المخطوط من الديوان ؛ المخطوطة (س) ص٣٠٠ ــ ٣٠٢ ؛ والمخطوطة (ج) ص ٣٠٦ ــ ٣٠٨ .

(١) راش سهمه :لزق عليه الريش ليصيب المرمى ؛ ما أشوى : ما أخطأ.

واستنكر أن يساويه الزمن بالحاشية الفاسدة فى قوله :

فإنْ كانَ سوىَّ الدَّهرُ بينى وبينَ منْ أَرى من بَنِيه فى الحُظُوظ فما سوَّى
بَرِئتُ من الغلِّ الذى أصبحتْ بِهِ قلوبُهُمُ من شرِّ ما حَمَلَتْ تَدْوَى
نصحتُ وغشُّوا ، واستقمتُ وراوغُوا فهلْ مَنْ هَدَى بينَ الأَنامِ كمَنْ أَغْوى؟[1]

والقصيدة الثالثة التى يعارض فيها البارودى معلقة عنترة بن شداد :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم[2]

قالها فى أواخر حياته واستهلها بقوله :

كَمْ غَادر الشعراء من متردَّم ولَرُبَّ تالٍ بزَّ شأو مُقَدَّمِ[3]

وفيها يؤكد علاقته بوطنه ويشرح حبه لمصر فى مناجاته الجميلة من قوله :

بلدٌ نشأتُ مع النبات بأرضِهَا ولثَمْتُ ثغرَ غديرِها المُتَبَسِّمِ
فنسيمُها روحى ، ومعدنُ تُربِها جسمى ، وكوثرُ نيلِها مَحْيَا دَمِي
هى جنةُ الحُسْنِ التى زهراتُها حُورُ المَهاَ ، وهَزَارُ أيكَتِهاَ فَمِى

ويضع مقدرات نفسه ومكانته فى عصره شاعراً وفارساً ، بعث الشعر وأحياه وكانت له اليد الطولى فى منازلة الأقران فيقول :

---

(١) هذه الأبيات لم تنشر والقصيدة كاملة فى المخطوطة (س) ص٣٠٠ ـ ٣٠٢ ؛ والمخطوطة (ج) ص٣٠٦ ـ ٣٠٨ . وهى ٣٦ بيتا تحت عنوان « وسأله بعض أصدقائه أن يوازن قصيدة البحترى التى أولها «لنا أبداً بث نعانيه فى أروى» .

(٢) تردم الرجل ثوبه : رقعه وهى كناية عن أن الأوائل لم يتركوا للأواخر شيئا .

(٣) يريد أن ينقض قول عنترة السابق ويقول : كثيراً ما ترك الأول للآخر وبعض الأواخر سبقوا المتقدمين .

في كلِّ عصرٍ عبقريٌّ لا يَنِي ... يَفرِي الفَرِيَّ بكلِّ قولٍ مُحْكَمِ (١)
أحييتُ أنفاسَ القَريضِ بمنطقي ... وصرعتُ فرسانَ العَجَاجِ بلَهْذَمي
نَشَأَتْ بطبعى للقَريضِ بَدائعٌ ... لَيْسَتْ بنِحْلَةِ شاعرٍ مُتَقَدِّمِ
قَوَّمتُهُ بعدَ اعْوِجاجِ قَنَاتِهِ ... والرمحُ ليس يَروقُ غيرَ مقوَّمِ

ثم يذكر البارودى حاله وما فعلت به الأقدار في أسلوب الوصايا والحكم فيقول :

فَدَعِ الخَفِيَّ، وخذْ لنفسِكَ حقَّها ... ممَّا بدا لَكَ فَهْوَ أهنأُ مَغْنَمِ
لا يَستطيعُ المرءُ يبلغَ ما نأى ... عنهُ، ولو صَعَدَ السماءَ بسُلَّمِ
بيْنا يشقُّ به الجِوَاءَ ترفعًا ... أهْوَى به في كَسْرِ بَيْتٍ مُظْلِمِ (٢)
إنَّ الحياةَ شهيةٌ ما لم تكن ... غَرَضًا لإمرةِ ظَالمٍ لَمْ يرحَمِ (٣)

ولست من الذين يدافعون عن البارودى في شعره الذى تمثلت فيه الكلاسيكية بمعناها الضيق ، وهو الذى أوغل في تقليد القدماء لفظاً ومعنى ، وخلا من كل ما يشير إلى تجارب الشاعر أو عاطفته وشعوره أو كل ما يربطه بعصره أو ينير جوانب حياته الحاضرة . ومثل ذلك قصيدته الدالية « ظنَّ الظنونَ فبات غيرَ مُوَسَّدِ » وقد عنون لها بقوله « وقال على رويّ قصيدة النابغة الذبيانى التى أولها :

أمِنْ آلِ ميَّةَ رائحٌ أو مُغْتدِ ... عَجْلانَ ذا زادٍ وغَيْرَ مُزَوَّدِ

---

(١) يفرى الفرى : يأتى بالخبر المعجب .

(٢) الجواء جمع للجو : وهو ما بين الأرض والسماء أو هو الوادى الواسم .

(٣) لم يسبق نشر هذه الابيات والقصيدة ٥٤ بيتا ؛ المخطوطة (س) ص٢٥١ – ٢٥٣ ؛ والمخطوطة جـ٢ ص٢٥٧ – ٢٥٩ .

وقد سلك فيهامسالك العرب فيما كانت تتمدح به من مباشرة الحروب ، وارتياد المنابت، وركوب الخيل ، وشرب الخمر ، والتشبيب بالنساء[1] » . ومثله كذلك قصيدتاه اللاميتان : « ألا حى من أسماء رسم المنازل » وقد عنون لها بقوله « وقال على طريقة العرب[2] » ، والأخرى « رَدَّ الصبى بعد شيب اللِّمَّةِ الغَزَلُ » وعنون لها بقوله[3] «وقال يروض القول فى بعض الأساليب» ، ففى هذه القصائد أغرق البارودى نفسه فى البداوة حتى انصهر فيها وصار من أهلها ، وغدا يصف المرأة ، والسيف ، والفرس ، والسحاب ، والصيد ، والحرب ، والشراب دون هدف إلا المجاراة ، ودون أن يصلها بنفسه أو عصره ، ثم يوزع وصاياه ويمنح حكمه بأسلوب بدوى الروح والوجه والزى حتى لتنسب القصائد بالضرورة إلى العصور الأولى إذا لم يعرف قائلها . وكأن البارودى أراد أن يردنا إلى هذه البداوة فنسيغ ما بها وما نحن بقادرين .

وليس استخدام البارودى لمثل هذه العناصر البدوية القديمة شبيهاً باستخدام العباسيين لها كما يقول بعض النقاد[4] ، فقد كان العباسيون قريبى عهد بالبداوة ، وكانوا على صلة قوية بها ، ومازالت ظلالها وصورها فى حياتهم ، وعلى مشارف بغداد والبصرة والكوفة تقبع البداوة على حالتها الأولى ، وأكثر من ذلك فقد كان الخلفاء العباسيون يطلبون لأبنائهم الفصاحة فى البادية ، فيتزودون من عناصرها ، ويسيغون معانيها . وكذلك كان أكثر الشعراء ينبتون فى البادية ثم يشدون الرحال إلى العواصم ، فالبداوة فى قلوبهم وعواطفهم وأحاسيسهم ، فإذا تمثلوا بها فإنما يتمثلون معانى يعرفونها ويألفونها كما يعرفها

(١) الديوان (الجارم) جـ ١ ص ١٤٨ — ١٥٦ .

(٢) ديوان البارودى (الإمام) جـ٢ ص٤٤٦ .

(٣) المصدر السابق ص٤٧٢ .

(٤) د . شوقى ضيف : البارودى ص١٤٣ ويرى أن استخدام البارودى لها كاستخدام العباسيين فهى رمز للتعبير عن مشاعرهم وأحاسيسهم وليست مقصودة لذاتها .

ويألفها جمهورهم ، وإذا أنشدوها هزت أعطافهم وكان لها فى نفوسهم ونفوس سامعيهم دلالاتها فطربوا لها جميعا .

والذين تعللوا للبارودى فجعلوا محاكاته القدماء فى كلاسيكية ضيقة خلقا وتجديداً ، فاتهم أن هـذا اللون من الشعر غير خالد ولا يعيش إلا فى جيله وبين المعجبين به ، فهو يؤدى غرضا مؤقتا ثم يستنفد . وكذلك كانت قصائد البارودى المشار إليها ، فقد أدت دورها المؤقت فى مطلع العصر الحديث لأنها ردت إلى المعاصرين يقين القدرة على مجاراة العباسيين والمخضرمين والجاهليين فى ميدان اللغة والتركيب بما أتقن الشاعر من معارضتهم فى المذاهب والأساليب كما يقول شكيب أرسلان : « فلما قرأنا شعر محمود سامى ... علمنا أن فى المعاصرين من قـدر أن يضارع الأولين ، وأن يسامى بنفسه أنفاسهم . وكنا من قبل محمود سامى نظن الأولين غاية لاتدرك ... وبقى هـذا الاعتقاد إلى أن ظفرنا بشعر محمود سامى [1] » . وأرضت محاكاة البارودى القـدماء عواطف القوم فى وقته وهم ينظرون إلى كل ما هو آت من العهد العظيم القديم نظرة الإجلال والتقديس لظروف من رواسب عقلهم الباطن ، أو لواقع حياتهم وثقافتهم المؤلم ، أو لأنه قد شاع الأسف بين العرب على ما أصابهم من الضعف والهزيمـة بعد القوة والسيـادة ، ثم شاع بينهم اليقـين بأن لا موئل لهم ولا أمل فى تجديد سلطانهم ومنعتهم إلا بالرجوع إلى الإسلام فى أيامه الأولى ، أيام الجد والغلبة والفطرة السليمة ، « وأصبح كل قديم قريب من الإسلام فى صدره الأول عنوانا للصحة والمتانة وعصمة من الضعف والركاكة ... ويقرنون بين سلامة لغـة القرآن وسلامة العربية على حال البداوة حتى رأينا من غلاة هذا المذهب فى الجيل الماضى

---

(١) شوقى أو صداقة أربعين عاما ص ١٠١ — ١٠٤ .

من كان يسخر بالمعرى وأبناء عصره ، ويرجع باللغة النقية والفصاحة الشعرية إلى ما قبل ذلك بعصور »(١) .

ولعل الرأى الذى أراد أن يعتذر لقصائد البارودى فى هذا السبيل ويمتدحها لمحاكاتها وإيغالها فى البداوة حتى صارت أعرق فى البداوة من البداوة نفسها قد أساء إلى البارودى فجعله ظلا لا حقيقة ، وممثلا لا خالقا فى قوله « وكأنما البارودى هنا ممثل قدير لبس دور الشاعر البدوى فوفاه لغة وشعورا وزيا وحركة ، فخلقه خلقا جديدا ، وجعل له تمثالا من نفسه وحياته (٢) » .

والكثرة الغالبة من شعر البارودى تتمثل فيه « الكلاسيكية الجديدة » بصياغته المتقنة ولفظه الفخم ، ورنين موسيقاه ، ونسق القصيدة ، ومراعاة قواعد الأقدمين : يعبر بذلك كله عن نفسه وتجاربه ، أو يتخذه رمزا لعواطفه ومشاعره أو أسلوبا لأحداث عصره . فشعره فى متعته بالشراب وفى مجالس لهوه وتجارب حبه ، وفى حديثه عن صحابه وأعدائه وفى وصفه للحروب وهو يخوض غمارها ، وهجائه السياسى والشخصى والاجتماعى ، وفى الدعوة إلى الثورة تارة والشورى تارة أخرى ، وفى وصف هزيمة القوى الوطنية والاستسلام الرجعية والاستعمار ، ووصف شعوره فى السجن ، وساعة وداع الأهل والوطن ، ثم المعاناة وعذاب النفى والتشريد ، والألم لفقد الصحب والأهل والرفاق ثم زحف الشيخوخة والمرض عليه ، ثم فرحة اللقاء بالوطن واستكشاف ما فعله الاستعمار ببلاده وندبها والنواح عليها ، ذلك كله كلاسيكية جديدة : تعبير صادق عن نفسه وعصره فى إطار قديم وصياغة متقنة . وقد كان شعر البارودى كذلك فى أكثر أطوار حياته بحيث يمكن ترتيب قصائده لا بحسب الأبواب من مدح وغزل وهجاء

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم ص ٤٣ — ٤٤ .

(٢) عباس محمود العقاد : المصدر السابق ١٣١ — ١٣٢ .

وفخر ولا بحسب الترتيب الأبجدى للقوافى بل بحسب تاريخ الشاعر وأطوار حياته ، وذلك يدل على مبلغ ارتباط شعر البارودى بحياته وعصره .

وهذا اللون من شعر البارودى هو الذى خلده بين الشعراء ، وارتبا به الذروة فى عصره ، وجعله يذكر بالتقدير والإجلال بعد عصره . رد به إلى الشعر العربى فتوته وشبابه وحيويته ، ومس به عواطف الناس لأنه وصله بحاضرهم وبنفسه وعصره فسحر الألباب وأخذ بمجامع القلوب . سحرنا لأنه متصل بماضينا وحاضرنا ، غير متحرر هذا التحرر الكلى الذى يقطع الصلة بين الماضى والحاضر ، وغير مستغرق فى الماضى بحيث ينقلنا كلية إليه فنضل بين دمنه وروابيه ، وذلك هو مجال التجديد الحقيقى فى شعر البارودى ، وهو تجديد يقوم على التعبير الصريح أو بالرمز عن شخصيته وبيئته وأحداث عصره . واستطاع البارودى بهذا الشعر أن يحول الإطار الأسلوبى القديم إلى أداة تعبر عن ذات نفسه تعبيراً لا يخطئه القصد ، تعبيراً نرى فيه شخصيته وحياته وحتى نوازع نفسه فى شبابه وفى رجولته ثم فى كهولته وشيخوخته . وذلك هو موضع التفوق البارز فى شعر البارودى ، فقد ارتقى فى التعبير عن الشخصية والعصر مرتقى رفيعاً ، واستطاع أن يجمع بين شرف العبارة وصدق الإبانة عن كل سريرة من سرائره وكل لون من ألوان طبعه فى غير سخف ولا استرخاء ولا تكلف ، وذلك هو عنوان الحياة فى تلك الشخصية وعنوان القوة الماضية فى تلك الشاعرية .

الزعيم والرواد فى مدرسة المحافظين :

فى الحق أن البارودى ظهر فى عالم الشعر العربى كالفجر الصادق تسبقه أحلاك فترات الظلام ، فنشر عليه من موهبته وشاعريته نوراً ، وبدد حلكة الانحطاط والركاكة التى كان يتردى فيها والتى غشيته أكثر من خمسة قرون ،

وكان نبيه الذى نفخ فيـــه من روحه العربية فبعثه من جديد ، ورائد نهضته الذى نفض عنـه أدرانه وأوشابه العثمانية ، وقدم إلى الأمة العربية شعراً تزعم به مدرسة المحافظين وحمل شعراء العصر بعده على جناحه ، وامتـــد تأثيره إلى الأمة العربية كلها . والتف التلاميذ والحورايون من الشعراء حوله ينهلون من شعره ومنبعه الأصيل ، ثم تنفرد بهم شخصياتهم الأدبية فيسلك كل منهم السبيل الذى تدفعه إليه موهبته واستعداده ، وتهديه إليـه فنيته وثقافته ، فتظهر سماته وميزاته ويصبح شاعراً يأخذ طريقه فى مملـكة الشعر وحده .

كانوا جميعا يلتقون عند المصدر والمنبع فى « مدرسة المحافظين » تلك التى حافظت على تقاليد الشعر العربى فى المنحى والأسلوب ، وتعلقت بـكل ما يتصل بشخصية الشعر العربى ومقوماته . ومع أنها اتجهت إلى الوراء لتتخذ من العصور الذهبية للشعر العربى المثل والأمل ، إلا أنها لم تحجر على الفنية أن تتسع آفاقها لما يساير ذوق العصر ويعيش معه ، ثم تمزجه بقديمها الأصيل فيعصمه من الإسفاف ومن الاندفاع وراء موجة التجديد اندفاعاً يرى أتباع المدرسة فيه خروجاً بالشعر عن الروح العربية الأصيلة . واستطاعت المدرسة بذلك أن توائم بين القـديم والجديد ، وبين الأسلوب العربى وثقافة العصر وروحه .

وظاهرة التخالف التى كانت بين نثر ذلك العصر وشعره جـديرة بالدراسة والبحث ، فبينما نجد النثر يندفع بقوة إلى الأمام يرحب بعناصر التجديد ويسعى إليها ويطعم نفسه بالأفـكار والإطار الأجنبى ليلاحق الزمن ، نجد الشعر مشغولا بالبحث فى تاريخه وماضيه يلتقط الدرّ منه وينظم على منواله ، ويرغب فى أن يحافظ على المضمون والشكل القديم ، ويتردد كثيراً قبل أن يخطو خطوة إلى تجديد أو تغيير . ولعل السبب فى ذلك أن النهضة الصحفية والمطبعة والترجمة ، إلى

جانب الثورة الوطنية قد هيأت الأذواق إلى تطور النثر ؛ أما الشعر فلم يكن قد سبقه تمهيد يهيء الأذواق لتطوير فيه . وقد استطاع الكتاب أن يجدوا فى النثر الغربى ضالتهم ففتح لهم آفاقاً جديدة واسعة ؛ أما الشعراء فلم يجدوا فى الشعر الغربى حين أرادوا الاستفادة منــــه ما يرضى الأذواق العربية فى ذلك الوقت ، فقد كان بعيداً بشكله ونظمه ونسقه وموسيقاه ، غريباً عنهم فى تقاليده وأوزانه ، فاضطروا أن يبحثوا عن عوامل التفاعل والتطور فى ذات الشعر العربى ومحيطه الأقليمى .

وطبيعى أن يقرأ الشاعر أول إحساسه بالموهبة ليستوى على عوده وينمى ثروته اللغوية ، ولتتحرك ربة الشعر فى نفسه . وبدأت « مدرسة المحافظين » بالبارودى تهجر شعر العصـــــور العثمانية ، وتتجه إلى العصور العباسية وما قبلها ، تقرأ لشعرائها الفحول حتى إذا ما انقادت لهم قوافى الشعر وبحوره أحسوا بحاجة ملحة إلى التبحر فى اللغة العربية وفى التعرف على شعرها ، ليجدوا حاجتهم من غناء متصل لموسيقى النظم فى نفوسهم ، وعبارات تصلح لقوافى قصائدهم ، ولا سبيل إلى ذلك فى الشعر الغربى . فإذا ما اندفعوا فى القراءة والبحث والحفظ لم تقف بهم الحاجة إلى طلب النضج فى اللغة أو إلى تمثل الأوزان أو اقتناء ثروة القوافى ؛ بل يجدون أنفسهم وقد تأثروا دون قصد بالشعر القديم وينهلون منه ويصدرون عنه ، وهم يظنون أنه كله غذاؤهم زمن خلقهم ، وتطرب أذواق العصر لهذا الغناء وهى فى مرحلة تهفو فيها إلى العزة العربية وإلى المجد القديم ، فتسعد بكل مايذكرها به أو ينقل لها صوراً منه ، ويقف الشعراء من رواد المدرسة عند هذا الحد وهم يظنون أنهم بلغوا الغاية .

وليس التأثر بالقديم ومجاراته دليل ضعف أو انحطاط ، اللهم إلا إذا كان مجاراة جامدة تمنع كل جديد يتسرب إليه ، وتحجر عليه أن يساير العصر فى

فكره وعواطفه ، وتحتم أن يعيش فى عصر غير عصره . ولكنا إذا نظرنا بذوق موضوعى إلى التأثر والمجاراة فى مدرسة المحافظين نجد أنهما دليل الحياة والقدرة على البقاء ، وبينة على أن هذا الأدب العربى فيه الخصب والغناء وفيه النماء ، وفيه قدرة على مسايرة الحياة ، وطاقة تعبر عن هذه الحياة فى عصورها المختلفة عبر التاريخ .

وما أشبه الليلة بالبارحة ، فما إخال المرحلة التى عاصرتها « مدرسة المحافظين » ، منذ أرسى قواعدها زعيمها البارودى ، إلا شبيهة بمبتدأ العصر العباسى حين أخذت ينابيع جديدة من الثقافة الفارسية والهندية واليونانية تصب فى معين الثقافة العربية فتتأثر عقول الشعراء ولا تتأثر عواطفهم ، فتغنى أفكارهم فى إطار عواطفهم وفنهم، وتتجدد المعانى ولكن الإطار يظل عربياً خالصاً ، وكانت نهضة وكان مبتدأ العصر الذهبى للشعر . وكأنما تعود الدورة فيبدأ البارودى زعيم النهضة بالتجربة الأولى ، فيتمثل اللغة التركية والفارسية حتى يبرع فيهما ، ويتقن شوقى ومطران اللغة الفرنسية حتى يتملكا ناصيتها ، ويعرفها حافظ حتى يترجم إلى العربية من أفكارها؛ ولكن عقول الشعراء هى التى تتأثر بهذه اللغات دون أن تتغير عواطفهم ، فيظلون محافظين على الوزن والنسق والموسيقى العربية . وديوان البارودى فيه عناصر تركية وفارسية من الفتيات اللاتى يلبسن القرطق التركى ومن جمشيد وكسرى أنوشروان وسابور وشاهنشاه من الفرس ، ونلحظ كذلك تأثر البارودى بفلسفة عمر الخيام فى انتهاب اللذة فى الحاضر دون انتظار لمستقبل ، وبمذهب الفرس فى الخمريات ، وبحافظ الشيرازى فى التعبير عن لواعج الحب ولوعات الهوى والبحث فيه عن العذاب . وذلك كله فكر تأثر به البارودى من قراءاته لكنه أخرجه إلينا عربى الشكل والمضمون ، نقرأه فلا نحس فيه شيئاً غريباً عن الذوق العربى أو جديداً عليه ،وتلك هى الأصالة الفنية وذلك هو التجديد .

وكذلك رواد المدرسة اتجه كل منهم إلى واد تستظل به فنيته وتنفرد فيه شخصيته ، فيتجه خليل مطران إلى رومانسيته ووجدانياته الشاكية الباكية ، وتدفعه الأصالة الفنية وغناء الرصيد إلى التجديد فينزع إلى القصص والدراما على نحو ما قرأه فى الأدب الغربى ، ويعكس عواطفه على ما حوله من الطبيعة فيجعلها بكلياتها وجزئياتها صدى لأحاسيسه ، ويخرج لنا ذلك كله عربياً خالصاً فخم العبارة جزل التركيب حتى لتحسبه عربى الأصل والمنبت . وشوقى تعلم من الأستاذ فنه ، وأخذ عن الرائد طريقته ، وتتبع خطاه فقرأ له وتأثر واختزن ، وعكف على المنبع الأصيل فحفظ وتمثل ، وقلد البارودى فى معارضة الفحول من شعرائه معارضة لا تضيع فيها شخصيته ، فإذا به كرائده يتصرف فى زمام اللغة ويلقى إليه التعبير بنواصيه ، ويقرأ للأدباء الفرنسيين ويحاول أن يترجم لهم ، ويقلدهم فى النظم على ألسنة الحيوان ويحاكيهم فى الحديث عن الآثار ، وتدفعه الثقة والأصالة والرصيد الواسع إلى التجديد فيكتب الشعر التمثيلى ، ويتجه إلى الشعر الوطنى ويقوى ما بدأه أستاذه من النزعة الفرعونية ثم يغنى للعواطف الإسلامية والعربية جميعاً ، يتناول كل ذلك ثم يخرجه لنا عربياً خالصاً . وإسماعيل صبرى آلف تلاميذ المدرسة إلى قلب أستاذها ، ومع أنه قريب من الرعيل الأول - ولد عام ١٨٦٨ - الذى ينتمى إلى البارودى إلا أنه كان يعتبر البارودى أستاذه ، وهو وإن لم يبلغ مبلغ زملائه رواد المدرسة فى غزارة النبع وقوة الصنع والتعمق فى الشعر العربى ، إلا أنه استطاع أن يفك قيد شعره — وهو من السابقين — من إسار الأغلال العثمانية ، وانفرد بحس مرهف وذوق جمالى دقيق ، واندفع يتخذ لنفسه طريقاً جديداً على المستوى الشعبى فى رقائق غزلية قصيرة ومقطعات غنائية عذبة ، ثم مضى يستخدم هذا الفن فى التهكم على رجال السياسة وفى شكوى الزمان والتبرم بالناس . أما حافظ وعبد المحسن الكاظمى

وشكيب أرسلان فيكاد كل منهم يكون صورة لأستاذه فى متانة الأسلوب وجزالة العبارة وقوة الأسر وفى المنحى القديم . وكان حافظ الامتداد الطبيعى للبارودى ، وشابهه فى جوانب كثيرة ، فقد التحق بالمدرسة الحربية وعاداه الزمان ففصل من الجيش ، وفقد مصدر رزقه وعاش فترات من حياته يتجرع البؤس ويقتات الشظف ، ولم يتجه حافظ إلى منابع خارجية وقصر اتجاهه على احتذاء شعر البارودى والشعر العربى القديم . ولم يبعده هذا الاتجاه عن روح عصره ، فقد كان أكثر الجميع قرباً من الشعب وهو من طبقته المتوسطة ، عاش معه وخالطه ومزج بؤسه ببؤس أمته فصار صوتها الشعرى ، يهتف بخواطرها وآلامها وآمالها فى نواحى حياتها المختلفة حتى اقب « بشاعر النيل » .

البارودى وحركة التطور فى الشعر العربى :

بقى السؤال الكبير الذى قد يراود النفس عند دراسة حركة التطور العامة فى الشعر العربى الحديث : هل كانت البداءة القوية التى بدأها البارودى وحتمتها عليه ثقافته الأدبية وتكوينه الفنى ـ من حيث تمثله القديم وإصداره عنه فى وقت يهفو الناس فيه إلى التغيير ـ سبباً فى وقوف الشعر عند القديم وبطء سيره فى موكب التطور الذى مسّ كل مراحل الحياة الواقعية والتفكيرية فى عصره؟ وهل جاء البارودى بشعر من الماضى الذى يقدسه جمهور عصره ، وهو ماض رضيت عنه عواطفهم ونظروا إليه نظرة إجلال لظروف من رواسب عقلهم الباطن فطربوا له ، واستمسكوا به ، ولم يسيغوا وقتئذ تطوراً فى هذا الشعر الذى يرضيهم فوقف ، ثم تخلف عن مواكبة الحياة المتجددة وأبطأ فى ملاحقة النهضة العامة فتأخر ؟

وهل كان من الممكن أن يصبح وجه الشعر مختلفاً عما كان عليه أول

حركة التغيير والتطور فى العصر الحديث ، أو يكون أسرع فى تطوره ، لو أن البارودى بموهبته العاتية وثقافته العربية الأصيلة وثروته اللغوية قد اطلع على الآداب العالمية الحديثة ، أو خرج مع من خرج فى بعثة إلى أوروبا فقرأ آدابها ، واتصل عن طريقها بآيات التعبير عن النفس البشرية وأسرار الطبيعة ومواضع الجمال ومثيرات الشجون ، وعرف فيها الألم والأمل على مستوى الإنسانية كلها ، إلى جانب أسرار الصياغة الشعرية ووسائل التصوير والإيحاء ، فيتأثر بذلك كله ويصنع مثل ما يصنعون ، وينظم على القوالب التى فيها ينظمون ، ويسلك الدروب التى سلكوها فى الموضوعات والأغراض فيخرج من محيط الإقليمية العربية إلى مستوى الشاعر العالمى ؟

فى تقديرى أن البارودى لو سار به القدر هذه المسيرة لوفر على عالم الشعر العربى أكثر من نصف قرن ظل القريض فيه يرزح تحت سحر المدرسة التقليدية ، وينفث فى عقدها بعده شعراء ذوو مواهب شعرية فذة وجهتهم أذواق الجماهير المفتونة بالشعر التقليدى الذى جاء به البارودى أشد الفتون إلى الانطواء تحت رايتها من مثل شوقى وحافظ وعبد المحسن الكاظمى وشكيب أرسلان وخليل مطران حين يعاود نفسه ، فتنطلق بهم كقوة عارمة من قوى الطبيعة تأخذ ألباب الجماهير بجلال صياغتها الشعرية ، وقوة رنينها الموسيقى ، وتظل مشدودة إليها مسحورة بها حتى تأتى قوة أخرى ممثلة « المدرسة الحديثة » مؤزرة بالثقة ومسلحة بثقافة غربية أدبية وفلسفية واسعة ، فيخرج دعاتها الشعر والفن والشعور من آفاقها الضيقة إلى الآفاق الواسعة ، ويهزون عرش المدرسة التقليدية هزاً عنيفاً ، ويوجهون الشعر العربى وجهات جديدة أكثر خصباً وعمقاً فى إنسانيته وعالميته .

وفى يقينى أن بعث الشعر العربى وبدء انطلاقة تطوره فى عصر النهضة على يد شاعر كالبارودى أوتى الموهبة الخارقة ، ووجهته ثقافته وتخصصه فى شعر الأقدمين إلى التطلع نحو الماضى يبحث عن مثله فيه ، وكونت ذوقه الأدبى قراءاته الكثيرة فى هذا القديم ، وتحددت من كل ذلك مفاهيمه عن الشعر وماهيته وعوامل الضعف والقوة فيه والجيد منه والردىء — كان عاملا من عوامل بطء الشعر فى مسيرة التجديد والتطور . ولست بذلك أوجه النقد إلى البارودى ، فلم يكن شاعرنا يستطيع أن يقول غير ما قال ، لأن قوله وليد الثقافة والتكوين الفنى ، وقد كان مصدرهما عنده — كما قلنا — القديم من الشعر العربى وبعض المعرفة والتذوق فى الأدب التركى والفارسى وقديم العربية يفضلهما فكراً وذوقاً ، فظل البارودى محصوراً فى الإقليمية العربية ، وقد أعطانا خير ما عنده وأفضل ما فيها ولو أن البارودى بموهبته الشعرية الخلاقة ، وقوة عارضته وثروته اللغوية ، وفنيته الأصيلة ، واستعداده القريب من العبقرية خرج بآفاقه الثقافية إلى الآداب العالمية الحديثة ، وتذوق أسرار التعبير والصياغة فيها ، ووقف على وسائل التصوير والإيحاء ، وتبين الأغراض المنوعة والموضوعات المختلفة التى يرتادها الشعر ، لبدأ حركة التغيير بشكل آخر ، واختصر الزمن الذى قطعه الشعر فى تطوره ، ولأصبح للشعر العربى وجهاً يختلف فى قليل أو كثير عما نراه اليوم .

ولكن البارودى خرج إلى العالم العربى فى وقت يئن فيه ويرزح تحت وطأة الظلم والاستبداد والاستغلال ، ويعيش فى حمأة الفقر المادى والثقافى ، وفى الدرك الأسفل من التأخر العلمى ومن فساد الذوق الأدبى والفنى ، وكان قد نفذت إليه بالأمس القريب طاقة من النور والمعرفة والزاد الجديد ، ولمحات من العلوم الحديثة التى طورت الحضارات خارج أسوار العزلة المضروبة على

العالم العربى ، جاءه ذلك الشعاع مع الحملة الفرنسية وفى الصحافة الأجنبية ومع الوافدين من الأجانب والمبعوثين المصريين ، فاستيقظ الإحساس عنده بما هو فيه من جهل ، وانتابته الحسرة والألم لما هو عليه من تأخر وفساد ، وقارن بين يومه الكئيب الذليل وأمسه البعيد المشرق الضارب فى سماوات المجد والعزة ، فتطلع الناس إلى التغيير . . أىّ تغيير . تغيير يشمل جميع نواحى حياتهم حتى الذوق الفنى وحتى الشعر ، ورغبوا فى أن يلقوا شعر عصرهم عن كاهلهم بألغازه وصنعته وضيق أفقه وفقره فى المعنى والذوق ، وتطلعوا إلى غناء جديد . وطلع عليهم البارودى بشعر يختلف عما ألفوه فى عصرهم ، ووجدوا له صدى فى نفوسهم فكان التغيير الذى يطلبون .

وأغلب الظن أن البارودى لو كان لديه رصيد من الثقافة العالمية وآدابها ، وعرف الشعر كما يعرفه الأدب فى محيطه العالمى لبدأ حركة التطور والبعث من حيث بدأت المدرسة الحديثة أو ما تسمى بمدرسة المجددين فى مطلع القرن العشرين ، ولقبل عصره تغييرَه وقد كان يرنو إلى أى تغيير ينقذه من الشعر المتهالك الذى نزل بذوقه إلى الحضيض ، ولكن البارودى جاء — وهو ابن ثقافته وتكوينه الفنى — يصدر عن القديم ويسير فى الشعر على نسق السابقين ، وصادف مجيئه مرحلة يقظة الإحساس بواقع العالم العربى المرير ، والمقارنة بين الحاضر المظلم والماضى المجيد ، وفترة الأمانى والأحلام فى عودة المجد العربى التليد ، فغناهم البارودى بقديمه أمانيهم وما يشتهون ، وقوى فى قلوبهم الأمل فى غد يتصل بماضيهم ، وأعاد إلى نفوسهم الثقة بأن أدبهم العربى القديم فيه القدرة على الحياة ومغالبة العصور ، وفيه قوة على أن يعيش ويعبر بأساليبه وأنماطه القديمة ليغير جوانب حياة جديدة بينه وبينها قرون طوال . وأرضى التغيير الذى أحدثه البارودى العاطفة الكبرى الموروثة والمستكنة

فى أعماق النفوس منذ أمد بعيد وهى عاطفة « العروبة الخالدة » ، فاحتفوا بشعره ووقفوا تحت تأثـــير إنشاده ، واستمسكوا به وأعرضوا عن ســـواه ، حتى لم يستطع أحد ممن جاء بعده من الشعراء قرابة نصف قرن أن ينزع إلى الخروج على مدرسة البارودى المحافظة ، ومن كانت تغلبه فطرته من الشعراء إلى الخروج عنها كان يأخذ نفسه بالحساب العسير ، ويعاود شعره ليخنق فيه تيارات التمرد على مدرسة المحافظين[1] ، فقد كانت مواجهة الجماهير بالتغيير عقبة كبرى تكسرت عليها كثير من المحاولات وفشلت عندها مواهب الشعراء ، ولم ينج منها سوى محاولات لشوقى ومطران .

والحقيقة التى لا ريب فيها أن البارودى بكلاسيكيته وإمامتـه لمدرســـة المحافظين قد بعث الشعر العربى من مرقده ، وبعث فيه حياة قوية متجددة بعد أن تسربت إليـه عناصر الفناء قروناً متعاقبة ، وتزعم حركة التطور التى نهضت بالشعر فى العالم العربى الحديث ، وهو من أجل ذلك جدير بأن يتسنم غارب المجد الأدبى ، وأن يذكر فى تاريخ الأدب العربى بين الخالدين .

---

(١) كما فعل خليل مطران فى كثير من قصائده .

مؤلفات البارودى

الديوان :

إن أروع ما خلفه البارودى أثراً له وذكرى هو « ديوان شعره » ، فقد نسيه الناس قائداً عسكرياً وزعيما سياسياً ورئيس وزراء ، ولكنهم ذكروه شاعراً ، وخلده ديوانه فى ضمير الزمن . وكان البارودى يسجل ما يهتف به منذ بلغ عامه العشرين ، ثم كتب شعره فى صفحات كبيرة كانت تسمى فى ذلك الوقت « نمر » ، وكان يفرد لكل قصيدة « نمرة »[1] ، وكتب على هوامش هذه « النمر » تعليقاته من شرح لمفردات غريبة أو تفسير لإشارات أرادها[2] . وقد عاد البارودى من منفاه بأكثر ديوانه مخطوطاً بيده ، ولم يزد عليه بعد النفى فى الأعوام التى قضاها بمصر — ١٩٠٠ — ١٩٠٤ — من شعره إلا القليل .

وبعد أن استقر بالبارودى المقام فى مصر عقب العودة من المنفى أخذ فى المعاودة والتنقيح لديوانه[3] ، ثم أملاه على كاتبه ياقوت المرسى[4] — الذى اتخذه البارودى بعد أن ضعف بصره ليكتب ما يملى عليه ويقرأ له — مرتباً حسب القوافى ، جامعاً فى كل قافية ما أمكن من الأغراض والمناسبات المتشابهة ، فكتبه فى صورته النهائية .

---

(١) معلومات الأسرة وأكدها إثبات أرقام هذه « النمر » فى المخطوطة (ج) فى أول كل قصيدة رقم نمرتها ، وقد نسخ الناسخ ذلك من الأصل الذى نقله ياقوت المرسى عن هذه « النمر » بإشراف البارودى .

(٢) أنظر هوامش المخطوطة (ج) فقد امتلأت بتعليقات الناظم المنقولة من الأصل المقروء عليه ، وأثبت ذلك محمود الإمام فى هوامش نشرته الديوان فى كثير من المواضع وذكر أنه اطلع عليها فى الأصل .

(٣) مقدمة مراثى الشعراء ص ٢٣ .

(٤) كان شاعراً وأحد علماء الأزهر . أنظر : مقدمة مراثى الشعراء ص ٦ ؛ ومختارات البارودى ج ١ ص أ ؛ وج ٤ ص ٤٨٨ .

ورأت « أمينة يعقوب سامى » زوجة البارودى وفاء لزوجها بعد وفاته أن تنشر ديوانه ، فعهدت إلى « محمود الإمام » — صديق البارودى وجليسه فى أيامه الأخيرة[1] — بشرح الديوان والإشراف على طبعه . غير أنها رأت حفاظاً على أصل الديوان من الضياع ألا يخرج من حوزتها ، فاستأجرت كاتباً ينسخه[2] ، وكان عشاق الأدب ومحبو شعر البارودى يتوقون إلى قراءة الديوان كاملا بصبر نافد ، واستطاع أحد عاشقى شعر البارودى ـ وكان له نفوذ مرموق[3] ـ أن ينفذ إلى محمود الإمام وإلى الناسخ فنسخ له الكاتب نسخة أخرى[4] .

ومن ثم يمكن حصر مخطوطات الديوان على الوجه التالى :

(١) « الثمر » أو الصفحات الكبيرة التى كتبها البارودى بخط يده وعليها تفسيراته وتعليقاته ، وشعر البارودى فيها بعد أن كف بصره بخط كاتبة ، ومازالت هذه « الثمر » فى حوزة كريمتى الشاعر فاطمة ومشيرة ضمن مذكرات البارودى وأوراقه التى تملأ عدة صناديق كبيرة لم تصل إليها بعد يد الباحثين

(٢) مخطوطة كاملة للديوان كتبها ياقوت المرسى بعد التنقيح والمعاودة التى أجراها البارودى على شعره عقب عودته إلى مصر ، مرتبة ترتيباً أبجدياً حسب قوافيها ، ونقل إليها الكاتب تعليقات الناظم على « الثمر » ، ثم قرأها فى صورتها النهائية على البارودى فى أخريات أيامه[5]

ومصير هذه المخطوطة مصير سابقتها من « الثمر » مقضى عليها بالسجن فى

---

(١) من علماء الأزهر وكان يلقى درس النصوص الأدبية فى جامع المؤيد على طلابه عام ١٩١٩ حسب رواية تلميذه الأستاذ محمد شفيق معروف . (٢) معلومات الاسرة . واسم الناسخ مصطفى عبد الخالق؛ أنظر المخطوطة (ج) ص٣١٤ . (٣) والد حائز المخطوطة (س) أنظر صفحة ٤٣٠ من الكتاب . (٤) قال حائز المخطوطة للأستاذ المرحوم طاهر الطناحى ان والده أعطى الناسخ عشرة جنيهات ذهبية وكانت ثروة فى تلك الأيام . (٥) معلومات الاسرة .

ظلمة الصناديق حتى يفك الله إسارهما وتأذن لهما أسرة البارودى بأن تجدا الطريق إلى أيدى الدارسين .

(٣) مخطوطة ثالثة نسخها مصطفى عبد الخالق[١]، وانتهى من نسخها فى ١٠ سبتمبر ١٩٠٨ ، وتقع فى ٣١٤ صفحة .

(٤) مخطوطة رابعة من الديوان ، وأرجح أن كاتبها هو مصطفى عبد الخالق ، كاتب المخطوطة السابقة وقدتمت كتابتها كما يقول ناسخها فى ١٧ أكتوبر ١٩٠٨، وهى ٣٠٧ صفحات .

أما « النثر » أو الصفحات المتفرقة ، وكذلك المخطوطة التى كتبها ياقوت المرسى فلم أتمكن من الاطلاع عليهما ، وهما كما تقول كريمتا الشاعر بين الأوراق الخاصة بوالدهما والتى تملأ صناديق كثيرة لم تفتح للدارسين بعد .

«والمخطوطة الثالثة » يحوزها محمد شفيق معروف ، [٢] وقد وصلت إليه من « على الجارم » منذ أشركه الجارم معه فى شرح الديوان (١٩٤٠ — ١٩٤٢) . وجاءتهما هذه المخطوطة عن طريق جعفر والى ، وقد حصل عليها من محمد أشرف بن الشاعر[٣] . وقد تمكنت من دراسة هذه المخطوطة دراسة مستفيضة ، وأعطيت الفرصة لبحثها ومقارنتها بصورة من المخطوطة الرابعة . وقد تأكد لى أنها النسخة التى طبع منها محمود الإمام نشرته للديوان ، فعلى هوامشها كلمات بخطه ، وقد شكل أبياتها حتى قافية اللام وهو القدر الذى طبع فى نشرته . وقد نقل الناسخ إليها من النسخة (٢) التى كتبها ياقوت المرسى تعليقات

---

(١) أنظر : المخطوطة (ج) ص٣١٤ فقد كتب اسمه فى آخرها .

(٢) مفتش سابق للغة العربية بوزارة التربية والتعليم .

(٣) معلومات الأسرة ؛ وانظر أيضا مقدمة الديوان (الجارم) جـ١ ص٣٨ .

الناظم تفسيراً لكلمات غريبة أو توضيحاً لمراد ، ومن هذه التعليقات كلمات مرادفة لكلمات فى بيت صلب القصيدة على وزنها أو رويها ، وفى بعض الصفحات وجدت بيتاً برمته أو شطراً من بيت[١] بالهامش يؤدى نفس المعنى للبديل الذى فى بناء القصيدة ، وكأن الشاعر وضعه ليقارن أيهما أفضل فى أداء المعنى المراد[٢] .

وقد اعتدت على هذه النسخة يد الحذف والتشويه حتى قافية اللام ، فضرب بالقلم على بعض القصائد ، وطمس بالحبر أجزاء من قصائد أخرى[٣] ، وكذلك شطبت أجزاء من عناوين بعض القصائد وكانت توضح مناسباتها وتواريخها . وكتب محمود الإمام على بعض هذه القصائد « لاتطبع » ثم وقع باسمه « الإمام » على هذا الحظر الذى أصدره ! والذى أكد لى أن محمود الإمام هو الذى شطب وطمس كتاباته على هامش بعض القصائد « لاتطبع » ، وكذلك وجدت المشطوبات والمطموسات حتى قافية اللام فقط ، مع أن ما بعد اللام وهو الجزء الباقى المخطوط فيه هجاء على شاكلة الهجاء الذى طمس فى الجزء السابق ، بل أقذع منه ولنفس الأشخاص : توفيق ورياض والحاشية ، ومع ذلك لم تشطب هذه القصائد أو تطمس ، ولم يكتب عليها « لا تطبع » لأن الإمام لم يكن قد وصل إليها ، واستنفدت منه حين توقف الطبع الذى يشرف عليه عند آخر قافية اللام . وقد استطعت قراءة القصائد والأبيات المشطوبة وعددها (١١٩) بيتاً[٤] بالجهر تارة ، وبالعثور عليها فى المخطوطة الرابعة

---

(١) أنظر : المخطوطة (ج) ص ٤١ ، ٤٢ .

(٢) فى قصيدة « أديرا كئوس الراح قد لم الفجر » التى كتبها البارودى إلى صديقه عبد الله فكرى وجدت فى هامشها بالمخطوطة (ج) البيت التالى وليس من صلب القصيده :

إذا لاعبتها الريح ماجت كأنما ... بأعلى الزند منها ملائكة خضر

(٣) المحذوف والمطموس فى الصفحات ٣٦ ، ٣٢ ، ٣٨ ، ٤٢ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٩٦ ، ١٠٨ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٢٥ من المخطوطة (ج) .

(٤) نشر منها فى طبعة الجارم للديوان قصيدة واحدة وهى التى يعرض فيها البارودى برؤساء الجند الذين تخاذلوا فى الثورة العرابية وأبياتها ٣١ بيتا ، أنظر : الديوان (الجارم) ج ٢ ص ٣٣٤ .

(س) تارة أخرى ، ولم يتعذر على سوى ستة أبيات[١] من قصيدة يهجو البارودى فيها إسماعيل صديق المفتش[٢] ، فقد كان طمسها شديداً بحيث فشلت جميع المحاولات فى قراءتها . وقد أشرت فى البحث إلى هـذه النسخة برمز (ج) أول اسم « الجارم » .

« والمخطوطة الرابعة » يحوزها عزيز كريم يعيش رهين المحبسين : الظلمة والشلل وقد قيل لى إن حساسية الأعصاب عنده وعدم الرؤية جعلتاه يضيق بالناس ويكره أن يراه غريب ، ومن ثم فهو يعيش مع مرضه وشيخوخته فى عزلة عن العالم ، ولم أره شخصياً ولـكنى عرفته بالواسطة عن طريق أديب كريم لحق بالرفيق الأعلى منذ أمد قصـير ،[٣] استعار لى هذه المخطوطة ، ولم يشأ أن يكشف عن اسم حائزها حتى لا يتوافد عليه الباحثون والدارسون فيضايقونه فى مرضه وينغصون عليـه ما بقى له من أيام فى الحياة[٤] . وقد قيل لى إن والده هو الذى حصل على هذه النسخة[٥] وكان من هواة الأدب وجمع دواوين الشعراء .

وبعد دراسة المخطوطة واستقصاء ما فيها تبينت أن الناسخ لم يكتب اسمه فى آخر صفحاتها شأن ناسخى المخطوطات وكما فعل ناسخ المخطوطة (ج) ، وإنما أثبت تاريخ الانتهاء من نسخها وهو ١٧ أكتوبر ١٩٠٨ ، ولعله لم يرد أن يستدل آل البارودى على أنه كتبها بغير إذنهم ، ولـكن الخط هو نفس الخط المكتوب به النسخة (ج) ، ومعنى ذلك أن الذى كتب النسخة رقم (٤) هو مصطفى عبد الخالق . وقد اتضح لى أن هذه النسخة غير كاملة ، فقـد أسقط الناسخ

---

(١) المخطوطة (ج) ص ٣٦ .
(٢) أنظر ص ١٣٢ من الكتاب
(٣) المرحوم طاهر الطناحى .
(٤) نص كلمته .
(٥) دفع عشرة جنيهات ذهبية للناسخ الذى كتب النسخة الخاصة بطبع الديوان عام ١٩٠٨ .

منها القصائد وأجزاء القصائد المشطوبة والمضروب عليها بالقلم والمطموسة والتى كتب عليها الإمام « لاتطبع[1] » فى النسخة (ج) ، ولم ينج من ذلك غير ستة أبيات من قصيدة يهجو فيها البارودى الأسرة المالكة[2] ، ومقطوعة من ثمانية أبيات يعزى بها خليل مطران فى وفاة عم له[3] . وعدد صفحات هذه المخطوطة ٣٠٧ صفحات .

وقد أذن لى حائز هذه المخطوطة فى أن أنقل منها ما شئت ، فنقلت بإذنه الجزء الذى لم ينشر من ديوان البارودى وهو من أول قافيـة الميم حتى نهاية الديوان[4] ، ثم راجعت ما نقلتـه على المخطوطة (ج) فوجدت الخلاف طفيفاً فى بعض الكلمات ، وقد نوهت به فى مظانه أثناء تحقيق الأبيات التى جاءت فى هذا الكتاب . ويغلب على الظن أنها أخطاء كتابية وقعت من الناسخ أثناء الكتابة . وهذه النسخة رمزت لهـا بالحرف (س) كما أشار بذلك الأديب الواسطة لأنه — كما قال — أول حرف من اسم حائزها .

وظهر من ديوان البارودى حتى الآن نشرتان : أولاهما قام بها محمـود الإمام المنصورى بعد أن عهدت إليه أمينة يعقوب سامى زوجة البارودى شرح الديوان والإشراف على طبعه[5] ، وقد بدىء فى طبعه أوائل الحرب العالميـة

---

(١) الذى سقط من القصائد فى هذه النسخة : قصيدة فى هجاء رياض بعد الحكم على الزعماء بالنفى (٣١ بيتا) ، وقصيدة يعرض فيها برؤساء الجند الذين تخاذلوا فى الثورة العرابية (٣١ بيتا) ، وقصيدة فى مدح الخديو عباس بمناسبة عيد الجلوس (٢٩ بيتاً) ، وجزء من قصيدة فى هجاء إسماعيل المفتش (١٤ بيتا) .

(٢) المضروب عليها فى المخطوطة (ج) ص٧٢ ، والمذكورة فى المخطوطة (س) ص ٧٠ — ٧١

(٣) حبيب مطران وقد توفى ببعلبك عام ١٩٠٠ . وهى المضروب عليها بالقلم فى المخطوطة (ج) ص ٣٨ ، والمذكورة فى المخطوطة (س) ص ٣٧ .

(٤) بعثت إلى حائز المخطوطة باقتراح حول مصيرها بعد أن يقضى الكتاب أجله وقد وعد بتنفيذه ، وهو أن يكتب فى وصيته أن تكون هذه المخطوطة من نصيب دار الكتب العربية ، وما أخاله إلا فاعلا .

(٥) مقدمة الديوان (الإمام) .

الأولى[١] ، وطبع منه جزآن الأول إلى آخر قافية الفاء ، والثانى إلى نهاية قافية اللام . «ولما غلا سعر الورق عام ١٩١٥ أوقف طبعه لاستنفاده قدراً كبيراً من المال[٢]» . وقد أسقط الإمام من نشرته المشطوبات التى أشرنا إليها من قبل ، ولم يلتزم فى ترتيب قصائد كل قافية ترتيب المخطوطة التى نقل منها .

وقد علق الدكتور محمد صبرى على هذه النشرة بقوله : « إن شارح الديوان لم يجن على شعر البارودى بشرحه الطويل الغث فحسب ، بل تعدى ذلك إلى عدم العناية بنشر الشعر فى صورته الأصلية ، فمسخ بعض القصائد الرائعة التى جارى بها البارودى فحول المتقدمين ، وكان من السهل على الشارح أن يتنبه إلى هذا الخطأ الذى وقع فيه عفواً لو أنه تفهم شعر البارودى واهتمامه بحسن السبك ، أو أنه أمعن النظر فى القصائد التى نشرها له صاحب الوسيلة . ومن العجيب حقاً أن ينشر المرصفى للبارودى وهو حىّ فى ريعان الشباب نصاً لقصائده أصح بكثير من النص الذى نشر بعد وفاته[٣] » . وفى رأيى أن نقد الدكتور صبرى حق فى شطر ويحمل شطره الآخر عناصر التجنى ، أما عن الشرح فمن الواضح أن التوفيق قد جانب الشارح فيه ، وأما قضية مسخ القصائد وعدم نشرها فى صورتها « بالوسيلة الأدبية » فذلك ما يمكن الاختلاف فيه مع الناقد ، لأن الشارح نشر القصائد نصاً كما وردت فى الديوان بصورته النهائية المقروءة على البارودى بعد المعاودة والتنقيح والتغيير والحذف والإثبات التى أخذ بها ديوانه فى آخريات أيامه ، وَالأمانة تلزم المشرف على الطبع أن ينشر الديوان كما وصل إليه فى صورته النهائية المقروءة على صاحبه ، وليس منها أن يستبدل

---

(١) طاهر الطناحى : الهلال السنة ٣٨ جزء ٤ فبراير ١٩٣٠ . (٢) المصدر السابق .

(٣) محمد صبرى : محمود سامى البارودى ص ٢٣ .

بالقصيدة التى جاءت فى الديوان صورة أخرى لها وردت فى مكان آخر ، وقد يكون من زيادة الفضل أن يشير الناشر إلى هذه الصورة الأخرى . أما البحث عن الصور التى اختلفت عما جاء بالديوان فى مظانها التى نشرت فيها والمقارنة بينهما وبين ما جاء فى الديوان فهى مهمة المحقق ؛ والحكم على الشاعر من زوايا الاختلاف مهمة الباحثين والنقاد .

ثم ظهر الديوان فى نشرة ثانية قام بها على الجارم ومحمد شفيق معروف ، وقد عهدت إليهما بذلك « وزارة المعارف » ، فأصدرا منه جزين[1] حتى آخر قافيـة الـكاف ، وقد سلـكا فيهامسلك النشرة الأولى من حذف المشطوبات والمطموسات من القصائد وأجزاء القصائد وما كتب عليها « لا تطبع » خلا القصيدة التى « يعرض فيها برؤساء الجند الذين تخاذلوا فى الثورة العرابية » . وقد أشارا إلى القصائد التى ذكرت فى الوسيلة الأدبيةمن القوافىالتى نشراها ، وأثبتا منها ما اشتد اختـلافه عمـا جاء بالمخطوطة (ج) مصدر نشرتهما . ونأمل أن ينشر بقية الديوان وفاء لحق البارودى المناضل علىمصرنا الحديثة، وتقديراً لفضل الشاعر الرائد على نهضتنا الأدبية .

وطبع للبارودى عام ١٩٠٩ قصيدة تحت عنوان « كشف الغُمّة فى مدح سيد الأمة » وهى ملحمة شعرية فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ضمنها سيرته من مولده إلى وفاته وسار فيها متتبعاً « سيرة ابن هشام[2] » . وقد نظمها فى المنفى على وزن « نهج البردة » للبوصيرى ، وعدد أبياتها ٤٤٧ بيتاً وتقع فى ٤٨ صفحة . وقد أشرف على طبعها ، وصححها وفسر بعض غريبها كاتب يد الناظم فى سنيه الأخيرة ياقوت المرسى[3] » .

---

(١) صدر الجزء الأول عام ١٩٤٠ والثانى عام ١٩٤٢ .
(٢) أنظر ص ٣١٠ — ٣١٢ من الكتاب .
(٣) كشف الغمة، مطبعة الجريدة سنة ١٣٢٧هـ ص٤٨ .

قيد الأوابد :

وللبارودى كتاب يسمى « قيد الأوابد » وهو كتاب نثرى التزم فيه أسلوب السجع ، وراعى الصناعة البديعة ومحسناتها ، وجمع فيه بعض الخواطر السانحة والرسائل التى كتبها لخاصته أو التى نفث فيها مكنون صدره فخفف عن قلبه ثم استبقاها لنفسه[1] . ومن ثم فهو كتاب يصور لنا جوانب خفية من حياة البارودى ، ويفسر لنا مغاليق شخصيته ومنازع نفسه ، ويكتب عن الأحداث والظروف التى مرت به . وإذا كان ديوانه هو الكتاب الخالد لصورة نفسه العاطفية فكتاب « قيد الأوابد » فى ظنى هو صورة البارودى التاريخية .

ومن الجزء الذى ظهرحتى الآن يمكن الحكم بأنه كتاب يصور جوانب من صورة البارودى النفسية ، ولعله كان يبثه مكنونات صدره وخفايا نفسه وأسراره ، ويحلل فيه الأحداث من زاويته الخاصة فى صراحة . ويبدو أن « قيدالأوابد» كتاب فيه مفاتيح المغلق من جوانب شخصية البارودى ، وأنه لو نشر لألقى أضواء جديدة على حياته الشخصية والسياسية والأدبية .

وأغلب الظن أن البارودى كتب قيد الأوابد فى المنفى ، فقد كان لديه من الوقت والفراغ ما يسمح له بأن يكتب بهذا الأسلوب الأدبى المصنوع المنمق ويعنى به كل هذه العناية ، فيختار الكلمات وكأنه يقيس أطوالها وزواياها ويتأنق فى المحسنات فيحشد أنواعها المختلفة . والذى لاشك فيه أن البارودى وهو يكتب هذا الكتاب لم يرسل نفسه على سجيتها ليعبر فى تدفق وسلاسة ، بل كان يلائم بين الكلمة والكلمة والفقرة ومثيلتها ، ويطلب الكمال فى التناسق

---

(١) معلومات الأسرة

بين صيغ التعبير؛ ومع ذلك فالقارىء وهو يقرأ بعض فقرات الكتاب يشعر بالحس الدقيق والشعور المرهف بكلمات اللغة الجزلة والرقيقة، والعبارات الرصينة والمستحكمة كل فيما وضع له . ولعل خير وصف للأسلوب الفنى فى هذا الكتاب هو ماقيل فيه : « وكأن البارودى فى نثره شاعر فهو يطلب إرضاء الأذن ، ولذلك يلتزم السجع ، ويحكمه إحكاما دقيقا ، وما يزال يطلب الكمال الفنى حتى يروع سامعيه ، ومن ثم كان نثره قريبا من الشعر وكأنه لايستطرد دائماً ولايكتب إلا شعراً يأسر به القلوب ويخلب الألباب »[1].

ويقول من اطلع على هذا الكتاب : « إنه آية من آيات النثر ومعجزة من معجزات البلاغة [2] ».

وكتاب قيد الأوابد لم ينشر حتى الآن ، ولايدرى أحد أين مستقره ، وقد أورد الأستاذان على الجارم ومحمد شفيق معروف فى مطلع نشرتهما لديوان البارودى صورة لفصل مخطوط من هذا الكتاب « نموذجاً من خط المرحوم محمود سامى البارودى باشا وفنه الكتابى[3] » . وقد أمدهما بهذا الجزء — كما يقولان — ابن الشاعر محمد أشرف البارودى [4] .

ويبدأ البارودى هذا الفصل بموقف الوداع، ولحظة مفارقة الأهل والوطن إلى المنفى ، ثم يصف طريق البحر الذى سلكه إلى سرنديب ، وما واجهته السفينة من أنواء وأمواج ورعد وبرق جعل الباخرة بين صعود وهبوط ، والناس

---

(١) د. شوقى ضيف : البارودى ص ٢٢٠.

(٢) محمود الإمام فى مقدمة نشرته للديوان .

(٣) مقدمة الديوان (الجارم) ص ٤٣.

(٤) وعدتنى كريمتا الشاعر فاطمة ومشيرة بالبحث عن هذا الكتاب بين أوراق أبيهما وتقديمه للنشر.

من هول الموقف بين رجاء وقنوط ، وقد شخصت منهم الأبصار ، وشغل كل بنفسه بعيداً عن الأنصار ، وينفث البارودى همومه وأحزانه ولواعج القلب وعذابات الوجدان فى كلمات يسطر بها أحاسيسه ساعة وصوله إلى سرنديب وحيدا حريداً غريب الأهل والدار فيقول :

« إنى لما أفضت بى[1] غوائل الزمن ، إلى مفارقة الأهل والوطن ، وحقت كلمة الوداع ، وأنصت كل مجيب وداع ، سارت بأشباحنا الفلك ، بتقدير من له الملك . فلما توسطنا لجّة اليَمِّ ، وغشيتنا ضبابة الهم ، أخذ البحر يهدر ويموج ، والريح تعصف وتروج[2] ، والدَّجْن يبرق ويُرعد[3] ، والموت يقرب ويبعُد ، والفُلك بين صعود وهبوط ، والناس بين رجاء وقنوط ، فشخصت الأبصار[4] ، وغابت الأنصار ، وأقبل الفزع ، واستولى الجزع ، وشغلت الدموع المحاجر ، وبلغت القلوب الحناجر . هنالك دعا ربهم الغافلون ، وكفت[5] أذيالهم الرافلون ، فلا ترى إلا ناكسَ الطرف ، لاينبس بحرف ، وكأنما أظلتهم الرجفة ، أو غشيتهم الوَجْفة[6] ، فهم لفرط الحيرة خمود ، تحسبهم أيقاظا وهم رقود ، فلم يزل يتخبطنا اليمّ ، ويأخذ بأكظامنا الغمّ ، حتى كادت الأنفس تزهق ، وأظفار المنية ترهق[7] ، ونحن فى وعاء[8] ، ولانملك غير الدعاء ، ولبثنا على ذلك ثلاثا ، لانجد فيها غياثاً[9] ، وكيف لنا بالخلاص ، ولات حين مناص فبعد

---

(١) أفضت بى : خلصت إلى .　　(٢) تروج الريح : تضطرب .

(٣) الدجن : السحاب المطير .　　(٤) شخص البصر : إذا فتحت العين ولم تطرف .

(٥) كفت ذيله : ضمه وشمره وهى هنا كناية عن التضاؤل .

(٦) الرجفة : رجفة الحشر ، والوجفة : الهلع .　　(٧) ترهق : تدرك وتلحق .

(٨) وعاء : يقصد السفينة .　　(٩) هذه الجملة من « لبثنا إلى غياثا » أضيفت بين السطور .

لأى ما سكنت فورة الريح ، وهدأت ثورة ابن بريح[1] ، وتجلت بنورها السماء ، واصطلح الماء والهواء ، فقرت الأنفس فى الصدور ، وتنفّس كل مصدور، ولم يبق إلا الشوق الحديث ، من قديم وحديث ، والفلك يمخر البحر بجُؤْجُؤه ، ونحن من الشهر فى دُؤْدُؤه[2] ، حتى انتهى بنا الدبيب ، ولاحت لأعيننا سرنديب :

منازلُ لم تألف بها النفسُ مألفاً ... على أن فيها كلَّ ماتشتهى النفسُ
ولا عيبَ فيها غيرَ أنْ ليس لى بها ... أنيسٌ ، وَفَقْدُ الخِلِّ فى غُربةٍ حبسُ
وكيف يطيب العيشُ فى ظلِّ بلدةٍ ... خلاء من الآلافِ ليس بها أُنسُ

فدخلتها مشوب الأنين ، على الأهل والبنين ، لا أستطيع لما عرانى دفعاً ، ولا أملك لنفسى ضرًّا ولا نفعاً ، وما ظنك بمن غاب عنه السمير ، وَالْتاعَ بالفُرقة منه الضمير ، فهو بين هموم ناصبة ، وأحزان واصبة[3] ، وأشجان يهلك لها الصبر ، ومرارة يحلو عندها الصبر[4] ، إن نطق فبصوت لا يدركه السمع ، أو نظَر فبعين قد ملأها الدمع :

غريبٌ تخطّاه الأُساةُ فما له ... سوى عبراتِ المقلتين طبيبُ[5]
وما أسفى أنى غريبٌ عن الحمى ... ولكننى بين الأنامِ غريبُ

فالفتُّ يميناً ، فلم أصِبْ مُعيناً ، وانعطفت شِمالاً ، فلم أجد ثِمالاً[6] ، فدارت بجُمانى الأرض ، واشتبه علىّ الطولُ والعرض ، فبتُّ وحيداً ، لا أجد مَحيداً ،

---

(١) ابن بريح : الغراب كناية عن نعاب الريح المزعجة . (٢) الجؤجؤ: الصدر؛ والدؤدؤ: الآخر.
(٣) واصبة : مؤلمة .
(٤) الصبر الثانية : ما يباع عند العطار أو المر .
(٥) الأساة : المواسون والأطباء. (٦) الثمال : من يعول عليه .

وكانت الليلة شاتية ، والريح صرصراً عاتية ، والسماء باسرة كاسفة[1] ، ليس لها من دون الله كاشفة ، قد كَلَحَ وجهُها فاكفهرّ ، ولمح برقُها فازمهر[2] ، واصطك ركامُها فانهال ، وصعق رعدُها فهال[3] ، لو كابدها النابغة لما شعر ، ولو سلكها سُلَيْكٌ لاقشعر[4] ، فلم أزل أمارس هولها حتى ترّ ، وأرقبُ فجرَها حتى افْتَرّ[5] . فلما رقّت أنفاسُ النسيم ، وحسَرَ الصبحُ عن محياه الوسيم ، وتنغّمَ العصفورُ في سماوة عَذَبانه ، وتبغّم اليَعْفُور في مسارح شذباته[6] ، صحت بغلامي كافور ، فأقبل يرف كالصيفور[7] ، يكاد يخرج من جلدته ، ويزفن كأبناء جلدته[8] ، فقلت له : ما هذا الطرب ، وقد أودى الأرب . فقال : أنظر يا مولاى إلى السماء ، والنَّبْتِ والماء ، تجد منظراً وسيماً ، ومسرحاً قسيماً . أزهارٌ تَرِف ، وغُدران تشف ، ومربع يفتن العقول برُوائه ، ونسيم يشفى الأسقام بدوائه ، فقم لعلك تستريح ، فقد سكن القطر والريح ، فلم يضحك لقوله سِنّى ، وعلمت أنه ليس منّى ، وأين يذهب اللهوّ بقلب قد عفّى رسمَه ، ولم يبق في الشَّغَاف إلا وَسْمُه[9] . بل كيف يطرب الغريب ، أو يخف إلى الصَّبْوة الحَرِيب[10] ؟ هيهات ! ما كل شامة خالا ، ولا كل حلقة خلخالاً ، وأين النُّضار من الصفر ، والجنة من التلال العفر[11] . تالله ما بعد الوطن دار ، ولا في

---

(١) باسرة : عابسة ؛ وكاسفة : شديدة العبوس .

(٢) كلح : عبس : واكفهر : اشتد عبوس وجهها وتراكمت السحاب فيها ؛ لمح : لمع ، ازمهر : أضاء وتوقد .

(٣) هال : من الهول .

(٤) النابغة : هو النابغة الذبيانى؛ سليك: هو ابن السلكة أحد صعاليك العرب العدائين فى الجاهلية .

(٥) تر . انقطع ؛ وافتر : ظهر .

(٦) تبغم : صاح ؛ اليعفور : الظبى ؛ الشذبات : الكلأ .

(٧) الصيفور ؛ طائر .

(٨) يزفن : يرقص؛ وجلدته الثانية : جنسه .

(٩) الرسم : الأثر ؛ والوسم : العلامة .

(١٠) الحريب : المسلوب المال والأهل .

(١١) النضار : الذهب الخالص ؛ والصفر : النحاس .

غير الكعبة مدار ، ولكن من لم يجد حراكاً سكن ، ومن أعجزته الحيلة ركن ، وما كانت لتعدم نفسى جلَدا ، ولكن ثُكلٌ أرأمها ولداً[(١)] .

ويمضى البارودى فيسطر أحاسيسه فى المنفى ومحنته فى سرنديب بهذا الأسلوب المصنوع ، وقد بلغ به غاية التأنق ، والتزم فيه السجع المنمق ، يلائم بين الكلمة والكلمة ، ويحكم اختيار كل فقرة كى تطابق قرينتها فى الأسلوب . وفى بقية الفصل يصف البارودى ما عاناه فى كولومبو — أول عهده بالنفى — من لواعج الحنين إلى الوطن والشوق إلى الأهل والعشيرة ، وكيف سقط فريسة العلة وأخطأته التعله ، فيشير عليه الطبيب بالانتقال إلى « كاندى » على جمالها وطيب هوائها يطبان جسمه ، ويخففان ما بقلبه من عذاب ولوعة ، ولكن جمال « كاندى » لا يبرىء العلة بل يزيد الطين بلة ، وينكأ جراح البارودى فيذكره بجمال وطنه ومربع صباه . ولا يجد المعذب العانى منجى له من هذه الأوصاب إلا بالتوجه إلى الله فيرفع طرفه إلى السماء ويجأر إلى الله بهذا الدعاء :

« اللهم ياهادى الضُّلال فى الليل المدلهم ، وناصر الهُلاك فى غمرة اليوم المسلهم[(٢)] ، وياجابر العثرات ، وكاشف الحسرات ، ألهمنى بفضلك صبراً يعصمنى من الجزع ، وألبسنى جلباب أمن يقينى صولة الفزع ، وقنى بعطفك شر نفسى ، واجعل يومى خيراً من أمسى ، وصن بإحسانك ديباجتى ، ولا تجعل إلا إليك حاجتى ، فقد أنخت ببابك مطية الرجاء ، وتمسكت من حمايتك بأطناب الالتجاء[(٣)] فلا تصرفنى من دعائك خائباً ، فقد جئتك من ذنوبى تائباً ، ثم قبعت قَبْعة

---

(١) الثكل : فقد الحبيب أو الولد ؛ أرأمها ولداً : جعلها تحن إلى ولدها وبذلك يشير إلى فقده أولاده وزوجه بمصر .

(٢) المدلهم : الشديد الظلمة ؛ والمسلهم : الأغبر المتغير لونه .

(٣) الأطناب : الأسباب .

المقرور ، ونفثت نفثة المحرور[1] ، وأخذت أقلب الآراء ، وأسأل زندى الإيراء[2] ، حتى فاءت إلىّ نفسى ، وراجعنى بعد لأى حدسى ، وعلمت أن لكل محنة روعة ، ولكل مصيبة لوعة ، وأن الإنسان ، رهن الحدثان[3] ، ورأيت أن الصبر على الضر ، أجدر بشيمة الحر . وأى امرىء عاهده الدهر ولم يغدر ، أو صفاله ثم لم يكدر ؟ وكيف لا ينقلب الحال والزمان قُلّب ، أم كيف تصدق مخيلته وهو خُلّب ؟ . . . والعاقل من تأسى بغيره ، وميز بين نفعه وضره ، فلا تحزن على ما ذهب ، إذا استرد الدهر ما وهب . . . أفحسب الجاهل أن الأمر بيده ، فنسى أن يأخذ من يومه لغده ؟ هيهات لادِرَاكَ بعد الفوت ، ولا حيلة بعد الموت ، فتمسكوا من أعمالكم بالسبب الأقوى ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى » .

مختارات البارودى :

وقد رأى البارودى « أن يتحف الأدباء من أهل عصره بمجموعة مختارة من شعر فحول الشعراء المولدين ، لتكون عوناً للناشئين على طبع ملكة البلاغة »[4] والتكوين الفنى للشعراء وتغذية الموهبة والخيال ، واختار البارودى ثلاثين ديواناً لثلاثين من الشعراء العباسيين يبدءون برائد الشعر العباسى بشار بن برد (ت١٦٧ هـ) ، وينتهون بشرف الدين أبى العباس ابن عنين (ت ٦٣٠هـ) . وانتخب البارودى من هذه الدواوين « مارق لفظه ، ودق معناه ، وخلا من الحشو والتعقيد ، مرتباً ذلك على سبعة أبواب : الأدب ، والمديح ، والرثاء ، والصفات ،

---

(١) المقرور : الذى يحس بشدة البرد ؛ والمحرور : من أصابه القيظ والحر .

(٢) إيراء الزند هنا : إعمال الفكر .

(٣) الحدثان : مصائب الدهر .

(٤) مقدمة مراثى الشعراء ص ٢٢ .

والنسيب ، والهجاء ، والزهد[1] » ، وقد رتب البارودى الشعراء فى مختاراته على حسب أزمنتهم لا على مكانتهم[2] . « ووضع تعليقاً لهذه المجموعة يفسر به الألفاظ الغريبة والمعانى المغلقة ، فجاءت بعون الله مجموعة ما سمح بمثلهــا الزمان ، يستغنى بها صناع القريض عن مطالعة أى ديوان[3] » . وقد بدأ البارودى انتقاء هذه المختارات فى مايو ١٩٠٠ وانتهى منها فى أبريل ١٩٠٣[4] .

ولم يستكمل البارودى كل خطوات مشروعه ، فقد « كان فى عزمه أن يذكر سبب حصره لمنتخباته فى الأبواب السبعة المتقدمة وتقديمه الأدب على المديح والمديح على الرثاء... وهكذا ، وأن يبين ما اصطلح عليه فيه ، ولكن حال بينه وبين عزمه القدر المحتوم[5] » . ومذهب البارودى فيما اختاره — كما عرفه منه كاتب يده الخاص وكانت المختارات للبارودى وقارؤها عليه[6] — « أنه لم ينتخب إلا الجيد لفظاً ومعنى ، وربما يأخذ البيت غير الجيد لتعلق الجيد به ، وأنه لم يراع فى بعض الأبيات ترتيبها الأصلى بل قد يقدم المؤخر ويؤخر المقدم ، وقد يكرر بعض ما اختاره فى بابى الأدب والمديح فى أبواب أخر ، وقد يبدل الفاء بالواو والواو بالفاء أو بلام القسم إذا اقتضى السياق ذلك ، وقد يزيدهما أو يحذفهما إذا وقعا فى أول المنتخب واستقام الوزن[7] » . غير أن هذه الطريقة — مع ما فيها من النفع الأدبى بحصر الشعر الجيد فى مجموعة خاصة يرجع إليها الناشئة — فيها تشويه وبتر لقصائد الشعراء ، خاصة إذا علمنا أن القصيدة تتجلى فيها نفس الشاعر وروحه بما فيها من محاسن ومساوىء ، فحذف بعض أبياتها هو بمثابة بتر قاس لروح صاحبها ، وأشبه

---

(١) مقدمة مراثى الشعراء ص ٢٢ .
(٢) مختارات البارودى ج ١ ص ٣ .
(٣) مراثى الشعراء ص ٢٣ .
(٤) انظر : مختارات البارودى ج ٤ ص ٤٨٤ .
(٥) المصدر السابق .
(٦) ياقوت المرسى ، وقد أشرف على طبع المختارات وصححها وكتب لها المقدمة .
(٧) مختارات البارودى ج ٤ ص ٤٨٠ .

ما يكون بتجريد الشجرة من أوراقها والاكتفاء فيها بالأزهار ، وفى ذلك ضياع لجمالها الطبيعى .

والبارودى مفتون بجمال الصياغة فى شعره سما بها إلى الغاية من الإجادة «وبرّز على المتقدمين فضلا عن المتأخرين ، ولو بحثت عن ديوان تجده كله عقوداً وحلى من أرق ما أملى الطبع وأدق ما طرز اليراع لما وجدته جملة وتفصيلا كديوانه[1]» .
وكان لابد لهذا الفتون بالجمال التركيبى والكلف الشديد بالأسلوب والصياغة من أن تؤثر فى انتقائه المختارات من شعر كبار الشعراء المولدين فيهمل كل مالم يقع لفظه موقعاً حسنا من نفسه وإن جل معناه وسما مراده .

وقد نشرت المنتخبات قبل الديوان[2] فظهرت مابين عامى ١٩٠٩ و ١٩١١ ، وخرجت فى أجزاء أربعة حوت من الشعر العباسى ٣٩٫٥٩٣ بيتاً .

وبعد ، فقد أدى محمود سامى البارودى رسالته الوطنية والأدبية كاملة غير منقوصة .
أعلن الثورة على الطغيان والرجعية وطلائع الاستعمار ، وقاد الأمة مع رفقاء الجهاد إلى الحرب المقدسة ضد الاحتلال ، وقدم على مذبح الوطنية فداء من عمره ، وعذابا فى اغترابه ، وتضحية من ماله وأهله ونور عينيه ؛ ونشر على الشعر العربى نورا من موهبته وشاعريته ، ونفخ فيه من الروح العربية مارد إليه أصالته وبعث فيه الحياة ، وغنى للأمة العربية شعراً اهتزت له أعطافها وملك عليها السمع والوجدان ، ومن أجل ذلك فهو جدير بأن يتسنم غارب المجد الوطنى والأدبى ، وأن يرد له الجيل العربى المعاصر دين الوفاء والتقدير ، وأن يذكر فى تاريخنا السياسى والأدبى مع الخالدين .

تم بحمد الله وعونه فى ١٩٦٩/١٢/٣٠ .

---

(١) خليل مطران : مراثى الشعراء ص ٢٥ .

(٢) عهدت زوجة البارودى إلى ياقوت المرسى بالإشراف على تصحيحها .

مصادر البحث ومراجعه

المصادر والمراجع الأدبية :

محمود سامى البارودى	مخطوطة (ج) كاملة وبها بعض الشطب
» » »	مخطوطة (س) بها بعض النقص .
» » »	ديوان البارودى ج١، ٢ شرح محمود الإمام (١٩١٤ـ١٩١٥).
» » »	» » ج١ ، ٢ شرح على الجارم ومعروف (١٩٤٠ـ١٩٤٢).
» » »	كشف الغمة فى مدح سيد الأمة (١٩٠٩) .
» » »	مختارات البارودى ج ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ (١٩٠٩ — ١٩١١) .
أسرة محمود سامى البارودى (وبنتاه فاطمة ومشيرة)	مذكرات الأسرة (أوراق متناثرة) وشجرة النسب ، ومعلومات الأسرة .
أحمد شوقى	الشوقيات : أربعة أجزاء (١٩١١ — ١٩٤٦) .
حافظ ابراهيم	ديوان حافظ إبراهيم (١٩٣٧ — ١٩٤٨) .
خليل مطران	ديوان الخليل (١٩٠٨).
» »	مراثى الشعراء (١٩٠٥) .
إسماعيل صبرى	ديوان إسماعيل صبرى (١٩٣٨) .
محمود صفوت الساعاتى	ديوان الساعاتى (١٩١٢) .
على أبو النصر	ديوان على أبو النصر (١٣٠٠ ﻫ).
على الدرويش	ديوانه : الإشعار بحميد الأشعار (١٢٨٤ ﻫ) .
أبو تمام	ديوان الحماسة شرح المرزوقى (١٩٠١) .

حسين المرصفى	الوسيلة الأدبية للعلوم العربية ج ٢	(١٢٩٢ — ١٢٩٦ هـ).
محمد صبرى	محمود سامى البارودى	(١٩٢٣).
» »	الشوقيات المجهولة ج ١ ، ٢	(١٩٦١ — ١٩٦٢).
محمد خلف الله أحمد	معالم التطور الحديث فى اللغة العربية وآدابها	(١٩٦١).
شوقى ضيف	البارودى رائد الشعر الحديث	(١٩٦٤).
» »	فى النقد الأدبى	(١٩٦٢).
» »	الأدب العربى المعاصر فى مصر	(١٩٦١).
» »	شوقى شاعر العصر الحديث	(١٩٦٣).
» »	الفن ومذاهبه فى الشعر العربى	(١٩٦٥).
طه حسين	حافظ وشوقى	(١٩٦٥).
» »	من حديث الشعر والنثر	(١٩٣٦).
» »	حديث الأربعاء ج ٢ ، ٣	(١٩٢٦ — ١٩٤٥).
عمر الدسوقى	فى الأدب الحديث ج ١ ، ٢	(١٩٤٨ — ١٩٥٠).
» »	محمود سامى البارودى (سلسلة نوابغ العرب).	(١٩٥٨).
عبد الرحمن الرافعى	شعراء الوطنية	(١٩٥٤).
جورجى زيدان	تاريخ آداب اللغة العربية ج ٤	(١٩٥٧).
محمد حسين هيكل	ثورة الأدب	(؟)

محمد حسين هيكل مقدمة ديوان البارودى « الجارم » (١٩٤٠).

» » » تراجم مصرية وغربية. (؟)

أنيس المقدسى الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث (بيروت ١٩٦٣).

» » العوامل الفعالة فى الأدب العربى الحديث (بيروت ١٩٦١).

عبد الله النديم سلافة النديم ج ١ ، ٢ (١٩١١ — ١٩١٤).

سليم عنجورى الآداب العربيـة فى القرن التاسع عشر ج ١ ، ٢ (١٩٠٨ — ١٩١٠).

عبد القاهر الجرجانى أسرار البلاغة (١٩٤٧).

خير الدين الزركلى الأعلام ج ١ — ١٠ (١٩٥٤).

عباس محمود العقاد شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى (١٩٦٥).

» » » محمد عبده (أعلام العرب). (١٩٦٢).

» » » والمازنى الديوان (١٩٢١).

عبد الحميد الجندى حافظ إبراهيم شاعر النيل (١٩٥٩).

ماهر حسن فهمى تطور الشعر العربى المعاصر (١٩٥٨).

» » » حركة البعث فى الشعر العربى الحديث (١٩٦١).

على الحديدى عبد الله النديم خطيب الوطنية (١٩٦٢).

محمد مندور الشعر المصرى بعد شوقى ج ١ (١٩٥٥).

» » إسماعيل صبرى (١٩٥٦).

» » خليل مطران (١٩٥٤).

» » الأدب ومذاهبه (١٩٥٥).

أحمد الشرباصى — أمير البيان شكيب أرسلان ج ١ – ٢ (١٩٦٣)

نفوسة زكريا سعيد — البارودى حياته وشعره (مخطوطة) (١٩٥٣)

محمد عبد الفتاح إبراهيم — شعراؤنا الضباط (؟) .

طاهر أحمد الطناحى — حياة مطران (؟) .

أحمد أمين — زعماء الإصلاح فى العصر الحديث (١٩٦٥) .

أحمد أمين — فيض الخاطر (١٩٤٠) .

محمد محمد حسين — الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر (١٩٥٤) .

زكى مبارك — الموازنة بين الشعراء (١٩٣٦)

عبد الرحمن بن خلدون — مقدمة ابن خلدون (١٣٢٢ هـ)

مصطفى عبد اللطيف السحرتى — الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث (١٩٤٨) .

أحمد الإسكندرى — الوسيط فى الأدب العربى (١٩٢٧) .

بطرس البستانى — أدباء العرب ج ٣ (١٩٤٤) .

ابن رشيق الأزدى — العمدة فى صناعة الشعر (١٩٠٧) .

شكيب أرسلان — شوقى أو صداقة أربعين عاما (١٩٣٦) .

« « — ديوان الأمير شكيب أرسلان (١٩٤٧)

إبراهيم العريض — الشعر والفنون الجميلة (١٩٥٢) .

محمد محمد عبد الفتاح — أشهر مشاهير أدباء الشرق ج ١ ، ٢ (؟) .

إحسان عباس — فن الشعر (١٩٥٩)

أبو هلال العسكرى — كتاب الصناعتين (١٩٥٢)

تشارلتون — فنون الأدب « مترجم » (١٩٥٤) .

روى كاون — الأديب وصناعته « مترجم » (بيروت ١٩٦٢) .

اليزابيث درو — الشعر كيف نفهمه « مترجم » (بيروت ١٩٦١) .

هربرت جريرسون — الكلاسيكية والرومانسية « بالانجليزية » (١٩٢٣) .

لوجان سميث — أربع كلمات « بالانجليزية » (١٩٢٤) .

نيكلسون — تاريخ أدب العرب « بالانجليزية » (١٩٥٣) .

كليمنت هورت — تاريخ الأدب العربى « بالانجليزية » (١٩٠٣) .

جيب — مقدمة لتاريخ الأدب العربى « بالانجليزية » (١٩٢٦) .

» — دراسات فى الأدب العربى المعاصر (مجلة مدرسة الدراسات الشرقية بلندن) بالانجليزية مجلد ٤ ، ٥

المصادر والمراجع التاريخية :

سليم خليل النقاش — مصر للمصريين جـ ٤ — ٩ (١٨٨٤) .

محمد رشيد رضا — تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ، ٢ (١٩٣١) .

محمد أحمد خلف الله — عبد الله النديم ومذكراته السياسية (١٩٥٦) .

أحمد عرابى — كشف الستار عن سر الأسرار جـ ١ (؟) .

مجموعة القوانين والقرارات — دار المحفوظات .

مجموعة الأوامر والقيودات — دار المحفوظات .

مجموعة الوثائق التاريخية — المتحف التاريخى .

أحمد عرابى — مذكرات عرابى « كتاب الهلال جـ ١ ، ٢ » (١٩٥٣) .

عبد الرحمن الرافعى — تاريخ الحركة القومية جـ ١ ، ٢ (١٩٥٥ ـ ١٩٥٨) .

» » — عصر محمد على (١٩٥١) .

» » — عصر إسماعيل جـ ١ ، ٢ (١٩٤٨) .

» » — الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى (١٩٤٩) .

محمود الخفيف — أحمد عرابى الزعيم المفترى عليه (١٩٤٧) .
أحمد شفيق — مذكراتى فى نصف قرن ج ١ (١٩٣٤) .
محمد مختار — كتاب التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنكية والقبطية . (١٣١١ هـ) .
أمين سامى — تقويم النيل ج ٢ ، ٣ (١٩٢٨) .
على مبارك — الخطط التوفيقية ج ١ ــ ١٨ (١٣٠٥/١٣٠٦ هـ)
محمود فهمى — البحر الزاخر فى تاريخ الأوائل والأواخر ج ١ (١٨٩٤) .
عبد الرحمن الجبرتى — عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ج ١ ــ ٥ تحقيق حسن محمد جوهر (١٩٥٨/١٩٦٥) .
محمد المخزومى — خاطرات جمال الدين الأفغانى (بيروت ١٩٣١) .
محمد رفعت — تاريخ مصر السياسى (١٩٤٧) .
أحمد عزت عبد الكريم — تاريخ التعليم فى عصر محمد على (١٩٣٨) .
» » » — تاريخ التعليم فى مصر ج ١ (١٩٤٥) .
جورجى زيدان — تاريخ مصر الحديث ج ٢ (١٩٢٥) .
» » — تاريخ مشاهير الشرق فى القرن ١٩ ج ٢ (١٩٢٢) .
أحمد تيمور — تراجم أعيان القرن ١٣ وأوائل القرن ١٤ هـ (١٩٤٠) .
محمد جمال الشيال — تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على (١٩٥١) .
جاك تاجر — حركة الترجمة بمصر خلال القرن ١٩ (١٩٤٥) .

محمد فريد وجدى — دائرة معارف القرن العشرين (١٩٢٤) .

محمد شفيق غربال وآخرون — الموسوعة العربية الميسرة (١٩٦٥) .

حسين فوزى النجار — رفاعة الطهطاوى « أعلام العرب » (١٩٦٦).

حسين مؤنس — الشرق الإسلامى فى العصر الحديث (١٩٣٨) .

إسماعيل سرهنك — حقائق الأخبار عن دول البحار ج ٢ (١٣١٢هـ) .

إبراهيم على طرخان — مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة (١٩٦٠) .

تشارلز ادمز — الإسلام والتجديد « مترجم » (١٩٤٥) .

لوثروب ستودارت — حاضر العالم الإسلامى « مترجم » ج ١ — ٤ (١٩٣٣) .

ماك كون — مصر تحت إسماعيل « بالانجليزية » (١٨٨٩) .

تيودور روتشتين — المسألة المصرية « مترجم » (١٩٣٦) .

ألفريد سكاون بلنت — التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر « مترجم » (١٩٢٨) .

دافيدس لاندز — بنوك وباشوات « مترجم » (١٩٦٦) .

جون نينه — عرابى باشا « مترجم » (١٨٣٤) .

إدوارد ديسى — انجلترا فى مصر « بالانجليزية » (١٨٨١) .

ماكنزى والاس — مصر والمسألة المصرية « بالانجليزية » (١٨٨٣) .

لورد كرومر — مصر الحديثة « بالانجليزية » (١٩٠٨) .

برودلى — كيف دافعنا عن عرابى وصحبه « بالانجليزية » (١٨٨٤) .

أحمد عبد الرحيم مصطفى — أحداث مصر الداخلية والخارجية (١٩٥٥) .
من عام ١٨٦٧ — ١٨٨٢ رسالة

دكتوراه « مخطوطة بالانجليزية » . (١٩٥٥) .

وزارة الخارجية البريطانية الكتب الزرقاء « بالانجليزية » (١٨٧٩-١٨٨٢) .

جورج يانج تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل « مترجم » (١٩٢٥).

شارلوت ينج مذكرات سائح فى مصر « بالانجليزية » (١٨٨٤).

كوشرى المركز الدولى لمصر والسودان « بالفرنسية» (١٩٠٣).

الدوريات

المنار ـ الهلال ـ المقتطف ـ التنكيت والتبكيت ـ الطائف ـ مصر ـ التجارة ـ المحروسة ـ العصر الجديد ـ الوقائع المصرية ـ المفيد ـ الأهرام ـ المقطم ـ الجوائب المصرية ـ المجلة المصرية ـ مجلة المجلات العالمية ـ الزهور ـ مجلة سركيس ـ المؤيد ـ اللواء ـ الرسالة ـ السياسة الأسبوعية ـ البلاغ الأسبوعى ـ التيمس البريطانية ـ الاستاندارد ـ البال مال جازيت ـ مجلة القرن التاسع عشر البريطانية .

محتويات الكتاب

الفصل الثالث

البارودى على طريق الثورة

الفصـــــل الرابع

دور البارودى فى الثورة

الفصـــــل الخامس

البارودى فى المنفى

الفصـــــل السادس

بعد العـودة من المنفى

الفصـــــل السابع

إمام التطور فى الشعر العربى الحديث

مصادر البحث ومراجعه

رقم الإيداع بدار الكتب ٥٣٥١ لسنة ١٩٦٩

مطابع سجل العرب

شارع بستان الدكة - ٩ عماد الدين : القاهرة

تليفون ٩٣٢٧٠٦